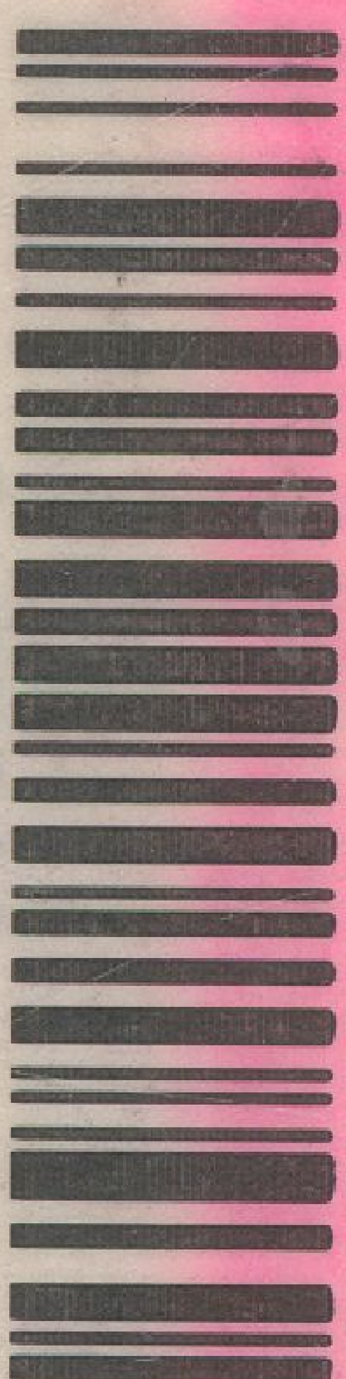


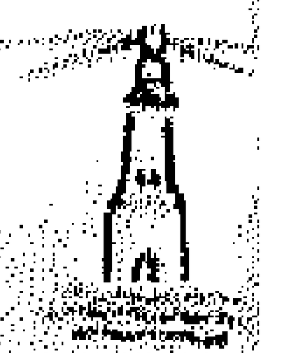


اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

عفاف عزيز أباظة

أبي عزيز أباظة



المعارف

اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

| ٦٣١ |

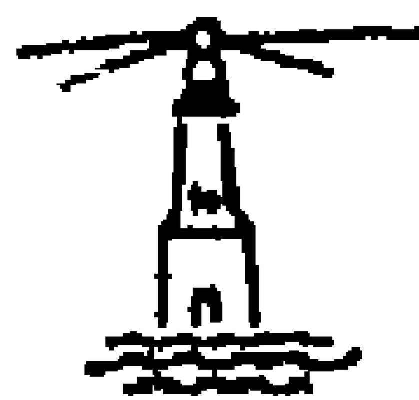
رئيس التحرير: رجب البنا

تصميم الغلاف : منى جامع

عفاف عزيز أباظة

أبي عزيز أباظة

فاضل



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا في شيء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هي ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التي نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

أبى عزيز أباظة

تفتحت عيناى، ورأيتنى أعيش فى بيت أبى مع عمى أحمد وعثمان، وشبت قلوبنا على حبهما، فقد كان أبى لهما أخا وأبا، وكانت أمى ابنة عم وأختا وكان البيت سعيدا هادئا. نشأنا فى هذا البيت، وسمعنا فيه أول ما سمعنا الشعر حتى قبل أن نسمع الكلام، كنت أرى أبى جالسا بين أخويه وأعمامه جمال الدين أباظة ومحمد أباظة، يقرأ عليهم بصوته الحنون.. مختاراته من الشعر القديم.. وكنا نهتز للشعر رغم أننا لم نكن نفهم منه ونحن فى هذه السن حرفا، وقد ألفت آذاننا الشعر الجاهلى، والشعر الإسلامى فلم نهبه عندما أوصلتنا إليه الأيام فى المدارس الثانوية .

ومازلت أراه وأسمعه يردد الأبيات الأثيرة عنده ومنها :

وإنى لتعرونى لذكراك روعة　　　لها بين جلدى والعظام دبيب
وما هو إلا أن أراك فجاءة　　　فأبهت حتى ما أكاد أجيب
وأعرض عن رأيى الذى كنت أرتاى
وأنسى الذى أعددت حين تغيب
ويظهر قلبى عذرها ويعينها
على، فما لى فى الفؤاد نصيب

أو يروى :

أســـتغفر الله إلا مـــــن محبتكم

فإنـــها حســـناتى حـــين ألقـــاه

فــإن زعمـــت بـــأن الحـــب معصيـــة

فــالحب أجمــل مـــا يعصـــى بـــه الله

وللعم ابن عبد الله :

قفا ودعا نجـدا ومـن حـل بـالحمى

وقـــل لنجـــد عندنـــا أن يودعـــا

بنفسى تلـك الأرض مـا أطيـب الربـا

ومـــا أحســـن المصطـــاف والمتربعـــا

بكت عينى اليسرى فلمـا زجرتـها

عـن الجـهل بعـد الحلـم أسـبلتا معـا

واذكـــر أيـــام الحمـــى ثـــم انثنى

علـى كبـــدى مـــن خشـــية أن تصدعـــا

وليســت عشيات الحمـــى برواجع

إليـك ولكـــن .. خـــل عينيـــك تدمعـــا

ولعمر بن ربيعة:

ومظهـــــــرة لخلـــــــق اللـــــــه ودا

وتلقـــــى بالتحيـــة والســـــــلام

أتيت فؤادهـــــا أشـــــكو إليـــــه

فلم أخلـــص إليـــه من الزحـــام

فيـــا مـــن ليــــس يكفيــــه محب

ولا ألفـــا محـــــب كــــل عــــام

ولعروة بن أذينة:

إن التــى زعمــت فــؤادك ملـــها

خلقت هــواك كما خلقت هـوى لهـــا

بيضــاء باكرهــا النعيــم فصاغـــها

بلباقـــــة فأدقــــها وأحلـــــها

فإذا وجــدت لهــا وسـاوس ســلوة

شـفع الضمـير إلى الفـؤاد فســلها

منعــت تحيتـــها فقلــت لصــاحبي

مـــا كـــان أكثرهـــا لنـــا وأقلـــها

فدنـــا وقـــال لعلـــها معـــذورة

مـن بعـض رقبتـــها. فقلــت لعلــها

وللشاعر الأحوص:

أزور بيوتـــا لاصـــــقات ببيتهـــا

ونفـــسى في الـدار التي لا أزورهـــا

ولـــه :

أدور ولــــولا أن أرى أم جعفـــــر

بأبياتـــكم مـــــا درت حـــيث أدور

وللبحترى :

الله جـــارك فـــى انطلاقــك
تلقـــاء شـــامك أو عراقـــك
لا تعذلنـــى فـــى مســـيرك
يـــوم ســـرت ولم ألاقـــك
إنـــى خشـــيت مواقفـــا
للبـــين تســـفح غـــرب مـــآقك
وحـــذرت مـــا يجـــد المـــودع
عنـــد ضمـــك واعتنـــاقك
فتركـــت ذلـــك عامـــدا
وخـــرجت أهـــرب من فراقـــك

كـان أبـى يـردد شـعر شـوقى ويطلـب منـا أن نـردده وراءه، وأن نحفظه.. فقد كان شديد الإعجاب بشوقى شديد التعصب لـه. وكـان أخى فى سن السادسة يحفظ الكثير من مجنون ليلـى، ويمثـل دور المجنون أمام زينب صدقى التى اشتهرت بدور ليلى فى ذلك الحـين وكانت تجاربه ضاحكة.

كان يجمعه بوهيب دوس المحامى الذائـع الصيـت حينئـذ حـب وصداقة وقوى أواصرها إعجابـهما العميـق بشـوقى. فلقـد تمـرن أبـى بعـد أن حصـل علـى ليسـانس الحقـوق فـى مكتـب وهيـب دوس..

ولم يشتغل أبى بالمحاماة وإنما نمت صداقة قوية بينه وبين أستاذه. وأذكر أن أبى كان يكلمه بلهجة كلها إجلال وتوقير حتى بعد أن علت سنه ولم يعد ذلك الشاب اليافع.

كانت تجمعنا «الربعماية» فى الصيف بأعمامى وأقاربى محمد وهيام ورأفت وماهر وهو أصغر أعمامى ومنى سناً. وهو دمث الخلق عفيف النفس وكان هو المتفوق الوحيد بيننا، وهو الآن وكيل لوزارة الكهرباء. وكنا نقضى يومنا فى الاستماع إلى الفنوغراف وفى تأليف المسرحيات. أما الحوار فكنا نؤلفه أثناء التمثيل، وكانت والدتى تأتى بمقرئ يشبه صوته إلى حد كبير صوت الشيخ محمد رفعت يسمى الشيخ السيد الجمل، وكان يقرأ السور الصغيرة بصوت دافئ ومازلت إلى الآن أشعر بحنين لطفولتى كلما سمعت هذه السور، وفى المساء يغنى الحاج عبده، وهو مغن يأتى به أبى ليقضى معنا أجازة الصيف.. كنا نجتمع بعد العشاء كبارا وصغارا لنستمع إلى الأدوار القديمة والقصائد التى كان يطلبها أبى وأذكر منها «وحقك أنت المنى والطلب» و «آنست يا نور العيون» وكنا نقاوم النوم حتى لا يرسلنا أهلنا إلى حجراتنا، وكان أبى يشجعه ويستعيده.. فكان الحاج عبده يترك الغناء وينتفض واقفا ويحيى بيديه حينا وبعوده أحيانا ثم يستأنف الغناء وكأنه لم ينقطع عنه قط، ويعود أبى إلى مداعبته.. ويعود هو إلى الحركات المتتابعة التلقائية.

كنا فى الصيف نستأجر بالإسكندرية بيتاً جميلا فى جليم، وكانت تزورنا فيه مغنية تعدت سن الشباب تسمى فاطمة العراقية وأذكر أننا كنا نخرج من البيت مساء ونمشي على الكورنيش والبحر يضرب الرصيف بأمواجه، وتغني فاطمة العراقية، بصوت ظل جميلا - الأغاني القديمة إلى أن نصل إلى ستانلي لنزور عمي عبد الله فكرى أباظة بهذا الموكب.. والغريب أنني أذكر أن المارة كانوا قلة، وأذكر أن أحداً لم يتعجب من هذا المنظر.

ونعود بعد السهرة سيرا على الأقدام، ولكن أبي كان يحمل المتعب منا إذا غلبنا النوم أو أتعبنا المشي.

وكثيرا ما كنت أسمع أبي يلحن الابيات التى تعجبه على جميع النغمات يرددها لنفسه وخصوصاً هذا البيت الذى لا يفارق ذهني:

أما والذى أبكى وأضحك، والذى

أمات وأحيا، والذى أمره الأمر

وكبرنا وهذه الكلمات الجميلة ترن فى آذاننا والموسيقى والغناء تملأ حياتنا، وعرفنا أم كلثوم وكان لها مكانة خاصة فى بيتنا «فقد جمعت بينها وبين أبوى صداقة وحب.. ودعاها أبي فى كل مديرية عمل بها.. واستقبلها في كل مرة استقبالاً حافلاً.. وكانت تعود من حفلها إلى بيتنا.. وتسهر معهم ولا أقول معنا حتى الصباح تغنى آخر أغنياتها الجديدة.. وقبل نزولنا إلى المدارس فى الصباح كنا نسمع من أهل المنزل أخبار السهرة ونلعن النوم الذى حرمنا من غناء أم كلثوم.

وكلما نظرت الآن ورائى إلى البيت الذى كانت فيه أمى.. أراه كالحلم الجميل كله شعر وحب ووفاق.

فقد كانت أمى حب وطفولة أبى وأمل شبابه، وتمكن هذا الحب منهما حتي أحسسناه نحن، وكنا أطفالا لم نزل، وشعرنا به يملأ بيتنا وحياتنا.

سافر أبى سنة ١٩٣٧ إلى أوربا واصطحب معه أمى وبقينا نحن في الربعماية، سافرا للعلاج ولحضور المعرض فى باريس، ونشرت إحدى المجلات صورتهما مع إسماعيل باشا صدقى وهما عائدان على المركب «اوزونيا» وكان أبى يحبه ويقدره.. وأذكر أن القيامة قامت وقتذاك فى أسرتنا، فقد ثار جدى لأمي وهو عم والدى لنشر صورة ابنته فى المجلات وقاطعهما. وأذكر أن أعمامهما بذلوا جهداً كبيراً حتى صفح جدى عن هذا الإثم العظيم، وذهبت أمى إلى أبيها تقبل يده ومعها أبى معتذراً خاشعاً.

وحين عين أبى مديرا للمنيا ذهبنا معه وانتظمنا فى المدارس هناك وأذكر أن أختى أشارت علىّ مرة أن نقول لمدرسة الحساب التى تأتى إلى البيت إن أبى يطلب منها أن تعفينا من الدرس فى ذلك اليوم وأن نقول لأبينا إن المدرسة قد أصابتها وعكة ولن تحضر، ونغتنم الفرصة ونستأذن فى الذهاب إلى السينما، وقد كان. وبعد أيام ظهرت الكذبة، ولست أدرى كيف؟ فهى كذبة صغيرة كان يمكن أن

تمر ولكنها لم تمر.. وغضب أبى وثار ومنعنا من الظهور أمامه أسبوعا كاملاً، ولم يكتف بذلك وإنما طلب من ناظرة المدرسة أن تخبر زميلاتنا بما حدث فنفذت الناظرة الطلب بدقة.

وفى طابور الصباح وأمام الجميع روت قصة التلميذتين الكاذبتين كما أسمتنا، ولن أنسى ما شعرت به من خجل وهوان ولست أدرى علام كان كل هذا الغضب، فأولادنا اليوم يتعجبون إذا نحن احتججنا على هروبهم من الدرس أو من المدرسة نفسها، وهم والحق يقال لا يكذبون ولكن ليس تمسكا بالفضيلة وإنما لأنهم لا يحتاجون للكذب فهم لا يخافون شيئا ولا يهابون أحدا. وإنى أفضل الكذب مع الاحترام على الصراحة مع الاستخفاف.: واللامبالاة.

كنا نقطع المسافة بين المنيا والقاهرة فى حوالى سبع ساعات فى السيارة، فكنا نتغلب على الملل بالمطارحة الشعرية، وكنا نتبارى فى حفظ الشعر حتى يمكننا أن نضيق الخناق على منافسنا. وأذكر أنه بعد سنوات من ذلك تقدمَ لأختى خطيب ووافقت عليه فقبله أبى ووعد وأعطى كلمته، ثم عادت أختى ورفضت الخطبة فأحرجت والدى، فتردد وانتابته الحيرة وبدأنا أمامه مطارحة.. وتعمدنا أن نقول من شعره فى قيس ولبنى.

مرنى أطعك فما عصيتك مرة

أبتاه لكن ما طلبت عظيم

والواقع أنه لم يطلب شيئا وإنما نحن الذين طالبناه أن يرجع عن كلمته وأن يتراجع عن وعده.. ولا نكتفى بذلك بل نلومه أيضا.

وكان يحلو لأبى فى المناسبات العائلية أن يطلب منى أن أقف فوق المائدة وأن أخطب باللغة العربية، والآن يقول لى إخوتى إننى كنت فى غاية ثقل الظل.. غير أن أبوى كانا سعيدين بى، وإن كنت أشك فى ذلك، فلابد أنهما كانا يريان أيضاً رأى إخوتى، ولكن لا يظهران، فالأطفال فى سن الثامنة يكونون فى قمة السخافة وثقل الظل.

وكنا نحتفل بعيد زواج أبوى احتفالاً عائليا، فإذا كنا فى الربعماية دعونا الأقارب وقضينا اليوم فى الدهبية فى بحر مويس كما يسمونه هناك، ويجامل أبى المدعوين جميعا ويشعر كل واحد منهم بأنه الضيف الوحيد، ويوزع عليهم الهدايا البسيطة ليشركهم معنا فى أعيادنا وإذا كنا فى المنيا وزع علينا نحن الهدايا وقضيناه معا سعداء فرحين.

ومن العجيب أن يكون أهل بيته جميعاً من غواة الشعر والأدب حتى جمال المشرف على شئون المنزل.. فقد اصطحبه أبى إلى المنيا وهو ابن عامل التليفون فى الربعماية وكانت إدارة البيت وظيفة ثانوية بالنسبة له، أما الوظيفة الأساسية فكانت حفظ الشعر وكان

يتكلم بالشعر ويعاتب بالشعر، ويعاكس بالشعر. أذكر أن ابنة خالتى كانت مخطوبة ويبدو أنها ضايقته فى شىء يختص بعمله، فكان كلما رآها تصلى قال لها مداعبا:

صلّى وصام لأمر كان يطلبه
فلما انقضى الأمر لا صلّى ولا صاما

وكان من المناظر الغريبة أن نرى جمالاً. المسئول عن نظافة المنزل. يزاول عمله وفى يده الشوقيات ولا أنس ذلك اليوم، كنا لانزال فى المنيا، وكنا نجلس مع أبى قبيل الغروب وإذا بصديق له يطلبه تليفونيا، ويرجوه فى اضطراب بأن يذهب إليه فورا، فيذهب أبى مسرعا ثم يتكلم بعد ساعات قائلاً: إنه سيقضى الليلة مع صديقه هذا، وكان هذا الصديق قد طعن فى كرامته من أهل بيته، وفوجئ بحياته تتصدع ووجد نفسه وحيداً مع أولاده، لا يعرف ماذا يصنع بهم؟، ولا ماذا يصنع بكبريائة؟، فكبر عليه الأمر، واضطربت نفسه. وانهار الرجل، ولم يبق أبى معه ليلة واحدة كما كان مقدرا، وإنما ظل ساهراً إلى جانبه عدة ليال، يحاول أن يشد من أزره، وأن يعيد إليه زمام أمره.

وفى المنيا أيضاً بدأ أبى رواية «قيس ولبنى» ولكنه بدأها تحت إلحاح ابن خالتى وكان تلميذا فى المدرسة السعيدية، وهو الآن

رئيس سلاح الإشارة بالإسكندرية العميد شريف أباظة، يحب الشعر وكله رقة، وكانت تسانده فى الإلحاح أخته تغريد وهى قارئة ممتازة وملمة بكل دقائق شئون المنزل وكان أبى يقول عنها «وما الذى لا تعرفه تغريد» وكما كان لها شأن فى تأليف «قيس ولبنى» كان لها الشأن فى ظهور هذا الكتاب.

وكانت أمى قد احتضنتهم بعد وفاة شقيقتها، ووجدوا فى أبى أبا وصديقا، وكنا كلما اجتمعنا بعد الغذاء زاد الإلحاح من أبناء خالتى وكان جوابه دائما: «لنبدأ غداً» وتوالت الأيام ولا يأس من هنا ولا شعر من هناك حتى قالا له فى آخر محاولة لهما: إن شوقى قد كلفك بكتابة «قيس ولبنى» فابدأ وإن أردت بعد ذلك ألا تكملها فلك ما تشاء، فقال ضاحكا: هات قلما وورقة واكتب يا شريف.. وكانت بداية «قيس ولبنى».

أديرى علينا شهىّ السير
وقولى فقولك راح السمر
فديتك لبنى فهل عن هوى
حديث وهل عن محب خبر
لبنى: وماشأنكم بهوى العاشقين
كفاهم عذابهمو المستعر

دعوهـــم لنـــار تقـــد الحــديد

ولا عـــج شـــوق يذيب الحجـــر

يقومـــون يومـــهمو نزعـــا

ويجمعـــهم ليلـــهم بالســـهر

رثيت لهــــــم فى شـــقاواتهـم

كأن حملـــوا سـيئات البشـــر

ثم لا يمضى شهر إلا وقد تم جزء كبير من قيس ولبنى وهكذا بدأها مجاملا ثم لم يجد نفسه إلا وقد أتى بالحسين خاطبا وشفيعا لقيس لدى الحباب والد لبنى فيقبل الزواج ثم تجرى الأحداث إلى أن يدب الخلاف بينها وبين أهل زوجها ويتهمونها بالعقم ولا يحتمل قيس الصراع القائم فى بيته فيمرض، ثم يخضع لرأى أبيه وأمه ويطلق لبنى، ويضرب قيس فى الصحراء هائما على وجهه، فيقابل مجنون ليلى ويشكو له همومه وآلامه.. ويهيب به أن يعيد إليه لبنى وكانت قد تزوجت.. فيحاول.. وينجح.. وكانت مسرحية قيس ولبنى هى أول مسرحية لأبى وهى عبارة عن مشاعر حلوة، وحب حان، ومشاكل تنساب برشاقة إلى حلولها، وكذلك كانت حياته فى ذلك الوقت، وجمل الشعر حياتنا منذ طفولتنا الأولى وأضفى عليها نوعاً من الرومانسية الحالمة.

ومن المنيا نقل أبى محافظا لبورسعيد سنة ١٩٤٢ أثناء الحرب العالمية الثانية.. وكانت بورسعيد تضرب يوميا بالقنابل.. وتعرض

مبنى المحافظة حيث كنا نقيم – لقنبلة غير أنها لم تنفجر، ولم يشأ أبى أن تهاجر أسرته إلى الربعماية.. وإنما سمعته يقول: كيف أبعد أسرتى والزوجات والأطفال أمام عينى يملئون مدينة بورسعيد.. إن ما يجرى على أهل المدينة سوف يجرى علينا، وبقينا معه، واكتفينا بأن نقضى الليل فى المخبأ.. وكنت أذهب إلى المدرسة الابتدائية وكانت لاتبعد عن بيتنا إلا بمسافة كيلومتر واحد كنت أقطعه عند الضرورة سيراً على الأقدام فى ساعة أو أكثر، فقد كنت مع زميلاتى نتكلم ونضحك طوال الطريق ويمر الوقت دون أن نشعر، وكأنما لم نكن معا منذ الساعة السابعة صباحاً وعندما أصل إلى باب البيت يكون قد فات على ميعاد رجوعى أكثر من ساعتين فكانت أمى تغلق على. ولما تكرر الأمر وضاقت بى طلبت من أبى أن يرسل إلى ساعيا ليعود بى إلى البيت مباشرة، وكنت فى الثانية عشرة من عمرى وجاء الساعى إلى المدرسة فى الساعة الثانية ظهرا وكان رجلاً مسنا سمينا وقورا.. وكان طربوشه يخفى الشعر الأبيض الذى يحدد رأسه وأصر الرجل أن يحمل عنى الحقيبة، وكانت كبيرة جدا لا أدرى لماذا وحاولت بكل قواى أن أثنيه فلم أفلح، لم أشأ أن يحملها عنى وهو فى سن جدى ولكنه تمسك باستماتة، وقبل أن أغادر المدرسة علمت من زميلاتى أنه جد واحدة من صديقاتى.. وسقط قلبى ولم أدر ماذا أفعل؟.. وفى اليوم التالى فكرت وقلت بنفسى «إننى سأنتظر حتى تنصرف جميع التلميذات من المدرسة حتى لاتراه حفيدته وهو يحمل

لى الحقيبه.. وفعلا هذا ما حدث ولكن قبل أن أغادر المدرسة جاء من يخبرنى بأن حفيدته تبكى لأننى تركته ينتظرنى كثيراً أمام الباب. فحرت في أمرى ووجدت أن هذه المشكلة تفوق احتمالى وعجزت تماماً عن إيجاد الحل الملائم.. ذهبت إلى أبى بخوف وتردد وخجل وقصصت عليه القصة ورجوته أن يقنع الساعي ألا يحمل الحقيبة.. فأجاب أبى بحده بل لا يذهب على الإطلاق «لماذا لم تقولى لى من أول يوم؟ لماذا تركته يحمل الحقيبة؟ لماذا تركته ينتظرك؟ لقد آلمت صديقتك وسببت له الحرج» فأجبته إننى خفت أن أشكو من أول عليك أن تعودى فى مواعيدك حتى لا تقلقى أمك ولا تتسببى يوم فى إيلام الناس، رحم أبى صديقتى ورحم مشاعرها ورحم الجد الذى أصر على أداء ما تصور أنه واجبه، وحلت المشكلة برفق وبإنسانية.

وفى بورسعيد امتحنت أمى بموت شقيقها المهندس عبدالعزيز أباظة وهو فى شرخ الشباب وكانت قد فقدت قبله شقيقين وشقيقة، فلم تحتمل هذه النكبات المتتابعة، وزحف إليها المرض، وثقل على قلبها السقم، وبدأنا منذ ذلك اليوم نعيش مع الخوف، ونحيا مع القلق، وظلت شهوراً أربعة هى التى عاشتها بعد أخيها.. تقاوم المرض والمرض يقاومها وتدافع الهموم والهموم تدافعها، يخرج طبيب ليأتى طبيب، ثم نقلت إلى مستشفى القلب بالإسماعيلية، وكان مديره الدكتور جوديل الطبيب الفرنسي المشهور فى ذلك الوقت وكنت أرى أبى شاردا حزينا.. يخفى هلعه بين ضلوعه، وكنت كلما

خلوت إلى أمى أسندت رأسى إلى كتفها وبكيت دون أن أعرف سببا لبكائى، إلى أن رآنى أبى مرة، وعنفنى على ذلك، فعجبت لتعنيفه، ولكننى قدرت مشاعره، بل ورثيت له، ولكن بعد ذلك بسنوات. وحينما كانت تفاجئ أمى النوبة القلبية.. كان أبى يسارع إليها.. ويسند ظهرها على صدره ويعكس وجهه ماتلاقيه هى من آلام وأوجاع، إلى أن انتزعها الموت يوم ١٩ يونيو سنة ١٩٤٢ وهى بين يديه، فاندك البيت علينا ولما أفقنا، وجدنا أبا ملتاعا، ووجد هو أبناء ذاهلين.. ووصف هذا اليوم فى ديوانه.

دفعت صدرها إلى وألقت
رأسها عند راعد ذى خفوق
ثم قالت فى أنة تتهاوى
أزفت ساعة الفراق السحيق
لا ترع واحمل الفجيعة جلدا
لست للضعف عندها بخليق
وأشارت لطفلة تشهد الهول
بقلب دام وجفن غريق
قالت ارع الاولاد وابق كما كنت
مثال الأب المحب الرفيق
ومضت تنزع الحياة وتلقى
فى زفير آصارها وشهيق

فى سـنى لامـح وعـرف ذكـى
وابتسـام عـذب ووجـه طليق
لـو تراهـا تقـول قـد مسـها البـهر
فمـالت إلى سـبات رقيـق
ووقفنـا مروعـين نجيـل الطـرف
بـين التكذيـب والتصديـق
ثـم عدنـا للحـق عـانين صرعى
مـن مفيـق يـهذى وغـير مفيـق

ومنذ ذلك اليوم بدأ كل منا يبحث عن طريقه ويتخبط فى الدنيا دون هداية الأم وحنانها، ولهفتها.

واندلعت النار من قلب أبى آهة مدوية هى «أنات حـائرة» وكـان إهداؤه «إليها فى أكرم جوار» ومن الأبيات التى هزتنـى دائمـا هـذه الأبيات التى يصف فيها أول زيارة إلى قبرها، وكنـا نذهـب معـه إلى هناك، فينتحى جانبا ويتحـدث إليـها فـى همـس، ولم يفـارق هـذا المنظر مخيلتى، وكنت دائما أتساءل عما يقوله ولا أجد جوابـا إلى أن قرأت هذه الأبيات:

الزيارة الأولى:

دعـانى لهـا الشوق الدخيـل وهزنى
إلى المضجـع الاسـنى حنـين مكتـم

أفضت لها حتى إذا جئت شفنى
لهيب أواب يهم ويحجم
فلا أنا أستطيع القفول فأنثنى
ولا أنا أستطيع المثول فأقدم
ولما كففت الدمع إلا أقله
ونهنهت فى جنبى نارا تضرّم
دخلت عليها فى وضوئى وروعتى
كما يدخل البيت المحرم محرم
وقفت يقص الدهر تاريخ غابر
من العمر والعمر ابتسام وأنعم
تمثلتها منضورة الحسن طفلة
يضئ الدجى منها جبين ومبسم
وطاوية عهد الدراسة كاعبا
تروعك فيها تضرة وتوسم
ومجلوة للعرس وضاءة السنى
تأود فى وشى الشباب وتنعم
وجامعة فى بيتها شمل بيتها
توسطهم كالبدر حفته أنجم
فمحمولة منه إلى ساح مفضل
يقبل ويعفو عن كثير ويرحم

وقفت أناديها وأهتف باسمها
وألحف حتى أوشكت تتكلم
وقلت لها يا زين ما من فجيعة
تعاظمنى إلا وفقدك أعظم
فأنت لعينى مذ تراءتك قرة
وأنت لنفسى مذ تمتلك توأم
وحبب فيك النفس عليا خلائق
إذا لم تحببها الوشائج والدم
سأكرم أكبادا تركت فإن أمت
فإن إله الناس بالناس أكرم
عليك سلام الله يا أم واثق
ووالاك من جدواه هتان يثجم
سيبكيك لايفنى دموعا ولادما
مدى العمر مقروح الجوانح أيم

وحمل أبى أحزانه بين ضلوعه، وذهب بهم إلى أسيوط مديرا لها، وبقى هناك ثلاثة أعوام أحب خلالها أهل أسيوط وأحبوه، فقد كان أبى قريباً إلى القلوب. الكلمة الحلوة تسبق إلى لسانه دون أن يبحث عنها. والابتسامة المرحبة المطمئنة تبدو على شفتيه دون أن يقتعلها. كان يحب الناس كما هم يحبونه ويقدر أن للبشر حدودا لا يطالبهم بالتفوق عليها.. وهذا فى نظرى هو سر حب الناس له وقد كان

مهيب الطلعة فارع الطول أنيق الملبس والحركة على وجهه جمال وجلال من الملفت للنظر أن جيل أبى كله أو معظمه تجمعهم صفات متشابهة، فكلهم قرأ الأدب العربى وأحبه والغربى واستوعبه. كلهم قرأ القرآن وارتكز عليه ليحمل لغته كلهم قرأ التراث وبنهم وشغف. سمعتهم يتناقشون، وسمعت حوارا ممتعا أخاذا يستعرض التاريخ والأدب والشعر والفن والسياسة.. وراعنى منهم تنوع الثقافة وجمال العرض صقلتهم التربية القديمة فهم متواضعون فى كبرياء. بسطاء فى عز شبوا على تحمل المسئولية والترحيب بها.. إنه جيل شرف مصر كلها فى جميع المجالات.

كانت حياته فى أسيوط رتيبة يذهب إلى مكتبه فى الصباح - وإلى نادى البلدية بعد الظهر، ويعود إلى بيته فى الساعة التاسعة فيجدنا: أختى وأخى وأنا فى انتظاره ولكن كالتماثيل، فقد كان الأدب وقتذاك يقتضى ألا نبادئ الكبار بالحديث وأن نرد على قدر السؤال إذا سئلنا، وكنا فوق ذلك كله نهابه. ومهما يحاول أن يفتح أبواب الحديث كنا نغلقها بكل أمانة، ونعود إلى الصمت المطبق لنحيل حياته إلى ملل وبيته إلى صحراء.

أذكر أننا عدنا مرة من السينما فسألنا أبى من باب المسامرة.

- رحتو السينما

- نعم

فقال لأختى

- عجبكم الفيلم ؟

- إيوه

- الفيلم عبارة عن إيه.. حكايته إيه ؟

- واحد بيحب واحدة

- فسكت يأسا واستسلاما

وكانت أختى تتبع نظاما قاسياً فى الغداء لتخفيض وزنها، فإذا طلب منها برفق ألا تقسو على نفسها ولا على صحتها. غضبت وحبست نفسها فى غرفتها يومين أو أكثر، واعتبرت هذا تدخلا فى شئونها الخاصة، فإذا ما سأل عنها وعلم باحتجابها. لم يعلق وإنما يترك الأمر يمر ببساطة.. ومما يلفت النظر عند أبى أن وجهه كان يعكس كل ما يدور بنفسه وكانت والدتى تحس به وتقرأ بنظرها دخيلة نفسه، وتفهم إذا كان يشكو من ضيق أو غضب أو ملل وتسارع وتقترح هى ما يريده هو. دون أن ينطق ببنت شفه، واعتاد على ذلك وظل على هذه الحال إلى أن أوقعته الأيام فى أيدينا، فى أيدى ثلاث كوارث فى أيدى ثلاثة أولاد يرونه والهم يعصف به والسأم يملأ نفسه وكل منهم فى حاله، تشغله المدرسة والمصروف والقلم والأستيكة..

وقد ظل أبى مرتديا البدل السوداء عامين كاملين بعد وفاة والدتى، ثم جاء يوما يخبرنا بكل رقة أن أصدقاءه فى أسيوط، واذكر

منهم وهيب دوس وحبيب دوس وكمال نخلة.. رجوه أن يخلع السواد فإذا بنا ينظر كل منا إلى الآخر فى امتعاض، وإذا بنا بعد أن نخلو إلى أنفسنا نتهمه بأنه هو الذى يريد ذلك، وكأنه جرم لا يغتفرنتفق على أن نكشر إظهاراً منا للاحتجاج، وإنى كلما تذكرت تلك القسوة منّا لا أغفر لنفسى ولا لإخوتى هذه التصرفات الصبيانية التى تحمل فى ثناياها الأنانية والوحشية.. فقد كنا سعداء بأحزانه هانئين بآلامه، ولكن لا ننسى نحن أن نذهب إلى السينما كل أسبوع. ولا أن نختار الألوان الزاهية لملابسنا - والويل كل الويل لأبينا إذا هو حاول أن يخفف مما به. وقد نوه عن ذلك حين قال:

لما خلعت سوادى فيك عاتبنى
بمطرق من كسيف اللحظ أكبادى
أنا الذى تتراقى النار فى كبدى
أما أحس أوار النار أكبادى
من أجلكم وصباكم فى بشاشته
نهنهت ارسال دمعى الظاهر البادى
حطمتمو بالصبا اصفاد رزئكمو
وظلت أحمل اغلالى واصفادى

وإنى الآن أتمنى لو أنه أمسك بنا نحن الثلاثة وأوسعنا ضربا وشفى فينا غليلى الذى يعذبنى إلى اليوم.

وظللنا سنوات إذا اجتمعنا على المائدة فمكان أمي موجود لا يشغله أحد ولو زاد عددنا أو احتجنا إلى المكان.

كانت أختي تكبرني بعامين. كانت في السابعة عشرة من عمرها، علي وشك الزواج من ابن عمتها أكمل أباظة.. وهو الآن من المزارعين الناجحين في الشرقية ويحب الشعر، ومع مرور الزمن أصبح ذراع أبي الأيمن يباشر الزراعة التي لم يكن أبي يعرف عنها الكثير، وزادت الألفة بينهما واعتبره أبي ابنه الأكبر كانت اختي بسبب هذه الخطبة تسمح لنفسها بالتزين، وكنت أرى ألاّ حق لها في هذا إلا بعد الزواج فذهبت إلى والدي والغيظ يدفعني وقلت له «أختي تتزين وتكثر من الزينة» وطلبت أقسى العقوبة على ذلك – ولكنني روعت عندما نظر إليّ نظرة كلها لوم وتأنيب وقال لي «وانت مالك» فخرجت مسرعة أبدى حنقي وأخفي خجلي واصطدمت بأختي وهي تكمل زينتها باسمة ولكنه عاتبها على الغذاء كما قالت لي أختي بعد ذلك وتدور الأيام وأذهب إليه بعد عشرين عاما لأشكو له ابنتي ومن نفس السبب.. ويكون رده مشابها لرده القديم، ويطلب مني أن أتخلى عن أفكار القرن الماضي قد كان دائما يتهمني بالتأخر – وله القدرة على تفهم مشاكل الشباب ويفوقني كثيراً في الوصول إلى عقلية أولادي.. ويسخر مني كلما تصديت للأمر الواقع ويناقش ابنتي في الحب والزواج، وتتكلم هي معه ببساطة وحرية وتعرض

أراءها بإسهاب وتصف له وهى فى الخامسة عشرة من عمرها كيف تريد زوج المستقبل فى الوقت الذى لا أجرؤ فيه أنا على إبداء رأيى أمامه لا فى الحب ولا فى الزواج، بل أننى لا أستطيع أن أكلم زوجى فى وجوده بالحرية التى تتكلم بها هى عن زوج المستقبل.

كانت خالات أبى وهن كريمات إسماعيل باشا أباظة دائمات السؤال عنه وهو فى أسيوط.. وكانت تجمعه بهن صداقة قوية وحب متبادل وتفاهم كبير.. كان يجد عندهن راحة نفسية فقد أحببن والدتى! وقدرن أحزانه وآلامه، بل وشاركنه فيها، وكنا نتوجه إليهن كلما أردنا شيئا كماليا من أبينا، فتتحول الطلبات إلى أوامر تصدر إليه فيدفع بعد دفاع صورى عن النفس، وكانت أكثرهن إلحاحا عليه هى حرم الدكتور حسين أباظة، وقد ظلت توالينا إلى أن تزوجنا جميعاً، وكنت أشكوه إليها إذا فضل أختى عنى فى شيء.. وأغتنم فرصة وجوده فى القاهرة وأكلمها من أسيوط لأطلب ما أريد، وإذا بأبى يعود ومعه ما طلبت وأكثر، وكان من باب الانتقام يقول: «ايش تعمل الماشطة فى الوش العكر» وقد ظلت صلته بخالته هذه تقوى مع الزمن وكان لها فى حياته مكانة لا تمس.

تزوجت أختى ونحن فى أسيوط وحاول أبى أن يكون أبا وأما.. وأذكره وهو معنا فى المحلات لاتكاد أختى تشير إلى شيء حتى يشتريه، وكنا جميعا لا ندرى من أين نبدأ ففكر فى أن يلجأ لابنة

خاله «عبد الحميد بك أباظـه» وهـى زوجـة عمـه محمـد فـى نفس الوقت وكلفها بأن تقوم بشراء ما تحتاجه العروس، ولهذه السيدة فى حياتنا شأن كبير فـإن ننـس فلن ننسـى وقوفـها مـع أبـى يـوم وفـاة والدتـى، ثـم لجوءنـا إلى بيتـها كلمـا ضـاقت بنـا الدنيـا وترحيبـها واهتمامها بأمرنا ونحن في المدارس الداخليـة.. فقـد كنـا نخـرج مـن المدرسة إلى بيتها أيام الآحاد.. وكانت تذهب بنا مع ابنتها هيـام إلى السينما والمسارح والحدائـق العامـة وكـان اليـوم يمـر كلمـح البصـر ولا نشعر إلا ويوم الاثنين قد حل فنذهب إلى المدرسة ساخطين.

واحتفل والدى بزفاف أختى احتفالا كبيرا.. جمع فيه أصدقاءه.. وأذكر أننا كنا نتفرج على الضيوف من شـرفة المنـزل، وكـان كـبراء مصر سنة ١٩٤٥ يملئون حديقة الربعماية علـى موائـد الغـداء وكنـت أرى أبى جميلا بين مدعويه.. وخيل إلى أنه ليس فى مصر كلها مـن هو أجمل ولا أكثر هيبة من أبـى وأعمـامى مـن حولـه.. وكـان عمـى «بابا عثمان» كما كنا نناديه شـديد التعلـق بوالـدى، شـديد الحـب لوالدتى؛ فقد كانت له بمثابة الأم فازداد عطفـه علينـا بعـد رحيلـها وتغلغـل فـى أمورنـا بقلـب كلـه حنـان وحـب.. رعانـا فـى طفولتنـا وتعـهدنا فـى شـبابنا، وأحبنـا بمـلء نفسـه، ولم نكـن نسـتطيع أن نجازيه على حبه إلا حبا وعلى عطفه إلا تعلقا، وكان لا يحيـد عـن الحق ولو سلطت عليه السيوف، وكنا على حبنا الشـديد لـه نخشـاه ونخافـه، ونعجـب بـه فـى نفس الوقـت. رآنـا يوم زفـاف أختـى

كالتائهين فى الصحراء فأخذنى وأخوتى بين ذراعيه وتلاقت قلوبنا. وتلاقت أدمعنا. عدنا بعد الفرح أخـى وأنـا إلى أسيوط، وقد كانت مشاجراتنا اليومية تقطع الملل الذى يعيش فيه أبى.. فقد كان أخـى لا يحب أن يضيع وقت فى الدراسة علـى الرغـم مـن ذكائـه، وكـان يرجونى فى امتحانات الفترة أن أخفى شهادتى حتى لا يسأل أبـى عـن شـهاداته، وكنـت أستنـزف أموالـه ومجاملاتـه حتـى أخفـى شهادتى أسبوعًا أو أكثر، ثم أذهب إلى أبـى ليوقـع عليـها.. وبقـى أخى يستعمل أسلوب التسويف هذا إلى الآن.

وكان لأخى صديق اسمه سمير ويصا، وهو ابن ألفى بك ويصا مـن أعيان أسيوط، واتفقا على الهروب من المدرسـة وأخـذا سـيارة وذهبـا بها إلى ديروط. وبعد دقائق علـم المـأمور بوجـود ابـن المديـر فـاتصل بأبى فى مكتبه فقال له «ارسله ومعه عسكرى» وجـاء أخـى وزميلـه مرتعدين ودخلا المدرسة بعد استئذان الناظر. وكان سيد بـك روحـه، وهو مـن الشـخصيات التـى لا تنسـى بـين رجـال التعليم فـى ذلـك الوقت. وما أن انتظم أخى فى فصله حتـى فوجـئ بـأبى أمامـه. ولا ينسى أخى وزملاؤه جميعا كيف ضرب أمام الجميع فقـد اعتقـد أنـه يستطيع أن يهرب بسيارة متى شاء بنفوذ المديـر، ولكـن نفـوذ الأب كان أقوى وأوقع.

وحدث بعد ذلك أن صمم الناظر نفسـه علـى طـرد تلاميـذ السـنة الخامسة «البكالوريا» نهائيا. وأظن أن السبب كان خطيرا. غير أنى

لا أذكره الآن، وصعق أولياء الأمور ووسطوا أبى لدى الناظر، وبعد مفاوضات ومحاولات جاء الصفح وعاد كل إلى سبيله ومنهم الآن أسماء معروفة.

خفف أهل أسيوط أحزان أبى والتفوا حوله. ومضت الأيام. وفكر أبى فى الزواج ثانية. وإذا بالخبر ينزل علىّ نزول الصاعقة. أين الشعر الحزين إذن؟ أين الوفاء؟ أين القسم الذى أقسمه وكتبه شعرا على قبر والدتى؟ تتابعت فى ذهنى كل هذه الأسئلة التى لا تتبادر إلا إلى أذهان أبناء الخامسة عشرة الذين لا يقبلون من الأوضاع إلا ما يناسب رغباتهم هم؛ وكنت حتى هذه السن أعتبر أن هذا البيت مانعاً فعليا يقف فى وجه أى تفكير فى الزواج:

سألقاك لم يُشغل فراغ تركته

ببيتى ولم يملأ مكانك من قلبى

والغريب أنه عندما أعلن خبر زواجه أرسلت إليه سيدات من العراق وسوريا يستنكرون هذا الزواج ويعتبرن أن قلعة الوفاء للمرأة قد انهارت، ويلوحن له بديوان «أنات حائرة» ونشرت بعضهن مقالات فى مجلة «الرسالة» كلها لوم وعتاب، وكان يطلعنى على تلك الرسائل المشتعلة وكنت أبدى إعجابى بها.. خصوصاً وأنها تعبر عن رأيى الذى لا أجرؤ على الجهر به.

لم يكلمنا أبى فى موضوع زواجه. بل أرسل إلينا عمى، أو بابا أحمد. كما نسميه، وقد اختاره لهذه المهمة لسعة أفقه وحيلته وذكائه الوقاد، ولم تكن تختلف معاملته لنا عن معاملة أبينا، ولم تكن حقوقه علينا تقل عن حقوق أبينا، أرسله لنا ليمهد لنا الطريق، فإذا بأخوى يسكتان وإذا بى أناقش مناقشة عظيمة وأدخل في حوار لست على مستواه. وأخذ عمى يلاطفنى ويردنى إلى أن جمعنا والدى.. وكان رقيقا كعادته وقال «إذا كنتم غير راضيين.. فنحن مازلنا على البر» وأريد أن أسمع منكم أنكم راضون.. فأجابته أختى وكانت قد تزوجت إنها راضية، ولم أجب أنا.. فالتفت إلى وقال «قولى إنك مبسوطة» فلم أجب.. وكان هذا فى وقتنا يعتبر منتهى الجرأة والتحدى..

وانتهى الاجتماع وانتابتنى بعد ذلك نوبة من البكاء، ثم نوبة من الضحك العصبى وتبادلت على النوبات متعاقبة. لو قلت أكثر من عشر مرات لما كنت مبالغة.

وقد أشار أبى إلى هذا الموقف فى إحدى قصائده عندما قال:

وبنيـــات تخطـــرن علـــى
رونـق العمـر وموشـى صبـاه
قلـن مـا خطـب أبينـا بعدمـا
هصـرت بـين ذراعيـه مناه

فبكاهـــــا.. وبكاهـــــا ومضى
مثــلا يضـرب فــى الدهــر وفــاه
يابنـــاتى مـــن ذاق الهـــوى
قدســاً عـــاد إليـــه فـــارتواه
لــو إذا اقتنيـــه كـــدرا لصفـــى
عــن جديــد منــه قلبــى فأبــاه
يابنـــاتى إذا القلـــب صبـــا
وهــن العــزم وخـــارت قدمـــاه
فـــإذا عوتـــب فـــى صبوتـــه
لـّـج فيــها.. هكـــذا الله يــراه

وتزوج أبى من أمينة صدقى ابنة إسماعيل صدقى باشا وهى سيدة لم أر فى الناس مثلها فهى ذكـاء متقـد، وسريرة نقيـة وقلـب حـان وخلق قويم. لم نطالبها بشىء وأعطتنا من نفسـها وقلبـها كـل شىء. ولكن كل هذا لم يمنع سـوء اسـتقبالى لفكـرة الـزواج. فـى أول الأمـر. ومشـت بنـا الحيـاة فى أسيوط. ولم أكـن أريـد أن أرى الجوانـب الحسنة فى زوج أبى. ولو أن هذه الجوانب تنكشف أمامى يوما بعـد يوم. وكنت أبتعد عنها وألجأ لأبى فى كـل أمورى، ولعـل علاقتـى بأبى بدأت تقوى وتتأصل لذلك السبب. أتم أبـى فـى أسيوط روايـة العباسة. ومثلت فى دار الأوبرا. ودعاه الملك بعد أن شاهدها إلى قصر

عابدين مع الفرقة القومية ولجنة القراءة لتناول الشاى. وأنعم عليه برتبة الباشوية. وتبارى أهل أسيوط فى إظهار مشاعرهم نحو أبى بمناسبة الباشوية. فقد كان يدعى كل ليلة ليسهر عند واحد من أعيان البلد. واستمرت هذه الحفاوة شهرا على الأقل. ودعينا أنا وأخى عند عمدة أسيوط صمويل شنودة وكانت السهرة فى قصر له حديقة مترامية الأطراف لم أرلها آخرا. وامتدت المائدة على النجيل. وكانت الأطباق التى بها ألوان الطعام مضاءة بالكهرباء. والمائدة عبارة عن أنوار تتلألأ، وكأنها أحجار كريمة مختلفة الألوان. والحقيقة أن هذا المنظر بهرنى وأنا فى هذه السن الصغيرة. ولم أجرؤ أن أسأل كيف يضاء الطعام ولم أظهر الدهشة وكأنه شىء طبيعى بالنسبة لى. ولم أنس هذا المنظر إلى اليوم.

كنا نحضر عرض رواية العباسة كل ليلة حتى حفظنا نغمات أصوات الممثلين فى جميع المواقف.. وكانت أختى تعد الأماكن الخالية فى الصالة وتعتبر المقعد الخالى إهانة شخصية لها. والحقيقة أن الجمهور كان يحب الشعر ويهتز له. بل كان أحيانا يكمل الأبيات مع الممثلين. ففى «قيس ولبنى» موقف لابن أبى عتيق يهدئ من ثائرة «قيس» وهو يحاول أن يعيد إليه لبنى:

اصطنع يا قيس صبرا

إننى أعرفهنه

إن للنســـوة جـــــهلا
وهــــوى يملكهنـــــه
خلـــق ركـــب فيـــهن
فواتــــي طبعهنـــــه
لا تـــرع ممـــا تراه
وتنظـــر رشـــدهنه
طـــابع النســـوة فـــأعلم
يتمنعـــــــــــــــــــنن
فيكمـــل الجمهـــــــور
« وهنـــــــــــــــــه »

وتكرر ذلك في كل مرة شاهدت فيها « قيس ولنبى ».. ولا أنس يوم افتتاح « قيس ولبنى » ظل أبى ملازما الفراش ملتفا بجميع الأغطية الموجودة في المنزل، فقد انتابته قشعريرة.. من شدة الارتباك فهو ينتظر في هذه الليلة حكم الجمهور على أول عمل له يظهر على المسرح وكان أخواه وأعمامه يهدئون من روعه، ودقت الساعة وذهبنا مساء إلى المسرح وكانت الأنوار تتلألأ، والسيدات بملابس السهرة الفاتنة، والجواهر الثمنية يزدن دار الأوبرا جمالا على جمال.

ومثلت الرواية وقوبلت مقابلة حارة، وأظهر الناس إعجابا بالشعر وإحساسا صادقا به.. وبكت السيدات إشفاقا على لبنى حين قالت :

يــارب هــذا مـــاقضيت فليـــس لى
فـى العقـم مـن ذنـــب وأنـت عليـم
زعمـــوا قضـــاءك تهمـــة فتـــألبوا
هـــذى تعـــيرنى وذاك يلـــوم
يـــارب تعلـــم أننـــى صانعتـــهم
والقلـــب منـــهم مثخـــن مكلـــوم
وبغـوا فلمـا قلـت يـا نفســى اصبرى
غضــب الظلــوم.. وعوتــب المظلــوم

ونجحت روايــة «قيس ولبنــى» وذهبت القشعريرة عن أبـى.. ولم يحاول أن يخفى فرحته فقد كانت عيناه تفيضان بها، ولكن تواضعه ورقته لم يفارقاه، لحظة واحدة.

مخرج الرواية

وأترك الأستاذ فتوح نشاطى يتكلم فى كتابه (خمسون عاما فى خدمة المسرح) ويقول: ولأول مرة فى تاريخ المسرح الشعرى تضرب رواية «قيس ولبنى» كل الأرقام القياسية فى النجاح الأدبى والمادى. فقد مثلت أول الأمر شهرا ونصفا على التوالى، ودرت على الفرقة أكبر الإيرادات. ثم أعدنا تمثيلها بعد ذلك عشرات المرات. وقد قدمت إدارة الفرقة للمخرج والممثلين والممثلات هدايا نفيسة لمناسبة نجاح الرواية العظيم. ولما بذلوه من جهود ممتازة فى القيام بعملهم كما قال الأستاذ محمد حسن مدير الفرقة فى حديث صحفى. هذا

عدا ولائم شائقة قدمت لنا خلالها ألوانا من الطعام الفاخر وعلى رأسها العدس الأباظى المشهور.

ويستمر الأستاذ فتوح قائلا فى الكتاب نفسه : كتبت مجلة آخر ساعة المصورة فى صفحة عالم الفن هذه الحادثة التى إن دلت على شيء فعلى تواضع مؤلف قيس ولبنى «ومن ظريف ما حدث فى حفلة افتتاح رواية قيس ولبنى» أن الجمهور أراد أن يرى المؤلف ويحييه. ولكن عزيز أباظة وهو رجل متواضع حيى خجول أبى أن يظهر على المسرح ليرد تحية الجمهور. وانكمش فى البنوار الأول فى ركن منزو لايراه منه أحد. ودبر محمد حسن مدير الفرقة مؤامرة لطيفة مع الأستاذ شكرى راغب مدير مسرح الأوبرا لإظهار عزيز أباظة على المسرح على الرغم منه. فطلب إليه أن يذهب بعد الفصل الثالث مباشرة إلى المسرح ليهنئ الممثلين على نجاحهم. وأجابه عزيز أباظة إلى طلبه ولكنه لم يكد يصل إلى منتصف المسرح حتى ارتفعت الستار. فضربت معه لخمة. ووقف مبهوتا دقيقة أو دقيقتين لا يدرى ماذا يعمل والجمهور يصفق ثم خرج من المسرح عدوا.

وبدأ بعد ذلك فى كتابة مسرحية شعرية عن «ديك الجن» وكان لايزال يملى علينا الشعر ولم يكن يكتب رواياته بخط يده بعد ، وكان بعد عودته من عمله يخلع ثياب الخروج، ويلبس ثيابه المنزليه.. وبعد تناول غذائه يجلس على كرسيه الخاص به، وإلى جانبه منضدة عليها أقلامه وأوراقه، وعلى الأرض وحوله قدميه

يضع كتبه ومراجعه، ثم يمسك بحاجبه الأيمن بأصبعه ويملى علينا الشعر.

وكلما تذكرت هذه الصورة خيل إلى أنها لوحة جميلة تمثل شاعرا مرهفا يكتب وسط عائلته بهدوء ودون ادعاء.

وقد أتم فصلا كاملا فى رواية.. «ديك الجن» وأذكر بعض أبياتها:

اخطرى ياظبية القاع
وياعود الأراك
أنا يابنت السنا والمجد
كالبدر أراك
عز بيت قد تبناك
وملك قد نماك
وتسامت شرفات
شع منهن سناك
خصك الله بحسن
لم ينل منه سواك

وأخذنا نقرؤها فى غيابه ونقلب فيها حتى أضعناها، وجاء فى ميعاده يسأل عن الكراسة فإذا بنا نرتبك ونتلجلج، ونجد فى البحث عنها ونحن نعلم أننا لن نجدها وأظنه رأى الخوف فى أعيننا ففهم وسكت، ولم يقس ولم يعنف حيثما كان يجب أن يقسو وأن يعنف.

ثم فكر فى كتابة مسرحية شعرية عن معاوية، وكان رأيه أن المخرج سوف يجد مجالا واسعا للإبداع لأن حكم معاوية كان يتسم بالفخامة والإبهار.

وفى مقابلة مع الدكتور طه حسين كلمه عن معاوية وقال له إن الفكرة قد تسلطت عليه تماما.

فقال الدكتور:

- انصحك يا عزيز ألا تفعل، فمعاوية شخصية غير محبوبة، إذا جاملته ثار عليك البعض، وإذا ظلمته ثار عليك البعض، وفى الحالين لن تكون منصفا.. فعدل أبى ولم يتردد.

كان الخط مجرم الصعيد الذى دوخ الأمن فى عنفوانه عندما كان أبى مديرا لأسيوط وكان من المستحيل القبض عليه. فقد كان يحميه بعض الأعيان، وكان يخشاه الناس فلا يبلغون عن مكانه، بل ويسترون عليه. فقرر الحكمدار أن يقبض على زوجته ووالدته حتى يضغط على الخط ويسلم نفسه، ولما علم أبى ثار وغضب، وكان فى موقفه هذا إنسانا وشاعرا. وقال للحكمدار فى حدة:

- إن هذا التصرف ليس من الإنسانية ولا من الشهامة فى شىء. إن واجبنا أن نصل إليه بالقوة لا عن طريق النساء اللائى لا حول لهن ولا قوة.

وأخلى سبيل المرأتين، وتمكنوا من القبض عليه بعد شهور بالطريق السليم. بخطة محكمة، وكمين - وقوة ضخمة من البوليس.

وأذكر يوما ونحن لانزال فى أسيوط أن جاءت ناظرة المدرسة الثانوية التى كنت بها لزيارة أبى، فرحبت بها وبقيت معهما ظنا منى بأن من الواجب على أن أبقى. وبعد قليل قال والدى: دعينا وحدنا قليلا فدهشت لدرجة أننى كذبت أذنى، ولم أتحرك من مكانى فأعاد طلبه، فخرجت وكلى حيرة فيما عسى أن يكون سرا بين الناظرة وبين أبى، ولم يهدنى طول تفكيرى إلى شىء. ولكننى علمت بعد ذلك من إحدى المدرسات أن أبى قد قرر أن يدفع تكاليف السنة الدراسية لاثنتين من زميلاتى فى الفصل، لأننى قد عوفيت من دفعها ولم يكن يريدنى أن أعرف عن ذلك شيئا، ولكن يا أبى الحبيب لو أنى قد علمت.. لما استطعت إلا أن أكون ابنتك.

وفى يوم كنت جالسة فى حجرتى أستعد لدخول امتحان فى اليوم التالى وإذا بمن يدخل على ويقول لى إن أبى يطلبنى، فغضبت، لأنهم يعطلون استعدادى للامتحان، ولكننى ذهبت طبعا على عجل وجدت أبى جالسا فى مكانه المعهود وعندما رآنى قال لى: لقد أرسلت فى طلبك لأسمعك ما كتبته الآن فى رواية الناصر فاجلسى واسمعى فجن جنونى من الغيظ، ولكننى كتمته فى أعماق أعماقى وجلست على مضض أستمع إلى الشعر، وعقلى كله فى دروسى. وزاد من غيظى أننى لا حول لى ولا قوة، وأننى لا أستطيع إلا أن أبقى وأن أسمع، وعندما انتهى أبى من قراءاته أسرعت إلى غرفتى وأخذت أبكى..

ويحى! ! ألم أكن أعلم وقتذاك أن أبـى ليس ككل الآباء؟ وأنـه حمل على كتفه عبء المسـرح الشعرى بعـد شوقى، وأنـه آلى على نفسه أن يحافظ على لغة القرآن رغم كيد الكائدين! ! ألم أكن أعرف أن كثيرا من أساتذة الجامعة والمتخصصين كانوا يتسابقون إلى دراسـة أعماله ويتلهفون على معرفة شىء عن حياتـه؟ كيـف كـان يكتـب.. كيف كان يعيش وكيف كان يعامل أولاده وكيف وكيـف؟؟ ألم أتنبـه إلى أننى كنت إلى جانب فنان كبير؟ ألم أكن أشـعر برضـاء الله علـى حين أوجدنى في كنف شاعر مرهف الحس عنده مـن الرقـة أكثرهـا رقة؟ لعلنى اعتقدت أن الناس جميعا على شاكلته! ! أو لعلنى كنـت مثل باقى الناس الذين لا يقدرون اللاصقين بهم حق قدرهم! !

إلى أن كبرت ورأيت وفـهمت وقـارنت وأحسسـت، ولمست نفسـى والإنسان ما أكفره!

وأذكر أننى ذهبت فـى رحلـة إلى تونـا الجبـل مـع مدرسـتى، واجتمعنا فى فناء المدرسة فى الصباح الباكر وأخذنا معنا غذاءنا لأننا كنا سنقضى اليوم بأكملـه فـى الرحلـة ووصلنـا إلى تونـا الجبـل فـى محافظة المنيا. وبعد أن شرح لنا المدرسون ما شاهدناه من الآثار هناك حان ميعاد الغداء، فجلسنا على الرمل وهممنـا بتنـاول غدائنـا، وإذا بمن ينادينى ويطلب إلى أن أذهب إلى الاستراحة القريبـة منـا حيـث يوجد بعض أصدقاء أبى. ولما ذهبت رأيت أصدقاء أبى جالسين على مائدة أنيقة وطلبوا منى أن أنضم إليهم. فتحرجت، لأننى أفضـل أن أبقى مع زميلاتى، ولكننى تشجعت ورفضت برفق. وشكرت بقدر ما

استطعت وعدت إلى زميلاتى دون أن أقول كلمة. ولكننى خشيت أن يغضب أبى لأنى رفضت دعوة أصدقائه. وعندما عدت إلى أسيوط وسمع منى أبى قصتى

قال على الفور:

– بل كنت أغضب لو أنك تركت زميلاتك يتناولن غداءهن على رمال صحراء تونا الجبل، وبقيت أنت فى الاستراحة الأنيقة ثم ماذنب زميلاتك إذا كان لأبيك أصدقاء كثيرون، وله علاقات واسعة.. ماذنبهن حتى تعاملى أنت معاملة خاصة من أجل خاطر أبيك؟..

وقبل أن أترك أسيوط. تلح على تلك الحادثة الصغيرة. فقد كنا دعينا إلى فرح وجاءت صديقة لى لتذهب معنا. فإذا بوالدى بعد أن حياها ينادينى ويقول لى: «أرجو ألا تلبسى شيئا من حليك فإن صديقتك لا تلبس حليا بالمرة فلا تضايقيها» فقلت: «حاضر يا بابا» ولكنى لم أقل إننى أنا الأخرى لم أكن أملك من الحلى شيئا.. وكبرت معى هذه اللفتة الصغيرة.. ولم أجد فى الناس هذا الشعور المرهف الرحيم. وكلما رأيت من مكنته الحياة من الظهور بمظهر الغنى والأبهة مع من لم تمكنه الحياة من ذلك خارجين معا فى اجتماع واحد وددت لو أنهم كانوا أقل أناقة وأكثر رحمة.

ترك أبى أسيوط وترك الوظائف الحكومية ودخل مجلس النواب ثم مجلس الشيوخ، .واستقر بنا المقام فى القاهرة ودخل فى مجلس

إدارة شركات متعددة. وغير مجرى حياته.. وكان أخوه أحمد يقول «لقد دخل عزيز باشا الوظيفة فنجح فيها وأحبه الناس أينما ذهب ودخل الشركات ونجح فيها وعقد صداقات قوية مع الأجانب الذين عمل معهم ودخل ميدان الأدب ونجح فيه ورسخت قدماه فقد نجح في كل ميدان دخل فيه».

كان أبى سعيدا عندما تقدم زوجى ثروت أباظة لخطبتى مع أنه كان لايزال طالبا فى كلية الحقوق، وحدد الزفاف بعد امتحان الليسانس وحدث أثناء تلك الفترة خلاف بين أبى وزوجته.. وأظهرت بلا تحفظ مساندتى لها، وإذا وقفت الآن وقفة هنا، لوجدتنى كنت مخطئة فى تقديرى للموقف، فقد كنت فى الثامنة عشرة من عمرى، وكنت أعتقد أن مشاعر الناس يجب أن تخضع للقوانين وأن حياة الناس يجب أن تسير فى فلك مرسوم، وكأنى أردت أن أخلع البيوت من واقع الحياة ودفاعتها.

وعز على أبى موقفى منه، وغضب منى وتجاهلنى إلى أن جاء يوم زفافى ولبست الثوب الأبيض ونزلت على السلم، وإذا به يقابلنى فى وسطه ويأخذنى بين ذراعيه ويقبلنى باكيا.. وغسلت دموعى ماقضيت فى تجميله ساعات وساعات، وأقيم الفرح فى بيت دسوقى باشا أباظة والد زوجى، وبدأت الزفة وهى فى نظرى الدقائق العصيبة التى تمر بها كل فتاة.. إنهم يقولون إن هذه الدقائق

لا تحسب من العمر، وهى فعلا لا تحسب من العمر؛ لانها تخرج الفتاة من الشعور بالحياة.. فأمام كل هذه العيون الفاحصة التي تنظر في لحظة واحدة إلى شخص واحد لايسعها إلا أن تكف عن الحياة، وبينما أنا خارج الحياة نفذت إلى عيون أبى الحانية وهى تتابعنى، وبجانبه أم كلثوم واستطعت أن أسمع أغنية الزفاف التى سمعتها أجيال من قبلى وستسمعها أجيال من بعدى.

وذهبت إلى بيتى، وكان إذا زارنى أبى انتظر في الصالون وأرسل في طلبى، فى الوقت الذى كنت أفاجأ فيه ببعض الضيوف فى غرفتى.. ولن أقول إن زواجى لم تعترضه الصعوبات، فقد كان كل منا يحاول أن يثبت وجوده، فأثبت غباء وغرورا.. أخذا من عمرنا سنوات، وكان أبى إذا تدخل فبناء على دعوتنا، واضطر اضطرارا لأن يكون عادلا فإن كان الحق معى ساندنى علنا ولم يتحرج، وإن كان على شعرت بقلبه يساندنى وإن اشتد على بالقول أو انطلق لسانه بغير ما أريد.. ولقد كان شاعرا حتى فى أحكامه.. كان حانيا ولكن فى كبرياء.. لم أسمعه فى حياته ينطق بكلمة تجافى الذوق.. أو تجرح الأذن - فإذا نفرت الآن من بعض الألفاظ الغليظة التى تجرى على ألسنة الناس بسهولة سخر منى زوجى واتهمنى أننى أريد من الجميع أن يتكلموا بالشعر، ولكن عذرى أننى نشأت فى بيت شاعر عف اللسان.. رشيق اللفظ رحيم القول.

وفى أول حياتنا الزوجية نظم معنا أبـى ميزانيـة البيـت.. وأظنـه كان فى هـذا الموقـف أرحـم بزوجـى، فـأفلت مـن يـدى زمـام الأمـر شهورا.. وكم لجأت إليه، وكـم استنجدت بـه.. وكنـت إذا ذهبـت إليه وأنا معتنية بشكلى ومظـهرى، أجـابنى إلى طلبـى بسـرعة وهـو راضي النفس متهلل الوجه.. وكنت أعرف ذلك وأستغل هذا الضعف فيه..

لم نهتم بأن نصـور صـورة تذكاريـة بملابـس الزفـاف، وكدنـا أن ننسى - لولا أن أبى كلمنا يوما فى التليفون قائلا.. إنه حدد ميعـادا مع «ارمان» المصور المعروف فى ذلك الوقـت وأنـه سيقابلنا هنـاك.. وذهبنا ووجدناه فى انتظارنا.. وبقى معنـا إلى أن انتـهى المصـور مـن تحريكنا كالشطرنج بنفس الطريقة التى يحرك بها كل من يقـع بـين يديه، وتكون النتيجة صورة تذكارية.. ولكن لا حياة فيها.

كنت جالسة مرة مع أبى وسأل زوجى عـن مفتاحـه فوصفـت لـه مكانه، فابتسم أبى وقال «أتتكلمـان كـزوج وزوجـة ولم يمـض علـى زواجكما أسابيع» وكانت نبراتـه فرحـة مدللـة، وكنـا نسـكن قريبـا منه.. وكنت أذهب إليه كل صباح. ثم وجدنا شقة فى نفس العمـارة التى يسكنها فأنتقلنا إليها.. وأصبحت أزوره صباحا ومساء، وأحيانا وقت الغداء، وكنت إذا قللت عدد الزيارات اليومية تملكه العجـب.. وإذا تأخرت يوما ساوره القلق، وحينما انشغلت بتربية الأطفال كـان

هو الذى يأتى ويجلس إلى - ويلاعبهم، ويتقرب إليهم بالوعود فقط. ورغم حبه لهم.. كان يرى أن ما يقال عن حب المرء لأحفاده أكثر من حبه لأولاده شيء لا يقبله العقل.. ولا يقره القلب.. كان يعتبر نفسه المسئول الوحيد عن أولاده.. فهو يتحمل عبء المرض، والعمليات الجراحية.. واستقبال الأطفال أيضا..

وكان عنده ضعف شديد لأختى فهى أول الفرحة كما يقولون، وهى التى شهدت وفاة أمنا حين كنت وأخى بالربعماية، وكان يحلو أن يعلن تفضيله لها ويبالغ فى ذلك أمامى، فكنت أثور أو أصطنع الثورة والاحتجاج والواقع أنى لم أكن أصدق، فأنا أعرف من أنا عنده.. ولكننى أعرف أيضا أنه يمازحنى.. وكان لابد لى أن أمازحه وأدعى الغضب.. والحقيقة أن حب أختى له حب بدأت قوته منذ طفولتها حتى أنها كانت تحبه أكثر من حبها لأمى.. وتبدى ذلك ولا تخفيه، وكان يعاملها برقة وحنان ومجاملة فزاد تعلقها به. ولعل حبها له هو أقوى حب فى حياتها، إذا استسمحنا الزوج والأولاد.

وكنت إذا طلبت منه شيئا ظللت ألح وألح حتى يجيبنى إليه واعتاد منى على ذلك، بل إنه كان يقول لأصدقائه المقربين إلى قلبه.. إنه يحب تلك المناقشات وذلك الإلحاح، بل ويرفض خصيصا وهو ينوى الإجابة ليطيل المناقشة وكنت أفتح باب المرافعة ولا أغلقه، وكنت أقول له إن مركزى الاجتماعى يفرض على الكثير، فيقول

ساخرا «وأين هو هذا المركز الاجتماعى؟» فأجيبه يكفى أننى ابنتك وهذا يكلفنى كثيرا.

وكما كان يحب هذه المناقشات.. فقد كنت أحبها بدورى وأشعر أن الأرض ثابتة تحت أقدامى وأننى أستطيع أن أتحدى به الناس والأيام، وإنى أشهد - أنه غمر أولاده بعطفه وبحبه وبجاهه وعاش حياته لهم، وقد كتب مرة يصف مشاعره فى أوتوجراف لى:

وهبتك قلبا مع شقيقيك عامرا
بأغلى الذى عندى من الحب والعطف
وأسكنتكم احناءه منزلا لكم
فلو قد صددتم عنه أسكنتم طرفى
وأصفيتكم من حبة النفس رحمة
ويسعد نفسى أنها لم تزل تضفى
وأبدى حنو الوالدين وأتقى
فأخفى.. فينهل الحنو الذى أخفى
إذا ما بذلتم لى جزاء يضىء لى
بقية أيامى. فمن ساكب العرف
وإن كانت الآباء كهف فروعهم
فكهفكمو حبى . وحبكمو كهفى

أما علاقاته بأصدقائه وأقاربه فكانت أساسها الرحمة والود إذا قصد لبى ونسى الأمر. ذهبت إليه أطلب خمسمائة جنيه لأحد أقاربى. كان عليه أن يدفعها فورا وإلا تعرض للقضاء، ولم يتركنى أبى أكمل قصتى الطويلة، وإنما أعطانى المبلغ بلا تردد، وتكرر منى الطلب فى هذا النوع من المشاكل، وتكرر منه العطاء إلى أن قال لى يوما ضاحكا: «هو إنتى مستخسرة فىّ فلوسى؟» ولا يتردد كالعادة. حكى لى أحد كبار ممثلينا المشهورين أنه ذهب وهو فى مستهل حياته الفنية إلى أبى وكلمه عن رغبته فى أن يدخل عالم الإنتاج، وكان هذا الممثل فنانا صادقا، وأحس أبى أنه يحتاج إلى مساندة لكى يكمل مشروعه، فكفاه مئونة الطلب وعرض عليه هو أن يساعده، وكانت طريقة عرضه فيها أبوة، وفيها حنان، حتى خيل لهذا الفنان أنه إنما لجأ إلى أبيه. وتم المشروع وظهر الفيلم ونجح ورد الممثل المساعدة ولم أسمع من أبى كلمة واحدة عن هذا الموضوع، وكنت دائما أعجب بأبى لأنه يحترم إنسانية الإنسان.. إذا طلب أحد منه وساطة ما، والاه هو بأخبارها حتى لا يتحرج الطالب ولا يشعر أنه يضايق أحدا، كانت رقته تفوق كثيرا الدرجة المعتادة. كان يتصرف دائما بطريقة ناعمة إنسانية لا يفهمها الكثيرون..

وقص على مدير بنك مصر سابق، إنه عندما كان مديرا للبنك ذهب إليه أبى ليضمن صديقا له من الشرقية فى اعتماده، وكان المدير يعلم أن هذا الصديق حالته المالية مرتبكة.. ولن يستطيع

السداد، فحاول أن يؤجل الضمان، فرفض أبى، فاضطر المدير أن يخبر أبى بالحقيقة فقال أبى:

«أنا على كل حال ضامن «فأجابه المدير» إنت ضامن ولكنك ستضطر إلى الدفع نيابة عنه» فأجاب «لقد نشأت فوجدت عائلة هذا الصديق أصدقاء لأبى..» ورأيتهم وأنا طفل فى سلاملك الربعماية، فكيف أتخلى عنه، أنا ضامن ومستعد أن أدفع هذا الدين ولم يسدد الصديق ودفع أبى. لم ينس مدير البنك أن يمازح أبى ويقول له: ألم أقل لك يا باشا؟ فقال أبى «لقد فعلت ما يجب على أن أفعله» ومرت سنوات خمس وجاء أبى إلى مدير البنك مبتسما وقال: «لقد رد الصديق المبلغ وأرسل لى صندوقا من الكمثرى من الحديثة التى ساعدته على إنشائها «وطوال السنوات لم يتوان عن رد غيبة الصديق الذى اعتقد الجميع أنه اختفى إلى الابد».

دخلت مرة محل تحف صينية بجانب سينما أمير بالإسكندرية صاحبه رجل صينى مسن.. وسألته عن ثمن ترابيزة أعجبتنى فقال «لك أنت بالسعر الذى تريدينه.. وتدفعين فى الوقت الذى يناسبك.. فدهشت ولكنه قال: «إنك قد لا تعلمين أفضال والدك على فلقد دخل يوما محلى ووجدنى واجما حزينا فسألنى عما بى. فقلت إننى محتاج لمبلغ من المال لمدة شهر، فقد فاجأنى طارئ. ولا أجد حلا لمشكلتى – فإذا به يخرج دفتر شيكاته ويعطينى المبلغ بلا

أى ضمان، وهو لا يعرف غير المحل مكانا لى، فإذا أغلقته أو سافرت فأين له أن يجد مكانى.. وقد رددت المبلغ ولكننى لم أنس الجميل.. فأجبته أن هذا شىء طبيعى، وأنا أعلم أنه ليس كذلك فى رأى أغلب الناس، واخذت الترابيزة.. ودفعت ثمنها على عدة أقساط.

سافرت مرة مع أبى إلى الإسكندرية وكان يجمعه ود بصاحب محل بيع فضيات معروف اسمه «الحاج رشاد» وكان الحوار يدور بينهما عن الدين والأدب. اشترى أبى واشتريت أنا وقلت لأبى:

المبلغ كبير جدا ولن أستطيع أن أدفعه.. فأرجوك أن تدفعه لى ثم تخصم منى مبلغا أول كل شهر. فوافق أبى ونفذنا الاتفاق فعلا فى الشهر الأول، ثم نسى هو وتناسيت أنا ومرت الشهور وذهب أبى إلى الإسكندرية وتذكر الدين وجاء يحاسبنى فقلت:

– بل دفعت.. وإن كنت نسيت فما ذنبى أنا؟ وهل تحتمل ميزانيتى أن أدفع الدين مرتين؟ فسكت.. ولكننى بعد فترة قلت له ضاحكة:

– إننى لم أدفع شيئا.

– فأجاب غاضبا

– وأنا لن أتعامل معك بعد ذلك، وقد عرفت أخلاقك بهذا المبلغ ولكن التعامل تكرر بنفس قلة الذمة من ناحيتى.. وبنفس طيب

الخاطر من ناحيته، ولما ذهبنا إلى العمرة.. وكان قد دعانى مع أختى وزوج أختى لهذا السفر قلت له :

- إننى دعـوت لـك بالصحـة وطـول العمـر عنـد النبـي.. ولكنـى استأذنته فى الاحتيال عليك أنت فقط..

وكنا قد أبدينا رغبتنا فى أداء العمرة، فظل يشجعنا ويسألنا يوميا عن إجراءات السفر.. وعن الاستعداد للسفر، وكـان تحمسه يعـادل تحمسنا أو يزيد عنه، ثم قرر أن تكون رحلتنا علـى نفقتـه.. وكنـت أتعجب من شدة حماسه، ولكننى عرفت بعد ذلك أن فريضـة الحـج كانت أغلى أمنية عند أمى ولم يمكنها المرض ولا العمر مـن أدائـها، فسارع إلى رغبتنـا يلبيـها لعله بذلـك يرضيـها ويرضينـا، ثـم أرسـل للأمير عبد الله الفيصل.. ولست فى حاجة أن أقول مـا وجدنـاه مـن حفاوة وتكريم.

كنت وأبى دائمى النقاش، وكان دائما يختلـف معـى، فـهو رواح واسع الأفق ذهنه قابل للحركـة والتجديـد - إلا فـى الشعر، وكـان يتهمنى بضيق الأفق والرجعيـة فكـان يـرى أن الإنسـان إنسـان وأنـه معرض للخطأ وأن الظروف قد تدفعـه إلى حيـث لا يريـد أن يصـل.. وكان يحب الجمال ويغفـر للمـرأة الجميلـة الكثـير. وكنـت أرى أن الإنسان يجب أن يكـون أقـوى مـن الظـروف وإذا تسـاهلت بالنسـبة للرجل فلا أسمح للمرأة بالخطـأ.. وكلمـا زاد جمالهـا زادت قسـوتى

عليها لأنها يجب أن تحمى نفسها من غرور نفسها ومن الطامعين - ثم إن الزوج الخائن يمكن أن يسامح أما الزوجة فلاتوبة ولا غفران ولا نقاش - فالمرأة تخون نفسها وتخون أولادها وتخون الاسم الذى ائتمنت عليه، وإذا حاولت أن أتخلص من رجعيتى، وحاولت أن أكون مرنة حتى يحتملنى أبى وفرضت أن حبا دهم الزوجة وهى فى عقر دارها، فلتكتف إذن بهذا الشعور الجميل، فلا كلمة ولا لمس ولا خيانة وكان يستمع إلى مبتسما ويقول لى: «كان يجب أن تولدى فى القرن الماضى».

ذهبت معه يوما لنزور شقيقتى فاستقبلتنا وهى ترتدى روب زوجها وشبشبه، فانتقدها أبى فى رحمة ولطف، ولكنه لما خرجنا أبدى شعوره بالضيق وقال: «إنه ليس من حقها أن تبدو أمام زوجها هكذا ومنذ ذلك اليوم ظل يشترى لها من كل بلد عربى يزوره أجمل العباءات وأغلاها ثمنا لتكون كاملة الزينة فى بيتها، وكانت أختى لا تطلب شيئا أبدا.. كان هو الذى يسألها ويلح فى السؤال.. بل كان يسألنى إن كانت فى حاجة إلى شىء وكان هذا يثير فى نفسى الغيرة فكنت انتقاما منه أخترع الطلبات وأبالغ فيها، فيأتى بها دون تردد - ثم أختطف الفرصة وأقول له «يجب أن تعدل بيننا» وأطالبه بالمثل.. فيضطر إلى العدل اضطرارا.

قلت إنه كان يحب الجمال، وقد كانت لنا صديقة شابة يفوق جمالها كل وصف وكان أبى شديد الاهتمام بها، وكان يريدنى أن

أهتم أنا أيضا ولكننى رفضت هذا العرض بشدة، لأسباب تعرفها الزوجات وقلت له.

– والله لو لم تكن هذه الصديقة بهذا الجمال لما بلغ اهتمامك بها إلى هذه الدرجة فأجاب مبتسما ومداعبا.

– «أنت ماعندكيش إنسانية دى عيانة ومحتاجة لرعايتى واهتمامى» والنتيجة أن إنسانية أبى كانت تثير حنقى على تلك الإنسانة الجميلة، وكما كان ضعيفا أمام الجمال.. كان ضعيفا أمام أبوته. ضعفا يخفيه حينا وينهل منه أحيانا، فقد خيل إلى يوما أننى أصبت بمرض خطير – لا علاج له ونسج خيالى ما شاء له أن ينسج حتى كدت أجزم بالأمر، فأصر أن يذهب معى إلى الطبيب ولم يمنعنى هلعى أن أشفق عليه وأن أثنيه عن مرافقتى، فقد قدرت أن جزعه سيكون أعمق من جزعى، وأن ألمه سيكون أكبر من ألمى، إنها المشاعر التى لا يجرؤ أن يحس بها الإنسان إلا لوالديه، إنها المشاعر التي إذا فقدناها اختل ميزاننا ومادت الأرض تحت أقدامنا، ولكن يكفى أننا شعرنا بها يوما، وطمأننا الطبيب وزال عنا الخوف.

أما عزيز أباظة الزوج، فقد احترم المرأة وقدرها، وأعطاها حقها من الحرية وعاملها معاملة الند للند رغم أنه من مواليد ١٨٩٨، ولم أره مع أمى إلا والاحترام قائم بينهما والحب يشع من حولهما،

ورأيته يقدر زوجته الثانية يجلها ويحمل لها أصفى الود وأصدقه، فقد رعته ورعت أولاده وجمعت شمل بيته بعد أن كان قد تصدع. وقد أكرمه الله ولم ينشأ بيننا وبينها خلاف كما يحدث عادة، وكنت أقول له: «إنك لم تذق طعم هذه النوع من العذاب» وهو عذاب فعلا لمن هو فى مثل رقته.. وإنى أحمد الله وأحمد زوجته لأنها لم تكلفنا هذا العناء، فقد أحببناها لأنها اختارت أن تكون أما لنا.. اختارت راضية ما تجبر عليه الأمهات إجبارا.. اختارت هى فكان حقها علينا أكثر من حق الأم وأكثر من حق الرحم، وقد وضعت هى وإخوتها تحت الحراسة، وفى ضربة عشواء تغيرت أقدار الناس وتحملوا الظلم بكرامة وثبات، وليس كالظلم يهد كيان الإنسان ويزلزل إيمانه.. ولقد عرفتهم صغيرة وكبرت بينهم ورأيت بيوتهم تستقبل الغنى وتستقبل الفقير بنفس الحفاوة وبنفس التكريم.. وأشهد أنهم تمتعوا بما حباهم به الله من مال وجاه، ولكنهم أسعدوا الناس وأغاثوا المكروبين.

وأشهد لزوجة أبى بأنها لم تبخل بمالها ولا بصحتها فقد كافحت الملاريا فى الأقصر سنة ١٩٤٣ والحمى الراجعة فى أسيوط سنة ١٩٤٥ وبنت بتبرعات الأهالى فى أسيوط مستشفى من أكبر المستشفيات فى مصر. وفى مصر القديمة جعلت من مستوصف صغير مستشفى اعتبر فى ذلك الحين وحتى الآن من أعظم المستشفيات،

وكان به أحسن الأطباء واكفأ هيئة تمريض وكان مديره الدكتور مصطفى الشربينى الجراح الشهير.

وقد يكون مثل أولاد إسماعيل صدقي باشا كثيرون ممن فرضت عليهم الحراسة، ولكننى أتكلم عنهم بالذات لأننى خالطتهم وعرفتهم حق المعرفة، وقد هاجر عادل صدقي إلى كندا وهو يقترب من الخمسين ولاقى من المتاعب والهوان مالاقى إلى أن وجد عملا يناسبه، ولقد فضل المتاعب على الشعور بالظلم وفضل الغربة في كندا على الغربة فى مصر.

وقف أبي إلى جانب زوجته، وكان زوجا مسئولا وأخا حانيا، وشريكا دمثا رقيقا ولكن لم تحتمل زوجة أبي الشعور بالظلم وقام صراع بينها وبين نفسها أدى إلى اضطرابات عصبية تسببت في إصابتها بانسداد في شرايين الساقين، وتقرر أن تجرى لها عملية في لندن. سافر معها أبي واصطحبنى معه. واستغرقت العملية أربع ساعات كاملة، وقبيل العملية تحدث الجراح عن خطورة الحالة. وقال إنه ليس متأكدا من نجاح العملية.. وإنها قد لا تستطيع أن تسير أكثر من خمس دقائق متتالية، وطلب منها أن تكتب أنها قد أحيطت بالنتائج علما، وأنها قد قبلت بمحض إرادتها إجراء العملية، وأحببت الكذب حينئذ، ووجدته أرحم أحيانا بالناس من الحقيقة، وأما المريضة فكانت ثابتة هادئة وأما أبي فقد حاول أن

يخفى قلقه – وأن يكتم اضطرابه، وأما أنا فقد شعرت بجسمى يتخبط بعضه فى بعض، وأحسست بقلبى يترنح فى صدرى، ومرت العملية بسلام وكانت النتيجة أحسن بكثير مما قدر الجراح، وبقى أبى إلى جانبها شهرا بأكمله يحنو عليها ويجاملها حتى كادت الغيرة أن تدب فى قلبى، وبعد أن تماثلت للشفاء كنت أخرج مع أبى لنشاهد المتاحف والمسارح، وفى يوم ذهبنا معا إلى السينما، وبعد انتهاء العرض أمسكت معطفه بكلتا يدى ووقفت وراءه لألبسه إياه، وإذا بنظرات التعجب تنهال علينا من كل جانب وكأنى قد أجرمت عندما لم أراع بروتوكولهم، وقرروا بالنظرة السريعة اللائمة، أننى لاأمت للمدنية بصلة، والحقيقة أننى كنت سعيدة وأنا ألبس أبى معطفه، ولم لم يكن الرأى العام ضدى بهذا الشكل لالتفت إليهم ولقلت لهم: «إن أجمل شىء فى حياة المرأة الشرقية هو تعلقها بأبيها وأمها» ورعايتهما لها.. فالأب يظل أبا حانيا مسئولا ناصحا إلى آخر لحظة فى حياته.. أما عندكم فالأبوة تنتهى عند بلوغكم سن الرشد.

وإن أجلنا الطرف فيما حوله وتركنا أولاده وزوجته جانبا لرأينا علاقاته العائلية متشعبة فقد كان شديد الحب لعمته، وهى سيدة شديدة الذكاء، واسعة الصدر تتكلم فى كل موضوع باتزان ووضوح فطرى، وكانت لا ترحمنا نحن أهل بيته إذا سببنا له أبسط المضايقات وكان متعلقا بأخته وهى تكبره بعدة سنوات، وهى سيدة

سريعة البديهة تحفظ الشعر وتستشهد به رغم أنها لاتكاد تقرأ، ولكنها خالطت في صباها جيلا من الناس أحب القراءة وحفظ الشعر وتعمق في الأدب، وكان أبي يحب الجلوس إليها ويستعيدان معا ذكريات طفولتهما، وكانت تشهد له دائما بعذوبة الحديث وتقول: «أخي عزيز يضع قطعة من السكر على لسانه» ولكن كان يحلولها أن تشكو منه إليه وأن تذكره دائما بما فعلته له وهما في بيت أبيهما.. وكم وضعت في جيبه الجنيهات الذهبية كلما عاد إلى المدرسة بعد الإجازة، وكم تعمد أن يبدو وكأنه لايراها حتى لايمنعها من ذلك وكان يضحك ويقول لها: «وكيف أنسى أفضالك» ولكنها إذا أحست أن به ضيقا كانت نارا على من سبب له هذا الضيق، وعندما تنفرج الغمة تعود إلى الشكوى، وكان يحبها كما هي. أذكر مرة أنه وعدها بأقمشة كهدية في مناسبة ما.. وقال لي أمامها: عليك أن تشترى لعمتك أحسن ما في المحلات من أقمشة، فذهبت وأردت أن أرضى أبي وأرضيها، فأخترت أقمشة جميلة وبسعر معقول، ولما رأت الهدية بدا عليه الامتعاض ولكنها لم تقل شيئا، فلا هي أثنت ولا هي انتقدت وإذا بها بعد ذلك تشكوني لأبي. وكيف أنني لم أوفيها حقها وكيف أنني اشتريت أقمشة لا تليق بها، وكيف وكيف. فغضب أبي وقال لي «وهل طلبت منك أن توفرى لي، كيف تغضبين عمتك؟ وكيف لا تعرفين مايليق مما لايليق؟ والتفت إلى أخته قائلا: «أنا الذى سأشترى لك بنفسي كل

ماتريدين. «ومرت الأيام وجاءت المناسبة تلو المناسبة وطبعا لم يذهب أبى إلى المحلات لشراء الهدايا لأخته، وطال انتظار عمتى، ولم يصلها إلا الوعود والنية الطيبة وبالطبع لم أتطوع لأحل هذا الإشكال. وفى يوم تقابلت معها عند أبى فأخذت تربت على كتفى فى نعومة، وتنظر إلى نظرات مدللة، وتقول وتريد أن يسمع أبى: «الحق على لك لقد أدركت خطأى. من قال إن ما اشتريته لى لم يعجبنى؟ إذا انتظرت أن يشترى لى أبوك فسوف أنتظر عمرى كله. لن أشكوك بعد اليوم» ويضحك أبى ويأمرنى بتسلم مهام عملى الأول، ولكنى تحريت هذه المرة أن أشترى الأغلى ثمنا حتى أرضى عمتى وأعاكس أبى.

لما استقربنا المقام فى القاهرة سكنا فى حى الدقى وكنا نتمشى معا كثيرا فى شوارع القاهرة، ولايكاد واحد من المارة يمر دون أن يحيى والدى فقد كانت معارفه كثيرة بدرجة مذهلة، وكان يحيى رافعا يده إلى رأسه بحرارة تتفاوت على حسب درجة المعرفة، وفى يوم كنا سائرين أمام منزل صديقه سعيد بك الألفى فقال لى «تعالى أعرفك بسيدة جذابة الشخصية، ودخلنا ووجدنا صاحبة المنزل السيدة اعتماد الطرابلسى جالسة مع زوجها وأصدقاء لهما.. وأقبلت علينا تحيينا.. بوجه بشوش وصوت ساحر، وجلسنا معهم ودار الحديث عن الشعر فإذا باعتماد تقول شعرا من قيس ولبنى بصوتها الجميل وبنطق عربى أخاذ.. وبهرتنى هذه الأديبة الفنانة المعجبة. وأذكر

يوما أننا خرجنا نتمشى على النيل فإذا بى أرى أبى يعانق صديقا له التقينا به صدفة ويناديه «بياصديق العمر» ورأيت شوقا يفيض من عيونهما وحبا ينطق به وجهاهما، وما أن انتهى اللقاء الحار حتى سألته: «عن هذا الصديق الحبيب فقال إنه زميل دراسته وصديق عمره مصطفى مرعى» فقلت «كيف تحبه كل هذا الحب ولاتراه إلا صدفة» فقال «إنها الحياة تباعد بين الناس ولكن لا تستطيع أن تنزع الود من قلوبهم ولطول عملى فى الأقاليم قلت لقاءاتنا ولكنى أراه دائما عندما أكون فى القاهرة» وقص على كيف تعرف على مصطفى مرعى.. وقد كتبها فى الخطبة التى أعدها لاستقبال مصطفى مرعى بعد ذلك بعشرين عاما، وذهب قبل أن يلقيها واترك قلمه يصف التعارف «تلاقينا فى مدرسة الحقوق وكانت الثورة الكبرى قد اندلعت فى البلاد عامة فظاهر أهل البلد أجمع، ثم اختلف زعماء البلاد اختلفوا أى التدابير أسرع وأكفل لتحقيق الآمال؟ كان طلبة كلية الحقوق فى طليعة الطلبة الثائرين.. وكانوا جميعا إلا قلة قليلة منهم يؤمنون أصدق الإيمان بزعامة الزعيم الخالد سعد زغلول - تستهويهم وتسحرهم كلمته، ولم أكن منهم، وكان مقهى مدرسة الحقوق ندوة للطلبة يتشاورون فيه.. وذات صباح كنت جالسا بهذا المقهى.. وعلى قيد خطوتين منى جلس زعماء الطلبة يديرون بينهم الحديث ويناقشون فى الخطط والتدابير وإذا بواحد منهم قامت بعد ذلك بينه وبينى صداقة رحمه الله يقول وهو يشير إلى بإيماءة طرف

لم يخفها: «احترسوا فإن إلى جوارنا خصما لنا ولاجتماعنا غير مأمون الجانب» ولعل بعض الحاضرين قد وافقوا على هذا الرأى ولكن واحدا منهم اعترت طلاقة وجهه مسحة من العبوس ثم أجال نظرات فى إخوانه جميعا ثم بدأ يتحدث فى خفوت وهدوء.. تحدث عاتبا ثم لائما. ثم أخذ يتناول حرية الرأى وحرية التعبير، وحرية الإنسان فى اختيار الطريق الذى يتلاءم مع نفسيته واقتناعه مدافعا عن ذلك الذى وجهت إليه تلك الإشارة النابية، وحين عورض اندفع فى صوت متهدج يؤيد آراءه. ويقول إن اختلاف الآراء دليل على حيوية الأمة، وبرهان على محاولات كريمة تنشد الوصول إلى الحق، ولست أذكر كلمة الزميل على وجه الدقة ولكننى أذكر كلمة وكأنما سمعتها منه أمس قال: «فليؤمن كل منا بما آمن به وهذا خير. أما عبادة الأشخاص.. والتسابق إلى تأكيد ما يقولون وتقديس ما يصنعون فإنها علامة إسفاف متهافت يصيب الأمم والشعوب» ثم قام والغضب والأسف فى وجهه، ملامح هذا هو مصطفى مرعى كما عرفته فى أول لقاء، وظل على ما هو عليه إلى يومنا هذا «وانتهى وصف أبى لصديق عمره».

ورثاه مصطفى مرعى بعد مقابلتنا له على النيل بعشرين عاما فى المجمع اللغوى، وكان أبى قد أعد خطبة لاستقبال صديق عمره فى المجمع، وأجل سفره إلى الخارج مرتين ليتمكن من إلقائها بنفسه، إلا أن الله دعاه إلى جواره ولم يلقها، وقد طلب إبراهيم بك مدكور

عضو المجمع من بهى الدين باشا بركات أن يسألنى إذا كان أبى قد أتم الكلمة، ليلقيها ثروت أباظة بدلا منه، وكانت لفتة رقيقة. وألقى ثروت الكلمة وقام مصطفى مرعى وقال وصال وجال وتكلم عن الفلسفة والأدب ثم تكلم عن والدى كصديق وذكر مناداته له «بيا صديق العمر». وهو نداء لا ينسى لأن نبرات الصوت كانت من خفقات القلب ثم تكلم عنه كشاعر بلسان تنساب منه العواطف المتدفقة وبقلب ينهل منه الأسى..

وأذكر بعد وفاة السنهورى باشا أقام المجمع حفل تأبين فى سنة ١٩٦٨ ورثاه أبى بقصيدة منها:

ظلم الموت أن فى أحضانه
مرفأ للغريق فى أشجانه
ومجازا إلى جوار طهور
ساكب حوله سنا رحمانه
غيب الموت شافعى زمانه
وأصاب القانون فى برهانه
يعظم الخطب فى العظيم إذا لم
يرق راق إلى عوالى مكانه
نكس الفقه رأسه يوم أودى
وانطوى ساهما على احزانه

راض للبـــاحثين جامحــــه

الصوب وأرخى لهم عصى عنانـه

وحبـــاهم مـــن المراجـــع

بالغيـث تضىء الشروح فى هطلانـه

صفوة القول أنـه عبقرى الجيـل

غـــير المســبوق فـــى ميدانـــه

ذو حياء فى فضله حين بعض الخلق

ذو خبلـــة علـــى نقصانـــه

جمـع الشــرق وحــده فتلاقـــى

فـــى ديـــابيج علمـــه وبيانـــه

سادن العدل أعـرض العـدل عنـه

ســاخرا عــن يقينـــه وحصاتـــه

رأيـه الحـــر عــد مــن سـيئاته

والإبـاء الوقــور مــن ســقطاته

حسد الحاسدين يفضى عن السفح

ويرقــى للطــود فـــى شــرفاته

إن رأى الإنســان ضــرب مـــن

العرض هما الأكرمان من حرماتـهْ

فــإذا ســاقه اســتطارت قـــوى

الشــر فـــألوت برزقـــه أو بذاتـــه

وإذا البغــــى لم تزلــــه فأمــــهل
تفــــل الأيـــام حـــد شـــباته
ليـس حكمـا حكـم يشـق مـــن
الإرهـاب مهواتــه إلى شـــهواته
ليـس شـعبا شـعب يقــر علـــى
الضيم ويشـفى غليلــه فــى نكاتــه
إيــه عبـد الـرزاق أضفـى عليـك
الله مــن فضلــه ومــن رحماتـــه
وتـــولاك مــــن رضــــاه بفيــض
يتـــوالى عليــك فـــى جناتــــه
يكـرم الله نـافع النـاس قبـل المنطوى
فــــى صيامـــــه وصلاتـــــه
جـــزع المجمــع الوقــور وهـــل
يجــزع إلا للصــم مــن نكباتـــه
كــاد لـــولا حيـــاؤه وجـــلال
العلـم يـروى أسـاه فـى عبراتــه
أنــت حـــى وإن طوتـــك المنايـــا
ومــن النـاس ميـت فــى حياتــه
وأذكر أن مصطفى بك مرعى كلمنـى فـى التليفـون حـوالى السـاعة الواحدة ظهرا وقال لى «أين عزيز؟ إنـى أريـد أن أقبلـه» فقلـت إنـه

لم يصل إلى البيت بعد فقال: «لقد قبلته فى المجمع مهنئا بالقصيدة ولكننى أريدك أن تقبليه عنى ثانية فلقد كانت القصيدة فوق الإبداع.

ولا يفوتنى مادمت قد تكلمت عن المجمع أن اذكر أن أبى قد دخل عضوا فى المجمع عام ١٩٦٢ وأن الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد قد استقبله بخطبة قيمة أسوق منها هذه السطور: يقول العقاد: «من نحو عشرين سنة ظهرت فى أفق البيان العربى آية من آيات الشعر والمسرح: هى رواية «قيس ولبنى» لشاعر لم يعرف له عمل فى هذين الفنين قبل ذلك: وهو زميلنا اليوم بمجمع اللغة العربية الأستاذ عزيز أباظة. وكان من حظى أن أقدم تلك الآية.. كما كان من حظى أن أقدم صاحبها اليوم فى هذا المجمع فقلت يومئذ فى مقدمتها: مؤلف قيس ولبنى لو قضى عشرين سنة فى السعى إلى المكانة الأدبية التى يعرفها له الأدب العربى الآن لما كان ذلك بالكثير على تلك المكانة.. لأنه باتفاق الجلة من العارفين شاعر من شعراء الطبقة الأولى فى اللسان العربى.. ومؤلف من مؤلفى القصص التمثيلى المعدودين فى هذا الزمان، وتلك منزلة رفيعة لا يكثر عليها أن تدرك فى عشرين سنة. ولا فى عشر، بل عرف بها فى أسابيع قلائل بغير مكابرة من أحد ولا رغبة فى المكابرة ممن يستطيعها ويهواها. لأنه غنى بالجوهر الأصيل ولم يعن بالعرض المضاف، أو هو قد اهتم بالقدوة ولم يهتم بالتقدير الذى لم يتطلبه ولم يضيع فيه وقته.

ثم تمت للشاعر النابغ عشر آيات قبل «قيس ولبنى» آخرها «قيصر» عصر عواهل الرومان ومن قبلها «قافلة النور» فى عصر الدعوة الإسلامية.. وأرى أننى أعود إلى تلك المقدمة فلا أغير منها كلمة وأعود إلى تلك القدرة التى تبينت لنا من المشاعر فى آيته الأولى فإذا هى لم تتغير فى الجوهر، وإن كانت فى ازدياد بتقدم ولا يتكرر، فكل ملامح القدرة المعهودة واضحة فى قيصر وضوحها فى «قيس ولبني» كما تتضح ملامح الرجل الكبيرة في صورة صباه. هل يراد بهذا إن شاعرنا بلغ الشأو اخيرا وكان دون الشأو بكثير فى بواكيره الأولى؟ كلا إنه قد ارتفع إلى الطبقة الأولى بين شعراء العربية يوم ظهرت له قيس ولبنى بغير مكابرة من أحد ولا رغبة فى المكابرة كما تقدم.

وربما كان للوظيفة حكمها فى هذا الانطواء الفنى مدى تلك السنين التى تقدم بها الشاعر فى أطوار الاستعداد والمراجعة، فإن المدير أو الحاكم قلما يناسبه أن يطالع الناس بنجوى فؤاده كل يوم فى الصحف السيارة ولكنه لا حرج عليه أن يرفع الستار حينا بعد حين ليتحدث إليهم بألسنة الممثلين وأبطال الفن والتاريخ. لا عجب إذن أن يطالعنا الشاعر بملكة نمت وأينعت وأن نرى فى «قيس» كل مانراه فى «قيصر» من تمكن الأستاذية وطمأنينة اليد الصناع والخبرة التى انتهت من المحاولة إلى الحول، ومن التجويد إلى الجودة.

وإنك لتقرأ عمله المسرحى وتقرأ له رأيه فى المسرح فتعلم أنه يهتدى مع السليقة برأى الناقد وذوق المشاهد. ويحسن الموازنة بين رأى ورأى، والمقابلة بين ذوق وذوق، فيعطى الصناعة حقها. ويصدر عن السليقة قبلها، ويكون أول الناقدين لعمله فلا يصيبه الناقد. إن أصابه.. إلا حيث يتقيه.

ولكننا نستقبل الزميل الجديد فلا يفوتنا أن نذكر له فضلا سابقا إلى إنصاف اللغة العربية وجلاء الحقيقة عن طبائع أهلها.. فقد طالما قيل إن شعر المسرح لم يظهر فى آدابنا قديما لضيق فى حظيرة القريض العربى وقصور فى خيال أبناء العربية، ولقد طال الرد على هذه الدعوى وتكرر القول ببطلانها، وعاد المؤرخون بالسبب إلى طبيعة البادية فى مجتمعها وشعائر دينها. فالزميل الجديد يؤدى بمجاميعه العشر قسطا فوق قسط الشاهد الواحد فى هذه القضية الرابحة، فإن له لنهجا من النظم البليغ يلتزم فيه شروط القريض ويتحرج فيه مما يباح للشاعر الموجز والمطيل، ويودعه ما يريد على ألسنة الرجال والنساء، وأمزجة الخيرين والأشرار، وخلائق العلية والسواد.. ومواقف القوة والضعف والضحك والبكاء، والرضى والحزن، فيتسع لما أودع، ويجاوز مدى التعبير إلى غاية من البيان المشبع والأثر البليغ.. ويكاد أن يلتزم مالا يلزم فى القصيد فيجرى الحديث الواحد على وزن لا يتعدد.. ويفرغ الموقف الواحد فى قالب لا يتشعب.. ويوشك أن يتحرج من قصر الممدود ومد المقصور وهما فى سعة من العذر المقبول لكل شاعر وفى كل مقام.

إن اللغوى العامل – عزيز أباظة – لفي الرحب والسعة فى مجمع اللغة العربية.. رشحته له أعماله الفصاح، ولم يرشحه لـه صاحب الأعمال كأنما شاء أن يصدقنى اليوم كما صدقنى قبل عشرين سنة إذ كنت أقول ما أعيده الآن «إنه اهتم بالقدرة ولم يـهتم بـالتقدير، فلـم يعرف الراصدون هذا الكوكب إلا وهو فـى برجـه الأسـنى قـد جـاوز الأفق وأصعد فى سمت السماء».

وعلي ذكـر المجمـع اللغـوى فقـد حـدث أن اجتمـع فـى القاهرة أعضاء المجمع اللغوى المصرى وكان عددهم يربو علـى المائـة.. واصر أبى ألا يخدم ضيوفه على المائدة إلا أولاده وأولاده إخوته زيـادة فـى إكرامه لهم وقد شعر الضيوف بهذه اللفتـة.. وأثـرت فـى مشـاعرهم.. وكنا نخدم هذا العدد الضخم بسرعة ونشاط.. واهتممنـا بكـل ضيـف على حده اهتماما بالغا.. ولكننا كنا نتكلم ونضحك مع بعضنا البعض أولاد عمى وأخى وأنا أثناء تأدية العمل.. والظاهر أن أبى نسى أننـا لسـنا مـن المحـترفين فـأبدى ملاحظتـه علـى صوتنـا العـالى وعلـى ضوضائنا.. فسكتنا وأتممنا عملنا بكل هدوء.. ولما خـرج هـذا الجمـع الخفير من حجرة المائدة جلسنا نحن أهـل البيـت لنتنـاول غداءنـا.. وإذا ببعض أعضاء المجمع يقتربون منا ويقولون بلطف:

– إن عزيز أباظة صمـم علـى ألا يخدمنـا إلا أولاده وهـانحن أولاء مستعدون أن نخدمكم بدورنا..

وكانت لفتة رقيقة.. ردا على لفتة كريمة.

خطف الموت أخاه عثمان ولما يبلغ الأربعين. فجزع أبـى وأذهلتـه الصدمة ولازمته آلام الكلية شهرا بأكملـه، وأخـذ أولاد أخيـة تحـت جناحه، ووجد فيه أشرف وهو ابـن أخيـه أبـا ومعزبـا يفضـى إليـه بذات نفسه فيجد قلبا صاغيا ومجيبا.. وعندما فكر فـى الـزواج أتـى إلى عمه فوجد عنـده الـترحيب والرعايـة والمسـاندة وكـان أول سـؤال سأله لابن أخيه: أهي جميلة..؟

وهذه أبيات من رثائه لأخيه عثمان منها:

أخـى وابنـــى وأكـــرم أصدقـائى
وأدنـــاهم إلى نفســـى مقيـــلا
ولدت علـى يـدى فكيـف تمضـى
وأبقـى بعـدك الدنــف الثكـولا
هـو القـدر الـذى يرمـــى. فلـولا
يقينـى. قلـت: لم يـهد السـبيلا
سلخت صباك بـين يـدى وعينـى
وفى حضنى درجـت فتـى صقيلا
إذا الآبـــاء حملـــهم بنوهـــم
وكم زل الصبـا – الشـجن الدخيـلا
فأقســـم ما لمحـــت علـيك عـــابا
وقـــد لابســـتك الزمــن الطـويلا

ورف لك الشباب فكنت بدعا

من الفتيان متئدا جليلا

كملت فكنت أوفى الناس صدقا

واسرعهم على حق نزولا

أخى وابنى وأكرم أصدقائى

وتزدان الدنا بابن صديق

وكنت إذا أراك أقول حسبى

سناك يرف في ليلى السحيق

وأسمع همس خطوك حين تهفو

إلى غرفى مع الليل الغسوق

واقتبل الصباح وأنت منح

إلى بوجهك الضاحى الطليق

وتحمل عبء أولادى وعبئى

فمن لى اليوم بالبر الوثيق

تأس أباك أشرف وامتلثه

ورم قلعات سؤدده السموق

وقد أتم فى القاهرة مسرحية «الناصر» وظهرت على المسرح عام ١٩٤٨ هـ «شجرة الدر» ومثلت عام ١٩٥٠ و «غروب الأندلس» ومثلت عام ١٩٥٢ و «شهريار» ومثلت عام ١٩٥٥.. وقد أخرجها جميعا الأستاذ فتوح نشاطى ماعدا رواية «الناصر» فقد أخرجها الأستاذ زكى طليمات.

وكان الجمهور فى ذلك الوقت يحب الروايات الشعرية ويقبل عليها بل ويتجاوب معها تجاوبا يلفت النظر. غير أنه فى السنوات الماضية منذ سنة ١٩٥٥ حرم المشرفون على المسرح الناس من هذه الروايات بحجة أنها لا تصل إلى الجمهور العادى ولست أرى رأيهم.. فلو أنهم رأوا دار الأوبرا وهى تعرض على مدى شهرين أو يزيد كلا من «قيس ولبنى» و «العباسة» و «الناصر» ولو أنهم رأوا إقبال الجمهور وهو يتزايد يوما بعد يوم.. ولو أنهم سمعوا كلمة «الله» وهى تعلو استحسانا وإعجابا بالشعر، لو أنهم رأوا كل هذا لما أصدروا هذه الأحكام القاطعة. وأسوق هنا مثلا يؤيد كلامى سمعته من السيدة أمينة رزق وكتبه الأستاذ فتوح نشاطى فى كتابه «خمسون عاما فى خدمة المسرح» وهو أن الوزارة قررت أن تُحَلّ الفرقة القومية فى عام ١٩٤٦ لقلة ايراداتها، فطلب المخرج فتوح نشاطى مهلة حتى يتم إخراج «شجرة الدر» لعزيز أباظة بطولة أمينة رزق وأحمد علام، وافتتحوا بها الموسم ونجحت نجاحا باهرا وأتت بإيرادات خيالية، وعدلت الوزارة عن الحل، واستمرت الفرقة القومية.

وفى أوائل عرض مسرحية «الناصر» كتب أنيس منصور فى جريدة الأخبار نقدا عنيفا للمسرحية وهجوما شديدا على أبى، ولم يكن عادلا كل العدل وكانت أول مرة أسمع فيها اسم أنيس منصور ولم أكن أتصور حينئذ أنه يمكن لأى مخلوق أن يهاجم أبى بهذا العنف، وظللت أكرهه أعواما وأعواما، ولكن صلته توثقت بعد

ذلك بأبى وجمع بينهما ود أساسه الحب والإعجاب، وأزالت الأيام ما فى قلبى من غضب، وعرفته وعرفت زوجته، فلم أستطع إلا أن أعجب به أديبا وإنسانا.. وبزوجته صديقة من أجمل الناس خلقا وأخلاقا.

وبعد سنوات من ظهور المسرحيات جاءت الثورة ونال أبى الجائزة التقديرية عام ١٩٦٣ وخطب يوم الاحتفال بتوزيع الجوائز ودافع كعادته عن لغة القرآن. اللغة التى يجتمع حولها العرب أجمع، وعرض بمن يدعون للتقليل من شأنها والتخلى عنها، وقال عنهم إنها «فئة قليلة العدد - كثيرة العدد» فثارت ثائرتهم وظهرت الجرائد والمجلات وقد أرغب وأزيدت وكانوا منتشرين فيها حينذاك.

وطالعتنا مقالات تهاجم هجوما شريفا، وبعضها أو القليل منها هاجمت هجوما مسموما وحدث يوما والحملة على أشدها أن فتحنا التليفزيون فتصدى لنا رجل يلقى زجلا كان قد فاتنا أوله، وكان ثائرا متوتر الأعصاب، فقلت لزوجى، بالحاسة السادسة - هذا الرجل يهاجم أبى، وبعد ثوان أفصح وأبان وعاب على والدى تحمسه للفصحى ووقوفه إلى جانبها وسألت إحدى المجلات مجموعة من الشعراء اليساريين عن رأيهم فى خطبة أبى والواضح طبعا أن السؤال كان لتشجيع هؤلاء الشعراء على مهاجمتها، وقد هاجموه فعلا، ولكن فى رحمة وفى حب، وطلب منى أبى أن أقرأ

عليه رأى شاعر بعينه فقرأته عليه وأحسسنا أنه كالفأر فى المصيدة، فلا هو يريد أن يتخلى عن مذهبه، ولا هو يريد أن يسىء إلى أبى، فقال أبى باسما، يكفينى هذا منه. وأخفى أبى عنا سبب سؤاله ولكننى عرفت بعد ذلك السبب وأنى اليوم لن أذكره إكراما لرغبة أبى فى أن يخفيه.

وأذكر أن أحد الصحفيين قال إن شطرة واحدة من زجل صلاح شاهين بشعر عزيز أباظة كله والشطرة هى «ملايين الشعب تدق الكعب».

شاءت الأيام أن نسكن مع أبى فى بيت واحد فى المعادى، ويكفى أن أقول إنه لم يتدخل مرة فى شئوننا، ولم يسأل من أين أو إلى أين إن لم نخبره نحن. إذا نزلنا إلى طابقه رحب بنا وسعد، وإذا لم ننزل تركنا وشأننا إلا إذا أحس أن بنا تعبا أو ضيقا.

كان بفطرته رجل بيت. يحب بيته ويقدس الأسرة يجمع شملها ما استطاع إلى ذلك سبيلا وكان له مكان خاص فى حجرته لا يغيره وبجانبه كتبه الأثيرة وخصوصا «ديوان البحترى» وإن حاولنا أن نستعيره رفض قائلا «إلا البحترى ما أعرفش أعيش من غيره». لست أنساه فى مكانه هذا إلى جانبه منضدة عليها أوراقه وأقلامه، وخلفه عمود عليه لمبة للإضاءة، وعلى الأرض وحول قدميه كتبه ومراجعه وكلب أولادى لجأ إليه وآمن عنده، وفضل الاستكانة إلى جانبه عما يلاقيه من العنف والإجهاد مع أولادى، إنها صورة

جميلة لفنان أحب طول حياته البساطة، ولم يكن فيها مكان للغـرور ولا للادعاء..

وقد تأثر أبى تأثرا شديدا عندما مات هذا الكلب، ورثـاه بقصيـدة أهداها للفنان الكبير الأستاذ صلاح طاهر وحرمه لأنهما جزعـا جزعـا شديدا عندما مات كلبهما - ولأنهما مثلـه فـى شـفافية النفس ورقـة القلب. وهذه بعض من أبيات القصيدة:

إنـــى فقدتـــك صاحبـا بادلتـــه الحـــدب النديـــا
مـا إن خرجـت سـعى فلاحقنـــى وودعنـــى حفيـــا
وإذا رجعـــت هفـــا إلى وهـــز عطفيـــه وحيـــا
إن لم ألاطفـك النـــهار حـــزرت مـــاأنحى عليـــا
وعلمـــت أنـــى حـــامل همـــا تواردنـــى فأعيـــا
فتـدور حـــولى كـــالذى يســـتطلع الشـــجن الخفيـــا
وتمـد رأسك فـى يدى وفـوك يعبـــث فـــى يديـــا
أنـــت الصديـــق العـــف لاجمـــح الـــوداد ولاتغيـــا
كـــلا ولم تعتـــب إذا جافـــاك تدليلـــى مليـــا
لم تمنـــح الإخـــلاص كالإنســـان مـــأجورا دنيـــا
فـاذهب كمـا ذهـب الوفـاء طـواه لـؤم الخلـق طيـــا

وفى المعادى كان للبيت حديقـة واسـعة يدخـل منـها الفـئران إلى داخل المنـزل،وقد أقام فأر صغير فى حجـرة المعيشـة الخاصـة بـأبى وكلما حاولوا طرده هرب مسرعاً ثـم يعـود إلى مكانـه المعـهود تحـت

مقعد والدى.. وكانت زوجة أبى ولا أحب أن أسميها بهذا الاسم– لأنها كانت أما لنا بحق.. كانت تنظف الغرفة قبل أن تأوى إلى فراشها حتى لا يبقى فيها أى أثر لطعام.. لييأس الفأر ويرحل. ولكن بعد دقائق يعود أبى ويضع له بعض الجبن والبسكوت شفقة ورأفه بالفأر الصغير الجوعان المذعور.

وكان فى أول إقامته معنا يفزع عندما يسمع صراخ أولادى وشجارهم ويتصور أنه قد ألم بأحدهما مكروه، ولكنه مالبث أن اعتاد ذلك، وانشغل بهم وتبنى آراءهم.. وانضم إليهم علىّ، ووجدوا هُم عنده الليونة وسعة الأفق فتحصنوا به وقاومونى بسلطانه على، كنا حوله فى المعادى، حين رمته الأقدار بما يهدد كيان كل قوى ويزلزل نفس كل ذى بأس، ولقد كان قادرا على تحمل المسئوليات ويعف عن الكلام ويسمو عن الشكوى مهما أصابه، وما أكثر ما يصيب الناس – ملأته الصدمة بالمرارة. واهتز أول الأمر، ثم واجه الواقع وحده، ومشى إليه وهو فوق السبعين يحاول أن يجد منفذا يبدأ منه المقاومة، وجد المنفذ واقترب من الحل، وساعده صديقه الكردى رضوان فى ناحية اختصاصه بكل قواه، وقاوم ونحن من حوله نفديه بأرواحنا، ولكن لا نستطيع له شيئا.. ووقفت زوجته كعادتها إلى جانبه موقفا كأعظم ما تكون المواقف، ولكن أين لهذا الإنسان المرهف أن يجد العزاء فيما أصاب آماله وأمانيه، وكان لايكاد يخرج إلا لتذليل عقبة من العقبات التى رمى بها، وكنا لا

نتركه - كنت إذا نويت الخروج وتهيأت له - ما أن أصل إلى باب الحديقة حتى أجد نفسى مرتدة على أعقابى لأكون إلى جانبه، ولكن الله رحمان.. فقد خرج من تلك الغمة ثابتا، ولكنه أعطى من عواطفه ومن ماله ما طاقة له به.

وكانت قد جمعته بمحمد طاهر أباظة صلة عمل، واتخذه سكرتيرا له عندما كان رئيس مجلس إدارة فى مطبعة مصر، واعتبره ابنا له وجاءنى محمد فى هذه الأيام العصيبه يقول ولا يحاول أن يغالب ثورته: «أنا لن أسمح لأحدكم أن يسبب كل هذا الغم لأبيه يخيل إلى أنه فى إمكانى أن أقتلكم كلما رأيته على هذا الحال. أنتم لستم جديرين بأن تكونوا أولاد عزيز أباظة» ولقد حرمتنا الأيام من هذه المشاعر الجياشة، فقد اختطف الموت محمدا ولم يتجاوز السابعة والأربعين من عمره..

وحدث أن سافر أبى إلى الخارج وقضى شهورا ثلاثة هناك، وكنا لانزال نسكن فى بيت واحد.. وطالت علينا غيبته وشعرنا بوحشة شديدة بدونه، ولما عاد وسمعنا صوته فى الصباح الباكر يتحدث مع البستانى بلهجة كلها ود وبساطة شعر زوجى ثروت أباظة بالفرحة تملأ نفسه وأرسل من تأليفه أبيات من الشعر وهى:

طربت بصوتك الندى

يرن بشارع النادى

فقــد كنــا علـــى شـــوق

فـــروى شـــوقنا الصـــادى

ووقعهما باسم ابننا دسوقى:

وعرف أبى طبعا أن ثروت هـو الذى كتب البيتين وسعد بـهما وقال لى:

- اوعى تفتكرى أنك بس اللى بنتى وفى مناسبة مماثلة أرسل إليه ثروت هذه الأبيات من تأليفه أيضا يقول فيها:

بقربــك تزدهــى الدنيـــا

ويحلـــو العيـــش والأمل

منيـــع حصننـــا فيـــها

ونضـــر نبتنـــا خضـــل

فــإن مـــالت طرائقـــها

ذكرنـــاكم فتعتـــدل

وكنا نستقبل فى حديقة المنزل أولاد أخيه وأطفالهم وكان يسعد بزواره ويخرج من وحدته وينسى ما به.

وفى المعادى كتب «إشراقات السيرة الذكية» فقد اقترح عليه عبد الحميد جودة السحار - رحمه الله. أن يكتب السيرة النبوية شعرا، ثم تصور سينمائيا وتغنيها أم كلثوم مع عبد الوهاب فلاقت الفكرة قبولا فى نفسه وكأنه كان ينتظر هذا الاقتراح، ولم تمض أيام

إلا وقد نادانا لنسمع ما كتب، وأخذ يقرأ علينا، وكانت هذه عادته، ويقول لزوجى ولى ولإخوتى «أنتم جمهورى» ويأتى صديقاه أنور أحمد والدكتور الدمرداش أحمد ليسمعا معنا ما تم من السيرة النبوية، وتجمعنا الحديقة، وتمر الساعات لايكاد يشعر بمرورها أحد. وأذكر أنه عندما كان يكتب آخر أبيات فى السيرة النبوية كان أولادى يديرون إسطوانة لاوبرا «لاتوسكا» وهى تغنى وتصرخ وتبكى حبيبها بالإيطالية. والموسيقى تعلو وتعلو وتصاحبها إلى أعلى الدرجات، وفى نفس الوقت كان زوجى يصرخ فى أولاده أن يترفقوا بجدهم. ووسط كل هذا كان أبى يكتب بهدوء عن النبى العربى فى المدينة.. فذهبت إليه وأنا أرثى له وقلت: «كيف تكتب والحال هذه؟» فقال برقة: «لا عليك، فإنى لم أسمع من ضوضائكم شيئا»

وجاء أنور أحمد يوما لزيارة أبى كعادته، وأثناء الحديث سأله:

– أرنى ياباشا شعرك الذى لم ينشر.

– إنها قصائد كثيرة ولكنى أظن أنها لا تهم أحدا.

– كم عددها.

– لا أذكر.

– أأستطيع أن أراها؟

أتى أبى بحقيبة بها كل قصائده، فقال أنور أحمد:

- حرام ياباشا تبقى كل هذا فى الظلام.. إنه يمكن أن تطبعها فى ديوانين.

- إننى لا أرى داعيا لنشرها.

- ليس من حقك أن تحبس هذا الشعر عن الناس، ولن أخرج من هنا حتى تعدنى بنشره فى ديوان.

وأنتهى إلحاح صديقه عليه بموافقته على أن يراجع معه قصائد شعره. وجاء أنور أحمد فى اليوم التالى، وأحضر له أبى الحقيبة السوداء التى تضم الدفاتر والكراريس والأوراق التى سجل بها شعره الذى نظمه فى الرثاء والغزل والإخوانيات ووصف ما رآه فى رحلاته الكثيرة وانفعلت به نفسه، وفى المناسبات الوطنية ومهرجانات الشعر العربية، وكثير من هذه القصائد لم ينشر ولم يكن فى حفل ولم تطلع عليها عين إنسان.

وقضى الصديقان يوما كاملا فى بيتنا بالمعادى يراجعان ويرتبان وينسقان، ووجدا بعض القصائد تحتوى على فراغات لم تكتمل، فوعد أبى بإكمالها، وصمم على أن يكتب له أنور أحمد مقدمة للديوان.

ولكن شاء القدر ألا يصدر الديوان فى حياة أبى، فقد اختاره الله إلى جواره قبل إتمام ما وعد به صديقه، فسلمت أنور أحمد حقيبة الشعر، فقام بإعداد الديوان للطبع وسلمه إلى حسن الزين صاحب

دار الكتاب اللبنانى التى طبعته فى مجلد واحد يضم أربعة أجزاء، مكتوبة كلها بخط اليد، على ورق فاخر، وبإخراج فنى رائع.

وكانت دار الكتاب اللبنانى هى التى طبعت قبل ذلك جميع مسرحيات أبى وديوان «أنات حائرة» فى مجلدين بعنوان «مسرح الشعر» لحساب الحكومة الليبية بتوجيه من الملك إدريس السنوسى. وكان ذلك بداية صداقة وطيدة ربطت بين أبى وبين الأستاذين حسن الزين وابن عمه محمد سعيد الزين صاحبى دار الكتاب اللبنانى وقد دعاهما أبى إلى بيته فى المعادى، كما قدمهما إلى عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين الذى وقع معهما عقدا لنشر مجموعة مؤلفاته الكاملة فى بضعة عشر مجلدا. وسافر أبى إلى لبنان بدعوة من دار الكتاب اللبنانى لحضور معرض الكتاب الدولى الذى نظمته الدار واشتركت فيه منظمة اليونسكو حيث ألقى قصيدة، وكان موضع حفاوة كبيرة، وتوثقت الصداقة بينه وبين شاعر لبنان الكبير سعيد عقل، الذى جاء إلى مصر بعد ذلك وألقى قصيدة رائعة فى الحفل الكبير الذى أقيم لتأبين أبى، وهى القصيدة المنشورة فى ختام هذا الكتاب.

وطوال السنوات التى أقمنا فيها معا فى المعادى كان أبى يذهب يوم الثلاثاء من كل أسبوع إلى بيت صديقه حمد الرجيب سفير الكويت فى مصر. يسهر عنده مع أقرب الأصدقاء ويستمعون إلى الموسيقى الشرقية التى يحبونها جميعا، والحق أن حمد الرجيب

ظل إلى آخر يوم من حياة أبى صديقا من أوفى الأصدقاء، وقد شاء أن يؤكد هذا الوفاء ويعلنه فألف موسيقى «قافلة النور» التى أعدها أنور أحمد للتليفزيون عن رواية أبى.

وكنت إذا دخلت معه فى سهرة عند أصدقائه رأيت العيون تتجه كلها نحوه. وكنت أرى السيدات يولونه عناية خاصة. وكان يسعد بها، ويستزيد منها بما وهبه الله من حلاوة الحديث وسماحة الوجه.

تقول صديقة لى وهى سيدة فاضلة وزوجة مثالية. تقول..

- لم أر فى حياتى أبهى من أبيك. إننى حين أراه سائرا فى شوارع الزمالك أسير خلفه ثم أذهب إلى بيتى وأقص على زوجى ما فعلت، وإذا قابلته مرة أخرى. تبعته أيضا وكررت الاعتراف..

وكنت كلما قصصت على أبى هذه القصة قال ضاحكا

- أهى دى الستات اللى بتفهم.

لم أر أبى يكتب فى حجرة خاصة أو على مكتب، وإنما كان يكتب على ركبتيه وبملابس البيت ويحب أن نكون معه، ويتدخل من آن لآخر فى حديثنا، ليشعرنا أنه يتابعنا، وأننا لانضايقه. وكان يحلو له أن يسهر معنا ويحدثنا عن ذكرياته فى مجلس النواب ١٩٣٦ عندما كان فى المعارضة ويكلمنا عن نوادر الانتخابات فى الثلاثينات. وقد روى لنا أنه لما بلغ السابعة من عمره أدخلوه كلية

فيكتوريا فى الإسكندرية مع خمسة من أبناء عمومته ، وكان الدكتور محمود أباظة أو الذى أصبح دكتورا فيما بعد أكبرهم سنا. يبلغ العاشرة وكان يستغل فارق السن ليصادر أموال إخوته وأبى معهم. وكان يأمرهم أن يقوموا بخدمته وإعداد سجادة الصلاة كلما أراد الصلاة.. وأن يرتبوا سريره بدلا منه وفرض على المقصر غرامة هى مصروف يومه ، وكان المساكين يتسابقون لإرضائه ولكنه كان يبدى استياءه من خدماتهم حتى تتجمع ثرواتهم الصغيرة فى حافظته هو وكان أبى يرويها أمام الدكتور محمود، وكان يضحك من سذاجة أبى وزملائه.

وحكى لنا أنه عين مديرا لأول مرة فى القليوبية ، وذهب إليها حينذاك وحده، وأقام عند خالته حرم الدكتور حسين أباظة وكانت تقيم مع زوجها هناك، ولأنها تصغره كثيرا كان دائم المزاح معها. وفى يومْ بعد عودته من المكتب صعد السائق والشاويش ليحضرا الحقيْبة فوجدا الباشا المدير يجرى حول المائدة وخالته تجرى وراءه مهددة متوعدة، فصعق السائق ، وذهل الشاويش.

وكان يحكى لنا هذه القصة ضاحكا أنه يوم وفاة النحاس باشا وكان ذلك بعد الثورة بسنوات وكان هو فى الإسكندرية ، ولم يكن فى وسعه أن يلحق بجنازة النحاس باشا فى القاهرة إلا إذا ركب قطار الصحافة الذى يقوم فى الساعة الرابعة صباحا، وليس به إلا الدرجة الثالثة ، ولحق بالقطار وركب فى الدرجة الثالثة. وتعرف عليه بعض

الركاب، واخذوا يتعجبون.. ويتغامزون فيما بينهم، ولكنه كان مصمما على السير وراء النحاس باشا في مماته، ولم يكن قط وراء النحاس باشا في حياته، بل إنه لم ينتسب إلى حزب الوفد حين كان طالبا وكان الوفد طوفانا..

وحكى لنا أنه كان في باريز في صيف سنة ١٩٥١ وتلقى من شامل دسوقى أباظة برقية يحدد فيها موعد وصوله إلى باريز.. كان شامل في العشرين وحصل علي بكالوريوس التجارة ويريد الحصول على الدكتوراه من فرنسا، وذهب أبي إلى لقائه. لكن الطائرة لم تصل. وانتظر أبي طويلا لأنها كانت أول سفرة لشامل وأول مرة يغادر فيها مصر، ولكنه لم يصل. فعاد أبي إلى الفندق، ولما وصل شامل ولم يجد أبي في انتظاره ارتبك وأرسل برقية إلى أبي قائلا أو صائحا باللغة الإنجليزية التي لم يكن يعرف غيرها من اللغات الأجنبية «عمى أنا ضائع» فسارع أبي إليه وعاد به إلى الفندق وأخذه معه في حجرته..

وليزيل عنه الحرج ورهبة الغربة.. مشى معه في شوارع باريز.. واصطحبه إلى بيوت الأزياء ليريه المانيكان، وهن رائحات غاديات ولكن شامل لم تعجبه باريز.. وقال إن قريته «غزالة» أجمل بكثير.. ولكنه غير رأيه بعد أن أقام بها سنوات أربع.

ومن ذكرياته التي يعتز بها، يوم زارته أم كلثوم وكانت قد فاجأته نوبة قلبية في السودان سنة ١٩٥٨ وعاد مسرعا إلى مصر، ثم

جاءت أم كلثوم وجلست إلى جانبه تقرأ له القرآن وترقيه.. وقد وصفها فى قصيدة فى الحفل الذى أقيم لها حين عادت من أمريكا سنة ١٩٥٤ بأبيات منها:

أصغى لك الله فى علياه قارئة
فى غفوة الفجر آيات الحواميم
تتلين مبتلة الآماق خاشعة
والقلب يذرف دمعا غير مسجوم
ما أنت فى الناس روح عذبة لطفت
أذابها الله فى عليا الترانيم
ما أنت إلا اعتذار الدهر قربه
لكل عان ومظلوم ومكلوم
سمراء من قرية من كان يعرفها
فى أى ناحية أو أى إقليم
هزت ربى الشرق هزا فاستدار لها
وقال. من تلك؟ فى فخر وتعظيم
تلك التى ازدانت الدنيا بها فغدت
غنية باسمها عن كل تقديم
طماى انجبت للأجيال معجزة
عزت وطالت فكانت أم كلثوم

جاءته ابنة صديق حميم له كان قد توفى بعد فرض الحراسة عليه، وكان من أغنى أغنياء الصعيد وكان يتمتع بسلطان واسع فى مركز من أهم مراكز أسيوط. بنى هناك محكمة ومدرسة ومستشفى على حسابه الخاص إلى أن وضع تحت الحراسة وزال عنه كل شىء، واختاره الله إلى جواره جاءته ابنة هذا الرجل بعد طلاقها وطلبت منه أن يجد لها عملا، أخذها بين ذراعيه وبكى كالأطفال، وذهب معها إلى إحدى المؤسسات ولم يخرج إلا وقد ضمن لها العمل.

سافر أخوه أحمد للعلاج فى باريز.. وكان حب أبى لأخيه لا حدود له ولا نهاية.. اجتمع فيه حب الأب لابنه والأخ لأخيه، وكنت أقول له إنك تحبه أكثر من أولادك ولم يكن يدافع عن نفسه، ولما سافر كان من المتوقع أن تجرى له عملية هناك وكان أبى فى بيروت فى مهرجان شعر أقيم تأبينا لبشارة الخورى فكلمنا ليخبرنا أنه إذا تقررت العملية فسيسافر إلى باريز من هناك وعلينا أن نرسل له الملابس الشتوية، وأعتقد وهو فى هذه السن إنه فى إمكانه أن يكون رفيقا فى مستشفى، ولكن الله سلم ولم تجر العملية.

ولبنات أخويه عنده مكانة خاصة، فإذا جئنه أخذهن على ركبتيه فإذا بثلاث شابات: حورية ولبنى ونظيمة. يتنافسن على الجلوس على ركبته، وهو سعيد بذلك يجامل هذه ويداعب تلك بابتسامة حلوة وكلمات عذبة، وقد رأيته يوم خطوبة نظيمة وكانت

قد أعلنت فى بيته فى المعادى، رأيته واقفا فى الصالون يضع السجائر فى الأطباق الفضية بنفسه مخافة أن ننسى أو نسهو.

وقد أراد أولاد إخوته أن يجاملوه فى هذه المناسبة فأخذوا يرددون الأغنية التى قيلت له يوم زواجه الأول وهى أغنية كان يرددها الفلاحون فى الربعماية حينذاك يابن عمى ياقصب منديلى فطرب وهشت أساريره، وابتسمت عيناه وامتلأت بالذكريات، وأخذ يصحح لهم اللحن ويغنى معهم.

وقد زار أبى السعودية والكويت وتونس والمغرب والأردن وليبيا قبل ثورتها، وكان الملك إدريس يحبه ويقربه إليه، وأحس بالتكريم والتقدير فى جميع البلاد العربية. فهم الغيورون على لغة القرآن، وهو من حافظ عليها وحمى حماها، وهم عرب يقدرون الأدب والشعر.. والأنساب، وكان كلما سافر فى مؤتمر هناك استقبلوه بالترحاب، واستقبلوا شعره بالتقدير والإعجاب، وكان هو يعجب بالجواهرى شاعر العراق وبأبى سلمى شاعر فلسطين وبعمر أبى ريشه الشاعر السورى وبدوى جبل، وكان حينما يجتمع بصديقه عبد المنعم الرفاعى شاعر الأردن الكبير ورئيس وزرائها السابق يطلب إليه أن يسمعه بعضا من شعره فى الغزل، فيقول الرفاعى غزلا رقيقا صادقا نابعا من أعماق الأعماق ويهتز أبى ويستزيده، وتمر الساعات فى حب وشعر وغزل وقد ذهب أبى مع أخيه أحمد وزوجته إلى عمان للعزاء فى صديقهم حيدر بك شكرى، وقد رثاه أبى بقصيدة ألقيت

فى ذكرى الأربعين، واستقبله أهل عمان لقاء حـرارة، وقـامت نهلـة القدسى بواجب الضيافة فى بيت أهلها هناك، وكان يناديها دائمـا. بياابنة العم.

وقد زار هناك الملك حسين ولم يتركه صديقـه الدكتـور عبـد المنعـم الرفاعى لحظة. وسهرا الليالى معا فى بيته فى عمان.

وقد قالت لى زوجة أخيه. إن أهـل الأردن قـد توافـدوا عليـه فـى الفندق وإن السيدات أقمن له ندوة نسائية وطالبنـه أن يلقـى. قصـائد من أنات حائرة فى رثاء زوجته الأولى وابنة عمه، وكانت ندوة كلـها عواطف وذكريات. كرمت السيدات فيها ضيفهن، وكرمهن هو حينما كرم المرأة فى ديوانه.

ليس من حقى أن أتجاهل الإلهام فى حياة أبى، فقد قال مرة فى حديث صحفى ردا على سؤال: إذا قلـت إنـه ليـس هنـاك ملـهم لما صدقتنى، ولما صدقنى القراء، واذا قلـت إن هنـاك ملـهما لأحرجـت بعضا من الناس والواقع أن قلبه قد ملأته أقـدس المشـاعر وأسماهـا.. وتدفق الشعر من نبضاته عذبا صادقا وملتهبا، وتلاقـت روحـه بـروح ملكها الحب وفاض بها الإعجاب والتقديس، واستطاعت بمـا أغـدق الله عليها من هبات أن تملأ وعينه وحياته، فعاش أيامه آمنا أمينـا، وظلت هذه الروح تحيا فى خفقات قلبه إلى أن كف هـذا القلـب عـن الخفقان.

كيف أصبحت وماذا تفعلين
عصف البعد بقلب الغائبين
أنت فى إشراقة الفجر معى
كلما رف سناه تشرقين
فإذا الليل احتوانى ستره
فلهاب النار بى ماتشعلين
أجزع الليل وما أطوله
وأكف العبرة موصول الحنين
ساهدا والسهد روح وضنى
هل عرفت السهد؟ لا.. لا تعرفين
إنما السهد وقاك الله من وقده
من صلوات العاشقين
إنما السهد لمن غيرته
اقلقته فمضى لا يستبين
إنما السهد لمن هان على الفه
وهو سليل الكابرين
حمل الهاتف لى عنك صدى
خاضع النبرة مخمور الأنين
خلته صوتا من الخلد زكا
مثلما يزكو ابتهال المرسلين

عذلونى فيك جهلا فاغفرى
سقط الجهل ودعوى الجاهلين
لج بى حبك فودا طفلة
والتظى حبك عند الأربعين
ليست الزهرة فى برعمها
إنما الزهرة فى يوم تبين
والهلال النضو هل يفتننا
فى زها مولده؟ أم بعد حين
لم يزدك العمر إلا فتنة
كالطلا تعذب فى حضن السنين
كيف أصبحت وماذا تفعلين
عصف البعد بقلب الغائبين

كان أبى يسافر إلى أوربا كل عام وله شقة صغيرة فى لوزان يستأجرها فى الصيف وتجملها زوجته فتبدو أنيقة رغم بساطتها، وكان يدعونى لقضاء شهر هناك.. ولا أنس أول سفره لى معه، فقد كان يشكو من آلام روماتزمية فى كتفه وقدمه.. ولكنه صمم على أن يصحبنى إلىمتاحف لندن وباريس، وكان يجلس هو ويطلب إلى أن آخذ من الوقت ما أشاء ثم أعود إليه. وكنا نمشى معا فى شوارع باريس ساعات مع رشدى راشد، وهو شاب يعمل ويعد للدكتوراه فى الفلسفة، وقد أحب أبى وقدره وأحبه أبى وأعجب بذكائه ومثابرته،

وعامله كأب. وكنت أدعـى التعـب مـن المشـى حتـى يرتـاح أبـى - ويجلـس.. وليتـأكد مـن أن الذنـب ذنبـى، وإنـه هـو قـد فعـل فـوق ما يستطيع.

وهو فى السفر وبشهادة كل من صاحبه لا يفكر إلا فى أن يدخـل السرور على مـن معـه وأن يوفـر لهـم سبل الراحـة. ولا أنسـاه أمـام واجهات المحلات وقـد لاحـظ أننـى أختلس النظـر إليـها ولا أقـف أمامها مراعاة له وقف هو وقال ضاحكا: أنا أيضا أحب الوقوف أمام المحلات مادمت لن أدفع شيئا، وكان ينتهى بنا المطاف فى لوزان، وكنا نخرج معا فى الصباح، وإذا لم نخرج معا تقابلنا صدفة، فلوزان بلد صغير وإذا ذهبنا إلى «أوشى» حيث كـان يصطـاف محمـود بـك تيمـور.. كـان يرجـع بذكرياتـه إلى سـنة ١٩٣٧ عندمـا زارهـا مـع والدتى، ويشير إلى الفنـدق الـذى نـزلا فيـه معـا، ويعيـد علـى هـذه الذكريات.فى كل عام.. ونحن نطوف حول هذا المكان.

كان يستيقظ من نومه فى لوزان ويصر على أن يرتب سريره بنفسه حتى لا يتعبنى، وطبعـا لم يكـن يرتبـه وإنمـا كـان يتركـه كمـا هـو ويغطيه بالغطاء معتقدا أنه رتبه. وكنت أقـول لـه: أرجـو يـا بابـا ألا تعمل شيئا طالما أنا معك.

وكـان يصمـم أن يصنـع القـهوة ويصمـم أن يغسـل فنجانـه حتـى يتعاون معنا فى الخدمة وقد أخذت له صورة فتوغرافيـة وهـو يغسـل

الفنجان، ورأتها عمته. فاستنكرت منه هذا، وثارت عليه وكادت أن تخنقنى. كل هذا وأبى غارق فى الضحك.

وأذكر أننى شعرت بوعكة خفيفة فى لوزان ووصف لى الطبيب أدوية للأعصاب. فاشترى لى أبى كمية تكفى لمدة عام بأكمله، لأن الأدوية لم تكن توجد فى مصر حينئذ، وعدنا إلى المنزل، وأخذت أنا الأدوية، وذهبت إلى الأجزخانة وبدلتها بمستحضرات تجميل لى ولصديقاتى طبعا دون علمه، وكنت قبيل عودتى إلى مصر أقول له لقد صرفت كل ما عندى وعليك أن تساعدنى فى الهدايا، ثم أخرج مع صديقتى وأظهر ما أخفيت من أموال وأشترى وأشترى.. وفجأة أراه أمامى فى الشارع وأنا لا أكاد أراه من اللفائف التى أحملها، فأقص عليه قصصا طويلة ملفقة يسمعها ولا يجيب، ولا يحرجنى ويشترى لى ما أريده، ويكتفى بأن يقول لى وهو يودعنى فى المطار: «أنت لا تكفين عن الطلبات. ولا يكفيك شىء» فآخذ يده و أقبلها، وأقبله وأرى فى عينيه التأثر، وفى ابتسامته الرضا.

كنا على صلة قوية بأسرة مصرية تقيم فى لوزان، فرضت عليها الحراسة فى مصر فذهبوا إلى هناك وبدءوا حياتهم من جديد وكان الله معهم فنجحوا نجاحا يشرف كل مصرى، لاحظ أبى أن علاقة الزوجين يشوبها فتور وصل إلى الجفاء بل إلى المقاطعة. وطلب منى أن أسألها إذا كان فى إمكانه أن يصنع شيئا من أجلها. كأن يكلم الزوج الذى يعتبره ابنا له وله عليه حق التوجيه..

والحقيقة أننى لم أجرؤ على سؤالها، فهى لم تكلمنى فى الموضوع وأنا أراها كل يوم ونخرج معا من الصباح إلى المساء – فكيف أقحم نفسى فى حياتها؟.. وكان أبى يسألنى كلما عدت من الخارج، إلى أن اقترب موعد رجوعى إلى مصر قال لى:

– هل سألتها؟

لا لم أجرؤ

– إن لم تسأليها أنت فسأسألها أنا – أنا لا أستطيع أن أراهما على هذه الحال ولا أحرك ساكنا.

– ولكنها لا تريد أن تتكلم.

– لن أترك هذا البيت ينهار أمام ناظرى ثم أنا هنا فى مكانة أبيها.

وفى اليوم التالى خرجت معها كالعادة وجمعت أطراف شجاعتى وقلت:

– إن أبى مصر أن يتدخل بينك وبين زوجك. وقد طلب منى أن أبلغك ذلك منذ يوم وصولنا فأجابت والدموع فى عينيها.

– إذن كنت تعلمين طيلة هذا الوقت.

– نعم ولم أجرؤ

- قولى لأبيك يكفى أننى شعرت منه بحنان الأب ولهفته وأنا فى هذه الغربة، ولكنه لا يستطيع لى شيئا، فالأمر أخطر بكثير مما يبدو، ولكن أرجوك لا تخبرا أبى وأمى.

ولم يتدخل أبى بطبيعة الحال، وعدنا إلى مصر ومشاعرنا مع هذا البيت الذى أحببناه ومرت الأيام وجاءت هي إلى القاهرة، وأخبرتنا أن السعادة عادت إلى بيتها، وعاد الطائر إلى عشه، والحقيقة أنها صمدت للعاصفة بعقل وكرامة.

وكان يصلنا فى لوزان يوم ١٣ أغسطس. وهو يوم ميلاد أبى رسالة من أنور أحمد كلها حب ووفاء.. عالية الأسلوب جميلة المعانى، وكان أبى ينتظرها كل عام، ويرد بقصيدة يهديها إلى صديقه الكريم.. وكان يصله من بنات أخيه حورية ولبنى وهما من خريجات الجامعة فى هذه المناسبة رسائل تزلزل سيبويه فى قبره، ويجزع لها أبى أشد الجزع، ولا ينسى عند عودته أن يلوم لبنى على الأخطاء النحوية والهجائية. فأصبحت تبعث إليه برسائل تلغرافية كما كان يسميها عبارة عن سطرين حتى تتحاشى اللوم، وتدع سيبويه هادئا حيث هو، وآثرت حورية أن تكتب بالفرنسية رسائل طويلة مفصلة كان يقرؤها على أيام متتابعة وكانت هديتى له فى عيد ميلاده هدية رمزية، فهو لم يكن يحب أن يهدى ولا أن يهدى إلا إذا لم يكن هناك مفر من ذلك.

وكانت له فى لوزان علاقات عميقة وأصيلة، فمصطفى الزناتى قد حتمت عليه ظروفه أن يقيم فى لوزان وكان من أغنياء الأقصر، وترك بعد أن وضع تحت الحراسة كل شىء، وتوجه إلى سويسرا ونجح وأثبت أن المصرى الكفء ينجح حيثما يكون، وهو متزوج من كريمة محمود بك العتال وقد حباها الله جمال المظهر وكمال المخبر، تجمعنا حديقة بيتهم كل صيف ويشعر أبى معهم أنه فى بيت أولاده، ويشعرون هم به أبا وصديقا..

ومن معالم سويسرا بالنسبة له حسين بك أبو الفتح وحرمه، فقد أقاما فى جنيف – وكان يلتقى عندهم بأصدقاء قريبين إلى نفسه. ينسى معهم همومه وأشجانه، وكان يقضى النهار معهم إذا أراد أن يبتعد عن رتابة الحياة فى لوزان.

وأذكر ونحن فى لوزان أيضا أن ذهبنا معا إلى السينما وبعد انتهاء الفيلم أمسكت تلقائيا بمعطف أبى بكلتا يدى ووقفت خلفه لألبسه إياه.. وإذا بالنظرات تحوطنا من كل جانب وكأنى قد أخطأت عندما لم أراع بروتوكولهم وساعدت أنا أبى بدلا من أن يساعدنى هو كما هو الحال عندهم.. وقرروا بنظرة متعجبة مستهجنة أننى لا أمت للمدينة بصلة والحقيقة أننى كنت سعيدة وأنا أساعد أبى على ارتداء معطفه ولو كان عندى قليل من الجرأة لقلت لهم إن أغلى شىء فى حياة المرأة الشرقية هو تعلقها بأبيها وبأمها حتى بعد زواجها. ففى الشرق يظل الأب أبا والأم أما يعيشان لأبنائهما ويحسان بمشاكلهم

ويغرقانهم فى بحر من الحنان والحب والرعاية إلى آخر لحظة فى حياتهما.. أما عندكم فالأبوة بجمالها وجلالها تنتهى عند بلوغكم سن الرشد.

وكان الشهر يمر سريعا.. وكنت أثقل عليه قبل عودتى إلى القاهرة وأصمم على أن أعود بهدايا لإخوتى وأولادى، وكان يرمينى بالأنانية وهو فى الواقع على حق. وكنت أقول له: إننى أنانية ولكن معك أنت فقط، فأنا أنتظر منك كل شىء ولا أطالب غيرك بأى شىء فكان يقول باسما لا تحملين للدنيا هما مادمت على قيد الحياة ثم يحول الجد إلى مزاح ويقول «إذا لزم الأمر أبيع هدومى عشانك ياستى» ولم يكن مزاحا ما يقول فقد كان هذا ما يشعر به، ولكنه كان يخفى بالمزاح ضعف الأب فيه.

وكنا نتبادل الرسائل بعد عودتى إلى بيتى وأولادى، وكان يعجب برسائلى ويشهد لى دائما حتى أنه تكلم مرة فى الإذاعة وقال عنى إننى أكتب أحسن من ثروت أباظة. وسألته المذيعة؟ هل هذا الكلام للنشر فقال «نعم» ثم تكلم عن أخى بما لم يرض أخى، وواضح طبعا أن حديثه فى الإذاعة حديث خفيف وليس بحثا فى الأدب، ولكن زوجى ثار. وأخى ثار. ولم أجرؤ على الشعور بالزهو بين هؤلاء الثوار.

وهذه رسالة منه سنة ١٩٦٣

عزيزتى عفاف

وصلنى خطابك فى جنيف قبل أن أقوم إلى لندن بدقائق، ولاشك أن الخطاب رقيق السياق عالى الأسلوب.. ولكنه أدهشنى وكان موشكا أن يثيرنى. فيم العتاب؟ وفيم الغضب؟ ما الذى وقع فى هذه السفرة ولم يقع فى السفرات السابقة؟ وما الجديد الذى أثار فيك الغضب فمنعك أن تكتبى متعمدة؟ أنت اعتدت تطلبى ما تريدين، وأنا اعتدت أن أجيب إذا كان فى مقدورى أن أجيب، ولقد أكون والدا غير مثالى، ولكننى على التحقيق لست والدا يشتكى منه.

أبوك

ولست أدرى ما الذى كان يمكن أن يغضبنى منه. أظن أنى اعتبرت أن سفره بدونى تقصير شديد فى الواجب المفروض على الآباء. وأضفت إلى حقوقى عليه حقا جديدا.

بابا العزيز

أنت تتهمنى بالأنانية – نعم إنى أنانية معك لأنى أشعر أنك الإنسان الوحيد الذى سيتحملنى ويحبنى كما أنا، فأولادى يحبوننى إذا أنا سامحت ولبيت وإخوتى إذا أنا جاملت واهتممت، وزوجى إذا أنا ساندت ورعيت. أما أنت فلا شروط لحبك فهو نعمة الله على، وأغلى ما أملك فى الحياة، فلا ترع إذا أنا طلبت وأخذت وأثقلت. إنه حقى عليك. اعتبره حقا مشروعا وأملى أن يبقى هذا

الحق لى دائما وأن أطالب به، فتجيب أولا تجيب. يكفى أنك هنا معنا تظللنا بعطفك وحنوك وتساندنا بجاهك ووجودك.

ومنى إليه سنة ١٩٦١

أبى

إن حب الأبناء هو الأنانية بعينها، هو حب أطالبك فيه أن تحبنى وترعانى، وأطالبك فيه بأن تحمينى من الناس والأيام. هو حب أطالبك فيه بأن تشركنى فى جاهك وفى مالك، هو حب أشعر فيه أن لى عليك حقوقا أطالب بها.. فإن أعطيتها لم أشكر، وإن منعتها لم أيأس، إنه شعور جميل لا أجرؤ أن أشعر به لأحد سواك، فإن فى وجودك يا أبى حياتى، وفى قلبك أمنياتى.. وفى ابتسامتك سعادتى.. وفى جاهك عزتى واختيالى. هذا هو حبى.. فهل تقبله بصدقه وأنانيته؟

وقد أهدانى وشاحا من فراء نادر كرد على هذه الرسالة.. وإنى أتحدى توفيق الحكيم أو نجيب محفوظ إذا كان لأى منهما كتاب بأكمله قد أتى لهما بما أخذته أنا من كتابة صفحة واحدة.

ومنه إلى سنة ١٩٦٥

وصلنى جوابك الجميل ولازلت أؤكد لك أنك رزقت بصياغة وإحاطة فى التعبير لم يرزقها كثيرون (وكثيرون دى يدخل تحتها ثروت).

وعلى ذكر الرسائل أذكر أننا كنا يوما على شاطئ المنتزه بالإسكندرية وجاء أنور أحمد وقال لى وصلتني اليوم من أبيك رسالة من لوزان وبها قصيدة.. فتعالوا إلى كابينة الدكتور الدمرداش أحمد لنسمعها معا.. والدكتور الدمرداش طبيب وأديب وذواقة، وقرأ علينا القصيدة، وهى عبارة عن غزل رقيق ومشاعر جياشة.. إلى أن وصلنا إلى البيت الأخير. ثارت نفسى على الرغم منى وهذه بعض أبياتها:

منذ عشرين وخمس رق يأسى واضمحلا
حين ألقيت على يأسى من عطفك ظلا
فإذا الدنيا عيون وغصون تتدلى
كان ظلما كل ذم قيل فى الدنيا وبطلا
إن أمثالك فيها حسنات تتلألأ
قلت أمثالك.. هل فى القيد أمثالك؟ كلا
لست حسنا يبهر الطرف فإن عاود ملا
إنما حسنك مما يطبى قلبا وعقلا
قد يراك الله من آلائه عزوجلا
جامعا فيك إلى الفتنة والعصمة نبلا
ولك النظرة يندى تحتها القلب ويصلى
وحديث هو أروى من طلا الخلد وأحلى
تلك عشرون وخمس هى عمرى ليس إلا

والواقع أننى ما أن سمعت البيت الأخير حتى شعرت بغصة في قلبى وثارت مشاعرى. واعتبرته تعريضا بالسنوات الجميلة التى عاشها مع أمى. والتى لا تبارح مخيلته ولا تفارق وجدانه ورأيت أنه ليس من حق الوزن أو القافية أن يفرضا مثل هذا الكلام وقلت لمن حولى إن هذا البيت قد أثارنى، وعاد أبى من لوزان ولم أكلمه فى شأن القصيدة. كما هى عادتنا.. إلى أن قال لى يوما وأنا أساعده على ارتداء ملابسه «أنور قال لى إنك احتججت على آخر بيت فى القصيدة الأخيرة «فقلت» نعم «فقال مجاملا» وهل صدقت كلام الشعراء؟!»

سافر أبى إلى الكويت فجأة، فقد كان أخر سفره مرتين ليتمكن من إلقاء كلمة استقبال زميل دراسته مصطفى بك مرعى فى المجمع اللغوى ولكن الجلسة تأجلت لثالث مرة، فقرر السفر إلى الكويت بين يوم وليلة وكانت وزارة الإعلام قد دعته وتنتظر قدومه، ويسافر أبى وأرافقه إلى المطار ولأول مرة أنسى أن أكتب الورقة التى اعتدنا أن نتقاسمها قبل كل سفر.. مكتوبا عليها «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فيذكرنى بها فأكتبها، ثم يختفى من أمام ناظرى، وبعد أسبوع يأتينا خبر من وزارة الخارجية هنا أن أبى فاجأته أزمة قلبية فى الكويت ودخل مستشفى المواساة.. فيجن جنوننا ونحاول أن نتصل به تليفونيا فيقال إن المكالمة لن تأتى قبل يومين فتعيينا الحيل، إلى أن كلمنا يوسف السباعى الإنسان الرقيق، الذى يفيض عذوبة..

فيقول إنه سيطلبها بنفسه وكان وزيرا للثقافة.. ثم يكلمنا بعد لحظات قائلا إن المكالمة ستأتى بعد عشر دقائق.. ولن أنس ما حييت اهتمامه بقلب اعتصرته اللهفة.. وسافرنا إلى الكويت عمى وزوجته وزوجى وأنا. وتوجهنا إلى المستشفى. واستقبلنا بابتسامة مرحبة عذبة، وكأن المرض لم ينقض على جسده.. ولم يتمكن من قلبه المرهف الرقيق.. ويقول لأخيه بصوت متهدج «ما الذى أتى بك وأنت لا تحتمل الحر» وتناوبت مع زوجة أخيه وهى ابنة عمته فى نفس الوقت. السهر عليه. كانت تمرضه بقلب يفيض بالحب وبنفس كلها قلق ولهفة، ولم تكن تغمض عينيها لحظة طوال الليل.. وكانت تقول لى: إن أباك عظيم حتى فى نومه، فهو فى أحلامه يتكلم عن الشعر والأدب والكتب.. وظلت معه تطمئنه وتخفف مما به حتى اضطرت اضطرارا للعودة إلى مصر والدموع لم تفارق عينيها، وسافر عمى وكانت ظروفه تحتم عليه أن يعود إلى القاهرة وانتزع نفسه من الكويت انتزاعا. وقد تصادف وجود محمد أباظة هناك لعمل فى الإذاعة وما أن سمع بمرض خاله حتى سارع إلى المستشفى ولم يبرحها حتى وصلنا وقد قضى معه ليلتين كاملتين هما فى الواقع أشد الليالى خطورة وقد وجد نفسه يخدم ويمرض كأحسن ما يكون التمريض وهو الذى لا يقضى لنفسه شيئا، ولكن الشدائد تطوع النفس للأمر الواقع. وقد توافد عليه أهل الكويت جميعا فزاره الحاكم وولى العهد والشيخ سعد ودعاه أن يكمل علاجه فى لندن.. غير أن حالته

الصحيـة لم تمكنـه مـن ذلـك.. وقـد أبـدى الشـيخ سـعد وهـو وزيـر الداخليـة والشـخصية ذات المكانـة الرفيعـة هنـاك اهتمامـا يفـوق الوصف.. وعرض أن يذهب إلى مستشفى الصباح لأن معداتها أحدث من المستشفى الذى أسعف فيـها ولم تسـاعده حالتـه علـى التغيـير.. وتقبلنا كل هذا الاهتمام بقلوب يملؤها التأثر والعرفان والشكر.. وزاره الوزراء والمذيعون الذين عرفوه من خلال أحاديثهم للإذاعـة.. والذيـن أرهقوه باعترافهم.. من زيادة الحفاوة به، ومهما فعلنا فلن نفى أهـل الكويت حقهم فقد أكرموا ضيافته واحتفـوا بـه بـدءا مـن الحـاكم إلى أبسط فرد منهم..

وقد طوقوا أعناقنا بالجميل والاهتمام والمجاملة.

وقد أحاطنا المصريون المقيمون هناك برعايـة صادقـة واهتمـام بـالغ وانهالت علينا المكالمات التليفونية من مصر وجنيف وباريس وتوالـت البرقيات من مصر والبلاد العربية، وأرسل محمود فوزى برقية رقيقة بصفته زميل دراسته وصديق شبابه، ولكن الجهات الرسمية فى مصر لم تحرك ساكنا، وهذا عتاب أتحمـل مسئوليته.. فـهو أولا مصـرى فاجأه المرض فى بلد غير بلده ثم هو ركن من أركان الأدب فى مصـر والبلاد العربية، وقد احتفت به الكويت.. واهتمت به اهتماما بالغا.. ولكن بلده؟ ماذا فعلت من أجله.. لا سؤال ولا حتى برقية استفسـار. أما السفير المصرى عز العرب أمين فقد اهتـم بصفتـه الشـخصية وهـو إنسان رقيق الطباع استحق فعلا حب الناس وتقديرهم هناك، وكانت

الإذاعة تذيع يوميا برامج شعرية سجلت بصوت أبى أو حديثا لـه أو أسئلة وجهت إليه وهو فى المستشفى. ومما أثر فى نفس أبى وصول ابن أخيه من باريس حيث يعد للدكتوراه.. للاطمئنان عليه.. وأشفق أبى على ميزانيته وما تحملته فى هذه السفرة وقد بقى محمود إلى جانبه ثلاثة أيام كان فيها شعلة من النشاط والحركة.. قام بالتمريض بدلا منا نهاراً وأما الليل فكان يترك لنا المسئولية وينام هو كالطفل ارهقته الحركة، وعلاقة محمود بعمه علاقة روحية أساسها الحب والإعجاب وقوامها الشعر والأدب، وهو يقول الشعر ويحفظ من شعر عمه الكثير، وعاد إلى باريس بعد وداع تكشفت فيه العواطف الجميلة، وبدا وكأنه الوداع الأخير.

وجاءت شقيقتي وزوجة أبى وبقينا فى الكويت شهرا بأكمله، وظهر من رقته أكثر مما نعرف.. فهو لا ينام طيلة الليل ولكنه لا يطلب شيئا.. ظنا منه أننا ننام.. ولا يطلب نهارا حتى لا يقلق راحتنا وكنا ننتزع منه الطلب انتزاعا، إلى أن قلنا له إننا لم نحضر من القاهرة لنرتاح وإنما جئنا لنتعب ونسهر ويرتاح هو، وكنا نتناوب السهر عليه.. أختى وأنا، وكنت فى الليلة التى أسهر فيها معه أقول له: «اطلب من أختى أن تعود إلى القاهرة فما حاجتنا إليها؟ ألا يكفيك أنا؟» «فيبتسم ويوافق على رأيى.. وإذا سهرت معه أختى وافق على نفس الاقتراح ولكن على أن أعود أنا.. فكنت أقول له: «إنك كالمتزوج من اثنتين.. توافق على رأى كل زوجة لتهدأ

أنت بالا» فكان يجيب: «إننى فى الحقيقة أريد أن تسافر إحداكما لأشعر أننى قريب العودة إلى بيتي»، وكان يقلقه المرض بعيدا عن بيته. ويخشى الموت بعيدا عن بلده. ولكن لا يقول ولا يبين.

وكنت إذا جافاه النوم ليلا. مسحت بيدى على جبينه وعلى كتفيه، وقرأت له آية الكرسى كما كنت أفعل لأولادى إذا توعكوا، وأظل أعيدها. وأخطئ أحيانا فى الشكل من كثرة التكرار. فيردنى فى رفق ويصلح الخطأ. حتى ولو كان قد أوشك على النوم، وكنت أعجب لذلك ولازلت.. وكان أحيانا يقرأ معى الآية بصوت نائم ثم يشير بيديه إعجابا بقوة الأسلوب كل هذا وهو إلى النوم أقرب.. لن أنس هذه الصورة.. لن أنساها ما حييت.

وفى المستشفى كان يسألنا كل يوم: «احنا يوم كام النهاردة؟» فنجيبه واعتقدت أن تكرار السؤال يرجع إلى أنه يريد أن يتعجل الأيام ليرى نفسه فى مصر. فى بيته. إلى أن جاء يوم ١٩ يونيو وهو يوم ذكرى وفاة أمى وسأل، وأجبنا. ولأول مرة أنسى هذه الذكرى بسبب مرض والدى ولهفتى عليه، ونام وظل يتكلم أثناء نومه.. ويسأل: هل تذكّر هذا الميعاد أحد فى مصر؟ هل زار قبرها أحد؟ وقضى ليلته يحيى هو ذاكرها، ومرت الأيام بعد ذلك ولم يسأل ولم يأبه للتاريخ. فقد كان يخشى أن تمر ذكراها.. ولا يذكرها هو، بذل الدكتور اندريه تاجر مدير المستشفى وجميع مساعديه ما فى وسعهم وهم يعلمون أن مجهودهم لن يغير من القدر شيئا.. وظلت ابتسامتهم

مضيئة إلى أن نزلوا جميعا يودعونه يوم عودته علـى بـاب المستشـفى مع شعاع الفجر.

وإذا تكلمت عن مرض أبى فى الكويت فلا أسـتطيع إلا أن أتكلـم عن الدكتور عثمان خليل مستشار مجلس الأمة هنـاك.. فقـد جمعتـه بأبى صداقة قوية نمت من كثرة ما تردد أبـى علـى الكويـت.. وكـان يقصد إلى بيته بعد نهار كله مواعيد وارتباطـات.. وكـان يـأنس إليـه ويحدثه عن ذكريات شبابه.. ويتخفف مما به من حنـين إلى السـنين الخوالى، وقد تحمل الدكتور عثمـان مسـئولية كـل مـا يرتبـط بمـرض أبى.. وكان يأتى مع كبار الزوار بوصفه شـخصية مـن الشـخصيات المصرية البارزة هناك.. أو يستقبلهم فى المستشفى بوصفه قريب لأبـى وصديق، وتحملت زوجته وهى ابنة عم أبى كل ما يتصل بالمرض من مسئوليات عاطفية، فكان بيتها بيته.. تشرف منه على راحته وتلبى فيه رغباته، حتى شعرت يوم وصولى إلى الكويت أننـى لـن أستطيع أن أفعل أكثر مما فعلت هى، واسـتمرت رعايتـهم إلى اللحظـة التـى غادر فيها الكويت عائدا إلى مصر.

وعند وصوله إلى مطار القاهرة اسـتقبله علـى بـاب الطـائرة أخـوه الأصغر ماهر أباظـة، وكـان قـد رتـب لهـذه المقابلـة ورافقـه الدكتـور عبد الله على فى سـيارة المستشـفى إلى منـزله.. وعنـد صعودهمـا إلى الدور السابع توقف بهم المصعد. وتوقف قلـب الأسـرة بأكملـها التـى كانت فى انتظار عودته وظل المصعد فـى صعـود وهبـوط مـدة نصـف

ساعة على الأقل، وهو هادئ لا يتكلم، ولكن الطبيب المرافق له لم يكف عن الصياح طالبا أنبوبة أكسجين خوفا على مريضه، وصل إلى بيته وقد أكرمه الله وأكرمنا بذلك.

فركوب الطائرة والسفر الطويل والمرض الجاثم على صدره، كل هذا قد أفقدنا الأمل في وصوله إلى فراشه سالما، ولكنه وصل واستجاب الله إلى دعواتنا. ودعونا كبار أطباء مصر جميعا.. الدكتور محمد إبراهيم - الدكتور عبد العزيز الشريف - الدكتور علي عيسى. الدكتور غليونجي. الدكتور أحمد إسماعيل. الدكتور حليم دوس.. دعوناهم وتضافرت جهودهم وتبدت عنايتهم واهتمامهم..

ونظرت حولى.. وإذا ببيته فى الزمالك ملىء بأولاد أخيه وأحفاده كل منهم يدخل إليه ويحاول أن يخفف مما به.. كل منهم يتمنى أن يسهر وأن يتعب.. ويرى فى ذلك أمرا مفروضا.. وإذا بأخيه أحمد لا يفارقه.. إلا ليسأل الأطباء عن حالته..

وكان أنور أحمد يأتي صباحاً ومساءً. واعتبر نفسه ابنا له. وتناوب معنا ساعات التمريض.. وإذا جاء ميعاد الغذاء تولى هذه المهمة الصعبة، فقد ظل أبى طوال مدة مرضه لا يقرب الطعام ولا يقربه النوم إلا دقائق، وحاول أنور أحمد أن ينقل إليه ما يدور فى الخارج، حتى يبعده عن الملل الذى استبد به، وكان يكلمه عن المسرح وعن رواية «قيصر» التى كان مفروضا أن يمثلها المسرح القومى.

وتأثر أبى تأثرا عميقا من رعاية صديقه أنور أحمد.. فقال لى: «الواحد يعمل لأنور تمثال من دم القلب» ولم أكن قد سمعت هذا التعبير من قبل فسألته إن كان تعبيرا معروفا فأجاب «بل انا الذى أقوله».

ونفذنا العلاج بدقة وأشرف الدكتور عبد الله وهو ابن أخته على تنفيذ العلاج ولم يفارقه لحظة، وترك بيته وزوجته وأقام معه، ورعاه بقلبه ودمه ودموعه، إلى أن فاجأنا القدر وأقول فاجأنا لأننى اعتقدت أن طول المرض قد أبعد شبح الموت ولكنه فاجأنا وكنت إلى جانبه، ومعى عبد الحميد أكبر أحفاده، وكان ساهرا إلى جانبه لم ينم.

وذهب الموت بالذى كنا نحتمل بوجوده مرارة الحياة، وحتى بعد ذهابه كان رفيقا رحيما عادلا كما عودنا، فقد ترك لنا رسالة. أراد أن نقرأها بعد وفاته، وتابعنا من هناك ونصحنا حتى وهو فى أكرم جوار، وهذه رسالته:

أحبائى

تقرءون كتابى هذا، وأنا فى أكرم جوار، وأى جوار هو أكرم من جوار الله قابل التوب اللطيف الحليم الذى عزت عظائم قدرته، ووسعت خلقه سوابغ رحمته، وإنكم لتعلمون أن الموت وهو الحق الخالد، مضروب على الأحياء، وإن كل مخلوق له لخالقه مآبا وإن

لكل أجل وإن تطاول كتابا وإننى لأومن أن الفراق فيه لوعة عارمة ومشقة قاصمة فاستعينوا عليه بما تطيقونه من تماسك وتجمل وصبر.. ذلك إنه لا يجدى فى تحمله إلا التجلد والتجمل والصبر. على أننى لست ألومكم على حزن يعتصر قلوبكم. ولكننى ألومكم إذا أفسد هذا الحزن عليكم سلامة التقدير وأصالة التدبير ومنكم من تؤدى شعائر الله خاشعة في صومها وصلاتها، فلتذكرنى مترحمة فى صلاتها، ومنكم من لا تؤديها إلا فى قلبها الطاهر.. فلتذكرنى فى مكتوم زفراتها، ومسجوم عبراتها.. ولقد أومن أن لى عليكم حق التكريم فليكن تكريمكم هذا لذكراى نابعا من موردين كريمين.. أما أولهما فتجافيكم عن الدنية فإن الدنية مخبثة موبقة للكرامة أو القيم.. وإنها لتنقصنى كما تنقصكم.. وأما ثانيهما فسد المنافذ على الخلف يدب بينكم، فإن الخلف يهوى بأصحابه إلى منهار مشنوء، وعيش موبوء، وإنه كما يسقط بمكانتكم فى دنياكم الزائلة بين الأقوياء والمخالطين فإنه كذلك يسقط بمكانتى بين من خلفت بينكم من محبين ومقدرين وحاسدين، وإننى وإن كنت لم أورثكم شيئا يذكر من عرض الدنيا فإننى، وأرجو ألا أكون مخدوعا، قد ورثتكم سيرة أستطيع أن أقرر أن المآخذ عليها ليست كثيرة، فإذا هى كثرت فإنها ليست بالغاضة ولا الكبيرة وحسبى أننى لم أشرك بالله أحدا، ولم اضر من خلقه أحدا ولم أبطن لأحد حسدا ولا لددا، على أنى مع ذلك كله بشر من البشر له أخطاؤه وأوزاره.

وبعد.. فإلى لقاء بعيد الأجل إن شاء الله.. أسعدكم الله ورحمكم الله ووفقكم لما يحبه ويرضاه، وأقبلكم جميعا، إن ترك لى حساب الرحمان الرحيم فرصة لهذا التقبيل وإذا استطاعت فتواردت إليكم قبلاتى نافذة من بين ترابى المهيل.

ولست أعلم.. ولا يعلم حتى رسل الله وأنبياؤه بما يلاقيه الإنسان وهو ابن الموت بعد الموت.. وذلك علم الله وحده أحاط به تعالى وحده. ولكن الذى أعلمه علم اليقين أن الله كتب على نفسه الرحمة، وأنه خلق الإنسان ضعيفا، فلن يتلقاه إلا مشفقا عليه لطيفا.. ومسك الختام أن أدعو الله بدعاء رسوله محمد بن عبد الله.

«اللهم إن مغفرتك أرجى من عملى، وإن رحمتك أوسع من ذنبى، اللهم إن لم أكن أهلا لأن أنال رحمتك، فرحمتك أهل لأن تنالنى لأنها وسعت كل شىء يا أرحم الراحمين»

عزيز أباظة

مختارات من شعره

سنوات عشر

من «أنات حائرة» وبعد وفاة والدتى بعشر سنوات قال:

قالوا: لقد ضحك الحزين الأيم
الجرح يفغر فاه وهو مسمم
هل كان إلا كالخليفة كائنا
يطويه ناموس الوجود ويحكم
أخذوا بظاهر ما يرون فهل رأوا
قلبا يذوب واضلعا تتحطم؟
ومآقيا غرقى ونفسا يغتلى
فيها الضنى. ونفاثه تتضرم
مالى وللوائم أحسبى لوما
هم بين اطواء الجوانح جثم
أأثمت حين حنثت بالقسم الذى
أبرمت يوم هوى القضاء المبرم
أغويت يوم هفا إلى قلبى الهوى
فصغا؟ ومن فى قلبه المتحكم
ما أهون الانسان إن وفاءة
إما اتقاء أذى. وإما مغنم

عظمت على اخلاقه أكلافه
وهو المسير في الحياة المرغم
نفض التراب الضعف في أعراقه
وابن التراب الصاغر المستسلم
آنسته بالأمس يقسم جاهدا
والعجز يسخر منه سرعة يقسم
ويلي من الهول الذي يعتادني
كالنار تنشج والرياح تهزم
فإذا الوساد كأنه متضرم
وإذا الفراش كأنه متذمم
وإذا الكواسر مقعيات جثم
وإذا الجوارح صاغيات حوم
وإذا الأفاعي الواغرات كأنها
اصطرعت على صدري تفح وترزم
وإذا الطيوف كأنها من عبقر
هبطت توهج في محاجرها الدم
فتقول: قد حنيت على جهنم
وأقول بل أحنى على جهنم
وأظل أسمع جمجمات عزيفها
وأكاد أفهم منه ما لا يفهم

ياصاحب القسم العظيم تملا الكبد
العظيم وما تراخى أعظم
وأقول حسبكموا فكشر ضيغم
عن نابه حردا وتضنضى أرقم
وأقول ماجرمى على بهين
لكن بحبى لها اتقدم
فيقول قائلهم تعست ألم تزل
تتحيف الحب السنى وتظلم
ما الحب وهو تهذب الدنيابه
إلا الوفاء أو الوفاء التوأم
وأدب للمصباح أشعله فما
ألفى سوى متندم يتندم
ما كان مسرحهن إلا نفسه
وضميره المتغلغل المتبرم
اغرته سابقة الهناء فانبرى
لنديه مثلها بتوسم
يا أخت منضور الشباب تحية
مطلولة فى آهة تتضرم
معناك قبلة ناظرى أو ورده
كالبيت يأنس فى ذراه المحرم

أرنـــو إليـــك وللحيـــاة بقيــــة

تنـهل فــى خلـل الدمــوع وتسـجم

ولكم دفعـت إليك صـــدرى حانيـا

فــى غمــرة الوهـم الــذى أتوهـــم

وأذبـت فــى أذنيـك حبـــة مــهجتى

شـعرا تفجــر فــى ملاحتــة الــدم

فـــإذا الرخـــام الجـــهم ناجيتـــه

واذا الشــفائف مـــا اضـــم والثـــم

ربيع العمر

يا ربيع العمر من حالى الصبا
شد ما هاج افتقاديك شجونى
يا ربيع العمر من حالى الصبا
من على فرقتك اليوم معينى
عهد لا أعرف للدنيا سوى
أنها مسرح لهوى ومجونى
يسفر الصبح فألفاه وبى
بهجة النفس واشراق الجبين
وإذا الليل دجا راحيته
اتخطى من حبيب لخدين
يعرض الهم فنجليه كما
يدفع الفجر أهاويل الدجون
وكأن العيش يختال بنا
بين أمواه وأيك وغصون
زال كالرشفة من كأس الطلا
راويا من حر بثي وحنيني
أين صحبى ولداتى ؟ عصفت
بالأعزين فجاءات السنين

واذا المـــرء مضـــت أترابـــه
ذاق أو كـــاد تبـــاريح المنـــون
ياربيعـــا لم تكـــن ميعتـــه
غـــير هفـــهاف عطـــور ولحـــون
لـــن يكـــن الخلـــد إلا صورة
مـــن ديـــابيجك أو تلـــك ظنونـــى
ياعشـــياتى التـــى أجرعـــها
سـامدا[1] أدعـــم رأســـى بيمينـــى
زاكـــى اللوعـــة محمـــوم الجـــوى
واكـــف الأدمـــع مصـــهور الأنـــين
لا تقـــولى مـــن أخـــو البـــث الذى
هاجنا.. من صاحب اللحن الحزين
النفـــاثات نفـــاثاتى أنـــا
والشـــئون المســـتهلات شـــئونى

---

(١) حائراً

ذكريات الطفولة[1]

إنى كلفت بمن أحب صغيرة
تدلى بمن تلقى بكامن سرها
جبلت على حب الإساءة والأذى
ولطالما ضج الورى من جورها
تسعى إلى الأوكار إن سكن الدجى
وثبا فتوقظ ماغفا من طيرها
وتقوم إن شاب الظلام لروضة
غناء باسقة تحيط بقصرها
فتهيم بين خضيرها ونضيرها
لتضم ضاحكة بواكى زهرها
وتصوغ مما تنتقيه - حبيرة -
عقدا يرف جماله فى نحرها
درجت سويعات الطفولة حلوة
أواه لو رجعت على بسحرها
تركت بقلبى لوعة ما تمحى
حتى توارى أعظمى فى قبرها

---

(١) نظم أبى هذه القصيدة يتحدث فيها عن ذكرياته مع أمى أبنة عمه.

إني سعدت بحبها وقنعت من
تلك النجوم الزاهرات ببدرها
وهويتها أصفى الهوى متغاضيا
عن بخلها متسامحا في هجرها
ولكم أداعبها فأذكر جورها
الماضي فتنسب كل ذاك لغيرها
بيضاء يستهويك لاعب دلها
ويرد غيك رادع من طهرها
موسومة بالحسن يسطع وجهها
في فاحم مسترسل من شعرها
يا نسمة الاسحار إن يممتها
فاستقبلتك ببشرها في خدرها
فتحدثي عني هناك وقبلي
محمر وجنتها وناصع ثغرها
قولي لها مضناك أسهده الهوى
فعسى يرق على موضع سرها(١)

---

(١) موضع السر هو القلب.

تسبيح الذبيح لـ ١٩٥٨

ايـه يـا ضيفـة الضلـوع هنيئـا
لـك قلبي مثوى وصدري وظـهري
في الذراعين في الترائب في مجتمع
العظـم هابطـا تحـت نحـري
لم أذلـل لـك المنـازل أنـت اخترتـها
فـارتعي بـهـا واسـتقري
سوف نمضي معا سبيلي. سبيل الخلق
مـا فـي اجتنابـه مـن مفـر
وتؤمـين أنـت غـيري. وغـيري
لتـهضي سـراج عمـر فعمـر
ياليـالي الوصـال موعـدك الحشـر
وأيـن الوصـال فـي روع حشـر
أكـذب الله لـو أقـول قضـاء الله
قابلتـه. بحمـد. وشـكر
لسـت أسمـو علـى النفـاق ولكن
مـا نفـاقي والله عـالم سـري
رب غفرانـك الكريـم. ومـاذا
أنـت إن لم تغفـر آثـامي ووزري
قـد خلقـت النفـوس ضعفـى وليـس
الضعـف معراجـها لفضـل وأجـر

أنــت ذو الحــول والســنى وأنــا ذو
الضعف. أخفيــه باجـترائى وكـبرى
أنــت. مــا أنـــت لا علــم يســموْ
لعـــوالى أسمـــــاك إلا بقـــــدر
أنت ما أنــت هـذه الشـمس والجـواء
والأرض تحــت عرشـك تجــرى
أنـت مـا أنـت همسـة منــك تنشــى
غيرهـا. كيـف؟ أنـت وحـدك تـدرى
لا أرانـــى ملاقيــا غـــير حســنى
منــك مــهما أســئ. وصفــح وغفــر
إن فــى جســاهك العريــض لمثلــى
مـــن برايــا الــتراب ظلـــة بـــر
نحن إن لم نذنب فكيــف تلـذ العفـو
تزجيــــه مغدقــا غـــير نــــزر
يــا بنيــاتى أخشــعن لأمــــر الله
واصـــبرن كــــل صـــبر بــــأجر
لم أخلـــف مــــالا لكــــن ولكــــن
رب ذخـر أسمـى مـن المــال ذكــرى
وبحســـبى إنى عففـت فـــذاق الناس
عــــــرفى وآمــن الناس شـــــرى

مهداة إلى

أم كلثوم

أضوى ولى من ظلك الكنف الرحب
وأظمى ولى من ثغرك المنهل العذب
أحبك ألوانا من الحب. لم تزل
تجدد. لا يهدا لظاها ولا يخبو
ترادفن في قلبي جوى غير مقلع
وبرحا. ألا ياشد ما حمل القلب
ولى فيك اجهاش الليالى. ومدمع
إذا كف غرب منه أعقبه غرب
وجنة مشتاق إذا شط النوى
وأنات محروم. إذا جمع القرب
ومحمومة من غيره ما تدافعت
بصدرى إلا قلت: زلزلت الهضب
أثبك تحت الفجر والكون هاجر
تسابيح نفس ملء احنائها عتب
إذا كان حب الناس سهدا ولوعه
وافئدة نهفو لأفئدة تصبو

فليس الذى ألقاه فيك من الضنى
ومن حرق تفرى الضلوع. هو الحب
بلى انه التقديس قد طهر الهوى
ترف كما رف الندى المونق الرطب
قصاراك منى. والدنا في. مدارها
تقلب حتى ما يقرلها جنب
أساكيب وجد فى الجوامح تنصب
وحز مدى بين الأضالع لا ينبو
وذمة واف. والوفاء مشقة
وما حسبى إن آدنى المرتقى الصعب
لئن لم أكن حسبا لنفسك. إننى
لا عتد نعمى العمر أنك لى حسب

المولد الشريف

اليــوم ضـــاح والنســيم رخـــاء
وتريـق فيـض روائـها الصحــراء
وتـبرجت تحـت الظـلال وأشـرقت
كالمحصنـــات الكعبـــة الغـــراء
وشى الجـلال جمالهـا والحسـن فى
حضـن الجـلال الفتنـــة العــذراء
وقريش حول   شـيوخها وحديثـهم
نجـــوى إلى أربابـــهم ودعـــاء
ارزاء يـوم الفيـل إن عصفـت بـهم
فلقــد مضـــت بهوائـــها الأرزاء
وتلـوح مـن خلـل البيـوت إليـهمو
أمـة يغـــالب خطوهـــا اســتحياء
ودنت يشــع على ذراعيهـــا السنى
القـــا. وتعبق حولهـــا الأرجـــاء

ومشت إلى الشيخ الجليل[1] وأومــأت
للطفــل وهــو طهــارة وســناء
هــذا ابــن عبــد الله وابنــك بعــده
طــابت لــه الأمــات[2] والأبــاء
فتــهلل الشــيخ الحزيــن وضمــه
«ياسين» مـن قـد ضـم و «الإسـراء»
وضعتــه فــى أحضــان يتــم أمــه
فــاذا الأســى طــاف عليــه عــزاء
ولـدت كمـا تلـد النســاء فــهن فــى
حمـل. وفـى عنـت المخـاض سـواء
سنن الخليفـة ليـس فـى قانونـها
عـوج ولا فــى ضبطــها اســتثناء
إن تخــب نــار أو تــدك ركــائز
فعــوارض إن صحــت الأنبــاء
ويقــول جــد الطفــل للمــلأ الــذى
جمعــوا جموعــهمو إليــه وجــاءوا
سمــوا الصبــى محمــدا فلعلــه
تســنى المحــامد فيــه والآلاء

---

(١) عبد المطلب بن هاشم.
(٢) الأمهات.

ألم يــدر أن المــهد يحمــل مرســلا
الأنبيـــاء ببعثـــه بشـــراء
ولــد الهـــدى فالكائنات ضـــياء
وفـــم الزمـــان تبســم وثنـــاء

الرفيق الأعلى

قوى الانسان واشتد مطاه[1]
وتجلى من. سنى الله سناه
وتوالت أشهر ناعمة
طاب فيها العيش واخضرت رباه
لم يرع يثرب الا مرض
ساور المبعوث بالحق أذاه
شبت الحمى به وقدتها
فتداعت تحت مسراها قواه
فإذا أفضى إلى حاجاته
حملته فى عناء قدماه
رقرقت من حبها زهراؤه[2]
ومن العطف فانسته السقاما
ومضت تمنحه عائشة
رحمة تندى.. وأنسا.. ولزاما
ولقد قامت صلاة فهوى
بعد أن غالب حماه فقاما[3]

(١) مطاه: الظهر.

(٢) فاطمة الزهراء.

(٣) أى أنه قام فلم يقو فهوى صلى الله عليه وسلم.

قال: فلينهض أبو بكر بها
فاندبوه للمصلين إماما
أترى هل كان رأيا عابرا
أم هو العهد توخاه وراما
وأحس المصطفي أن الردى
ماثل فانهل بشرا. وابتساما
سيلاقى وجه من أرسله
رحمة للناس تسنى وسلاما
يا رسول الله أكرمت الورى
فاذا الانسان للفضل تسامى
وبعثت النفس فيه حرة
تنشد الخير وتأبى أن تضاما
وجعلت العقل فيه مبصرا
بعد أن جلله القهر فغاما
واقتضيت العدل للحكم قواما[1]
وبسطت الحق للخلق عصاما
ونشرت الدين نورا وهدى
يكشف الحيرة عنهم والظلاما

---

(١) النظام.

يا رسول الله أبلغت الذى

شاءه الخالق للخلق نظاما

وانتهت منك إليهم سنة

كرمت فى الله بدءا وختاما

قلت: من كف الأذى عن غيره

أمن النار عذابا وغراما

والذى يأثم إلا مشركا

واجد فى رحمة الله مقاما

والذى يعفو وإن أذنب لن

يحرم الخلد مقرا ومقاما

والذى يستر عرضا كالذى

صبر النفس فلم يركب حراما

والذى يبذل فى الله يدا[1]

والذى أنعش فى الضيق الكراما

والذى يدفع ظلما. والذى

رد بأساء الأيامى. واليتامى

والذى يهدى مسيئا فانثنى

عن أذى أوغل فيه فاستقاما

---

(١) يدا: معروفاً.

يغـــدق الله عليـــهم كـــالألى
قطعــوا العمــر. صــلاة وصيامــا
رفـــع الله إليـــه روحـــه
عــام أن ثبــت للديــن الدعامــا
أجـــل المـــرء مقـــدور لـــه
ثــم يمضـــى. إن لله الدوامـــا
حســبه وهـــو نبـــى بشـــر
أنـــه قـــد أيقـــظ الكـــون. ونامـــا

ومن رواية «الناصر» هذه الأبيات التى كان يحبها أبى
وكان يطلب من ثروت أن يرددها له

غـدا تــترامى شــقة البعــد بيننـــا
وأى عــذاب الله أقســى مــن البعــد
غـدا تحمـل الأمـواه رحلـى مجـاهدا
فتنهل عن دمعى، وتهتاج عـن وجـدى
غـدا يتنــزى القلـب كالســفن أرقلـت
علـى مـتن رجـاف مـن المـوج ممتــد
غـدا تنطـوى نفسـى علـى كـل ساعر
دومــن عقــابيل الصبابــة والجـــهد
غـدا لا يرانــى الليـــل إلا مدلهـــا
قليـل قـرار الجنـب متصـل السـهد
إذا وقعــات الدهــر ابلـين جدتـــى
سلمت.. فلـن يبلـى وفـائى ولا عـهدى
مواثيـق مـن أعمـاق نفسـى قطعتـــها
وأنت ؟ فمــاذا أنـت صانعـة بعـدى؟

بغداد

قالوا بلغتم. قلت: أفق الأنجم
ومدار كل مرجب ومعظم
لم ننأ عن وطن. ولا أهل أما
جرت العروبة بيننا مجرى الدم
قالوا بدت بغداد.. قلت: تدافعت
بغداد. بين تنعم وتقدم
وجعلت أشرع ناظرىّ كأنما
أشتف أقصى طلبة المتوسم[1]
فشهدت عرق العتق كيف أمدها
عبر القرون بعزة وتكرم
قل للنواسى العظيم الملهم
وأبى معاذ. والشريف ومسلم[2]
والطائيين الخالدين على المدى
من بليل غرد. وبحر خضرم[3]

---

(١) الناظر.

(٢) أبو نواس وبشار والشريف الراضى ومسلم بن الوليد.

(٣) البحترى وأبو تمام.

هاتوا من السحر الحلال أزفه
لسنائها القدسي سجدة مقدمي
إني أحج لها. وبين جوانحي
شوق كأنفاس اللهيب المضرم
وهبطت في بطحائها فكأنها البطحاء[1]
تسنى في جلال الموسم
وسعيت في رحباتها ودروبها
بخشوع معتمر وتقوى محرم
أمل يراوحني السنين قنصته
فلقيتها في مجدها المتنسم[2]
مزهوة الأعطاف زهو الصبح قد
أضفى سناه على الفضاء المظلم
بغداد. والدنيا الفتية كنتها
حين البلاد ولائد لم تعظم
قربت للأمم المشارع فارتوت
من فيضها المتدفق المتسجم

---

(١) بطحاء مكة.
(٢) العالى.

مـا بـين بصـرى. وكوفـى دعـت
أشـياخك النصحـى لنـهج أسـلم
هـذا رواق الأصمعـى ومثلـه
لأبى عبيدة مجلس. والأسلمى[1]
حجـج الزمـان معلمـو أمـم ربـا
فـى حجرهـم علـم ثـرىّ المنجـم
العقـل قـد حررتـه ودفعتـه
فمضـى علـى غلوائـه لم يحجـم
هتك السجوف علـى الكـهوف وخاضـها
كـالهدى يقدح فـى الضـلال المعتـم
نصـب الموازيـن الدقيقـة وانـبرى
ينفـى ويثبـت بـالدليل المعلـم
بغـداد لاسمـك هـزة سـحرية
فـى كـل مصـر. للعروبـه ينتمـى
هـو عـزة العـرب الكـرام. وفخرهم
لا فـرق بـنـي مزنـر ومعمـم[2]

(١) هو يحيى بن زياد الفراء.
(٢) يقصد بذلك المسلمين والمسيحيين.

إنــــي ســــألت الله جــــل جلالـــه

يحميـك مــن كيـد يحــاك مدمــدم[1]

ويقيــــك غـــدر عـــدوك المســـتلئم

ويقيـــك شـــر مســـيطر متحكـــم

ومخــــــادع ومضلـــــــل ومحطم

ومذلـــــل ومقيــــــد ومكمــــــم

قـــرى علـــى كبـــد الزمـــان عزيزة

بغـداد. واعتسـفي سـبيلك واسـلمي

---

(١) مهلك.

بشارة الخورى

قف فى ربا الخلد واهتف فى مقاصره
بشاعر مـلأ الدنيـا كشـاعره[1]
سرى لـه أمـس والأمـلاك تقدمـه
فـى موكب عـامر الإشـراق غـامره
البحـترى تـهادى عـن ميامنـه
يختـال. والمتنبـى عـن مياسـره
يسعى أمامـهما فـى قدسـى هالتـه
شـوقى يـزف جديـدا عـن معـاصره
والخـالدون الألى حلـت ذخـائرهم
صدر الوجـود. فرفـوا مـن ذخـائره
تحاشـدوا لأخ كـانت ترانمـه
قيثـارة الشـرق. باديـه وحـاضره
قـالوا ظفرنـا بخـلاق الجمـال. زكـا
فى الأحرف الصم وحيـا عـن خواطره
بـالعبقرى الملقـى[2] مـن عبـاقرة
والأوحـدى تعـالى عـن منـاظره

(١) الأشارة للشاعر الخالد شوقى.

(٢) الملقى: الملهم.

وهشت الروضه الفيحاء ناثرة
في بهوها الزهر ترحيبا بزائره
الله دبج جنات النعيم لمن
تفيأ الخلق ظلا من مآثره
أدنى العباد له أوفاهم مددا
في فضله أو هداه أو بصائره[1]
وخيرهم. لا المصلى في مساجده
أو في كنائسه. بل في سرائره
ورادع نفسه عن شر ماضمنت
وخلقه عنْ مسئ من بوادره
والدين في روحه أو في سماحته
بنوة بين إنسان وفاطره

(١) جمع بصيرة وهي العقل.

الأخطل الصغير

لم أنـس آخـر عـهد لى بطلعتـه
وللـردى رفرفـات[1] فـى مقـاصره
والـداء محتكـم. والحـول منحطم
وأول النـزع يحبـو صـوب آخـره
وحولـه الله. يلقـى فـى عقيلتـه
من لطفـه السمح. عـذراً عـن مقـادره
تفيـض عطفـا وإيثـارا وخافقـها
يـدوب كـالكرم فـى راووق[2] عـاصره
فى منزل. لـو ضمـير الشـرق أنصفـه
لا عتـده الشـرق ركنـا مـن شـعائره
لم أنسـه حـين أفضينـا لـه فمضى
يعتامنـا بكليـل الطـرف فـاتره
وقـال من أنت؟ فاستعرفت[3] فالتفت
لحاظـة ثم غامـت فى محاجـرة

(١) رفرف الطائر: حام وأراد أن يقع.

(٢) الراووق: المصفاة والكأس.

(٣) أستعراف الرجل: عرف نفسه إلى غيره.

وقال هل كنت من صحبى؟ فقلت أجل
كصحبة العشب الظامى لماطره
وراح صحبى وهم مثلى ذوو نسب
بفنه. وبنو موسى وسامره
فطارحوه وشاقوا من جياهره[1]
فاهتز ينثر عقدا من جواهره
وعاد كالمرح النشوان. ثم طغت
عليه وعكة ذاوى الروح حائره
مارابه الدهر إلا زاده عظما
كالطيب يزداد طيبا فى مجامره
ثم افترقنا وأدرى أن نازلة
ترقى إلى عشه الحالى وطائره
ونحذر الموت. لا نألو له حذرا
والموت أقرب شئ من محاذره
ياويحها ذكريات هجن بى شجنا
تظل روحى تلظى فى هواجره
فما طرقن سوى نفس وذابحها
وما تركن سوى قلب وصاهره

---

(١) الجهير والجهيرة: من معناهما الجميل الأنيق.

اعدى عدوك سن صاحبت سقما
عدا عليها بغاث من مناسره[1]
ويح اجتماعهما. والموت أكرم من
عمر رمى الدهر فيه من فواقرة[2]
لم يرحم الشعر. والدنيا تضئ به
في ذات صائغه الأعلى وخابره
أدال منه. ولكن عزه نغم
من السماء ترافت عن مزاهره
بشارة أنعم فجار الله أنت ومن
أرضى وأروح نفسا من مجاوره
قد كنت للدهر عذرا من معاذرة
بما ابتدهت وفخرا من مفاخرة
عارضتك اليوم. ابن البئر ناضبه
من مغدق زاخر الدفاع هادره[3]
وأين من جهده مستفعل فعل.
من ملهم مشرق الإبداع آسرة[4]

---

(١) المنسر: منقار الطير.
(٢) جمع فاقرة وهى الداهية.
(٣) السيل المندفع.
(٤) آسر الله الإنسان خلقه.

أضفى علـــى الأدب الريـان طابعــه
فـلاح مصـدر نـور مـن مصــادره
وكـــان مازفـــه للنـــاس رائقـــة
مـن الســلافه تنـدى عفـو خــاطره
إن ثار. قلـت الريـاح الهـوج عاصفـة
أوقـرّ. قلـت شـكا صـب لهـاجره
منمنم النسخ يجـرى فـى ديابجـــة
من كـل معنى شفيف الـروح نـادره
يخـــال مـن قربـه للنفـس إن لــه
نظـائرا. وهـو عـال عـن نظـائره
تـهفو العروبـة مـن شتى مناكبـــها
إلى الرحيــق المصفــى مـن بواهـــره
فيــا لهــا نشــوة مجـت مدامتـــها
أقلامـــه وهـــى ربـما مـن محـــابره
خواطـر الخلـق تسـقيها مشــاعره
مستبهمات فتجلـــى فـــى مشــاعره
فيرسـل القـول مأنوسـا فيحسـبه
مـن صدقـه المـرء همسا مـن سـرائره
بشــارة أين: شــوقى أين؟ هــل لهما
من وارث واثب الإلهـــام ظـــافره

واحسـرتا زال عـن روض بلابلـه
فأوحش الروض. إلا مـن عصافره
وود كـل نضـير فيـه مؤتلـق
لو قد تجرد مـن افـواف نـاضره
بكى مع الأرز ساجي الورد وأنعطف الصف
صاف يجلـى حـلاه عـن ضفـائره
والسوسن الضاحك انغاضت بشاشته
والنرجس الفضى أغضى من نواظره
حزنـا علـى نـاهل منـها عواطرهـا
يديفها[1] فـى الزواكى من عواطره
فـابكوا علـى الشعر أمسى دره بددا
وأسوا لناديـه أقـوى مـن عبـاقره
بشـارة القيـم العليـا يكيـد لهـا
حـران كـل قصـير البـاع قـاصره
العجـز أو شـهوة البانى بلا أسس
أو أنـه الجـدب فى أشقى مظـاهره

---

(١) داف: مزج.

أو ثورة فـي طوايـا النفـس حـاقدة
يصلي بها كـل ضحـل الجـهد عـاقره
أو أنـه قلـق. والعصـر مضطـرب
يمضـى لكـل سقيط[1] السمت صـاغره
فـهذه ذكـر فـى زيـها خنث
وذاك يخطـر أنثـى فـى غدائـره
وتلـك لوحـات معتـل يخـط بـها
مـالوث الطفـل عـن ملتـاث[2] خـاطره
من كل رسم جـهيض[3] غـير ذى شية
وكـل نقـش بغيـض اللـون نـافره
وتلـك قصـة ذى عقـل رأى سـفها
أن يعـرى العقـل فيـهاعن مـآزره
يقول جـددت. قـل جـددت فـى هذر
والفـج يعـرف فجـا فـى بواكـره
وزاعم إن صـقل الشـعر منقصـة
ووزنـه ناقص أركـان عامـره

(١) السقيط: الأحمق.
(٢) الألتياث: الأضطراب.
(٣) الجهيض: المولود قبل موعده.

وأن علـــوى موســـيقاه منتـــهك
خدر العذارى الغوانـــى من حرائـره
الشـعر مـا قلت. لا مــا قالــه نفـر
عـدوا علـى قدسـى ماضيـه وحــاضره
ثم استطالوا على الفصحى وحرمتــها
بـــآمر مـــن ذوى الضغـــن غـــائره
صـالوا مجـاهيد فـارتدوا ومـــا بلغوا
من فـارع الطـود إلاّ سفح حـاجره[1]
الله كرمـــــها فاختارهـــا لغـــــه
لمعجـز محكـم التنــــزيل بـــاهره
تبقى على الدهر تسنى فـى مساجده
نـورا - وتنـهل هديـا عــن منـابره
لا فــن مــن غـير قيــد أو تواثبـــه
فوضـى تطيـح بمحـض مـن عنـاصره
والقيد إن كان فـــى فضـل نجـوت بـه
كعفــة المــرء. قيـــد مـــن كبـــائره
يا شـــاعر الشـــرق في أفياء جنتـــه
قم فاشـــهد الشـرق في غاشي مخاطره

---

(١) حاجر الجبل: قاعدته.

قد بات لا تتراءى فى عزائمه
قواه.. بل تتجلى فى حناجره
وفى الأهازيج تجدى عن تضافره
وفى الهتافات تغنى عن بواتره
عجبت منه تغاديه توافهه
فيستثار.. ويلهو عن مصائره
قدما ريم الأفاعى فى بواطنه
خلفا. وشهد المداجى فى ظهائره
وانقاد للجهل واستهواه باطله
فجرد الفضل عن عليا معايره
متى يفيق؟ فما ذل ولا ضعة
كهونه وهو مستخذ لواتره
الدهر يوما.. والأيام. حاملة
حظ الوجود جنينا فى سرائره
لقد أرى والمنى ترضى وإن خدعت
طغاوة النور تسرى فى دياجره
رحلت عنه وعن عصر هوى خلفا
فى عالم فخره كبرى جوائره
يهنيك أنك ناج من براثنه
نفسا وأنت ناء عن أظافره

طغى الضلال به حتى لأوهمه
إن الضراوة ضرب من دساتره
الحق للباطش الأقوى وإن سفرت
نياته عن خسيس الأثم غادره
ينقض ذئبا فما خلق برادعه
ولا اجتماع على شكوى بضائره
والأمر للجاهل المثرى بعسكره
والحكم أهوج فى أيدى جبابره
وبات حكامه باسم الشعوب كمن
سام الزمان هوانا من قياصره
منهم قبيل وأن أبدى محاسنه
ففى ضمائره ما فى ضمائره
وذاك يبرم عهدا. ثم ينقضه
وذاك ينفث سما عن منابره
تخاله سائس الدنيا وقاهرها
وهو المضرس فى أنياب قاهره
يانكسة العصر لا ولا ذمم
أليس حَملانه صرعى كواسره
لم تشف نزعته السفلى حضارته
بل زاف منها شعارا فى حواضره

حظ العروبة فيه حظ ممتهن
في يتمه بين جافيه وزاجره
متى يطالعنا عدل الزمان متى؟
وللزمان قصاص في دوائره
إن ينصر الله طاغوتا إذن فلقد
استغفر الله اغرى شر كافره
لبنان يا حجة للعرب. دامغة
بهتان كل دخيل الحقد واغره
وكل ساع بما يغريه من تهم
يبثها في المدوى من عفائره
إن يبتعث فتنة الأديان سقت له
تسامحا فيك يسمو عن نظائره
أو يذكر الحكم. قد القمته حجرا
فشعبك الحر قاض في مصائره
أو يذكر الميل عن نهج الحضارة لم
يعجزك دفع غوى عن بوادره
حضارة الشرق تجلوها يمازجها
مارقرق الغرب فيها من بصائره
ما بين طوديك رفت نهضة عمم
أجد شعبك فيها مجد غابره

وعزة الشعب ليست في تكاثره
العقل أجدى عليه من تكاثره

لبنان يا فخر هذا الشرق عشت له
في ركب حاضره إنسان ناظره

يا صائغ الحسن في أبهى وسامته
ورافع الوعي في أسنى منائره

من كل غيداء ريا من صباحتها
وكل يقظان رحب الوسع ثامره(1)

وباعث الأدب العالي برشح من
فصحاه في عبقري من مآزره

وناشر الروح والتهذيب في لغة
صحيحها طم دهرا في مغادره(2)

سعدت. كم لك في أيد مقبلة
على القريض أضاءت في جواهره

فصادح في رباك الخضر ذو طرف
ونائح يتغنى في مهاجره

---

(1) ثامر الشجر: الثمر.

(2) المغادر: الكهوف.

يقــول وهــو رغيد العيش فى بلـــد
لم تعــرف الأرض أبهى من حواضـره
لبنـان أيـن عليـل مــن نسـائمه
النشوى. وأيـن حبيـب مـن دسـاكره
وأين حـور حسـان مـن مـهائره[1]
تشرفن في حاليات مــن سـوامره
وأيــن أثــداء تفــاح بدغدغــها
طـل الصبـاح فـتزهو فـى تباشـره[2]
وأيـن مـاء كـراح الخلـد تسـكبه
عيونه النجـل[3] مـن صـافى مصادره
نـأى عــن الـدار فانــهلت روائعــه
عصارة القلـب ماجت فـى محاجره
لبنـان.. لسـت المعـزى إنـها أمـم
فى الشرق تأسى له فـى نـاى شاعره
لم يطـوه الموت. أن الموت أعجـز من
أن يطـوى النور يسـنى فى سـوائره

---

(١) جمع مهيرة وهى حسناء يغالى فى مهرها.
(٢) تباشر الصباح: أوائله.
(٣) النجل: الواسعة.

كم مـاثل هـو ميـت فـي مقـاصره
وراحـل هـو حـي فـي مقـابره
هـذى نفاثـة محـزون أخـى مقـة
يذيبـها عـبرات مـن مشـاعره[1]
بادلتـه الـود مخضـلا وكنـت لـه
فى جرحة اللطف ندى وقد نـاغره[2]
والله مـا روعـت مصـر وقـد منيت
بكـل خطـب شديد العـرك جـائره
بمثـل مـالقيت يـوم انتقـالك من
هـول رماهـا بـوادى الـبرح ثـائره
اهرامـها نكسـت هاماتـها جزعـا
واجـهش النيـل عـن مسـك هـامره
فـاذهب كمـا مـال قـرص الشمس ضـم إلى
شـكران ذاكـره.. إكبـار شـاكره

---

(١) المقصود قصائده السائرة على كل لسان.

(٢) إذا اغتلى الجرح فهو ناغر

القصائد التى قيلت فى رثائه

عزيز أباظة

شعر صالح جودت

مـا عزائــى فيـك يـا خــير عــزاء
منــذ أن غــاب أمــير الشــعراء
لم تــــزل تســـعى إلى ســـــدته
بعـــد أن عـــز عليـــها الأوليـــاء
فتســــنمت إليــــها دائبـــــا
صيـب الإلهـام موهـوب العطـــاء
تمـــلأ الدنيـــا نشـــيدا رائعـــا
يتلقـــى مــــن فـــم الدنيـــا الثنـــاء
وتصـــوغ المســـرحيات التـــى
لبـــس المســـرح منـــها الخيـــلاء
وتقـــص الســـيرة الحســـناء فى
خـــير زلفـــى لأمـــير الأنبيـــاء
فـاض منـك الشعر، رومـى الشجى
بحـــترى الـــروح، شـــوقى البنـــاء
طـــاوعتك الشـــاعريات التـــى
لم تطـــع فـــى الشـــعر إلا الأمـــراء

إنمــــا الشـــعر المصفـــي دولـــــة
لم يــزل فيـــها الســـراة الكـــبراء
لم تزلزلهـــــــا انقلابـــــــات ولا
هزهـــا ســـيف ولا شـــقت دمـــاء
غـــير أن المحنـــــة الكـــبرى بـــها
مـــا جنــاه المحدثـــون الأدعيـــاء
أنكـــروا الأوزان فـــى روعتـــــها
والقوافـــى البلبليـــــات الغنـــاء
فـــى زمـــان عـــابث يطربـــــه
هـــذر المـــرد ولغـــو اللقطـــــاء
سوف يبقى الشعر فى سفر العلا
ويولـــون مـــع الريـــح جفـــاء
يخلـد الشـعر علـى الدهـر كمـــا
تخلـــد الأديـــان بعـــد الأنبيـــاء
انمـــا يمكـــث فـــى الأرض الـــذى
ينفـــع النـــاس ولا يبقـــى الهبـــاء
يـــا عزيـــز الشـــعر همـــى أننى
لم أشـــيعك وقـــد حـــم القضـــاء
جـــــــاءنى ناعـــيك فى مـــغترب
أتشـــــهى فيه من مصـــر الـــهواء

علــــه يحمــل مــــن أنبائـــها
نفحـــة منـــك وبشـــرى بالشـــفاء
بعـد أن فتـك فـى حضـن الضنـى
واهــن الشــريان ملــهوف الذمــاء
فـــإذا النفحـــة شـــجو وأســـى
واذا البشـــرى حـــداد ورثـــاء
فنـــزفت الدمـــع حتـــى خـــاننى
فتســـولت دمـــوع الغربـــاء
قلـــت مـــن شـــعرك فاســـتبكيتهم
وأجـــل الشـــعر مـــا يوحـــى البكـــاء
قلـــت مـــن أنـــاتك الحـــرى على
حـــرة منـــزلها دار البقـــاء
لـــك فـــى فرقتـــها ملحمـــة
أصبحـت سـلوى الأيـامى التعساء
هـــى لـــو تملـــك أن تســـمعها
شـــقت القـــبر وخفـــت للنـــداء
عشـــت فـــى محنتـــها مضطرمـــا
نـــابغى الليـــل مســـود الـــرداء
ثـــم مـــر الزمـــن الآســـى علـــى
جرحـــك القاســـى فأرقـــا وأفـــاء

وتفتحــت علــى الصــوت الــذى
يوقــظ القلــب ويشــفى البرحــاء
حــين هشــت لــك أنفــاس الهوى
فتنفســـت بـــهن الصعـــداء
وتعطـــــرت بنيســـــان المنى
وتقشــبت بـــألوان الرجـــاء
فـــإذا ليلـــك بـــالنور اكتســـى
واذا قلبـــك بـــالحب أضـــاء
واذا مــن كــان يغلــو فــى الأســى
هــام بــالصبوة حتـــى الغلــواء
وبنيـــات علـــى فجـــر الصبـــا
يتـــأزرن بـــأحزان المســـاء
لم تــزل فيــهن مــن يــوم النــوى
لوعـــة اليتـــم وتذكـــار العنـــاء
قلــن مــا خطــب أبينــا بعــد مــا
غالــه فــى أمنــا عصـــف القضــاء
فبكاهـــــا وبكاهـــــا ومضى
حزنـــه أمثولـــة للأوفيـــاء
فتوســـــلت لهـــــن ارحمنني
يابنيـــاتى، أن الحـــب داء

يابنيـــــاتي مــــن ذاق الهوى
قدســيا، لم يجـد عنـــه غنـــاء
إن رجوتـــن لنفســـي راحـــة
فــالهوى والشـعر ســلوى وعــزاء
أو تمنيـــتن لى مجـــدا، فمـــا
مسـلكي للمجـد، والقلـب خــواء؟
أو تلمســتن بعـــدى تركـــة
ليـس بعـد الشـعر عــز وثــراء
عمركـــن الله، ماشـــئت الهـــوى
بيمينـــى، غـــير أن الله شـــاء
يابنيـــاتي، مـــن روح الهـــوى
يولــد الشـعر ويحيــا الشـعراء
يــابني العصــر الــذى نحيــا بــه
وهـــو علـــم وابتكـــار وذكـــاء
لا تقولــوا شــاعر مـــات، ومـــا
قيمـة الشاعر فــى عصــر الفضــاء؟
قيمـــة الشـــاعر فـــى أمتـــه
أنـــه يفتـــح أبـــواب الســماء
أنـــــه يــــزرع ألـــوان المنى
أنـــه يبـــدع ألحـــان الغنـــاء

أنــه يجعـــل للعمـــر شـــذى
أنـــه يمنـــح للـــروح الضيـــاء
أنـه يعـــزف موســيقى النـــهى
أنـه ينشـــر فـــى الأرض الصفـــاء
أنـــه يحنـــو علـــى أوطانـــه
أنـــه يلعـــن ظلـــم الأشـــقياء
أنـــه بالشـــعر يـــهدى قومـــه
للطريــق الحـــق والـــرأى الســواء
أنـــه بالشـــعر يـــروى للـــورى
ســير النصـــر وأمجـــاد الفـــداء
أنـــه التـــاريخ، يبقـــى صادقـــا
أن روى التـــاريخ زيفـــا وادعـــاء
أنـــه الحـــاضر يحيـــا نابضـــا
وطنـــى الشـدو قومـــى الدعـــاء
أنـــه المســـتقبل الحلـــو الذى
ينشـــد الخـــير ويدعـــو للرخـــاء
أنـــه لـــولا رســـالات الهـــدى
كـــان فـــى أمتـــه كالأنبيـــاء
فـــى رحـــاب الله مـــن كنـــت لـــه
أقــرب الأخـــدان نـــهجا وانتمـــاء

لم تـزل فـى نـاظرى مـن سمتـه
قامـــة مرفوعـــة بالكبريـــاء
ومعانـــاة يداريـــها الرضـــا
واحتمـــال يتغـــذى بالإبـــاء
وتحـــد لصـــروف عاشـــها
يحمـل المحنـة فـى غـير انحنـاء
فـى زمـان نحـن أحسـنا لـه
ولقينـــا مـــن ســـنمار الجـــزاء
قـلّ مـا سـر بـه، لكنـه
كـان مـا أكـثره فيمـا أسـاء
إن قضـى الأحـرار فيـه فلـهم
فـى رحـاب الله أجـر الشـهداء
يـا أبـى، بـل يأخى، بـل يـا أنـا
أنـا مـن مـات، فللشـعر البقـاء

عزيز الشعر

شعر سعيد عقل (بيروت)

شعر ولا أنت؟.. في بردى انضنى ألم
عملاق مصر، تطلع، وانحنى هرم
راثٍ انا اليوم؟.. دعني من رثا وبكا
نار ببالى وفاء كنت اعتزم
قالوك تكمل خطا؟ ويحهم خطلوا
في غفلة الوحى، أنت الطور والكلم
الشعر بعدك صار الشعر، ردده
من رأسه فوق، من لم يغره غنم
اثنان أهواهما: نبل بشعرك لم
يتعب، ولبنان منه تتعب الأمم
سكرى بشوقي أو إلى غير ذى شيم
وقول شوقى بزحل[1] السكر والشيم
هنا الهوى شد بين الأميين، هنا
في الشرق، ما نسمت قبل الهوى نسم

---

(١) إشارة إلى قول شوقى:

أن تكرمي يا زجل شعرى أننى نكرت كل قصيدة الاك
أن الخيال بديعه وغريبه الله صاغك والزمان رواك

لكن شعرك أنت، الشعر يعبده
معى، ونغوى انا والليل والنجم
ما أمروك؟.. أخال التاج ضللهم
وجاء جبهتك الشماء يستلم
حملت غصنا من الأرز، استظل به
أو رعمسيس أو الوقاد من عظموا
أو من نماهم ثرى لبنان، مبتدع
البداع: من نثروا الدنيا ومن نظموا
به ألف جبينا لا الشموخ حكى
أغلى، ولا العود وفاه ولا النغم
طوقت جيدى بأنى «عقل أمتنا»
يعل من سحرى «الإثبات والهيم»
كلامك السيف، ها بالسيف ترسله،
والاصطكاك سكوت عنده القلم
بديع رصفك، فيه أنت: قامتك
الغيناء، صدرك، صدق العزمة: الشمم
وفيه من أسرة قلت الرماح نمت
قوما، وقلت بخيل طارت الهمم
مصر تنشئ. ما القوقاز أنبته
منها الحضارة، منه النبلة الحكم

ما الشطر من بيتك الملآن غير صدى
لكسرة عبرها الأعداء تنهزم
حتى اذا رد شطر آخر لمعت
أهزوجة النصر يغوى فوقها العلم
أما القصيدة، مما رحت تعمره،
فالبرج ماد كمن بالأفق يصدم
يقول إن ابتهالا سر فتنته
وأن دفا على باب السما الحكم
غنيت لبنى، البنى غير من هجرت
لتسكن الدمع فى عينيك ينسجم؟
لنجمة الصبح ودت لو تكون لها
بديلة وعليها الشعر ينهدم
واريتها لا بترب، بل بورد ضحى
والحب حبك ورد بالشذا برم
وفجر الدمع فيك النبع مصر، ردى
نيلا من الشعر يانيلا هو الكرم
بمصر حببت الدنيا فكيف اذا
راحت علي الريشة الخضراء تضطرم؟
أقول: كتب إلى نجم تشد فطر،
حدوث، والعب كما لم يلعب القدم

عملاق مصر، قوافيك الكبار بنا،
بنبلـــها مــايزال الأرز يتســـم
ومن أنا لأرد اليوم بعض ندى؟
صم قوافــي فــي رد النــدى بكــم
إن شاعر هام بالنيل انتشت قمم.
فـي أرضنا، أو تصبي مادت القمـم
مصر هي المجد، كان المجد مذ طفرت
في البـال، فالكون أذن بعدها وفم
أو لو النهى الصيد نادتـهم هياكلـها
وعلمـها رفـد الصيـد الأولى علمـوا
غاو بها شرف الانسان، ما خذلت
عصرا، وغاو بـها ذو الريشة العرم
أن ضامها الضيم مس الخـالقين دنـى
أو نالهــا الظلـم راح الحـق يظلـــم
لبنان نحن.. وها نحن الشـهود لهـا
نديـن يوم انتصاف، ليــس نتـهم
الحب نحن شرعنا الحسن نحن بدعنـا
البعــض نحــن قطعنـا أنــه العــدم
جبيل قالت بقاء النفس واكتشفت
ربا أبـي لقضـاء السـيف يحتكـم

الليـل لـولا سـراها غربـة قتلـت
والشمس لولا هواها وهـي مـن وهمـوا!
بلى، جراحات مصر في مضاجعنـا،
في الروح يسخى بها، في العظم ينثلم
في الريح في غضبات الغيظ، في غدنـا
في مبتغى ما ابتغى الأبطال إن هجموا
ما لم تـزن مصـر وزن الحـق يبـق دم
علـى الضمـير ويبقـى أن يـراق دم!
أطللت منك على التـاريخ، رنحنـى،
همى كما الضوء في بالى، كمـا الديـم
.ويعطـر البـال أن يمسـك عطـر يد
مسـت بنفسـجة أنفاسـها حـرم
لم لا؟ وفي القصص العـالى الـذى نسجت
غزارتـاك استجدت سـحرها النظـم
غدا الهوى بدعـة، مـرا ببـال هـوى
وسكر عقل علـى القرطـاس يرتسم،
وآيـه طرفـت حتـى ليرشـقها
غيـان إن أنـا ضليـل ولى جـرم
بالكأس أفديك، بالدنيـا، بسـاجعة،
بلـوز نيسـان للزينـات يبتسـم،

بالشـعر بالمنتـهى بـالمجد أشـعلنى
بحـط عينـى بعـين الحـق ألتـهم
حتـى إذا لاح لى أنـى وهمـت همـت
منـى الشجون كمـن أفلاكـها السـدم
رفيـق شـطرة عمـر، ذاكـر ولهـا
بشـعر مطـران والألبـاب تحتـدم
اسمعتك المرتجى. مـا كـان؟.. دع خلقـى
للصمـت، لا شـرف إلاك، لا ذمـم!
مـازلت منـها كمـا بـوح النسيم لمـن
من النسـيمات تشـقى وهـى لا علـم:
مـرى بدارتنـا يـا طفـل وانحطـم
علـى بسـاط مـن النسـرين ينحطـم
بهديك الريـح تنـأى، أنـت مرتحـل!
بَقدك الشـوك يدمـى، أنـت منتقـم!
إن كان بـالهزج من صبحيـك لا أمل
فعنـد خَصـرك لم لا يصـدق الحلـم
حتى إذا ينـدرى شـعر وكنـت غـوى
تململـين، وآه القـول والقسـم
تـهم شمـس بـأن تغشـى فأمنعـها:
ضيعى معى، ياضياعى، وأحل، يا نـدم

وتسألين: لمن سهدى، بمن وجهى؟
ياقاطف الشمس، أكمل أو أنا الرمم!
ونتتهى ننتهى فى قبلة ولهت
وفوق يغمز فينا بلبل رنم
شئ عن الشعر هذا، استله كلف
بالشعر، أم سكر صب ليس يحتشم؟
فلنبقه بيننا سر الكئوس، بها
يمر هاو فيدرى أنه الجمم
عملاق مصر، إذا أعوزت فى خلد
فضم من خلدنا ما شاءت الضمم
من زهر لبنان خذ عرشا ومن قيم
لا زهر لبنان منسان ولا القيم!

فى رثاء عزيز الشعر

شعر: عبد الكريم الكرمى
(أبو سلمى) فلسطين

وحملنـا مـن فلسـطين الجراحـا
ألسـنا فـى المـهرجانات فصاحـا
وشـظايانا اللواتـى انتـثرت
قـد عصبناهـا وشـاحا فوشـاحا
جلـت الثـورة أيـام اللقـا
جبـهات، تفضح الشمس، صباحـا
وغـدت أشـعارنا صامتـة
أنـها فـى صمتـها أمضى سـلاحا
يـا فلسـطين أتينـاك علـى
صـهوة الجـرح، رعـودا ورياحـا
تقـف السـمراء فـى ساح الوغـى
تتحـدى الأسمـر النـدب كفاحـا
حسـبوا أن رمـاحى انكسـرت
إن لى فـى كـل ميـدان رماحـا
كلمـا حطـم لى الدهـر جناحـا
مصر مـدت لى على الأفـق جناحـا

شيع الشعر عزيزا وبكى
خلقا فيه ونبلا وسماحا
لا عروس النيل فى موكبها
لا ولا موكبها زف الملاحا
لا الليالى خافقات بالسنى
لا ولا النجم على الموج استراحا
لا الرياحين على الشط زهت
لا ولا الورد بسر العطر باحا
وانثنى الفارس عن رايته
وارتمت تملأ دنياها نواحا
يا عزيز الشعر من بعد النوى
لم نجد للشعر فرسانا وساحا
الحروف العربيات انطوت
والهجينات تصدرن المراحا
هانت الأنفس فالشعر غدا
مرتعا - مثل بلادى - مستباحا
أرضنا أرضك يا مصر وقد
بسطت فوق ظلال الخلد راحا
ونسيمات الربى ما اختلفت
والنمير العذب مازال قراحا

وغرسنا الشوق في كل ثرى
ورعيناه غدوا ورواحا
وسقيناه معا، من دمعنا
وغذوناه إباء وطماحا
وحد التاريخ فيما بيننا
والدم الحر الذى روى البطاحا
فتراب ومصير واحد
أين من يقطع أوشاجا صحاحا
كل يوم قطعة من كبدى
تتشظى وبها الموت أطاحا
لى في كل المناحات أخ
لم يجد قبرا ولم يلق أقاحا
وهوى السيف المدمى عاريا
دون غمد، والردى رد الجماحا
لم تشيعه بقايا أدمعى
لا ولا توديعه كان متاحا
والرفات المستجيرات ألم
تسمعوا منها عويلا وصياحا
شهداء قد كساهم ربهم
نضروا روحا وردنا وصياحا

وهـــم فـــى كــل درب شـــعل
أطلعـت مـن ظلـم الليـل صباحـــا
ظـل لـــن أعفـوا علـى الـذل الا
بئس من كـان عـن العـز أشاحا
باســم شـعبى حكمـوا لكنـــهم
ظلمـــوه ثـم يرجـــون فلاحــــا
تـاجروا بـاسمي وبؤســى ودمـــى
ثـم بـاعوا وطنـى بيعـــا سماحــا
أيـــها اللاهـــــون بالميســــــر
لا تجعلـوا أرض فلسـطين قداحـــا
ذرة مـــن وطنـــــى فيـــها الدنى
أيـن مـن يبغـى بديـلا أو براحـــا
أى فـــك لبنـــــى العــــرب إذا
لم يفكـوا مـن فلسـطين السـراحا
أيـــها الحـــر الـــذى فارقنـــا
أنّ للقيـد علـــى الأرض اجتياحـــا
أيـــها الصـــداح مـــا الــــروض إذا
كنـــت لا تمـــلأ جنبيـــه صداحـــا
أيـــها الشـــاعر مـــــا الحفـــل إذا
كنـت لا تسـقيه مـن شـعرك راحـــا

لا يضـئ النـــور فـــى الجمـــع إذا
لم يكـن منـك الجبـين الطلــق لاحــا
مثـــل زيتـــون بـــــلادى، خـــــالد
شعرك الغـض اخضـــرارا واتشــاحا
يــا عزيــز الشـــعر مازلنـــا علـــى
عـــهده، نعتنـــق الـــود الصراحـــا
اينمـــا ســـرنا، علـــى أعطافنـــا
عبــق مــن شــعرك المعطــار فاحـــا
أنـــت دافعـــت عــن الحــرف فلـــم
يــهو فى الوحـل ولم يولــد ســفاحا

إلى عزيز أباظة

شعر: محمد التهامى

نـــام العزيـــز ولم ينـــم ســـلطانه
بـــل راح يســـتبق الحيـــاة بيانـــه
والشـــاعر الخـــلاق يغـــرس عمره
فيطـــول فـــوق ذرا الوجـــود زمانـــه
تتواكـــب الأجيـــال دائبـــة الخطـــا
وتظـــل فـــوق رءوســـهم أوزانـــه
يتفيـــأون مـــن الهجـــير ظلالهـــا
وتضمـــهم زمـــن الربيـــع جنانـــه
وإذا اســـتباح الزمـــهرير حياتـــهم
فمـــلاذ دفئـــهم الرحيـــب حنانـــه
وعلـــى دروب الحـــب يلمـــع صوتـــه
فتضـــيء فـــى ليـــل الهـــوى الحانـــه
وإذا جـــراح العاشـــقين تنـــاوحت
واســـى جـــراح قلوبـــهم تحنانـــه
وإذا تفـــرق شملـــــهم وتنـــاثروا
ضمـــت شـــتات جموعـــهم أحضانـــه
وإذا اســـتطال الليل فـــوق ربوعهـــم
يدعـــو إلى الفجـــر القـــريب أذانه

وإذا تــهاوى للضــلال فؤادهــم
يــهدى إلى رحمانــهم ايمانــه
وإذا تنكبــت الطريــق جموعــهم
يومــى إلى النــهج القويــم بنانــه
وإذا دهــى الأوطــان كيــد عداتــه
عــزت بظــل نشــيده أوطانــه
وإذا اســتنام الغــافلون لظــالم
لذعــت مضــاجع نومــهم نيرانــه
وإذا وحــوش الغــاب ســيطر حكمــهم
غلــب الوحــوش وردهــا انســانه
هــذا تــراث الخــالدين وبينــهم
يــأتى العزيــز ويســتقر مكانــه
لم يعــرف القــول الجــزاف بــل انتقى
فأضــاء فــى صــدق الشــعور جمانــه
وأقــام فــى حلــو الحيــاة ومرهــا
مــا اهــتز فــى وهــج الصــراع كيانــه
زادتــه فــى الأقبــال حلــو تواضــع
حــين اكتــوى بغرورهــم أقرانــه
ورأتــه عنــد البــأس أكــرم فــارس
يضــوى بليــل الحادثــات ســنانه

ويقـول مـا يلقـى بقـدرة ملـهم
مـا خـان أعماق الشـعور لسـانه
فـى حبـه ووفائـه أسـطورة
نطقـت بصـدق حروفـها أشـجانه
وأدارهـا سـفرا يصـوغ مـداده
قلـب الحبيـب تذيبـه أحزانـه
أناتـه الحـرى سـقت أكبادنـا
جمـرا عليـه شـواظه ودخانـه
واشـتد مصقـول الشـاعر قـادرا
يجـرى وراء غبـاره اخوانـه
فلـه بدنيـا الشـاعرين صـدارة
ووراء طلعتـه مشـت فرسـانه
يرتـاد آفـاق البيـان مظفرا
فيـه فكـل فنونـه ميدانـه
يلقـى كريـم القـول فـى ميزانـه
فـيزيد فـى وزن العـلا ميزانـه
قـد روض الفصحـى وأحسـن صوغـها
فأضـاف فـى أمجادهـا احسـانه
وأتـاح للشـعر الأصيـل مكانـة
عليـا رسـت بسـمائها أركانـه

فـــالمحتوى فيـــه النبـــوغ أصالـــــة
وعلـــى مفاتنـــه اســـتوى بنيانـــه
وسرى الشـــعور الحـــى فـــى أنفاســه
نغمـــا يـــهز المنتـــدى فتانـــــه
والشـــاعر الفنـــــان فـــى أعماقـــه
ســـر الوجـــود وفـــى يديـــه عنانـــه
أوتـــى مـــن الالهـــام قـــدرة شـــاعر
يســـع الوجـــود ومـــن بـــه وجدانـــه
فـــيرى بعـــين الملـــــهمين حقائقـــا
خفيـــت وتســـمع صمتنـــا آذانـــــه
ويحـــس فـــوق الحـــس ثـــم يـــرده
شـــعرا يســـير بســـحره ديوانـــــه
يسقى من الســـحر الحـــلال نفوســـنا
ولـــو أنـــه أوحـــى بـــه شـــيطانه
فنـــهيم نذعـــن للـــذى يوحـــى بـــه
ويظـــل يســـعد قلبنـــا اذعانـــــه
هـــذا دعـــــاء الفـــن عـــــز نداؤه
هـــذى قيادتـــــه وذا ســـــــلطانه
إن كـــان للشـــعب العريـــق حضـــارة
كتـــب الحضـــارة كلـــها فنانـــــه

عزيز العرب

شعر: مبارك المغربى
(السودان)

لــك منــى علــى المــدى أعظــامى
يــا مقيمــا بقلبــى المســتهام
يا مطيـل الغيـاب فـى العـالم الرحـب
بعيــدا عــن عــالم الأوهــام
لــك منــى ذمـاء نفســى يـا خلــى..
وقلــب قــد صــار بعــض حطــام
لم تــزل روحــك الزكيــة تــهدى
بلجــة الوحــى للنفـوس الظوامــى
لم يــزل طيفــها يطــل علينـــا
كــل حــين.. فــى رقـــة الانســام
عبـــق كالصبـــا يضـــوع شـــذيا
كنـت فينـا أو صــرت بــين الرغــام
لهــف نفســى. أمـــا أودع خلـــى
ونجيــى.. ومــا أبــل أوامــى؟
غائب مالـــه الغـــداة رجـــوع
تاركا صـــحبه لـــذل المقـــام

لزمــان مــدى الحيــاة عبوس

وقلـوب علـى الـدوام دوامــى

أى رزء أشــد مـــن ذلــك الـــرزء

وأقســـى مـــن تلكـــم الآلام!

ايــه يــا مصــر: يــا مــراح خيــالى

ورؤى خــاطرى وملقـــى غرامـــى

كيـف أغــدو علـــى ثــراك غريبــا

بــين أهلـــى ومجتلـــى احلامـــى

كنـت ألقـاك مسعد الـروح والقلـــب..

فمـــالى ألقـــاك دون ســـلام؟

وجـهك النضـر! مالـــه حـال جـــهما

بعـد مـا كـان مشـرق الابتســـام؟

هدنـا الحـــزن مــذ فقدنــا «عزيــزا»

فــى كثـير مــن المعـــانى الفخـــام

فى الندى فى النقاء. فى البر بـالصحب.

وفــى خلقــه النبيـــل الســـامى

فـى سمـاء الخيــال فــى الأب الفــذ..

وفــى موكـــب العـــلا والتســـامى

عبقـــرى زهـــا بمذهبـــه الشـــــعر

ونــــادى لـــــه بلا احجـــــــام

صائـــــه مـــــن أذى الجديـــــد

زاهـــرا خـــالدا علـــى الأعـــوام

لـــن يضـــير النظيـــم محـــض كـــلام

قـــد أتـــى مبـــهما بغـــير نظـــام

أيـــــهذا الـــــذى تـــولى كريمـــــا

مسـرعا فـــى خطـــاه دون زحـــام

أيـن ألقـــاك كـــى أبثـــك مـــاعندى..

وأشـــكو إليـــك حـــر هيـــامى

ســوف ألقـــاك فـــى محيـــا «عزيـــز»

صـورة منـك فـى الشـباب النـامى[1]

يـا شـقيق الفـؤاد.. يـا تـوأم الـــروح..

ويـــا ذاهبـــا بـــأقصى مرامـــى

أنـا مـا عشـــت أذكـــر الخـــير والفضل

وفيـــض الشـــعور والإكـــرام

لم تزل تزدهـــــى «عصـــارة قلبى»

بعد ما زنتهـــا بأغلى وســـام[2]

---

(١) عزيز الاسم الذى أطلقه الشاعر على ابنه وفاء للفقيد العزيز.

(٢) عصارة القلب: ديوان الشاعر الذى تفضل الفقيد بتقديمه عام ١٩٥٤.

الأمــس مضــى «بتوتــى» «وبــرى»
بـين نفح الربـى وهمــس الغمــام[1]

وليـــــــال كأنــــــــها أرج الخلد
تجلـــت فـــى المقـــرن البســام

طالعتنا «الخرطـوم» مـن وحيـك الـثر
بســحر يفــوق ســحر المــدام[2]

كــم لقــاء لنــا علــى ضفــة النيــل
وشــط «الجزيــرة» المــترامى[3]

بـين صحـب شـجتهم نـدوة الشـعر
فصـــاغوا شـــوارد الأنغـــام[4]

ذكريــات تعيــش فــى القلــب رمــزا
لصــلات تبقــى مــدى الأيــام

يا رسول القريض - يــا شاعر العـرب
وحـــادى البيـــان والالهـــام

---

(١) تربى وبرى والمقرن: أماكن معروفة فى ضواحــى الخرطـوم وبـها كـرم الشـاعر صديقه عند زيارته الأولى للسودان عام ١٩٥٥.

(٢) الخرطـوم: القصــيدة التــى حيـا بـها الفقيـد الســودان فــى زورتـه الثانيـة عام ١٩٥٧.

(٣) الجزيرة: الموقع المعروف بالقاهرة وبها دار الفقيد بالزمالك.

(٤) اشارة للندوة الكبيرة التى أقامها الفقيد للشاعر عام ١٩٥٤ ودعا اليها أساطين الأدب فى مصر.

ياسليل الوفاء يا عترة النبل

وصنو الحجي ونسل الكرام

ليتك اليوم بيننا تتملى

في صمود الرجال والاقدام

لترى العرب في مصافحة المجد

خفاقا وفي نداء الوئام

لترى النيل نضّر الله واديه

طروبا يتيه بين الأنام

فالشقيقان بعد طول التنياع

واشتياق.. تعانقا في التئام

ذاك يا صاح ما دعوت إليه

فاستجابت له عرى الأرحام

إنما نحن كلما جد جد

لترانا أوفى الورى بالذمام

نحن رمز النضال في الموقف الضنك

وفي غمرة الخطوب الجسام

يا أخا الود والمروءة والبذل

سقى قبرك الغمام الهامى

نم هنيئا فقد غرست ثمار المجد

والمجد غرس كل همام

لم يغب من أعاد للضاد ما ضيها

وللعرب عزة الاسلام

من قضى العمر فى اللجوء الى الله

بأعماله الكبار العظام

رب هبه الرضا وأغدق عليه

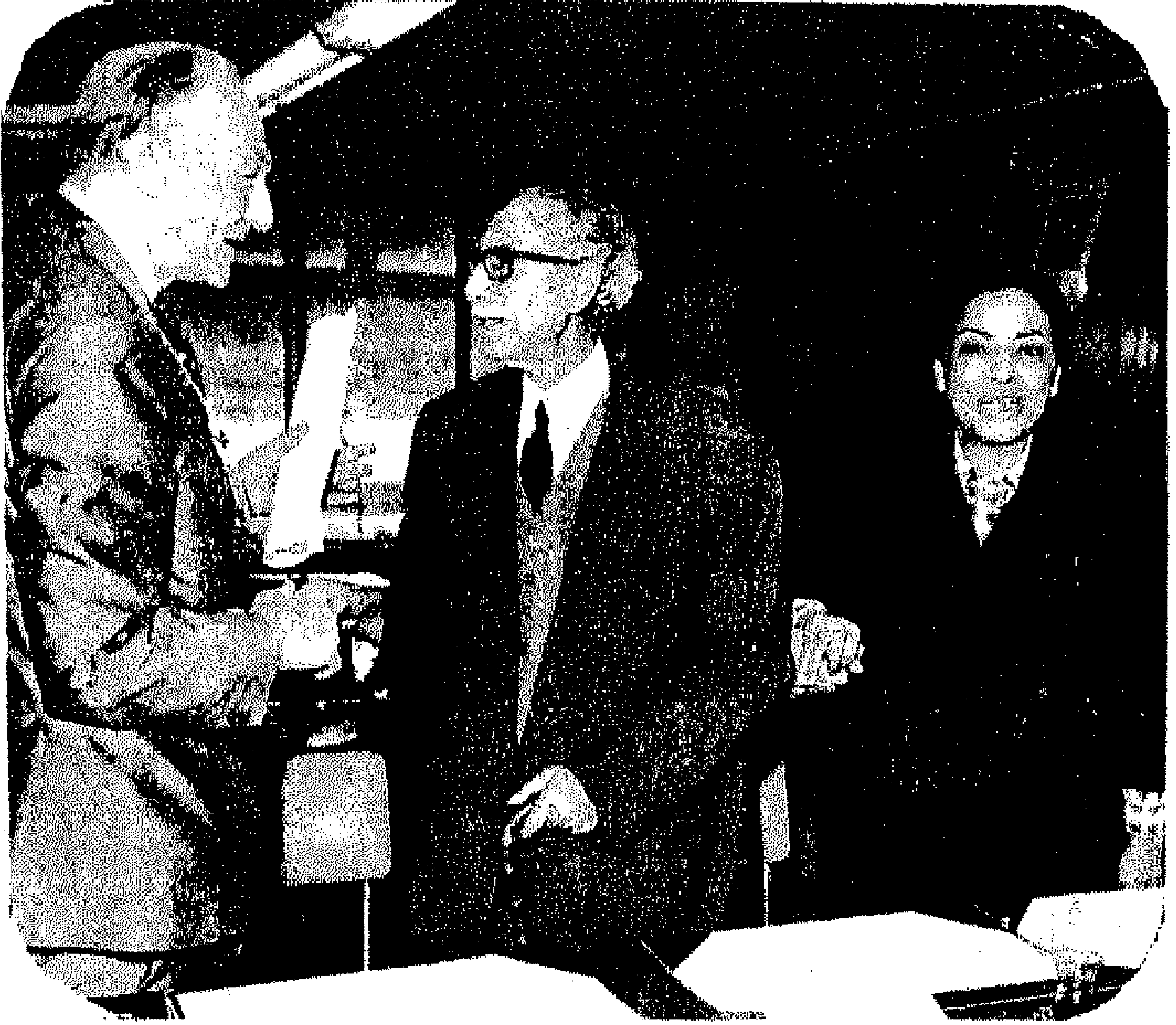
فضلك الجم فى أبر مقام

وسلام عليه فى جنة الخلد

حليف الهناء والإنعام



أبى وأنا وابنتى أمينة فى المعادى عام ١٩٦٨



أبى والأستاذ توفيق الحكيم والدكتورة بنت الشاطىء

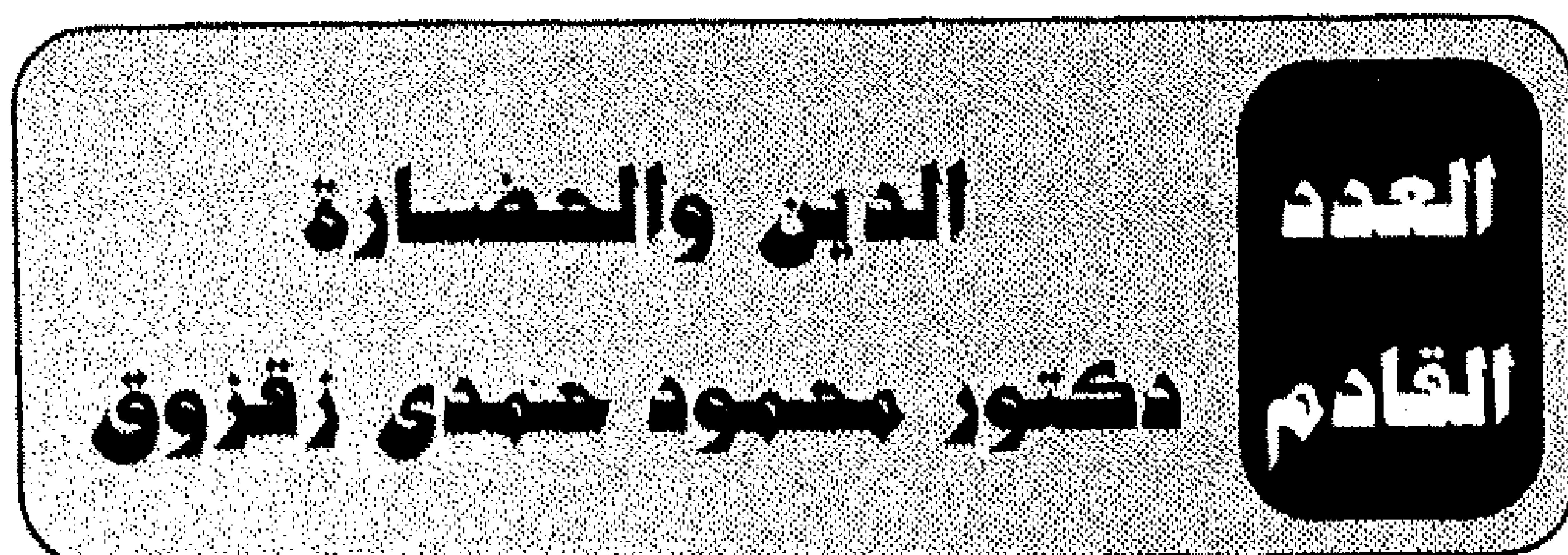


أبى يستضيف فى بيته ملك ليبيا وزوجته بعد ثورة ليبيا



أبى يستضيف الأمير عبد الله الفيصل فى جدة

فهرس



رقم الإيداع		١٩٩٨/٧٨٤٤
الترقيم الدولى	977-02-5583-1	ISBN

١/٩٨/٢٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

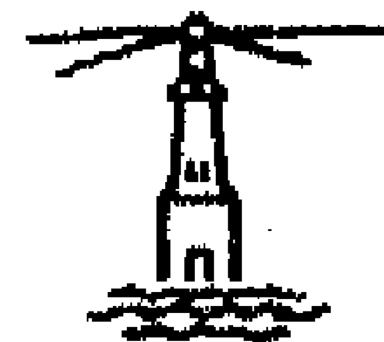
«نشأت فى بيت عزيز أباظة..
وكان البيت سعيداً هادئاً.. سمعنا فيه أول ما سمعنا الشعر، حتى قبل أن نسمع الكلام.

وكان أبى يقرأ الشعر العربى فى العصرين الجاهلى والإسلامى بصوت حنون.. فكنت أهتز له برغم أننى لم أكن أفهم منه حرفاً لصغر سِنِى.

وحتى الآن مازلت أراه وأسمعه يردد الأبيات الأثيرة عنده..»

عفاف عزيز أباظة





دار المعارف

٤٠٦٨٩٥/٠١

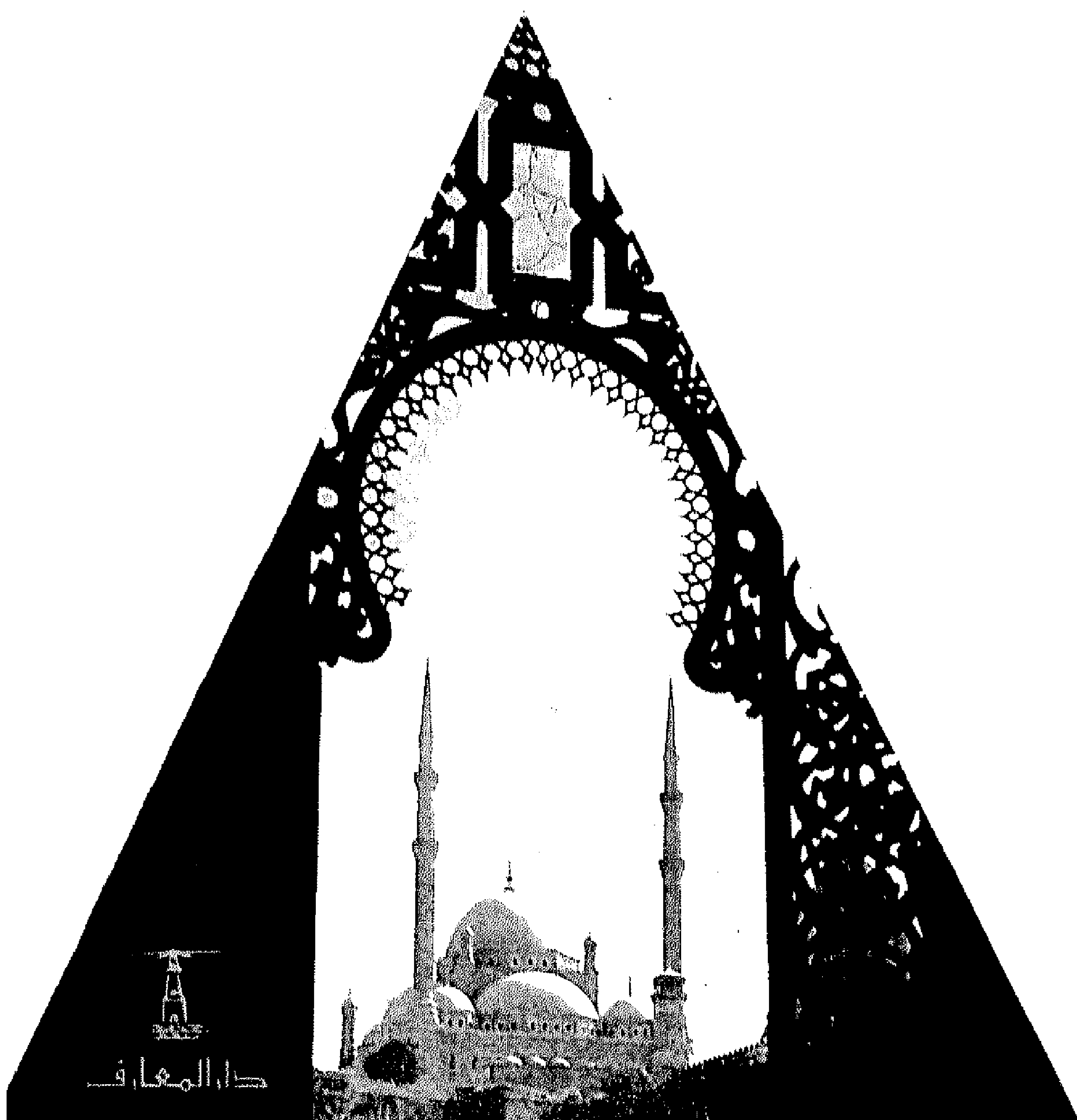


دكتور محمود حمدي زقزوق

الدين والحضارة

اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف



اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٦٣٢]

رئيس التحرير: رجب البنا

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

دكتور محمود حمدي زقزوق

الدين والحضارة



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــة

غنى عن البيان أن نؤكد أن الدين هــو المكـون الرئيســى لكـل الحضارات التى صنعها الإنسان على مدى تاريخ البشرية. فـإذا تأملنا – على سبيل المثال – فى أقـرب الحضـارات إلينـا وهـى الحضارة المصرية القديمة فإننا نجد أن الديـن كـان هـو البـاعث الأساسى لهذه الحضارة. ويتضح لنا ذلك بجلاء من الآثار الباقية التى تركها لنا أجدادنا من قدماء المصريين. فأهم مــا خلفـوه لنـا يتمثل فى المعابد والمقـابر والأهرامـات التـى تعـبر جميعـها عـن الطابع الدينى لهذه الحضارة، ومـا عـدا ذلـك مـن آثـار مصريـة أخرى نجده يتصل أيضاً بالدين بشكل أو بآخر. وكذلـك الشـأن بالنسبة للحضارات الإنسانية الأخرى، ومن بينها بطبيعة الحال الحضارة الإســلامية التـى قـامت وازدهـرت انطلاقـاً من تعـاليم الإسلام.

وهذا إن دل على شيء فإنمـا يـدل علـى مـدى عمـق العقيـدة الدينية وتغلغلها فى النفس الإنسانية. ولايزال الدين يـؤدى دوراً رئيسيا فى حياة الأفراد والشعوب على الرغم مــن كـل مـا وصـل

إليه الإنسان من تقدم مادى باهر. ولايـزال الإنسـان فـى عصرنـا الحاضر فى حاجة ماسة إلى هدايـة الديـن وصفـاء الـروح وعمـق اليقين لينعم بالسكينة ويتخفف من حدة اندفاعـه المـادى وغلبـة الأنانية على حياته وسلوكه.

ولإبراز هذه المعانى وما يرتبط بها من أمور أخرى حاولنا فـى **الفصل الأول** من هذا الكتاب أن نبين أهمية العقيدة الدينية فـى حياة الإنسان، وعرضنا بإيجاز مـدى حاجـة البشـرية إلى ظـهور الدين الإسلامى. وأشرنا إلى الملامح البـارزة للإسـلام ومـا يشـتمل عليه من عقائد أساسية.

أما **الفصل الثانى** فقد جاء بمثابة دعوة للتأمل فى الإنسان فى ضوء تعاليم الإسلام.

ونظراً لأن الإنسان هو وحده الكائن المتدين، وأنه فـى الوقـت نفسه صانع الحضارة فقد كان لزاماً علينا أن نحاول فـى **الفصـل الثالث** إلقاء الضـوء علـى قضيـة الحضـارة بصفـة عامـة، وصلـة الحضارة بالدين الإسلامى بصفة خاصة مبينين فى هذا الصدد أن الحضارة تعد فريضة إسلامية لا تقل أهمية عن أية فريضة أخرى فى الإسلام، وأن الحضارة فى المفـهوم الإسـلامى تعنـى تحقيـق المشيئة الإلهية فى عمارة الأرض ماديـا ومعنويـا، وبذلـك يحقـق الإنسان ذاته بوصفه خليفة لله فى الأرض.

ونأمل أن يكون فى نشر هذا الكتاب فائدة تعود على القراء وتدفعهم إلى المزيد من الاطلاع والبحث والتأمل فى القضايا التى أشرنا إليها فى إيجاز شديد. والأمل معقود على عودة الوعى بدور الدين فى دفع عجلة التقدم الحضارى فى عالمنا العربى الإسلامى حتى تأخذ الأمة الإسلامية مكانها اللائق بها بين الأمم، وتسهم بفاعلية فى تقدم وخير الإنسان فى كل مكان.

والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أ. د. محمود حمدى زقزوق

القاهرة: ١٨ من صفر ١٤١٩ هـ

١٣ من يونيه ١٩٩٨ م

الفصل الأول
العقيدة الدينية
وأهميتها فى حياة الإنسان

١ – الطبيعة الإنسانية والنزعة الدينية:

تشتمل الطبيعة الإنسانية على عنصرين أساسيين: عنصر مادى وعنصر روحى، فقد أخبرنا القرآن الكريم أن الله خلق الإنسان من طين، وأنه عندما اكتملت تسويته وتم صنعه من هذه المادة الطينية التى تشتمل على كل العناصر الأساسية للمادة أضاف الحق – تبارك وتعالى – إلى ذلك عنصراً آخر جوهرياً. وقد تمثل ذلك فى العنصر الروحى الذى به اكتمل خلق الإنسان، والذى به صار الإنسان إنساناً، وأصبح جديراً بأن يطلب الله من الملائكة أن يسجدوا له تمجيداً لصنع الله وتكريماً للإنسان. وفى ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ **فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** ﴾[1].

ونلاحظ فى هذه الآية حقيقة هامة لا يجوز أن تغيب عن الأذهان وهى: أن الله – سبحانه وتعالى – قد أضاف هذا العنصر

---

(١) سورة الحجر الآية ٢٩، وسورة ص الآية ٧٢، انظر أيضاً نفس المعنى فى: سورة السجدة الآية ٩.

الروحى إلى ذاته، فقد نفخ الله فى الإنسان من روحه هو - سبحانه -. وهذا تكريم ما بعده تكريم وخصوصية للإنسان لم ينلها أحد غيره من الخلق. فبقية المخلوقات تشترك مع الإنسان في العنصر المادى، ولا يمتاز الإنسان عنها فيه شيئاً أكثر من جمال الصورة وكمال الصنعة. ولكن الامتياز الوحيد الأهم من ذلك كله، هو فى هذا الجانب الروحى الربانى الذى به أصبح الإنسان خليفة الله في أرضه.

وقد أساء إبليس فهم طبيعة الإنسان ونظر فقط إلى الجانب المادى فيه واستكبر أن يسجد لآدم قائلاً: ﴿ **أأسجد لمن خلقت طينا** ﴾[1]، وغفل عن أن الله قد نفخ فيه من روحه سبحانه. فالأمر إذن لم يكن - كما فعل إبليس - أمر مقارنة بين الطين الذى خلق منه الإنسان، والنار التى خلق منها إبليس، وأفضلية النار على الطين، وإنما الأمر يتعلق بالدرجة الأولى بهذا الجانب الروحى السامى المتصل مباشرة بالله، لأنه روح من روح الله سبحانه.

ويشمل هذا الجانب الروحي: كل القوى المعنوية فى الإنسان من عقل وروح، وقلب. ويعبر حجة الإسلام «الغزالى» عن هذا

---

(١) سورة الإسراء الآية ٦١. وفى سورة الحجر أيضاً الآية ٣٣ ﴿**قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون** ﴾.

الجانب الروحى بقوله: إنه ذلك «الحس السادس الذى يعبر عنه بالعقل، أو بالنور أو بالقلب أو ما شئت من العبارات»[1]. ويمكن تقسيم هذا الجانب الروحى إلى قسمين: **أحدهما** يتصل بالعقل ومجاله، **وثانيهما** يتصل بعالم الروح والوجدان.

ومن ذلك يتضح أن هناك جوانب أساسية فى طبيعة الإنسان لا يجوز إغفالها أو تجاهلها أو تغليب بعضها على بعض بطريقة تخل بالتوازن بينها. وبناء على ذلك يمكن تلخيص هذه الجوانب الأساسية فى ثلاثة أمور هى: **الجسم، والعقل، والروح**. وتلك جوانب جوهرية لابد من مراعاتها جميعاً إذا أريد فهم الإنسان فهماً سليماً وإذا أريد تربيته وتقويمه حتى يصير صاحب شخصية سوية متوازنة، وهذا التوازن من شأنه أن يؤدى إلى إقامة مصالح الدين والدنيا معاً. ومن هنا كان اهتمام الشريعة الإسلامية بالتأكيد على المقاصد الضرورية التى قصدت إليها وهى: حفظ «الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال»، وهى كلها أمور تتعلق بتلك الجوانب الأساسية فى الطبيعة الإنسانية.

فالجسم الذى يمثل الجانب المادى فى الإنسان – له حاجاته التى ينبغى تلبيتها من مأكل ومشرب وملبس ومأوى وغير ذلك

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين للغزالى ج ٤ ص ٢٨٩. طبع مصطفى البابى الحلبى ١٩٣٩ م.

مما يشبع هذا الجانب المادى فى حدود متطلبات هذا الجسم، وفى إطار ما رسمه الشرع، والحيوان - الذى يشترك مع الإنسان فى هذا الجانب المادى - يتطلع أيضاً إلى إشباع هذا الجانب. وذلك حق مشروع للإنسان والحيوان على حد سواء.

وإذا كان هذا هو الشأن فى أمر الجانب المادى فإن الجانب الروحى فى الإنسان له أيضا متطلباته وله حاجاته التى لابد من إشباعها، والعمل على تلبيتها. فالعقل يتطلع إلى العلم والمعرفة والفهم والإدراك، وهذا حقه، وتلك وظيفته التى خلق من أجلها.

ومن هنا فإن أى محاولة لتعطيل العقل عن أداء وظيفته تعد نكسة فى فطرة الإنسان ترده إلى مستوى الحيوان الأعجم، وتعد تعطيلاً لحكمة الله - سبحانه - من خلق العقل، تماماً مثلما يعطل الإنسان حاسة من الحواس عن أداء وظيفتها التى خلقت من أجلها.

ومن هنا وصف الحق - تبارك وتعالى - هؤلاء الذين يفعلون ذلك بأنهم غير جديرين باستحقاق وصف الإنسان، فهم لا يزيدون عن الحيوان الأعجم بل هم أحط منه درجة وأدنى منزلة، وفى ذلك يقول القرآن الكريم ﴿ **لهم قلوب لا يفقهون بها**

ولهم أعين لا يبصرون بـها ولهـم آذان لا يسـمعون بـها أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾[1].

ومن هذا المنطلق يعتبر الإسلام عدم استخدام العقل خطيئة من الخطايا وذنباً من الذنوب. يقول الله – تعالى – حكاية عن الكفار يوم القيامة ﴿ **وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير * فاعترفوا بذنبهم ﴾**[2].

ولهذا كانت دعوة القرآن الكريم للإنسان لاستخدام ملكاته الفكرية دعوة صريحة لا تقبل التأويل. وهكذا يجعل الإسلام التفكير – الذى هو وظيفة العقل – واجباً مقرراً وفريضة دينية. يقول الله – تعالى – ﴿ **وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾**[3].

وإذا كانت ممارسة الوظائف العقلية تعد واجباً دينياً فإنها من ناحية أخرى مسئولية حتمية لا يستطيع الإنسان الفكاك منها، وسيحاسب على مدى حسن أو إساءة استخدامه لها مثلما يسأل عن استخدامه لباقي وسائل الإدراك الحسية. وفي ذلك يقول

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

(٢) سورة الملك: الآيتان ١٠، ١١.

(٣) سورة الجاثية: الآية ١٣.

القرآن الكريم ﴿ **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** ﴾[1].

والعقل – كما يقول أبو حامد الغزالى – «أنموذج من نور الله» وقبس من نور الحق سبحانه، أو كما يقول الجاحظ هو: وكيل الله عند الإنسان[2]. ومن هنا كانت أول كلمة من الوحى الإلهى على محمد صلى الله عليه وسلم وهى **(اقرأ)** تتجه إلى مخاطبة هذا العقل. وقد تكررت مرتين فى الآيات الخمس الأولى من الوحى، كما وردت فى هذه الآيات أيضاً: كلمة **القلم** وكلمة **العلم**. وهذا تأكيد على أهمية القراءة والتدوين بالقلم فى سبيل الوصول إلى العلم وحفظه من الضياع. وذلك من المهام الأساسية للعقل الإنسانى.

وبجانب هذين العنصرين الهامين فى الإنسان: **الجسم والعقل**، يوجد هناك عنصر ثالث لا يقل أهمية عنهما ولا يكتمل البناء الإنسانى السليم إلا به وهو: **الروح**، وما تتطلع إليه من الارتقاء فى مدارج السمو الروحى الذى يعلو على ماديات الحياة ومتعها الزائلة.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٣٦.

(٢) راجع بحثنا حول (دور الإسلام فى تطور الفكر الفلسفى) ص ٧ – مكتبة وهبة بالقاهرة.

فإذا كان العقل يفهم ويدرك ويتدبر ويميز بين الأمور، ويوازن بين الأضداد، ويتأمل فيما يدركه ويقلبه على جميع وجوهه، ويحكم عليه فإنه لا يجوز أن يقتصر مجال عمله على فهم وإدراك ما يتعلق بماديات الحياة وما يتصل بها من علوم وفنون، لأنه لو فعل ذلك، ولم يرد أن يرتقي بالإنسان إلى ما يسمو على ماديات الحياة، فإن هذا يعنى أنه قد وقف بالإنسان فى منتصف الطريق.

فعالم الماديات – رغم أهميته – ليس هو كل شىء، فهناك فوق ذلك عالم الروح المتصل بالله الذى نفخ فى الإنسان من روحه. والعقل في تأملاته وعلومه وفنونه وسائر أعماله مدفوع بفطرته إلى التطلع إلى ما فوق عالم المادة. ومن هنا فإن الوقوف بالإنسان عند عالم المادة يعد قصوراً فى فهم طبيعة الإنسان وتكوينه. وهذا الفهم القاصر والخاطئ قد يؤدى بالإنسان إلى إنكار عالم الروح كلية، أوعلى الأقل إهماله وعدم الاكتراث به. وهنا يظهر الإلحاد فى شتى صوره وأشكاله.

إن العلم الإنسانى مهما بلغت منجزاته المادية، ومهما اتسعت رقعة المعارف التى يضيفها إلى حصيلة البشرية من العلوم فإنه من ناحية أخرى يبين للإنسان قصور طاقاته. فكلما اتسعت دائرة الاكتشافات العلمية، كلما اتسعت دائرة المجهولات أمام

الإنسان. وصدق الله العظيم القائل ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾[1].

وهذا من شأنه أن يحد من غروره ويخفف من غلوائه وإعجابه بنفسه ويجعله يلتفت إلى ما وراء هذا الكون المادى: إلى خالق الكون – سبحانه – وقد بينت لنا آية كريمة ذلك فى قوله تعالى: ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾[2].

وقد أدرك المفكرون الكبار على مدى التاريخ هذا الجانب الهام وانتهى بهم الأمر إلى إدراك أن الله هو الحق. فتاريخ الفلسفة مثلاً يبين لنا أن الفلاسفة الأوائل قد بدءوا تأملاتهم بالسؤال عن أصل هذا الكون المادى ومم يتكون، وقد أسلمهم ذلك إلى البحث فى طبيعة النفس الإنسانية وعما إذا كانت تختلف فى طبيعتها عن الكون المادى، وانتهى بهم التأمل إلى إدراك مبدأ الألوهية.

وهذا هو نفس الترتيب الذى ورد فى الآية الكريمة، فالإنسان عندما يفتح عينيه يرى أمامه هذا الكون الكبير وما يشتمل عليه

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٥.

(٢) سورة فصلت: الآية ٥٣.

من أرض وسماء وبحار وأنهار وبشر وحيوان ونبات إلخ، ثم يرجع بعد ذلك إلى نفسه - التى تمثل الكون الصغير - يتأمل فيها وفى طاقاتها وقدراتها، ويخرج من هذا التأمل بنتيجة تبين له محدودية قدراته كإنسان، وهذه النتيجة بدورها تؤدى به فى النهاية إلى إدراك الذات المطلقة التى تمنح الإنسان تلك القدرات والمواهب، أى تصل به إلى الإيمان.

وهكذا نجد أن العقل الواعى الفاهم المدرك لا يقف عند الأسباب الثانوية المبعثرة التى تصادفه فى الطبيعة، بل يتابع السير إلى ما وراءها، وعندما ينعم النظر فى سلسلة الأسباب كيف تتصل حلقاتها فإنه لا يجد بُدًّا من الارتماء فى أحضان العناية الإلهية والتسليم بوجود الله الذى بيده مقاليد كل شىء[1].

وهذا يوضح لنا أن «النظرة الروحية أو الدينية لا تولد فى النفس إلا حينما يتسع أفقها، فتتجاوز الكون بظاهره وباطنه إلى ما وراءه، فهى أوسع النظرات مجالاً وأبعدها مطلباً»[2].

---

(١) راجع كتابنا: دراسات فى الفلسفة الحديثة ص ٣٩ - دار الفكر العربى١٩٩٣ م.

(٢) راجع: «الدِّين» للدكتور محمد عبد الله دراز.ص ٨٦ - دار القلم بالكويت ١٩٨٠م.

وقد أكد أساطين العلماء فى عصرنا الحاضر من كافة التخصصات العلمية فى مجالات الطب والذرة والكيمياء وعلم الحياة وطبقات الأرض وعلوم البحار وغيرها من علوم - أكدوا جميعاً أن كل ما انتهي إليه بحثهم أدى بهم إلى الاهتداء إلى أن هذا الكون لا يتصور أن يكون قد نشأ عن طريق الصدفة العمياء[1]، لأنه كون يشتمل على خطة محكمة ونظام متقن. وهذه الخطة المحكمة لابد أن يكون قد وضعها كائن مطلق قوى قادر عالم حكيم.

أليس هذا هو ما يقول به قانون السببية البسيط الذى يعد من البديهيات؟ من غير الله يقدر على هذا الإبداع؟

من إله غير الله يأتيكم بضياء بعد ظلام الليل؟.

ومن إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه بعد النهار؟

ومن غير الله يرزقكم من السماء والأرض؟

ومن غير الله يدبر أمر السموات والأرض؟

---

(١) لقد عبر هؤلاء العلماء عن ذلك فى كتاب ترجم إلى العربية تحت عنوان «الله يتجلى فى عصر العلم».

٢ - أصالة النزعة الدينية:

إن النزعة الدينية أصيلة فى نفس الإنسان، والإيمان أمر فطرى لا يجحده إلا مكابر. وهذه الفطرة الربانية على الإيمان بالله عبرت عنها آية الميثاق فى القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى -: **﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾**[1].

وقد سئل أعرابى بسيط كيف عرفت الله؟ فقال: البعرة تدل على البعير، وأثر السير يدل على المسير. وهذه سماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، أفلا تدل على اللطيف الخبير؟

إن كل شىء فى الوجود يشير إلى خالق الوجود. وقد عبر عن ذلك الشاعر العربى القديم بقوله:

وفى كل شىء له آية
تدل على أنه الواحد

والحقيقة التى أجمع عليها مؤرخو الأديان على اختلاف مشاربهم أنه ليست هناك جماعة إنسانية ولا أمة كبيرة ظهرت فى هذا الوجود وعاشت ثم مضت دون أن تفكر فى مبدأ الإنسان ومصيره وفى تعليل ظواهر الكون وأحداثه.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٧٢.

«فالغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحيوانية. وأن الاهتمام بالمعنى الإلهى وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية»[1].

وتاريخ البشرية حافل بالكثير من الآثار والنصوص التى تبين لنا أن الناس في كل زمان ومكان قد شغلتهم المسائل المصيرية حول الحياة والموت وما بعد الموت، وما شاكل ذلك من مسائل تعبر عن نزوع الإنسان وتطلعاته لحل ألغاز الوجود. وقد كانت الإجابات على تلك المسائل المصيرية تصدر عن الديانات التى اعتنقها الإنسان فى شتى العصور. ومن هنا كان قول برجسون:

«لقد وجدت، وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكنه لم توجد أبداً جماعة بغير ديانة»[2].

وهكذا نرى أن حاجات الإنسان ومتطلباته تنحصر فى حاجات الحس وحاجات العقل وحاجات الروح، أو كما عبر عن ذلك أحد علمائنا الأجلاء[3]: «حاجة الحس، فحاجة العقل القانع، فحاجة العقل المتسامى».

---

(١) انظر: «الدين» للدكتور دراز ص ٣٨، ٨٢، ٨٣.

(٢) انظر المرجع السابق ص ٨٣.

(٣) هو المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز فى المرجع السابق ص ٨٧.

· وكل ذلك يؤكد لنا أن النزعة الدينية أصيلة فى نفس الإنسان وليست شيئاً مفروضا عليه من خارجه، وأنها متوائمة تماماً مع الطبيعة الإنسانية، وأن جحودها وإنكارها يعد شذوذاً فى الطبيعة الإنسانية وخروجاً عليها وقصوراً فى فهمها.

٣ - الإيمان ضرورة حياتية:

وإذا كان الإيمان يعد أمراً فطرياً ونزعة أصيلة فى نفس الإنسان فإنه من ناحية أخرى يعد ضرورة حياتية لا تستقيم حياة الإنسان بدونها. ومن هنا نرى فى عالمنا المعاصر مقدار ما يعانيه الإنسان فى العصر الحديث من تمزق نفسى بسبب الفراغ الروحى الذى يعانيه، الأمر الذى يجعله كالمعلق بين السماء والأرض، ليس لديه أساس راسخ يركن إليه ولا إيمان يملأ جوانب نفسه بالسكينة والطمأنينة.

وقد أفرزت موجات القلق الحادة فى الغرب اتجاهات فكرية منحرفة كالوجودية وغيرها من تيارات محاولة ملء الفراغ الروحى الذى يعانى منه الإنسان، ولكن تبين أن كل هذه الاتجاهات الفكرية وما أحيط حولها من ضجيج إعلامى كبير وما نسج حولها من هالات لم تكن إلا كسرابٍ بقيعةٍ يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

ونظراً لأن الإنسان لا يستطيع أن يستغنى عن الإيمان، فإننا نجد الملحدين الذين لا يؤمنون بالله يبحثون لأنفسهم عن شيء آخر يؤمنون به يكون بديلاً عن الإيمان بالله، فيتحول الإيمان بالله لديهم إلى الإيمان بالعلم أو بالإنسان أو بالمادة.. إلخ. ولكنه في هذه الحالة إيمان مقطوع الجذور، لأنه إيمان بالفرع دون الأصل وبالعرض دون الجوهر. وبالتالى لا يمكن أن يشبع مطالب النفس الإنسانية المفطورة على الإيمان بالله. وصدق الله العظيم القائل: ﴿ **هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين** ﴾[1].

فالمؤمنون وحدهم هم الذين تمتلئ نفوسهم بالسكينة والطمأنينة، وتحظى بالأمل والثقة.

٤ – الإيمان والأمل:

والإيمان يرتبط بالأمل ارتباطاً وثيقاً لا يمكن أن ينفصم. ومن هنا نجد أن المؤمن لا يمكن أن ييأس أو يتسرب القلق إلى نفسه. وصدق الله حيث يقول: ﴿ **إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون** ﴾[2].

---

(١) سورة الفتح: الآية ٤.

(٢) سورة يوسف: الآية ٨٧.

والأمل هو الذى يجعل الإنسان يحب الحياة ويعمل من أجل خيره وخير الناس، إيماناً منه بأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وثقة فى عدل الله ورحمته.

ويمتد هذا الأمل مع الإنسان المؤمن إلى ما شاء الله بلا حدود. ولذلك وجدنا النبى صلى الله عليه وسلم يحث المؤمنين على أن يفعلوا الخير حتى ولو قامت الساعة مادام الإنسان فى وضع يستطيع فيه أن يقدم شيئاً. ويعبر عن ذلك حديث رسول الله - عليه الصلاة والسلام - حين يقول: **«إذا قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل»**(١).

والأمل - الذى هو نتيجة طبيعية للإيمان - يعد نعمة كبرى ورحمة من عند الله لعباده. و **«لولا الأمل ما أرضعت أم ولداً ولا غرس غارس شجراً»**(٢).

٥ - مفهوم الدين:

وإذا كان الإيمان يعد فطرة أصيلة فى نفس الإنسان وضرورة حياتية يغذيها الأمل، فإن معنى ذلك أن الإنسان متدين بطبعه.

---

(١) راجع مسند أحمد بن حنبل ج ٣ ص ١٩١ (طبع اسطنبول للكتب الستة مجلد ٢٢).

(٢) من حديث للنبى صلى الله عليه وسلم رواه الخطيب البغدادى فى التاريخ (راجع فيض القدير ٢/٥٥٩).

ومن هنا فإن من عرَّف الإنسان بقوله: **«الإنسان كـائن متديـن»** لم يكن مجانباً للصواب.

فالإنسان هو الكائن الوحيد الذى ينزع بطبعه إلى التديـنِ عـن وعى وإدراكٍ، والتدين مرتبط بدين، والدين قد يكـون حقاً وقـد يكون باطلا. ولهـذا رأينـا الحـق - تبـارك وتعـالى - يقـول فـى القرآن الكريم على لسان سيدنا محمد صلى الله عليـه وسلم فـى نقاشه مع المكيين الوثنيين **﴿ لكم دينكـم ولى ديـن ﴾**[1]، فوصـف معتقدهم الباطل بأنه دين.

ولكن القرآن من ناحية أخرى عندما يطلق لفـظ الديـن معرَّفـاً فإنه يقصد بـه الديـن الحـق. وفـى ذلـك يقـول الله تعـالى: **﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾**[2].

ويقول أيضاً: **﴿ شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحـاً والـذى أوحينا إليك وما وصَّينا بـه إبراهيم وموسـى وعيسـى أن أقيمـوا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾**[3].

وهناك العديد من التعريفات لمفهوم الدين لن ندخـل هنـا فـى تفاصيلـها ولكننـا نكتفـى فقـط بذكـر واحـد منـها أشـار إليـه (التهانوى) في كتابه كشاف اصطلاحات الفنون حيث يقول:

---

(١) سورة الكافرون: الآية ٦.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٩.

(٣) سورة الشورى: الآية ١٣.

«الدين وضع إلهى سائق لذوى العقول باختيارهم إلى الصلاح فى الدنيا والفرح فى الآخرة. ويطلق على ملة كل نبى، وقد يختص بالإسلام. والدين يضاف إلى الله لصدوره عنه، وإلى النبى لظهوره منه، وإلى الأمة لتدينهم به وانقيادهم له»[1].

٦ - وحدة الدين:

ومنذ أن خلق الله الإنسان وأهبطه إلى الأرض، وأعانه على السير فى طريق الحياة، وهداه إلى ما يحفظ حياته من مأكل ومشرب ومسكن وملبس الخ. لم يتركه بعد ذلك دون رعاية روحية، بل تعهده سبحانه وتعالى بإرسال الرسل فى فترات مختلفة على مدى التاريخ البشرى يبينون للإنسان طريق الهدى والرشاد، وظلت الرسالات الإلهية إلى البشرية تتوالى جيلا بعد جيل تذكرها إذا نسيت، وتحذرها إذا انحرفت، وتوجهها إلى الخير إذا ضلت الطريق.

وقد انتهى المطاف بإرسال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فكانت رسالته خاتمة الرسالات، ومكملة لدين الله الذى جاء به رسل الله من قبل. وقد جاءت هذه الرسالات جميعها تخاطب

---

(١) الإسلام وحاجة الإنسانية إليه - للدكتور/ محمد يوسف موسى ص ١٥ مكتبة الفلاح بالكويت ١٩٨٠ م.

فى الإنسان تلك النزعة الدينية الأصيلة، وتوقظ فى أعماقه هذا الشعور الدينى المتأصل فى النفوس.

ومن هنا فإن رسالة الأديان لم تكن تتجه إلى خلق الميول الدينية فى النفوس، وإنما كانت توجه هذه الميول - التى هى موجودة أصلاً - الوجهة الصحيحة لتصل إلى الدين الصحيح. فالوحى الإلٰهى إذن جاء رحمة من عند الله يهدى النفوس الضالة، ويساعد العقل الإنسانى على الوصول إلى الحق من أقرب الطرق وأيسرها[1].

وإذا كانت رسالات الرسل قد تعددت فليس معنى ذلك أنها كانت مختلفة فى أصولها وأهدافها. فالدين الذى شرعه الله للبشرية دين واحد فى أصله ومضمونه. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى الآية التى سبق ذكرها فى قوله تعالى: **﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾**[2].

ومع التأكيد على وحدة الدين الإلٰهى فى أصله ومضمونه فإن هناك اختلافاً واضحاً بين الأديان السماوية فيما يتعلق

---

(1) انظر: المرجع السابق ص ١٩.

(2) سورة الشورى: الآية ١٣.

بالشرائع، نظراً لأن هذه الشرائع فى الأديان التى سبقت الإسلام كانت محدودة بحدود الزمان والمكان ومتغيرة بحسب الظروف والأحوال. وفى ذلك يقول القرآن الكريم ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا** ﴾[1].

وقد تدرجت الرسالات السابقة على الإسلام لتكون متمشية مع عقلية الشعوب والأمم التى وجهت إليها، وظل الحال على ذلك دهوراً طويلة، يجىء دين فى إثْر دين، ورسول يأتى فى إثْر رسول، وكل دين له زمان موقوت وقوم مخصوصون.

٧ - ضرورة الدين الإسلامى:

ولما وصلت البشرية إلى تمام نضجها كان الدين الخاتم وهو الإسلام الذى أكمل الله به الدين، وكانت شريعته شريعة خالدة صالحة لكل زمان ومكان. وقد جاءت هذه الرسالة الخاتمة على فترة من الرسل، وكانت البشرية فى أشد الحاجة إليها لإنقاذها من الأوضاع الفاسدة التى تردَّتْ فيها من جميع الجوانب.

وهكذا كانت هناك ضرورة ملحة لهذا الدين «بعد أن خفت صوت الرسل السابقين، وضاعت معالم الرسالات الإلٰهية التى أرسلها الله لعباده، لا فرق فى ذلك بين بلاد العرب حيث بيته

(١) سورة المائدة: الآية ٤٨.

المحرم، وبلاد الروم المهد الثانى للمسيحية، وفارس حيث كانت المانوية والزرادشتية والمزدكية، وغير هذه البلاد من أقطار العالم المختلفة»[1].

وإن إلقاء نظرة سريعة على أوضاع الأمم قبل الإسلام لترينا مدى الحاجة الماسة إلى هذا الدين الجديد. فقد كان العرب يعبدون أصناماً يتخذونها أرباباً من دون الله. وفى فارس كانت الديانات الثنوية تقول بإلهين: النور والظلمة، أحدهما للخير والآخر للشر، وكانت الديانة المزدكية تدعو إلى الإباحية المطلقة. ولم يقتصر الأمر على الضلال فى العقيدة، بل كان الظلم الاجتماعى هو السمة السائدة فى المجتمع الفارسى.

أما المجتمعات التى كانت تسود فيها المسيحية فى بلاد الروم فقد تحولت فيها الديانة المسيحية السمحة إلى ديانة معقدة يستعصى فهمها على العقول، وانقسمت الطوائف المسيحية على نفسها انقساماً حاداً. وساد الظلم الاجتماعى وانتشر الانحلال الخلقى، والفساد الإدارى.

ومن هنا وجدنا رعايا الإمبراطورية الرومانية فى كثير من المناطق يقبلون على الإسلام لتخليصهم مما كانوا يلاقونه من ظلم

---

(١) انظر: الإسلام وحاجة الإنسانية إليه ص ٢٢.

وعنت. وفى ذلك يقـول تومـاس أرنولـد فـى كتابـه «الدعـوة إلى الإسلام»:

«كان أئمة اللاهوت فى إفريقية والشام[1] قد استبدلوا بديانـة المسيح عقـائد ميتافيزيقيـة عويصـة. وكـان النـاس فـى الواقـع مشركين، يعبدون زمرة من الشـهداء والقديسين والملائكـة، كمـا كانت الطبقـات العليـا مخنثـة يشـيع فيـها الفسـاد، والطبقـات الوسطى مرهقة بالضرائب، ولم يكن للعبيـد أمـل فـى حـاضرهم ولا مستقبلهم. فأزال الإسلام - بعون مـن الله - هـذه المجموعـة من الفساد والخرافات. لقد كان ثورة على المجادلة الجوفـاء فـى العقيـدة، وحجـة قويـة ضـد تمجيد الرهبانيـة باعتبارهـا رأس التقـوى.. ونبـذ الفضـائل الكاذبـة، والدجـل الدينـى والترهـات والنزعات الأخلاقيـة الضالـة. وسفسـطة المتنـازعين فـى الديـن. ووهب الناس إدراكاً للحقائق الأساسية التى تقوم عليها الطبيعـة البشرية»[2].

وهكذا كـانت كـل الظـروف العالميـة حينـذاك تتطلـب إنقـاذاً سريعاً ومخرجاً يخرجها من الظلمات إلى النور، فكان هذا الدين

---

(١) وهذا ينطبق أيضاً على سائر البلاد المسيحية آنذاك.

(٢) انظر: الدعـوة إلى الإسـلام لتومـاس أرنولـد ترجمـة د. حسـن إبراهيم حسـن وآخرين ص ٩٠ مكتبة النهضة المصرية ١٩٧١ م.

الخاتم – دين الإسلام – بما أتى به من تصحيح للعقائد وتنظيم للمجتمع وإقامة لموازين العدل بين الناس، وتثبيت لدعائم القيم الأخلاقية، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة – كان هو الدين الذى وضع البشرية على الطريق الصحيح، وكان ولايزال هو النور الذى فيه خلاص الإنسانية من كل ما تعانيه من أزمات فى جميع مناحى الحياة المادية والروحية على السواء.

٨ – شمولية الإسلام ووسطيته:

لقد جاء الإسلام ديناً شاملاً ينتظم جميع مناحى الحياة، وملبياً لحاجات الإنسان جميعها، فهو دين للإنسان ومن أجل الإنسان. ومن هنا جاءت تعاليمه ملائمة للطبيعة الإنسانية، ومتفقة مع كل المتطلبات والاحتياجات المشروعة للإنسان فرداً كان أم فى جماعة.

وقد كان اهتمام الإسلام بالإنسان اهتماماً عظيماً. فقد جعل الله الإنسان خليفة فى الأرض، وكرمه، وفضله على سائر المخلوقات، وميزه بالعقل والإدراك، وحمله أمانة عمارة الأرض وصنع الحضارة فيها.

ومن دلائل اهتمام الإسلام بالإنسان ما يلاحظه المرء من أن القرآن الكريم كله إما حديث إلى الإنسان أو حديث عن الإنسان. وقد تكررت كلمة الإنسان فى القرآن ثلاثاً وستين مرة، وجاء الحديث عن الإنسان بلفظ بنى آدم فى القرآن ست مرات وبلفظ الناس مائتين وأربعين مرة.

وإذا تدبرنا أول ما نزل من الوحى القرآنى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسيتضح لنا التركيز على العناية بشأن الإنسان بصفة خاصة. ويتجلى ذلك بوضوح من ذكر لفظ الإنسان مرتين فى الآيات الخمس الأولى من الوحى.

وقد تضمن القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة دستوراً ينظم للإنسان شئون حياته وأمور معاشه وعلاقاته بنفسه وبغيره من أناس وحيوان ونبات وجماد. وفوق ذلك كله وقبله علاقته بخالق الوجود ومدبر الكون.

وقد امتازت تعاليم الإسلام بخصيصة عامة وسمة بارزة تشيع فى كل ناحية من نواحيه سواء فى مجال الاعتقاد أو التشريع أو الأخلاق. وهذه السمة البارزة هى الوسطية[1].

---

(١) راجع: الخصائص العامة للإسلام للدكتور يوسف القرضاوى ص ١٩٩ – ١٤٨ مكتبة وهبة – القاهرة ١٩٧٧ م.

والوسطية بصفة عامة تعنى التوازن والتوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين بحيث لا يستقل طرف منها بالتأثير، أو يأخذ أكثر من حقه ويتجاوز حدوده ويطغى على الطرف المقابل. وحياتنا كلها مليئة بالأمثلة العديدة لهذه الأمور المتقابلة أو المتضادة. ومن ذلك على سبيل المثال: الروحية المادية، والواقعية والمثالية، والفردية والجماعية، والثبات والتغير، وما شاكل ذلك من أطراف متقابلة.

وقد حاول الإنسان فى القديم والحديث بمناهجه الإنسانية إقامة نوع من التوازن بين هذه المتقابلات فلم يستطع. فكل المناهج الإنسانية قد فشلت فى إقامة التوازن العادل بين هذه الأطراف المتقابلة. وأقرب الأمثلة على ذلك ما نجده سائداً فى عالمنا المعاصر من مناهج مطبقة فى المعسكر الرأسمالى أو المعسكر الشيوعى. فكل المناهج الإنسانية – كما نستطيع أن نتبين ذلك من دراسة التاريخ – تشتمل على شىء من الإفراط أو التفريط، والميل إلى هذا الجانب أو ذاك على حساب الجانب الآخر دون أن تستطيع أن تصل إلى الصراط المستقيم أو التوازن العادل.

ولا عجب فى ذلك فالإنسان مهما عظمت قدراته ومهما بلغ من العلم فإن ميوله وأهواءه تجذبه إلى هذا الجانب أو ذاك. والله وحده الذى خلق كل شىء فقدره تقديراً هو العليم الخبير بمن

خلق وبما خلق، فهو الذى أحصى كل شيء عدداً، وهو الذى أحاط بكل شيء علماً، وهو وحده القادر على هداية الإنسان إلى إقامة التوازن العادل فى الوجود المادى والمعنوى على السواء.

وكل إنسان يتأمل في هذا الكون الكبير يستطيع أن يتبين بوضوح التوازن العادل فى كل ناحية من نواحيه ابتداء من الذرة إلى المجموعة الشمسية إلى ما شاء الله من عوالم.

﴿ ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ﴾[1].

وهذا التوازن العادل قائم أيضاً فى خلق الإنسان الذى يمثل الكون الصغير. ولنتأمل فقط فى حركة التنفس لدى الإنسان: إنها حركة تمثل تعادلاً بين الشهيق والزفير، فإذا اختل هذا التعادل بأن طال الشهيق أكثر مما ينبغى طاغياً على الزفير، أو امتد الزفير أكثر مما ينبغي جائراً على الشهيق وقفت حياة الإنسان.

وما ينطبق على الجانب المادى فى الإنسان ينطبق على الجانب الروحى أيضاً من حيث ضرورة التوازن بين عقله وقلبه، وبين فكره وشعوره كشرط أساسى لاستقامة حياته. فإذا اختل هذا التوازن ارتبكت حياة الإنسان وانحرفت عن جادة الصواب.

---

(١) سورة الملك: الآية ٣.

وهكذا تكفل الله سبحانه بهداية الإنسان، وأشار إلى ما يكفل له استقامة حياته، فوضع للإنسان منهجاً لحياته كلها مادية وروحية وفردية وجماعية. وأعلن القرآن الكريم تميز الأمة الإسلامية بهذه الصفة العظيمة وهى التوازن أو الوسطية التى أشارت إليها الآية الكريمة ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** ﴾[1] فهى أمة العدل والاعتدال، تشهد على كل انحراف عن صراط الله المستقيم.

وهذه الوسيطة التى اختصت بها الأمة الإسلامية مستمدة من وسطية منهجها وهو منهج الاعتدال والتوازن الذى سلم من الإفراط أو التفريط ومن الغلو أو التقصير.

وقد اختص الله الأمة الإسلامية بالوسطية لأنها الأمة التى اختصت بالرسالة الخالدة التى ختم الله بها كل رسالاته السابقة. فقد كانت الرسالات السابقة رسالات مرحلية محدودة بحدود الزمان والمكان ومرتبطة بالظروف المحيطة بها. فعندما تمادت اليهودية فى المادية وجدنا الديانة المسيحية تميل إلى الطرف المقابل وهو النزعة الروحية. وقد كان ذلك رداً على الغلو فى الطرف المقابل. ولكن الإسلام نظراً لأنه هو الرسالة الأخيرة

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

فى قصة اتصال السماء بالأرض عن طريق الأنبياء والرسل، لم يكن له أن يقف عند حد الرد على نزعات غلت وتطرفت فى اتجاه ما، وإنما جاء يمثل عودة إلى الحد الوسط العدل، أى الصراط المستقيم.

والوسطية **الإسلامية** لها معان عديدة، ومن هذه المعانى: العدل. ومن هنا كانت الأمة الإسلامية شاهدة على البشرية كلها بهذا المفهوم. فمن الضرورى لقبول الشهادة أن يكون الشاهد عدلاً.

وقد ورد تفسير الوسط فى الآية التى معنا بالعدل مروياً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى أنه - عليه الصلاة والسلام - قد فسر الوسط هنا بالعدل. والعدل والتوسط والتوازن عبارات متقاربة المعنى. وقد ذكر المفسرون أيضاً فى قوله تعالى ﴿ **قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون** ﴾[1] أى أعدلهم.

ومن معانى الوسطية أيضاً الاستقامة، أى استقامة المنهج والبعد عن الميل والانحراف، وهو الذى عبر عنه القرآن بأنه الصراط المستقيم. ومن هنا علّمنا القرآن أن نسأل الله فى حياتنا

---

(١) سورة القلم: الآية ٢٨.

الهداية للصراط المستقيم **﴿ اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾**.

كما تعنى الوسطية أيضاً الخيرية، فخير الأمور الوسط – كما كانت العرب تقول فى حكمها. وكما يقال أيضاً: قريش أوسط العرب نسباً وداراً أى خيرها، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم وسطاً فى قومه أى أشرفهم نسباً.

وقد تمثلت هذه الوسطية الإسلامية فى أمور عديدة من بينها[1]:

(أ) مجال الاعتقاد: إذ معتقد المسلمين وسط بين معتقد الخرافيين الذين يؤمنون بالخرافات والأوهام ومعتقد الماديين الذين يؤلهون المادة، ووسط بين الملاحدة والمعددين للآلهة، ووسط بين الذين يؤلهون الإنسان وبين الذين جعلوه أسير جبرية اقتصادية أو اجتماعية أو دينية.

(ب) مجال الشعائر والعبادات: فقد جعل الإسلام المسلم موصولاً دائماً بربه عن طريق شعائر يومية كالصلاة، وأسبوعية كالجمعة، وسنوية كالصوم، أو مرة فى العمر كالحج، ولكنه

---

(١) راجع: الخصائص العامة للإسلام للدكتور يوسف القرضاوى ص ١٢٧ وما بعدها.

لم يطلب من المسلم أن يكون راهباً ينقطع للعبادة فى المساجد والخلوات. بل أمره أن يخرج بعد انقضاء الصلاة للسعى على رزقه ﴿ **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله** ﴾[1].

وقد سمع النبى صلى الله عليه وسلم - كما جاء فى صحيح البخارى - ثلاثة من أصحابه يتحدثون عن عبادتهم ولاحظ أنهم يبالغون فى العبادة إلى حد إهمال مطالب الجسد إهمالاً يخرج عن الحد المعقول، الأمر الذى من شأنه أن يتلف الجسم. فقد قال أحدهم: إنه يقضى ليله دائماً فى الصلاة ولا ينام، وقال الآخر: إنه يواصل الصوم ولا يفطر، وقال الثالث: إنه يعتزل النساء ولا يتزوج أبداً.

وكان هؤلاء الثلاثة قد سألوا قبل ذلك عن عبادة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكأنهم تقالوها أى وجدوها قليلة بالنسبة لما يفعلون. فلما خرج عليهم النبى صلى الله عليه وسلم قال لهم ما معناه: «أنتم الذين تقولون كذا وكذا. قالوا: نعم يا رسول الله. قال: والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكنى أصلى وأرقد،

---

(١) سورة الجمعة: الآية ١٠.

وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، وهذه سنتى فمن رغب عن سنتى فليس منى»[1].

(ج) مجال الأخلاق: فقد خلق الله الإنسان من عنصرى المادة والروح، فالإنسان إذن ليس ملكاً، ولكنه من ناحية أخرى ليس حيواناً، إنه جسم وروح. والإسلام لا يريد أن يغلب أحدهما على الآخر بطريقة تخل بالتوازن بينهما، وإنما يحرص على إقامة التوازن بين مطالب الجسم ومطالب الروح فى تناسق رائع. فالإنسان له أن يتمتع بكل الخيرات التى أحلها الله له فى هذه الحياة، وفى الوقت نفسه لا ينبغى له أن يهمل مطالب روحه. يقول القرآن الكريم فى ذلك: **﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾**[2].

ومن هنا كان الإسلام وسطاً بين المادية والروحية. وقد اشتمل دعاء النبى صلى الله عليه وسلم على هذين الجانبين حين قال: **«اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى، واصلح لى دنياى التى فيها معاشى، وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى،**

---

(١) انظر نص الحديث فى صحيح البخارى مروياً عن أنس بن مالك (كتاب النكاح).

(٢) سورة القصص: الآية ٧٧.

واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير، واجعل الموت راحة لى من كل شر»[1].

(د) **مجال العقل والنقل:** فقد ميز الله الإنسان بالعقل. والعقل منحة من الله ليميز بها الإنسان بين الخير والشر والنافع والضار، ويدرك بها حقائق الأشياء. والعقل هو الذى دلنا على وجود الله وقدرته وعظمته. ولكن العقل محدود لا يستطيع أن يعرف كل شىء، ومن هنا جاء الوحى الإلهى مكملاً للعقل الإنسانى، وآخذاً بيده إلى الصراط المستقيم. والإسلام لا يريد أن يلغى العقل لحساب الشرع ولا أن يلغى الشرع لحساب العقل - فهما - كما يقول حجة الإسلام الغزالى - متعاضدان، بل متحدان. فالعقل شرع من داخل والشرع عقل من خارج.

ومن هنا يقول فى كتابه «**معارج القدس**»:

«اعلم أن العقل لن يهتدى إلا بالشرع، والشرع لم يتبين إلا بالعقل، فالعقل كالأساس والشرع كالبناء، ولن يغنى أساس ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أساس»[2].

---

(١) رواه الإمام مسلم فى الدعوات عن أبى هريرة (راجع فيض القدير ج ٢ ص ١٣٧).

(٢) انظر: معارج القدس للغزالى: ص ٤٦ (المكتبة التجارية الكبرى).

وقد أعطى الإسلام للعقل حق الفهم والإدراك لما جاء به الوحى وفى ذلك دعم وتعضيد وتثبيت للإيمان. ولكن العقل فى الجانب الآخر ملتزم بكل ما جاء به الوحى على لسان النبى صلى الله عليه وسلم من تعاليم، فالأنبياء - كما يقول الإمام الغزالى أيضا - أطباء أمراض القلوب. ومن هنا فعلى العقل أن يلتزم بما يصفه له الطبيب المرسل من عند الله دون اعتراض مادام قد آمن قبل ذلك بالله وقدرته على إرسال الرسل وإنزال الوحى وإجراء المعجزات على أيديهم.

وفى هذا الصدد يقول الإمام الغزالى فى كتابه (**المنقذ من الضلال**):

«وعلى الجملة: فالأنبياء أطباء أمراض القلوب، وإنما فائدة العقل وتصرفه أن عرفنا ذلك، ويشهد للنبوة بالتصديق، ولنفسه بالعجز عن إدراك ما يدرك بعين النبوة، ويأخذ بأيدينا، ويسلمنا إليها تسليم المرضى المتحيرين إلى الأطباء المشفقين وإلى ها هنا مجرى العقل ومخطاه، وهو معزول عما بعد ذلك إلا عن تفهم ما يلقيه الطبيب إليه»[1].

وهذا يوضح لنا بجلاء علاقة العقل بالوحى. فالعقل هنا له وظيفتان هامتان:

---

(١) المنقذ من الضلال ص ٧٣ - تحقيق د. عبد الحليم محمود. مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٤ م.

أولاً: مهمة إرشادنا إلى الوحى والتصديق بالنبوة.

ثانيا: مهمة القيام بإدراك الموحى به وتفهمه[1].

(هـ) مجال التشريع: فقد جاءت التشريعات الإسلامية فى حدود القدرة الإنسانية: ليس فيها إرهاق يثقل كاهل الناس، كما أنه ليس فيها تهاون يؤدى إلى الفوضى والفساد. وهكذا جاءت وسطاً بين الإفراط والتفريط، ووسطاً بين الفردية والجماعية. فالفرد له حقه فى صيانة «دمه وماله وعرضه ودينه وعقله»، وقد جعلت الشريعة الإسلامية هذه الحقوق الخمسة أهم مقاصدها. وفى مقابل هذه الحقوق قرر الإسلام واجبات على الفرد إزاء المجتمع. فممارسة كل هذه الحقوق الفردية المشار إليها مشروطة بما لا يجلب على المجتمع أية أضرار، أو يؤدى إلى إشاعة الفوضى والفساد.

---

(١) انظر كتابنا: المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت - ص ١٥٥ - ١٦٠ دار المعارف ١٩٩٨م.

عقائد الإسلام الأساسية

بعد أن تحدثنا بصفة عامة عن بعض الملامح البارزة للإسلام نأتي الآن للحديث بشيء من التفصيل عن العقائد الأساسية التى جاء بها الإسلام. وهذه العقائد تتمثل فى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر.

والإيمان بهذه العقائد يتضمن الإيمان بكل ما أتى به الرسول صلى الله عليه وسلم من عند ربه متمثلا فى الشعائر الدينية والتعاليم الأخلاقية والتشريعات المنظمة لحياة الإنسان الهادفة إلى صلاحه فى دنياه وسعادته فى الآخرة. وفى الأمر بالأخذ عن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول القرآن الكريم ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾[1].

١ – دين التوحيد الخالص:

لقد عُرِف الإسلام منذ اللحظة الأولى بأنه دين التوحيد الخالص الذى لا تشوبه شائبة. ومن هنا كان شعار المسلمين ولا يزال وسيظل إلى أن تقوم الساعة هو: «لا إله إلا الله». ونحن عندما نقول: «لا إله إلا الله» فإننا بذلك ننفى الألوهية عن غير الله، ونثبت الألوهية لله وحده.

---

(١) سورة الحشر: الآية ٧.

ولفظ الجلالة (الله) من الأسماء التى تدل على الذات الجامعة للصفات الإلهية كلها. ومن ناحية أخرى لا يطلق لفظ الله على أحد غير الله، لا حقيقة ولا مجازاً. فهو اسم يختص به المعبود الحق وحده.

وتدل «لا إله إلا الله» على التوحيد الخالص الذى هو السمة البارزة للعقيدة الإسلامية. ودعوة التوحيد هى: دعوة إلى تحرير الإنسان من كل شكل من أشكال العبودية. فلا عبودية إلا لله وحده، ولا تقديس إلا لله وحده، ولا سجود إلا لله وحده. والبشر بعد ذلك كلهم متساوون لا فضل لأحد منهم على آخر إلا بالتقوى والعمل الصالح. وبهذا سمت عقيدة التوحيد بنفوس المؤمنين، وأصبحت مصدر عزتهم. ويكفيهم شرفاً أن الله قد قرن عزة المؤمنين بعزته وعزة رسوله صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** ﴾[1].

والوحدانية فى الألوهية أمر لا يحتاج إلى جهد عقلى ليصل الإنسان إلى إدراكه، فهى من الأمور التى تعد من قبيل البديهيات. فلو كان هناك إلهان - أو أكثر - لاختلفا، ولفسد الخلق. وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ **لو كان فيهما آلهة**

---

(١) سورة المنافقون: الآية ٨.

إلا الله لفسدتا ﴾[1]. ويقول أيضا **﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عمَّا يصفون ﴾**[2].

وهكذا اتجهت دعوة الإسلام بالتوحيد إلى الناس كافة، محذرة من الشرك به - سبحانه - أو اتخاذ الأرباب من دونه، فذلك فوق أنه كفر بالله وبنعمته، هو أيضاً نكسة فى الفطرة البشرية الصافية التى فطر الله الناس عليها.

وكما أن الألوهية تستلزم الوحدانية الخالصة فكذلك تستلزم الإيمان بأنه تعالى متصف بجميع الكمالات التى تليق بذاته تعالى. فهو سبحانه منزه عن أن يكون له شبيه من خلقه **﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾**[3]. **﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾**[4]. عليم بكل شىء لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٢.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٩١.

(٣) سورة الشورى: الآية ١١.

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.

وهو وحده عالِم الغيب لا يُطْلِع عليه أحداً من خلقه إلا من اصطفاهم لرسالته إلى الخلق، سبحانه قادر على كل شيء، وعنايته تمتد إلى كل شيء، ورحمته وسعت كل شيء، وبيده ملكوت السموات والأرض ﴿ **لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز** ﴾[1]. يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، فهو أقرب إلينا من حبل الوريد، وقد حثنا على أن نتوجه إليه وحده بالدعاء ﴿ **ادعونى أستجب لكم** ﴾[2] سبحانه له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم، وإليه المرجع والمصير، يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير.

وعلينا أن نتخذ من الصفات الإلهية مثلنا الأعلى ونجعلها غايتنا. «فصفات الحب والرحمة التى هى: **الرؤوف، الودود، التواب، العفو، الشكور، السلام، المؤمن، البار، رفيع الدرجات، الرزاق، الوهاب، الواسع**، كلها صفات يجب على الإنسان اتخاذها نبراسا للسير على هداها والتحلى بها، فكمال العبد وسعادته فى التخلق بأخلاق الله تعالى والتحلى بمعانى صفاته وأسمائه بقدر ما يتصور فى حقه»[3].

---

(١) سورة الشورى: الآية ١٩.

(٢) سورة غافر: الآية ٦٠.

(٣) راجع: العقائد الإسلامية للشيخ سيد سابق ص ٧٣ - دار الكتاب العربى بيروت وانظر: المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى للإمام الغزالى ص ٢١ - مكتبة القاهرة.

٢ – الإيمان بالرسل:

إن الإيمان بوجود الله ووحدانيته وصفاته المطلقة يتضمن قدرته سبحانه على إرسال الرسل وإنزال الوحي لهداية البشر. وقد اصطفى الله الرسل من بنى الإنسان ليكونوا مثلا عالياً على أرض الواقع، ونماذج حية تمشى بين الناس. ولم يختص الله بالهداية الربانية أمة دون أمة، بل أرسل الرسل لجميع الأمم **﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾**(١). فكانوا – عليهم السلام – مبشرين لمن اطاع واهتدى، ومنذرين لمن انحرف وبغى، حتى لا تكون للناس على الله حجة بعد إرسال الرسل. فالله سبحانه وتعالى عادل لا يعذب أحداً من خلقه إلا بعد أن يبلغه أوامره ونواهيه على لسان رسله. يقول الله تعالى **﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾**(٢).

ولا يستقيم إسلام المسلم، ولا يصح إيمانه بدون الإيمان برسل الله جميعاً. ونحن مكلفون بالإيمان بهم على سبيل الإجمال، لأن الله سبحانه قد أرسل رسلاً كثيرين لا يعلم عددهم إلا هو سحبانه. وفى ذلك يقول القرآن الكريم **﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من**

---

(١) سورة فاطر: الآيه ٢٤.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١٥.

قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾[1].

أما الأنبياء الذين ذكروا فى القرآن الكريم بأسمائهم فيجب علينا الإيمان بهم على التفصيل الوارد فى شأنهم، وعددهم «خمسة وعشرون» ذكر القرآن منهم «ثمانية عشر» فى سورة الأنعام (الآيات ٨٣ وما بعدها) فى قوله تعالى ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم * ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين * وزكريا ويحيي وعيسى وإلياس كل من الصالحين * واسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين** ﴾[2].

أما الأنبياء السبعة الباقون فهم: إدريس وهود وشعيب وصالح وذو الكفل وآدم ومحمد خاتم الأنبياء والمرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ورسل الله معصومون من التورط فى الإثم، ومنزهون عن الوقوع فى المعاصى. فلا يتركون واجباً، ولا يفعلون محرماً، ولا يتصفون

---

(١) سورة غافر: الآية ٧٨.

(٢) سورة الأنعام: الآيات ٨٣ - ٨٦.

إلا بالأخلاق العظيمة التى تجعل منهم القدوة الحسنة، والمثل الأعلى الذى يتجه إليه الناس وهم يحاولون الوصول إلى كمالهم المقدر لهم[1].

والإيمان برسل الله جميعاً لا يتجزأ. فلا يجوز الإيمان ببعضهم ورفض الاعتراف بالبعض الآخر، فذلك عين الكفر كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ **إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقا** ﴾[2].

ووجوب الإيمان بكل رسل الله أمر ينفرد الإسلام بجعله أساساً لا يصح الإيمان بدونه، فكلهم جميعاً رسل الله جاءوا لهداية البشر بأمر الله. وإنه لمن مخالفة المنطق إذن أن يفرق المرء بينهم أو يؤمن ببعضهم ويكفر بالبعض الآخر، فهذا شأنه شأن من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر بالبعض الآخر، وشأن من يقرأ قوله تعالى: ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة** ﴾[3]. ويكتفى بهذا القدر متغاضياً عن بقية الآية.

---

(١) انظر: العقائد الإسلامية للشيخ سيد سابق ص ١٨٢.

(٢) سورة النساء: الآيتان ١٥٠ – ١٥١.

(٣) سورة النساء: الآية ٤٣.

وقد صور النبى صلى الله عليه وسلم علاقته بالأنبياء من قبله تصويراً رائعاً حيث يقول: «**إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فاحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية (من زواياه)، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين**»[1].

ومن هذا يتضح لنا أن الرسالات السماوية سلسلة متصلة الحلقات تسلم كل حلقة منها إلى التى تليها، وتكتمل فى النهاية بخاتمة هذه الحلقات برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كما أراد الله رب العالمين.

٣ - الإيمان بالكتب السماوية:

والإيمان بالرسل يتضمن الإيمان بالوحى الذى أنزله الله عليهم لهداية البشر. يقول القرآن الكريم: ﴿**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط**﴾[2]. ولكن القرآن أخبرنا أن أصحاب الديانات السابقة قد غيروا وبدلوا وحرفوا فى الوحى الذى جاءهم من عند الله.

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه فى كتاب المناقب ١٨.

(٢) سورة الحديد: الآية ٢٥.

ومن هنا كان القرآن الكريم متضمناً ومصدقاً لكل ما اشتملت عليه الكتب السماوية السابقة من حقائق، وفى الوقت نفسه مهيمناً عليها وحاكماً على ما أصابها على يد أتباعها من تحريف. وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق**﴾[1].

ونظراً لأن القرآن الكريم هو كلمة الله الأخيرة للبشر فقد تكفل الله سبحانه بحفظه وصيانته من أن تمتد إليه يد التحريف أو التغيير أو التبديل ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾[2]. وذلك حتى يبقى حجة خالدة باقية ما بقيت السموات والأرض، ينشر نور الله وهدايته فى كل مكان بإذن الله.

﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾[3].

---

(١) سورة المائدة: الآية ٤٨.

(٢) سورة الحجر: الآية ٩.

(٣) سورة المائدة: الآيتان ١٥، ١٦.

٤ – الإيمان بالملائكة:

ومثلما نحن مأمورون بالإيمان بالرسل والكتب السماوية فنحن مأمورون أيضاً بالإيمان بالملائكة بوصفهم من مخلوقات الله – وهو على كل شيء قدير – فلهم طبيعة تختلف عن طبيعة البشر، وهم من عالم الملأ الأعلى الذى لا يدرك بالحواس، وهم مطهرون من الشهوات والميول والآثام ﴿ **لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾[١]. وقد خلقهم الله قبل خلق الإنسان. وهم يتصرفون فى شئون العالم بإرادة الله ومشيئته، ولا يقدرون على شيء من تلقاء أنفسهم، ويقومون بالمهام الموكولة إليهم كما أمروا دون زيادة أو نقصان، وهم متفاوتون فى درجاتهم وفى أعمالهم. ومن هذه الأعمال التسبيح وحمل العرش والنزول بالوحى (وهذه هى مهمة جبريل عليه السلام) والدعاء للمؤمنين وتثبيتهم وكتابة أعمال الإنسان من حسنات وسيئات وغير ذلك من أعمال فى عالم الروح وفى عالم المادة وفى عالم الإنسان.

والإيمان بوجود الملائكة مقرون بالإيمان بالله ورسله وكتبه فى آيات عديدة فى القرآن الكريم. ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله** ﴾[٢].

---

(١) سورة التحريم: الآية ٦.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨٥.

٥ - الإيمان باليوم الآخر:

لقد جاءت الديانات السماوية كلها تقول بحياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا ، وهناك شعور لدى الإنسان منذ القدم بأن هذه الحياة الدنيا ما هى إلا مرحلة عابرة تعود بعدها النفس بعد مفارقتها للبدن إلى حياة أخرى - وكان لهذه العقيدة لدى قدماء المصريين مثلا رسوخ كبير فى النفوس جعلهم يحنطون الموتى ، وذهب غيرهم إلى القول بتناسخ الأرواح أو القول بعودة الروح إلى التجرد التام عن المادة.

والعقل السليم لا يمكن أن يقبل مساواة الأخيار بالأشرار والصالحين بالفجار. فهذا ليس من العدل فى شىء، ومن أجل ذلك لابد أن تكون هناك حياة أخرى بعد هذه الحياة يلقى فيها كل إنسان جزاء ما قدم، إن خيراً فجزاؤه خير، وإن شراً فجزاؤه شر. فالحياة الدنيا إذن ليست نهاية المطاف وإنما نهايتها بداية لحياة أخرى.

والإيمان بالدار الآخرة شرط أساسى من شروط الإيمان فهى الدار التى يفصل الله فيها بين الناس أجمعين ﴿ **إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين** ﴾[1]. وفى هذا المعنى يقول الله تعالى أيضاً ﴿ أم

---

(١) سورة الدخان: الآية ٤٠.

حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون * وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾[1].

وقد أنكر الماديون الذين لا يؤمنون إلا بالمادة وحدها - أنكروا ان تكون هناك حياة أخرى بعد هذه الحياة، يقول القرآن الكريم على لسانهم ﴿ **وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾**[2].

وقد سخر المشركون من البعث بعد الموت، واعتبروه أمراً مستحيلاً، وذهب أحدهم وهو «أبى بن خلف» إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأخذ معه عظماً بالياً ظل يفتته أمام الرسول ويقول: يا محمد أترى أن الله يحيى هذا بعد ما قد رم وبلى؟ فقال له النبى صلى الله عليه وسلم: نعم، ويبعثك ويدخلك جهنم. وقد رد عليهم القرآن فى قول الله تعالى: ﴿ **أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذى**

---

(١) سورة الجاثية: الآيتان ٢١ - ٢٢.

(٢) سورة الجاثية: الآية ٢٤.

جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون * أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾[1].

فالبعث ليس بالأمر العسير. والله الذى خلق هذا الوجود من العدم، ولم يمسه تعب ولا نصب لقادر على أن يعيد خلق الناس ويبعثهم جميعاً، وهذا البعث أسهل عليه من الخلق الأول كما يقول القرآن أيضاً ﴿ **وهو الذى يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾**[2].

ولاشك أن الإيمان بالدار الآخرة يتضمن الإيمان بالقيم الخلقية والمثل العليا، لأنه إذا لم تكن هناك دار أخرى بعد هذه الحياة الدنيا فليس هناك إذن أى معنى للالتزام بالقيم الخلقية أو المثل العليا. وهكذا نجد أن عقيدة الإيمان بالدار الآخرة لها دور كبير فى صلاح المجتمع والتزامه بالقيم وتمسكه بمبادئ الأخلاق القويمة، كما أنها من ناحية أخرى تبعث فى النفوس الأمل، وتملأ قلوب المظلومين بالثقة فى عدل الله الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء. يقول الله تعالى فى ذلك

---

(١) سورة يس: الآيات ٧٧ – ٨٢.

(٢) سورة الروم: الآية ٢٧.

﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فـلا تظلـم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بـها وكفـى بنـا حاسـبين ﴾[1].
وعندئذ يفصل الله بين الناس ويلقى كل إنسـان جـزاء مـا قـدم، ويسعد المتقون ويساقون إلى الجنة، ويشقى الكافرون ويساقون إلى النار ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾[2].

٦ - الإيمان بالقضاء والقدر:

ينبغى الإيمان بالقضاء والقدر على الإيمان بالله - عز وجـل - وبأسمائه الحسنى، وصفاته الكاملة التى من بينها علمه الواسـع المحيط بكل شىء، وإراداته الشـاملة، وقدرتـه الكاملـة. فـهو سبحانه - فعال لما يريد، قدّر الأشياء فى الأزل وعلم أنها ستقع فى أوقات معلومة عنده، وعلى صفـات مخصوصـة، فـهى تقـع حسب ما قدرها سبحانه.

ويمكن تعريف القَدَر بأنه «النظـام المحكـم الـذى وضعـه الله لهـذا الوجـود. والقوانـين العامـة، والسـنن التـى ربـط الله بـــها الأسباب بمسبباتها»[3]

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٤٧.

(٢) سورة فصلت: الآية ٤٦.

(٣) انظر: العقائد الإسلامية للشيخ سيد سابق ص ٩٥، وأيضاً عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالى ص ١١٥ وما بعدها - الدوحة - ١٩٨٣م.

ولا يجوز لعاقل أن يركن إلى التواكل اعتماداً على عقيدة القضاء والقدر، فلا يسعى في رزقه ولا يعمل لغده مادام كل شيء قد قدره الله في الأزل. فالقدر أمر محجوب عنا لا نعرفه فهو غيب، وعلم الغيب لا يعلمه إلا الله ﴿ **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا * إلا من ارتضى من رسول** ﴾[1].

فالإيمان بالقضاء والقدر إذن ليس قيداً على حركة المؤمن. صحيح أن الله - سبحانه وتعالى - علم في الأزل ما الذي سيختاره كل فرد من أفراد البشر بمحض إرادته - فليس هناك إكراه، ولهذا كان أمراً طبيعياً وعدلاً أن يجازى كل امرىء على ما عمل ﴿ **لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت** ﴾[2]، ﴿ **كل نفس بما كسبت رهينة** ﴾[3]. فلو كان هناك إجبار محض لما كان هناك مكان للمسئولية، ولكن لما كان هناك ثواب وعقاب، كان ذلك نتيجة للمسئولية: مسئولية التكليف التي حملها الإنسان.

ومن أجل ذلك لا يجوز بحال من الأحوال أن يقترف الإنسان السيئات ويفعل المعاصي، ثم يقول هذا قضاء الله، وهذا أمر

---

(١) سورة الجن: الآية ٢٦.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

(٣) سورة المدثر: الآية ٣٨.

قدره الله عليّ فلا حيلة لى فى ذلك. ومن الأمثلة التى تروى فى هذا الصدد ما ورد أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أتِىَ له بسارق فقال له عمر: لم سرقت؟ فقال الرجل: قضاء قضاه الله عليّ، فأمر عمر بقطع يده وجلده. فروجع عمر فى ذلك إذ عاقب الرجل بأكثر مما يستحق، فحد السرقة هو القطع فقط أما الجلد فأمر زائد لا مبرر له، فقال عمر: القطع للسرقة والجلد للكذب على الله. إذ من أين للسارق أن يعلم أن الله قد كتب عليه ذلك.

وقد ورد فى الأثر: «مثل علم الله فيكم كمثل السماء التى أظلتكم والأرض التى أقلتكم، فكما لا تستطيعون الخروج من السماء والأرض، كذلك لا تستطيعون الخروج من علم الله، وكما لا تحملكم السماء والأرض على الذنوب كذلك لا يحملكم علم الله».

فالإيمان بالقضاء والقدر فى الإسلام لا يدفع إلى السلبية، ولا يمنع المسلمين من الأخذ بالأسباب، ولا يحملهم على التحلل من مسئولية التكليف، ولا يحملهم على عيشة التواكل والتمنى الفارغ، ولا تشكل هذه العقيدة عقبة فى طريق تقدمهم وازدهارهم كما يزعم خصوم الإسلام.

ولنا أسوة حسنة فيما كان يفعله الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته والتابعون. لقد فهموا الحياة وعاشوها سعياً وكفاحاً وجهاداً متواصلاً فلم يتواكلوا أو يكسلوا.

يروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى قوماً قابعين فى المسجد بعد الصلاة بدعوى التوكل على الله، فقال لهم قولته المشهورة «لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقنى، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة». وإن الله تعالى يقول **﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾**[1].

فالقضاء والقدر - كما يقول المرحوم الشيخ شلتوت - ليسا سوى «النظام العام الذى خلق الله عليه الكون، وربط فيه بين الأسباب والمسببات، والنتائج والمقدمات، سنة كونية دائمة لا تتخلف، وكان من بين تلك السنة أن خلق الله الإنسان حراً فى فعله مختاراً غير مقهور ولا مجبور»[2].

فلا يجوز لأحد أن يعتذر عن التقصير فى واجب بالقضاء والقدر، إذ لو صح هذا لبطلت التكاليف، وكان بعث الرسل

---

(١) سورة الجمعة: الآية ١٠.

(٢) انظر: الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت ص ٥٠ دار الشروق ١٩٨٣م.

وإنزال الكتب والوعد بالثواب والعقاب عبثـاً وبـاطلاً، تعـالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

الفصل الثانى
تأملات حول الإنسان
فى ضوء تعاليم الإسلام

تمهيد :

الموضوع الذى نريد أن نتحدث عنه فى هذا الفصل يعد من القضايا الكبرى فى هذا الوجود[1]، بل لا نبالغ ولا نعدو قول الحق إذا قلنا إن هذا الموضوع هو قضية القضايا فى هذا الوجود. فالإنسان هو محور الكون وهو سيد فى هذا الكون، فكل شىء فى هذا الوجود مسخر له، والديانات كلها جاءت من أجله، والقرآن الكريم كله يدور حوله، فكل ما فى القرآن الكريم إما حديث عن الإنسان أو حديث إلى الإنسان. فالوحى السماوى كله قد اتجه بالخطاب إليه. فلماذا إذن لا يكون موضوع الإنسان هو قضية القضايا فى هذا الوجود؟ إنه بدون الإنسان لا توجد قضية ولا توجد هناك مشكلة. انظروا إلى الملائكة عندما أخبرهم الله سبحانه وتعالى بأنه يريد أن يخلق البشر، ماذا قالوا: **﴿قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾**[2]. فالعالم فى منطق

---

(١) لقد كان هذا الموضوع فى الأصل محاضرة ألقيناها منذ بضع سنوات فى المركز العام للشبان المسلمين بالقاهرة. وننشرها هنا دون تعديل أو إضافة.

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٠.

الملائكة بدون الإنسان يعد واحة سلام، ليس فيه مشكلة أو قضية طالما لم يكن هناك إنسان. ولكن أى عالم هـذا الـذى لا يستطيع أن يعى نفسه ولا حيلة له من أمر نفسه؟ إنه يكون عالماً لا طعم له ولا لون له. ومن هنا كانت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يخلق كائناً يدرك نفسه ويدرك ما حوله ويـدرك خالقـه. وبذلـك يكـون للوجود معنى، ويكون وجود الإنسـان مـن أجـل هـدف حددتـه الإرادة الإلهية. وهو العبادة لله وحده:

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾[1].

والعبادة تفترض معرفة العابد لمعبوده. فهى عبادة قائمة علـى وعى وإدراك،وقائمة على اختيار من جانب العابد لمعبوده. ومـن هنا فإن أول القضايا التى يجب أن تبحث والتى ينبغى أن تكون دائما محور البحث هى قضية الإنسان. فكل القضايا الأخرى فى هذا الوجود ليست إلا تفريعات عن هذه القضية. ومـن هنـا اهتم المفكرون والفلاسفة منـذ القدم بـهذا الموضوع الكبير. وكـل أدلى بدلوه فى هذه القضية الكبرى. فقد وجدنـا الفلاسـفة منـذ القـدم يعرِّفون الإنسان بأنـه حيـوان نـاطق، أى كـائن عـاقل. ووجدنـا الأخلاقيين يعرفون الإنسان بأنه حيوان أخلاقـى، أى كـائن لـه قيم، فهو الوحيـد فـى هـذا الوجـود الـذى لـه قيـم يلـتزم بـها.

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

ووجدنا الاجتماعيين يقولون: الإنسان كائن اجتماعى، ووجدنا علماء الدين يقولون: الإنسان كائن متدين لأنه لا يوجد على ظهر الأرض كائن لـه هـذه الخاصية التى هى التدين إلا الإنسان. فالإنسان إذن كان ولايزال وسيظل هو محور البحث والتفسير لدى الفلاسفة والمفكرين ولدى كل الطوائف من جميع الأديان المختلفة.

بداية الإنسان:

فماذا كانت البداية؟

البداية – كما نعلم جميعا – كانت عندما خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان من طين، أى من مادة. ولو كان الأمر قد اقتصر على ذلك لما كانت هناك أية مزية للإنسان على غيره من الكائنات. ولكن الله سبحانه وتعالى أضاف إلى ذلك من روحه هو شيئا آخر لهذا الكائن المادى، وهذا ما تعبر عنه الآية الكريمة: **﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحى ﴾**[1].

فهو الكائن الوحيد فى هذا الوجود الذى نفْخ الله فيه من روحه، ونسب ذلك إلى نفسه سبحانه وتعالى. وقد كانت هذه النفخة الروحية الإلهية هى مناط التكريم الذى حظى به الإنسان.

---

(١) سورة الحجر: الآية ٢٩.

ومن هنا طلب الله سبحانه وتعالى من الملائكة أن يسجدوا لآدم تكريما له، ليس لأنه خلق من طين، ولكن لأن الله سبحانه وتعالى قد نفخ فيه من روحه. ولكن إبليس أبى واستكبر ورفض وقال - كما يقول القرآن الكريم -: ﴿ **أأسجد لمن خلقت طينا** ﴾[1].

فإبليس نظر إلى الجانب المادى فقط، وغفل عن الجانب الآخر - وهو الجانب الروحى - والذى هو مناط التكريم فى الإنسان. ومن هنا كان إبليس إلى يوم الدين هو زعيم الماديين فى كل العصور الذين ينظرون إلى الإنسان نظرة مادية بحتة، ولا يلتفتون إلى الجانب الروحى فيه والذى هو مناط التكريم، وبعد التكريم الإلهى للإنسان بسجود الملائكة له، وبتعليم آدم الأسماء كلها، أهبطه الله سبحانه وتعالى إلى الأرض لحكمة أرادها، ليعمر هذه الأرض بعد أن سلحه بالأدوات التى تعينه على أداء وظيفته فى هذه الحياة حتى يحقق مفهوم العبادة لله وحده فى هذا الوجود.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٦١.

خصائص الإنسان:

ومن هنا امتاز الإنسان بخصائص وميزات لم تتوفر لكائن آخر غير الإنسان. ونختار من بين هذه الخصائص الهامة خمس خصائص:

أولاً: خلافته لله فى الأرض.

ثانياً: تفضيله على جميع المخلوقات.

ثالثاً: تمييزه بالعقل.

رابعاً: تسخير الكون كله من أجله.

خامساً: تمييزه بالحرية وتحمله المسئولية عن هذا الكون.

وفيما يلى بيان ذلك

أولاً: خلافة الإنسان فى الأرض:

أما عن العنصر الأول وهو الخلافة لله فى الأرض فهذا أمر قد نص عليه القرآن الكريم فى قوله:

﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾[1].

فماذا يعنى ذلك بالنسبة للإنسان؟

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠.

يعنى هذا أن الله إذا كان قد كتب على نفسه الرحمة فإن خليفته ينبغى أن يكون رحيما، ويعنى أن الله إذا كان لا يظلم أحداً فينبغى أن يكون خليفته عادلاً لا يظلم أحدا. وبالعدل والرحمة ينتظم هذا الكون. وإذا كان الله قد كتب لنفسه العزة ولرسوله وللمؤمنين فلا ينبغى لخليفته أن يفرط فى هذه العزة التى كتبها الله له، بل ينبغى عليه أن يصونها ويحافظ عليها ويحميها بكل الوسائل.

ثانياً: تفضيل الإنسان على الكائنات الأخرى:

أما العنصر الثانى وهو تفضيل الإنسان على غيره من الكائنات فإن الله قد كرم الإنسان كما جاء فى قوله تعالى:

﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾[1].

وهذه الكرامة التى اختص بها الإنسان ذات أبعاد مختلفة، : فهى حماية إلهية للإنسان تنطوى على احترام عقله وحريته وإرادته، وتنطوى أيضا على حقه فى الأمن على نفسه وماله وذريته. ومن أجل ضمان الحماية الإلهية للإنسان حددت الشريعة الإسلامية لنفسها مقاصد خمسة لتأكيد هذه الحماية وهى:

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٧٠ .

حفظ النفس وحفظ الدين وحفظ العقل وحفظ المال وحفظ النسل. فهذه المقاصد الخمسة تهدف كلها لحماية الإنسان الذى كرمه الله سبحانه وتعالى. فالنفس الإنسانية لا يجوز الاعتداء عليها بأى حال من الأحوال. وقد جعل الإسلام الاعتداء على فرد واحد من أفراد البشرية بمثابة اعتداء على البشرية كلها، وفى المقابل جعل تقديم الخير لفرد واحد من أفراد البشرية بمثابة تقديم الخير للإنسانية كلها:

﴿ من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ﴾[1].

ومن هنا نجد أن هذا التكريم الذى اختص به الإنسان لم يحظ به أى كائن آخر فى هذا الوجود، لأن الإنسان هو الكائن الذى جعله الله سبحانه وتعالى خليفة فى الأرض. ولكن هناك مفارقة تستحق التأمل بعض الشىء، وهى أن الإنسان أحيانا نجده يحس بقوته وجبروته وعظمته، ويعتبر نفسه كأنه ليس هناك من هو أقوى منه فى هذا الوجود مثلما قال فرعون **﴿أنا ربكم الأعلى﴾**[2].

---

(1) المائدة: الآية ٣٢.

(٢) النازعات: الآية ٢٤.

ولكن في الجانب الآخر نجد أن الله سبحانه وتعالى يبين لنا أن الإنسان خلق ضعيفا. ويتجلى لنا هذا الجانب الآخر بوضوح إذا عقدنا مقارنة بين الإنسان من جانب وبين الحيوانات الأخرى من جانب آخر. فهناك كثير من الحيوانات تتميز أو تمتاز على الإنسان في كثير من الأمور التي تجعلها تحافظ على حياتها وعلى وجودها في حين يفتقد الإنسان كل هذه الأمور التي سأشير إلى بعض منها فيمايلي:

إن قدرة الإنسان محدودة من حيث الجوارح المختلفة. فنحن نجد قدرته مثلا على الإبصار محدودة بالقياس إلى بعض الحيوانات التي تستطيع أن ترى إلى مسافات بعيدة، وقدرته على السمع محدودة أيضاً بالقياس إلى بعض الحيوانات التي تمتد قدرتها على السمع إلى مسافات بعيدة، وقدرته على الشم محدودة كذلك بالقياس إلى بعض الحيوانات التي تستطيع أن تشم إلى مسافات بعيدة. ثم إن طفولة الإنسان طويلة بالقياس إلى بعض الحيوانات التي تستطيع أن تقف على رجليها بعد الولادة بساعات وتعتني بنفسها. ولكن الإنسان حمله وفصاله ثلاثون شهراً، وبعد ذلك لا يستطيع أن يعتمد على نفسه، بل يظل في حاجة إلى عناية ورعاية مدة طويلة. وبالإضافة إلى ذلك نجد أن هناك كثيراً من الحيوانات لها مخالب وأنياب تستطيع بها أن

تحمى نفسها وتدافع بها عن وجودها ضد أعدائها فى حين أن الإنسان ليس لديه شيء من ذلك.

وفضلاً عن ذلك فإن كثيراً من الحيوانات أو كلها قد خلقها الله سبحانه وتعالى قادرة على تحمل تقلبات الجو من الحر والبرد، ولكن الإنسان إذا ترك عريانا تحت وطأة التقلبات الجوية فإنه يموت.

وعلى الرغم من هذه المفارقة فقد استطاع الإنسان أن يخضع كل ما فى هذا الوجود لإرادته : استطاع أن يستأنس الحيوانات المفترسة، واستطاع أن يتغلب على كل الصعاب التى صادفته فى هذا الوجود. وذلك بفضل شيء واحد امتاز به على كل أنواع الحيوانات المختلفة وهو العقل الذى وهبه الله سبحانه وتعالى إياه[1].

ثالثاً: العقل الإنسانى:

وبهذا نصل إلى العنصر الثالث من الخصائص التى اختص بها الإنسان وهو العقل. فالعقل الإنسانى – كما سبق أن أشرنا – هو الشيء الذى يمتاز به الإنسان عن جميع الحيوانات والذى

---

(١) راجع : مدخل إلى الفكر الفلسفى لبوخينسكى (ومن ترجمتنا) ص ٩١ وما بعدها – دار الفكر العربى ١٩٩٦م.

به يدرك نفسه ويدرك الكون من حوله ويدرك خالقه. هذا العقل يعد نعمة كبرى من نعم الله على الإنسان فى هذا الوجود. ومن هنا لا يجوز للإنسان أن يعطل العقل عن أداء وظيفته مثلما لا يجوز له أن يعطل جارحة من الجوارح التى أنعم الله بها على الإنسان عن أداء وظيفتها مثل اليد والرجل والعين والسمع والشم.. إلخ فهذه كلها جوارح خلقها الله للإنسان لتؤدى كل منها وظيفة معينة، والعقل خلقه الله تعالى أيضا للإنسان ليؤدى وظيفة معينة، فتعطيله عن أداء وظيفته تعطيل لنعمة من نعم الله تعالى عن أداء وظيفتها. ولهذا يعبر القرآن الكريم عن هؤلاء الذين يعطلون عقولهم عن التفكير ويصمون آذانهم ولا يبصرون، أو لا يريدون أن يبصروا، ما حولهم - يعبر القرآن الكريم عن هؤلاء بقوله:

﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام ﴾[1].

ولو كانت الآية قد وقفت عند هذا الحد فقط لكان فى ذلك ظلم للأنعام لأن الأنعام لا تعقل. ولكن الآية استدركت:

﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾[2].

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

فهم أقل مرتبة من الحيوانات لأن الإنسان الذى يعطل عقله عن التفكير هو إنسان تنازل عن إنسانيته. ومن هنا لا يستحق أن يطلق عليه وصف الإنسان لأنه ارتضى لنفسه أن يكون فى مرتبة أقل من مرتبة الحيوان. ولذلك جعل الله سبحانه وتعالى العقل مسئولية من المسئوليات التى سيسأل عنها الإنسان يوم القيامة:

﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾[1].

ولهذا يخبرنا القرآن الكريم بأن الكفار سوف يلومون أنفسهم يوم القيامة لأنهم لم يستخدموا عقولهم فى الدنيا:

﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم ﴾[2].

أى أن عدم استخدامهم العقل الإنسانى فيما خلق من أجله يعتبر ذنبا من الذنوب. ولهذا اهتم الإسلام اهتماما كبيرا جدًا بإزالة كافة العقبات التى تعترض سبيل العقل عن أداء وظيفته، ومهد له الطريق ليمارس وظيفته حتى يقوم بأداء دوره فى هذا الوجود على خير وجه. ومن الأشياء التى اتخذها الإسلام

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٣٦.

(٢) سورة الملك: الآيتان ١٠، ١١.

كضمانات للعقل الإنساني ليمارس وظيفته في هذا الصدد أنه رفض التقليد الأعمى والتبعية الفكرية: رفض الإسلام التقليد الأعمى لأنه يعطل العقل عن أداء وظيفته. ولذلك عندما جاءت الرسالة المحمدية وأعلنها محمد - صلى الله عليه وسلم - لأهل مكة لم يريدوا أن يسمعوا وعطلوا عقولهم رغم أن محمدًا - صلى الله عليه وسلم - كان معروفا بينهم بأنه الصادق الأمين. وقبل أن يعلن رسالته جمعهم وأراد أن ينتزع منهم اعترافا أوليا فقال لهم: لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك كذبا.

وبعد أن انتزع منهم هذا الاعتراف وهو حق وصدق. قال لهم: إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة. وهنا انصرفوا عنه وقالوا: تبا لك ألهذا جمعتنا. ويحكى القرآن الكريم عنهم قولهم:

﴿ حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ﴾[1].

﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾[2].

فهنا تقليد أعمى لما كان عليه آباؤهم وأجدادهم دون تفكير. والقرآن يريد منهم أن يفكروا ويتأملوا فيما كان عليه آباؤهم

---

(١) المائدة: الآية ١٠٤.

(٢) الزخرف: الآية ٢٢.

وأجدادهم. هل ما كان عليه آباؤهم وأجدادهم حق أم باطل؟ إذا التفتوا وتأملوا قليلا سيجدون أن ما يعبدونه من أصنام يصنعونها بأيديهم لا تضر ولا تنفع. وبالتالى فإنه بالتفكير العقلى الصرف سيتبين للإنسان ذلك.

ونحن نعلم فى هذا الصدد من قصة إبراهيم – عليه السلام – أنه عندما كسر أصنام قومه جاءوه قائلين:

﴿ أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ﴾[1].

فاستهزأ بهم إبراهيم قائلا:

﴿ بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾[2].

فالمسألة فى حاجة إلى شيء من التعقل والتفكير. ومن هنا رفض الإسلام التقليد الأعمى. وقال النبى – صلى الله عليه وسلم –: **«لا تكونوا إمعة: (أى مقلدين تقليدا أعمى) إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تسيئوا مثلهم. ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تسيئوا مثلهم».**

---

(١) الأنبياء: الآية ٦٢.

(٢) الأنبياء: الآية ٦٣.

وهكذا أزال الإسلام هذه العقبة الكأداء التى تقف فى طريق العقل الإنسانى وهى التقليد الأعمى، أزالها الإسلام من طريق العقل حتى يستطيع أن يمارس دوره فى هذا الوجود.

أما العقبة الأخرى فتتمثل فى الدجل والشعوذات والخرافات والأوهام، وقد رفض الإسلام ذلك كله وما شاكله لينفسح الطريق أمام العقل الإنسانى. ولذلك وجدنا النبى - صلى الله عليه وسلم - يقول:

«إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن أهل السموات والأرض لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لن ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لن يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك».

وعندما مات إبراهيم بن محمد - صلى الله عليه وسلم - حزن عليه حزنًا شديدًا. وبعد أن واراه التراب ذرفت عينه. ثم تصادف أن كسفت الشمس فى ذلك اليوم. وهذه ظاهرة طبيعية تحدث فى أوقات محددة بناء على قوانين وسنن كونية معينة. ولكن الصحابة رضوان الله عليهم بحسن نية قالوا: لقد كسفت الشمس مشاركة فى الحزن على موت إبراهيم. وعلى الرغم من شدة حزنه - عليه الصلاة والسلام - على فلذة كبده فإنه لم يرد

أن تمر هذه الحادثة بهذه الطريقة. ووقف في وجه ذلك بحزم قائلا:

«إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يكسفان ولا يخسفان لموت أحد ولا لحياة أحد».

فعليكم إذن أيها الناس أن تحكموا عقولكم، فهذه ظواهر كونية، وسنن تسير بقدرة الله سبحانه وتعالى بناء على حسابات دقيقة. ومن هنا لا دخل فيها لموت أحد ولا لحياة أحد. وهكذا لم يترك الإسلام مكانا لأى شكل من أشكال الدجل والشعوذات والخرافات والأوهام، فكلها من الأمور التى تعطل العقل عن أداء دوره في هذا الوجود.

ومن بين الضمانات الأخرى التى قررها الإسلام لتحرير العقل من القيود التى تعوقه عن أداء دوره تأكيده على مبدأ المسئولية الفردية. فكل إنسان مسئول فقط عما يفعله:

﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾[1].

﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾[2].

فليست هناك خطيئة موروثة. فالعقل الإنسانى لا يسير وهو مثقل بأحمال غيره ممن سبقوه، ولا يسأل إلا عما فعله فقط:

---

(١) المدثر: الآية ٣٨.

(٢) فاطر: الآية ١٨.

﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾[1].

وبذلك يتحرر الإنسان ويتخفف من هذه الأوزار التى تثقل كاهله والتى كان يعتقد بها أناس قبل ذلك.

وأخيرا وليس آخرا نجد أن من بين الضمانات التى اتخذها الإسلام أيضا فى هذا الصدد - لمساعدة العقل الإنسانى على أداء دوره - تحرير المؤمن من الخوف من أية سلطة دنيوية أيا كانت فى هذا الوجود لأن الله كتب له العزة التى كتبها لنفسه ولرسوله:

﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾[2].

والنبى - صلى الله عليه وسلم - يقول فى حديث شريف:

«اطلبوا الأشياء بعزة الأنفس فإن الأمور تجرى بالمقادير».

ومن هنا فإذا شعر المسلم بأنه متحرر من الخوف ومن عقدة الخوف فإنه يستطيع أن ينتج ويبدع ويبتكر وينفع نفسه، وينفع مجتمعه، ويكون عضوا نافعا فى هذا الوجود. هذه الضمانات التى اتخذها الإسلام لمساعدة العقل الإنسانى لأداء دوره فى هذا العالم على أكمل وجه لا ينبغى أن تغيب عن الأذهان على

---

(١) الإسراء: الآية ٣٦.

(٢) المنافقون: الآية ٨.

الإطلاق، بل ينبغى أن تكـون حـاضرة دائمـا أمـام أعـين النـاس ومستقرة فى أذهانـهم.

رابعا: تسخير الكون للإنسان:

أما العنصر الرابع فإنه يتمثل فى تسخير الكون للإنسان. فالله سبحانه وتعالى قد سخر هذا الكون للإنســان، وللإنســان وحــده. ونحن نجد ذلك فى آيات كثيرة. يقول القرآن الكريم:

﴿ وسـخر لكـم الليـل والنـهار والشمس والقمــر والنجــوم مسخرات بأمره ﴾[1].

ويقول:

﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منــه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[2].

وفى آية أخرى يقول:

﴿قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ﴾[3].

ولا تعنى هذه الآية أن ننظر إلى الســموات والأرض بقصـد أن نتفرج عليها ثم نفتح أفواهنا دهشة من عظمتـها، ولكـن لنتـأمل

---

(١) النحل: الآية ١٢..

(٢) الجاثية: الآية ١٣.

(٣) يونس: الآية ١٠١.

في السموات والأرض ونسخِّر كل ما فيهما لخدمة البشرية، لأن الله سبحانه وتعالى أراد للإنسان أن يعمر هذا الكون لا أن يخربه. فهذه مهمة الإنسان في هذه الحياة.

ومن هنا فإنه إذا كان الله قد سخر للإنسان كل ما في هذا الكون كما تشير إلى ذلك تلك الآية الكريمة المعبرة التي نقرؤها ولا نقف عندها:

﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[1].

فإننا ينبغي أن نتوقف عند عنصر التفكير الذي ورد في نهاية الآية:

﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[2].

فهذا العنصر ضروري وجوهري، لأن الله إذا كان قد سخَّر لنا هذا الوجود، فلا ينبغي أن نقف منه موقف اللامبالاة، بل يجب أن يكون لنا منه موقف إيجابي، وموقفنا الإيجابي من هذا الكون يتمثل في دراسته والنظر فيه بالعلم والفهم والتعقل حتى نستطيع أن نبتكر ونبدع ونخوض أعماق البحار والفضاء كما يفعل غيرنا، فالمسلمون الذين لديهم هذه التعاليم لا يجوز أن

---

(١) الجاثية: الآية ١٣.

(٢) الجاثية: الآية ١٣.

يكونوا سلبيين. وهذه الآية وحدها كانت كافية لتجعل الأمة الإسلامية فى مقدمة الأمم فى مجال الابتكارات والاختراعات فى كل مجال فى هذا الوجود، فى الأرض وفى السماء. ولكن القرآن الكريم لم يعد لدى الكثيرين كتاباً نتدبر آياته، بل أصبح الآن – للأسف الشديد – كتاباً نقرأ به على الأموات ونصنع منه الأحجبة ونطرب لتطريب المقرئين بآياته، مع أن القرآن الكريم جاءنا لنتدبر آياته. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾[1].

فالتعبير بقوم يتفكرون فى الآية السابقة أمر جوهرى ينبغى ألا يغيب عن الأذهان على الإطلاق لأن هذا يمكن أن يؤدى بنا فى النهاية إلى أن نرتقى بفكرنا ونرتقى بأفهامنا ونرتقى بالجانب المادى من ناحية أخرى. ولذلك يقول القرآن الكريم:

﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾[2].

خامساً: الحرية والمسئولية:

أما العنصر الأخير وهو الحرية التى منحها الله سبحانه وتعالى للإنسان فإنها مرتبطة بالمسئولية. والمسئولية هى مهمة

---

(١) سورة محمد: الآية ٢٤.

(٢) سورة فصلت: الآية ٥٣.

الإنسان الكبرى فى هذا الوجود، ولذلك عندما عرض الله سبحانه وتعالى الأمانة وهى أمانة التكليف والمسئولية على السموات والأرض والجبال أبين أن يحملنها وأشفقن منها. ولكن الإنسان وحده هو الذى تقدم ليحمل هذه الأمانة، وحملها الإنسان. وهذه مسئوليته. فالإنسان مسئول عن هذا الكون. فإذا كان خليفة الله فى الأرض فهو مسئول عن هذا الكون وهو سيد فى هذا الكون.

فالله سبحانه وتعالى سيد هذا الكون لأنه هو الذى خلقه، ولكنه سبحانه أراد للإنسان أن يكون سيدا فى هذا الكون. ومن هنا فالمسئولية لا تقوم إلا على أساس من الحرية. فبدون الحرية لا مسئولية، ولا تكليف، لا تكليف بشىء ولا ثواب ولا عقاب على شىء على الإطلاق.

والمسئولية كما نعلم دوائر متعددة متشابكة. وكل إنسان مسئول: «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**» كما يقول الحديث الشريف. وكل إنسان منا مسئول مسئولية مباشرة عن نفسه أولا ثم تتسع الدائرة بعد ذلك لتشمل أسرته ومجتمعه ومسئوليته حتى عن العالم كله بمعنى معين. أما مسئوليته عن نفسه فإن الحديث الشريف يقول:

«لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن علمه ماذا عمل به».

عن عمره فيما أفناه: هذه إشارة إلى قيمة الوقت لأن العمر هو الزمن المحدد، هو الفترة الزمنية التى يعيشها الإنسان.

فكل دقيقة وكل لحظة من لحظات حياة الإنسان هو مسئول عنها. فاللحظة التى تنقضى لا تعود مرة أخرى على الإطلاق. ومن هنا ينبغى على الإنسان أن يحافظ على وقته. وقد كان العرب قديما يقولون: الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك، وكانوا يقولون أيضا: الوقت من ذهب، ولكن الوقت لدينا الآن أصبح أرخص من التراب. وقد كان جمال الدين القاسمى وهو عالم من علماء دمشق فى نهاية القرن الماضى، كان يقف أمام المقاهى المكتظة بالزائرين الذين ينفقون أوقاتهم فيما لا يعود عليهم لا بنفع ولا بفائدة، ويهز رأسه عجبا ويقول: «لو أن الوقت كان مما يباع ويشترى لكنت قد اشتريت من هؤلاء الناس جميعا أوقاتهم» وذلك لينفقها فيما يفيد.

خاتمــــة

والآن، ما الذى يمكن أن نستفيده من ذلــك كلــه فــى حياتنا المعاصرة؟ نحن اليوم فى أشد الحاجة إلى الاستفادة من كل هذه التعاليم الإسلامية فى تحديد مكانة الإنسان ودوره فى هذا الكون ومسئولياته عن هذا الكون حتى نعيد للإنسان المسلم كرامته التى أهـدرت وحقوقـه التـى اعتـدى عليـها. إنــه لم يكـن مـن قبيـل المصادفة أن تتحدث الآيات الخمـس الأولى مـن الوحـى القرآنـى عن الإنسان والعلم الذى يتسلح به الإنسان:

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسـان مـن علـق، اقـرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾[1].

فهذه الآيــات الخمـس الأولى ركـزت الحديـث علـى الإنسان وقضيـة الإنســان وعلـم الإنسان، باعتبـار أن ذلـك هــو المهمــة الأساسية للإنســان. ولذلـك علـم الله آدم الأسمــاء كلــها قبـل أن يهبطـه إلى الأرض. وهـذه إشـارة إلى العلـم الـذى تسـلح بـه آدم ليستطيع أن يعمر الأرض التى أهبط إليها.

فهل يعى المسلمون ذلك مرة أخرى؟ هل يفيقـون مـن غفلتـهم بعد أن فاتهم قطار التقدم؟

---

(١) سورة العلق: الآيات ١ – ٥.

إن الإنسان إذا لم يكن مادة فقط فلا يجوز له أن يتقاصر، بل يعلو ويرتفع ويسمو بنفسه وبطاقاته وقدراته حتى يحقق الهدف من خلق الله سبحانه وتعالى له في هذا الوجود. وهو هدف العبادة لله وحده:

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾[1].

مع الأخذ في الاعتبار أن العبادة ليست مجرد أداء للشعائر الدينية المفروضة فقط، وإنما العبادة تشمل بالإضافة إلى ذلك كل عمل يقوم به الإنسان في هذه الحياة أيا كان هذا العمل دينيا أم دنيويا طالما قصد به الإنسان وجه الله سبحانه وتعالى وجلب المصالح للناس ودفع المضار عنهم.

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل..

(١) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

الفصل الثالث
الحضارة
فريضة إسلامية

تمهيد :

هناك كثير من المفاهيم التى يرددها الناس منذ أزمان طويلة ويفهمها كل فريق منهم بفهم معين يقترب أو يبتعد بدرجات متفاوتة من فهم الآخرين مما يوحى بأن الناس يفتقدون اللغة المشتركة التى تقرب ما تباعد بينهم من أفهام، وإذا كان هذا أمر يحدث على مستوى الأمم والشعوب والحضارات المختلفة فإن الأمر يبدو غريباً إذا كان ذلك يحدث بين أبناء الأمة الواحدة، ومن بين المفاهيم التى تصادف هذا الأسلوب فى التعامل معها مفهوم الحضارة، ولأهمية التحديد الواضح للمفاهيم فإننا نود فى البداية أن نلقى بعض الضوء على مفهوم الحضارة قبل الدخول إلى لب الموضوع الذى يفصح عنه عنوان هذا الفصل، ومن هنا سنقسم موضوعنا إلى قسمين على النحو التالى:

أولاً: مفهوم الحضارة.

ثانياً: الإسلام والحضارة.

ويعد أول هذين القسمين بمثابة مدخل أساسى للقسم الثانى.

أولاً: مفهوم الحضارة :

إن المتتبع لمفهوم الحضارة (بكسر الحاء وفتحها) في المعاجم العربية يجد أنه يعنى عكس البداوة، وهذا يعنى أسلوبا مختلفا في التعامل مع الناس والأشياء، ونقلة فكرية أيضاً نظراً لما بين مجتمع البداوة ومجتمع الحضر من فروق.

وقد أشار ول ديورانت أيضا في كتابه قصة الحضارة[1]، إلى معنى قريب من ذلك حين يقول: إن الحضارة أو المدنية في وجه من وجوهها هي رقة المعاملة، ورقة المعاملة هي ذلك الضرب من السلوك المهذب الذى هو فى رأى أهل المدن - وهم الذين صاغوا حكمة المدنية - من خصائص المدينة وحدها، ويضيف قائلاً: «إن المدنية تبدأ فى كوخ الفلاح لكنها لا تزدهر إلا فى المدن».

ومن كل ذلك يتضح لنا أن مفهوم الحضارة مرتبط بمفهوم التقدم، فالحضارة إذن نقلة تقدمية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى: تقدمية فى الفكر وفى السلوك وفى أسلوب التعامل مع الناس والأشياء. وهذا كله فى إطار منظومة من القيم تتحدى الإطار القبلى الضيق إلى الدائرة الإنسانية الأوسع والأرحب.

---

(١) انظر: قصة الحضارة: ول ديورانت - ج ١ ترجمة د. زكى نجيب محمود ص ٥ - القاهرة ١٩٧٣م.

وقد كان للإسلام دور كبير فى تنبيه الأذهان إلى هـذه الدائـرة الجديدة مؤكداً على العنصر الإنسانى الشـامل: ﴿ **يأيـها الناس إنـا خلقنـاكم مـن ذكـر وأنثـى وجعلنـاكم شـعوباً وقبـائل لتعارفوا** ﴾[1].

وهذا التعارف يقتضـى التفـاهم والتعـاونٍ المشـترك فـى سـبيل ترسيخ قيم إنسانية مشتركة ﴿ **من قتل نفساً بغير نفس أو فسـاد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا ومن أحياها فكأنمـا أحيـا الناس جميعاً** ﴾[2].

وقد جعل ابن خلـدون الحضـارة غايـة العمـران وفـى الوقـت نفسه جعلها مؤذنة بفساد العمران وذلك لأنـه ربـط بينـها وبـين «التفنن فى الترف واستجادة أحوالـه، والكلـف بالصنـائع التـى تؤنق من أصنافه وسائر فنونه. وإذا بلغ التأنق فى هـذه الأحـوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات فتتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها فى دينها ولا دنياها»[3].

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣٢.

(٣) انظر: مقدمة ابن خلدون – طبعة دار الشعب ص ٣٣٤ وما بعدها.

الطبيعة المزدوجة للحضارة:

ولكننا لا نريد أن نتابع ابن خلدون في فهمه لهذا الجانب من الحضارة، ولعل تعريف ألبرت اشفيتسر فى كتابه فلسفة الحضارة يكون أقرب إلى ما نحن فيه حيث يقول[1]: إن الحضارة بصورة عامة هى «التقدم الروحى والمادى للأفراد والجماهير على السواء».

وهذا يتفق مع ما سبق أن أشرنا إليه من أن الحضارة تعد نقلة تقدمية في الفكر وفى السلوك وفى أسلوب التعامل مع الناس والأشياء.

وهذا يعنى أن الحضارة لها طبيعة مزدوجة، فهى من ناحية تحقق نفسها فى سيادة العقل على قوى الطبيعة، ومن ناحية أخرى فى سيادة العقل على نوازع الإنسان، وليس يكفى إطلاقاً أن يسود العقل على الطبيعة الخارجية، فهذه السيادة وإن كانت تمثل تقدماً إلا أنه تقدم تقترن فيه المزايا بالمساوئ التى يمكن أن تعمل فى اتجاه مضاد للحضارة أو مؤذن بفسادها كما رأينا لدى ابن خلدون.

---

(١) انظر: فلسفة الحضارة لألبرت اشفيتسر – ترجمة د. عبد الرحمن بدوى ص ٣٤ (دار الأندلس – ١٩٨٠م).

وليس هناك من شك فى أن هناك عوامل كثيرة تشترك معا فى تكوين الحضارة، ويشير ول ديورانت فى هذا الصدد إلى عوامل جيولوجية وجغرافية واقتصادية ونفسية[1].

ويفسر توينبى[2] الحضارة بأنها رد معين يقوم به أحد الشعوب أو الأجناس فى مواجهة تحد معين، وهذا التحدى الذى تمثله الطبيعة يختلف فى مستواه، وبالتالى تختلف فعالية الرد عليه من جانب الشعوب بين احتمالات ثلاث: فإما أن تقوم الشعوب المعنية بوثبة إلى الأمام، وإما أن تصاب بالتوقف والجمود، وإما أن يلفها الفناء بردائه.

الحضارة وقضية الإنسان:

وقد لجأ مالك بن نبى فى تعريفه للحضارة إلى معادلة رياضية تقول: إن الحضارة = إنسان + تراب + وقت

وبذلك فإن المشكلة الحضارية تنحل إلى ثلاث مشكلات أولية هى: مشكلة الإنسان، ومشكلة التراب[3]، ومشكلة الوقت، وتقوم الفكرة الدينية بعملية المزج بين هذه العناصر الثلاثة[4].

---

(١) انظر قصة الحضارة ج ١ ص ٣ - ٦.

(٢) راجع: شروط النهضة لمالك بن نبى ص ٩٦ ومابعدها - دار الفكر ١٩٧٩م.

(٣) يفضل مالك بن نبى استخدام لفظ التراب بدلا من لفظ المادة.

(٤) انظر: المرجع السابق ص ٦٥ وما بعدها.

ولمالك بن نبى تحليلات طيبة ونظرات ثاقبة فى هذا الصدد، ولسنا هنا نريد أن نكـرر مـا قالـه، ولكننـا نـود أن نشـير إلى أن المشكلة الحضاريـة الرئيسـية فـى نظرنـا هـى مشـكلة الإنسـان، فالإنسان هو العنصـر الفـاعل الإيجـابى فـى العمليـة الحضاريـة كلها، وماعداه مسخر لخدمته ومجال لنشاطه.

وإذا قلنا إن الإنسان هو كل شيء فنحن نعنى ما نقول تمامـاً، وهذا يقتضينا أن نحدد ما نعنيه بمفهوم الإنسان، وإن كان ذلـك ربما يعد من أظهر الأمور، ولكن ظهور الشـىء ظـهورا فائقـا قـد يكون سبب الخفاء.

فالإنسـان هـو الكـائن الوحيـد فـى هـذا الكـون الـذى وصفـه الفلاسفة والمفكرون كل فى مجـال تخصصـه بأنـه كـائن عـاقل، أو كائن اجتماعى، أو حيوان متدين، أو حيوان أخلاقى، بمعنـى أن كل صفة من هذه الصفات لا توجد فـى كـائن آخـر فـى هـذا الوجود غير الإنسان، فالإنسان وحده هو الذى ينفرد بها.

ولكن هذه الصفات ليست هى كل شىء فى الإنسان، فـهناك صفات أخرى فريدة يختص بها وهى: التقنية والتراث والتقدم.

وتتمثـل التقنيـة أساسـاً فـى صنـع الإنسـان لآلات معينـة واسـتخدامها لغـرض معـين، فإنتـاج الآلات المعقـدة المحـددة الأهداف عن طريق عمل طويل وشاق هو عمل إنسانى خالص.

ولكن هذه التقنية التى يختص بها الإنسان كان من الممكن ألا تتطور إذا لم يكن الإنسان فى الوقت نفسه كائناً اجتماعياً ينمو في المجتمع عن طريق التراث، وهذا التراث ليس أمراً فطرياً فيه، ولكنه يتعلمه، وذلك بفضل اللغة المعقدة التى يمتلكها، وبفضل ذلك كله يتقدم الإنسان. فهو يتعلم، ويضيف إلى ما تعلمه الجديد عن طريق قدرته على الإبداع والاختراع.

وفضلاً عن ذلك فإن تفكير الإنسان ليس دائماً مرتبطاً بغرض مادى عملي، فهناك مجالات لا تخضع لهذا الغرض تشغل اهتمام الإنسان، فتطلعه الدائم لاكتساب المعارف واكتشاف المجهول لا يقف عند حد[1].

ومن خلال ما تقدم يتضح لنا أن مشكلة الإنسان تتفرع إلى جوانب عديدة تتكامل فيما بينها ولا تتناقض، ويمكن إجمالها فى العناصر التالية:

العقل بكل ما يحمل هذا المصطلح من معنى وبما له من قدرة على الإبداع، والتدين، والتعلم، والأخلاق، والنزعة إلى الاجتماع، وهذه النزعة تشمل ما يترتب عليها من النظام الذى يحفظ المجتمع ويتمثل فى القوانين، واللغة والتراث والتقنية والتقدم.

---

(١) انظر: مدخل إلى الفكر الفلسفى لبوخينسكي ومن ترجمتنا ص ٩١ وما بعدها- - دار الفكر العربى ١٩٩٦م.

والإبداع الحضارى في هذا كله يتمثل بصفة عامة فى الفلسفة والعلم بجميع فروعه والتقنية والفن انطلاقاً من قاعدة أساسية هى الدين. والمتتبع لتاريخ الحضارات السابقة وما تركت لنا من آثار لاتزال قائمة يستطيع أن يتعرف بسهولة على ما كان للفكرة الدينية فى هذه الحضارات من دور كبير وأثر عظيم.

وهكذا نجد أن مركز الدائرة الحضارية هو الإنسان، وأهم خصائصه العقل، والعقل يعنى الكرامة الإنسانية واستقلال الشخصية، ويعنى المسئولية، ويعنى الحرية.

وإذا كانت الحرية ضرورية للتحضر - فإنها تصبح عديمة المعنى إذا لم تتوفر للإنسان وسائل العيش من القوت والكساء والمأوى، وإذا لم يتوفر له الأمن على نفسه وماله وعرضه وعقيدته. وفي هذه الحرية تكمن كرامته الفريدة وفرصته فى تحقيق وجود إنسانى يليق بكرامة الإنسان.

الحضارة والميراث الحضارى

ومما لاشك فيه أن الحضارة تعد امتيازاً للإنسان - فالإنسان وحده صانع الحضارة - ولكن الحضارة ليست ببساطة شيئا موروثا أو مجبولا فى فطرة الإنسان، وإنما هى شىء لابد أن

يكتسبه كل جيل من الأجيال اكتسابا جديداً، والتربية هي الوسيلة التي تنتقل بها الحضارة من جيل إلى جيل[1].

ولكن الأمر لا يجوز له أن يقف عند حد الامتلاك المتجدد للحضارة. فنحن مثلا وارثو حضارة فرعونية قديمة ووارثو حضارة عربية إسلامية ولكن ما قيمة ذلك إذا وقفنا بعقارب الزمن ولم نبذل أى جهد يضيف جديداً إلى ما ورثناه عن آبائنا وأجدادنا.

ورحم الله جمال الدين الأفغاني: فقد زاره شكيب أرسلان ذات مرة وحكى له ما يروى من أن العرب قد عبروا المحيط قديماً واكتشفوا القارة الأمريكية قبل الأوروبيين، فرد الأفغاني قائلاً: «إن الشرقيين كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا: أفلا ترون كيف كان آباؤنا؟ نعم قد كان آباؤكم رجالا، ولكنكم أنتم أولاء كما أنتم. فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم»[2]

الحضارة والالتزام الأخلاقي

ولكن مجرد الإضافة المادية إلى الموروث الحضاري لا تكفي. فالحضارة قبل كل ذلك وبعده هي التزام أخلاقي. وهذا يعني

---

(١) انظر: قصة الحضارة ج ١ ص ٨.

(٢) انظر: زعماء الإصلاح لأحمد أمين ص ١١٠ - القاهرة ١٩٧١م.

أنها ليست مجرد حضارة إنتاج أو استهلاك، فهذه لا تستحق أن يطلق عليها لفظ حضارة. فلا يكفى أن يقتنى المرء الحضارة مجرد اقتناء دون أن يكون ملتزما أخلاقيا بمنظومة القيم الحضارية والسلوك الحضارى. ولهذا يمكن أن نرى فرداً من الأفراد يستخدم كل منتجات الحضارة ولكنه لا يسلك سلوكا حضارياً. ومثل هذا الفرد لا يمكن أن يقال عنه إنه متحضر رغم الأكوام الهائلة التي يحيط بها نفسه من منتجات الحضارة.

وإذا قلنا إن الحضارة فى جوهرها تعد التزاماً أخلاقياً فإننا نعنى بذلك أن الحضارة مسئولية. فهى التزام أخلاقى يجعل المرء على وعى بالمسئولية الكبيرة التى يتحملها الانسان الفرد، ليس فقط تحمله المسئولية عن أفعاله الخاصة وإنما بمعنى معين تحمله المسئولية عن العالم الذى يعيش فيه. فكلنا نعيش فوق كوكب أرضي واحد أصبح مثل سفينة تتقاذفها الأمواج من كل جانب. ونحن جميعاً - سكان هذا الكوكب - مسئولون بدرجات متفاوتة عما أصاب هذا الكوكب الأرضى من تلوث فى الماء والهواء والغذاء وما أصاب طبقة الأوزون من تآكل ينذر بخطر داهم يهدد البشرية كلها. وهذا الفهم الجديد الذى يضع عنصر المسئولية فى مقدمة العناصر الأساسية التى تشكل ظاهرة الحضارة هو الذى أدى - على سبيل المثال - إلى انعقاد مؤتمر

الأمم المتحدة للبيئة والتنمية أو ما أطلق عليه اسم «قمة الأرض» في النصف الأول من شهر يونية عام ١٩٩٢م في ريو دي جانيرو لمناقشة المشاكل البيئية العديدة التي تهدد الحياة والأحياء على الأرض في محاولة لانقاذ البشرية من الأخطار والكوارث التي لا يعلم مداها إلا الله، تلك المشاكل التي نتجت عن التقدم التقني المنفلت الزمام، وما تسببه النفايات الذرية ونفايات المصانع من تلويث للهواء والماء والغذاء. فهذا المؤتمر المشار إليه يعد تعبيراً عن المسئولية الحضارية المشتركة التي أصبح سكان الأرض جميعاً مطالبون بتحمل أعبائها.

وهذه المسئولية تعني أن الحضارة الحقيقية تضع الإنسان - الذي هو نفسه صانع الحضارة - في قمة اهتماماتها. وإذا قلنا الإنسان فإن ذلك يعني الإنسان بكل ما يعبر عنه ذلك من معنى:

الإنسان في شتى جوانب اهتماماته المادية والعقلية والروحية. ومن هنا فإنه لا يجوز اختزال الحضارة في إرضاء الاهتمامات المادية فقط أو الروحية فقط أو العقلية فقط، بل لابد أن يكون هناك توازن بين كل هذه الاهتمامات والمتطلبات، فالأزمة الحضارية الراهنة في العالم ترجع في رأى كثير من المفكرين إلى أن قدرة الإنسان المعاصر على تشكيل ذاته على المستوى الفردى

والجماعى قد تراجعت تراجعاً حاداً خلف قدرته على تشكيل بيئته تشكيلاً مادياً.

ومن هنا يعد السعى من أجل سيادة السلوك الأخلاقى فى مقابل الحضارة الشيئية البحتة مسئولية يشترك فى تحملها كل فرد. فقد ألقت المقادير فى يد الحرية الإنسانية مصير هذا النزاع القديم المتواصل حول سيادة العقل.

ولا يجوز أن يغيب عنا أن هدف الحضارة هو الإنسان قبل أى شىء آخر. وفى تأكيدنا على معنى الإنسان وكرامته وحريته لا نعدو قول الحق إذا قلنا إن الحضارة – أى حضارة – تنتهى عندما تفقد فى شعورها معنى الإنسان.

وهناك ارتباط لا ينفصل بين الأخلاق والإنسانية : فالأخلاق تذهب إلى المدى الذى تذهب إليه الإنسانية، والإنسانية معناها توفير الاعتبار لوجود أفراد الإنسانية وسعادتهم، وحيث تنتهى الإنسانية تبدأ الأخلاق الزائفة والحضارة الزائفة.

وإذا كان توماس هوبز قد ذهب فى تصوره إلى حد رؤية الإنسان ذئباً بالنسبة لأخيه الإنسان وأن الكل فى حرب ضد الكل فإن التصور الذى يتلاءم مع الحضارة الحقيقية أو الذى يعبر عن لب هذه الحضارة والذى ينبغى أن يصل إلى وعى الأفراد والجماعات هو «مسئولية الكل عن الكل».

والإنسان لا يمكن أن يكون مسئولاً إلا إذا كان حراً، ومقدرته على أن يكون رائداً للتقدم بمعنى أن يفهم ماهية الحضارة وأن يعمل بها تتوقف على كونه مفكراً وعلى كونه حراً، إذ ينبغى أن يكون مفكراً ليكون قادراً على فهم مثله وتصويرها وينبغى أن يكون حراً ليكون فى وضع يتهيأ له منه أن يدفع بمثله فى الحياة العامة[1].

ولا يمكن - فى حقيقة الأمر - فصل حريتى كفرد عن حرية الآخرين، لأن الحرية لا يدركها المرء إدراكاً حقيقياً إلا بممارستها عن طريق علاقته بالآخرين. فالعلاقة بين الأشخاص هى وحدها التى تجعل الحرية أمراً ممكناً.

بل إننا نذهب إلى أبعد من ذلك ونؤكد أن الإنسان لا يمكن أن يعيش ويتمتع بنعمة الحياة ذاتها إلا فى ظل علاقة إنسانية. وقد أثبتت ذلك بعض البحوث العلمية التى أجراها فريق من العلماء الأمريكيين. فقد تضمنت التجربة التى قام بها هؤلاء العلماء عزل خمسة من الأطفال حديثى الولادة فى حجرة واسعة معقمة تعقيماً ممتازاً. ومجهزة بأحدث الوسائل الصحية، وخصص لكل طفل فراش صغير أنيق فى غاية النظافة، فإذا حان موعد الطعام

---

(١) انظر: فلسفة الحضارة ص ٢٠ وما بعدها.

دخلت الممرضة فألقمت كل طفل زجاجة لبن تتوفر فيه كل شروط الغذاء الصحى.

ولكن الممرضة - حسب التعليمات المشددة من جانب الأطباء العلماء أصحاب التجربة - لم يسمح لها بلمس الطفل أو حمله بين ذراعيها وهدهدته أو تدليله أو مضاحكته أو مداعبته بكلمة أو قبلة. فكان تعاملها مع هؤلاء الأطفال تعاملاً آليا كما لو كانت تتعامل مع آلة من الآلات، لا مع شخص بشرى.

وكانت نتيجة هذه التجربة اللاإنسانية هى موت الأطفال الخمسة رغم العناية الصحية الفائقة. وكان سبب موت الأطفال - كما شخصه العلماء - هو الحرمان من هذه العلاقة الإنسانية، الحرمان من الحنان الأموى أو من التدليل والهدهدة والمداعبة والقبلات. فهذا كله يمثل بالنسبة للطفل إكسير الحياة. والعلاقة الإنسانية هى التى تضمن له كل ذلك[1].

والمسئولية التامة تستند دائما بالضرورة إلى العلاقة الإنسانية الأساسية المطلقة التى تتمثل فى المحبة والأخوة والعدالة والتراحم والتسامح بين بنى الإنسان.

والحضارة الحقيقية من شأنها أن تجعل روح التسامح تسرى بين الناس وفى ظل هذا التسامح تتاح للمرء حرية التفكير.

---

(١) راجع صحيفة الأخبار القاهرية فى ١٩٨٠/٧/١٤م ص ١٤.

وقد يفكر المرء فى اتجاه خاطئ، ولكن لفت نظره إلى الاتجاه الصحيح لايكون عن طريق الإرغام أو القهر، وإنما يكون بالحكمة والموعظة الحسنة. وفى ظل هذه الحضارة ينتفى التعصب الأعمى ويختفى العنف الجهول والإرهاب الفكرى.

وهذا التسامح المشار إليه يمكن أن يكون من جانب آخر بمثابة مدخل للالتقاء بالحضارات الأخرى والانفتاح عليها وإقامة حوار معها، وهذا يعنى فتح المجال أمام التعددية الحضارية.

الأبعاد الأساسية للحضارة:

وفى نهاية حديثنا عن مفهوم الحضارة يمكننا أن نوجز فى عبارات قصيرة أهم الأبعاد التى ينبغى أن تتوفر فى أى مشروع حضارى حقيقى وذلك على النحو التالى:

١ - **البعد الإنسانى**: ونعنى بذلك فهما مزدوجا على المستوى الفردى وعلى المستوى العام: على المستوى الفردى من حيث ضرورة المحافظة على كرامة الإنسان وحريته كفرد ومراعاة اهتماماته المادية والعقلية والروحية، وما يمثله ذلك من احترام عقله وفكره وعقيدته حتى يكون قادرا على الإبداع فى مجالات العلم والفلسفة والدين والفن. أما على المستوى العام فنعنى بذلك مراعاة الاعتبار الإنسانى بالنظر إلى الإنسان أينما

كان وأنى كان من حيث هو إنسان بالمعنى الذى يحقق قيمة الإنسانية فى العلاقات بين أبناء البشر من شتى الحضارات والأديان والأجناس.

٢ - **البعد الأخلاقى:** بمعنى الالتزام بمنظومة القيم الأخلاقية التى تعنى سيادة العقل على نوازع الإنسان وما يرتبط بذلك من التزام أخلاقى مسئول بأوسع معانى الالتزام والمسئولية.

٣ - **البعد التقدمي:** بمعنى دفع عجلة التقدم فى مجالات العلم والفكر والسلوك وفى أسلوب التعامل بين الناس. فالحضارة كما سبق أن أشرنا ليست مجرد ميراث يرثه الإنسان وليست مجبولة فى فطرته، ومن هنا ينبغى أن يكتسبها المرء من جديد ويسهم بنصيبه فى الإضافة إليها والإبداع الذى يغذيها ويدفع بها إلى الأمام.

٤ - **البعد الدينى:** فالدين عنصر فعال فى كل حضارة لا يجوز تجاهله. وتاريخ الحضارة في السابق وحتى الآن يبرهن على ذلك.

٥ - **البعد الزمنى:** بمعنى مراعاة مفهوم الزمن من حيث هو حلقات متصلة غير منقطعة، وهذا يعنى التواصل الحضارى والحفاظ على كل ما هو جوهرى فى ذاتية الأمة، وفى الوقت

نفسه عدم تجاهل التطورات المستجدة في الحاضر مع استشراف المستقبل.

٦ - **البعد التوازني**: بمعنى ضرورة التوازن بين متطلبات الإنسان العقلية والمادية والوجدانية. فالحضارة أحادية الجانب أو التي يختل فيها التوازن تحكم على نفسها بالفناء.

٧ - **البعد العالمي**: بمعنى مراعاة المتغيرات الدولية وإدراك واقع التعددية الحضارية والتمايز الحضارى فى العالم الذى لا يعنى بالضرورة التناقض أو التضاد. ومن جانب آخر الانفتاح على كل الحضارات والحوار معها فى سبيل خير الإنسانية وترسيخ أسس السلام والعدل والاستقرار فى العالم.

وغنى عن البيان أن كل هذه الأبعاد التي ينبغى أن تتوفر فى أى مشروع حضارى حقيقى متوفرة جميعها فى تعاليم الإسلام. فالإسلام قد كرم الإنسان وفتح أمامه المجال للانطلاق بلا حدود فى آفاق العلم والمعرفة من أجل إعمار الأرض ودفع عجلة التقدم فى المجتمع البشرى، وأمرنا أن نسير فى الأرض وندرس ما كان من أخبار السابقين ونستفيد من كل الخبرات البشرية، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها.

وتعاليم الإسلام تحرص على تأكيد مبدأ الوسطية وإقامة التوازن بين متطلبات الإنسان المادية والعقلية والوجدانية،

وفضلا عن ذلك فإن الإسلام يعد دين الإنسانية ﴿ **من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً** ﴾[1].

وكل هذه الأبعاد محوطة فى الإسلام بسياج من القيم الأخلاقية الرفيعة، ومن هنا لخص محمد صلى الله عليه وسلم رسالته كلها فى عبارة جامعة حين قال: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[2].

ومن كل ذلك يتضح أن الحضارة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى تعد فريضة إسلامية وواجباً دينياً وعنصراً أساسياً من عناصر دين الإسلام. وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل نبينه فى القسم الثانى من هذا الموضوع.

ثانيا: الإسلام والحضارة:

قبل الدخول فى تفاصيل هذه القضية يجدر بنا أولا أن نلقى نظرة على الوضع الراهن فى العالم الإسلامى ومحاولات الربط بين الإسلام كدين وقضية التخلف التى تسود العالم الإسلامى منذ فترة طويلة.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٣٢.

(٢) رواه البخارى فى كتاب الأدب المفرد.

١ - تمهيد:

يعانى العالم الإسلامى فى العصر الحاضر من أزمة طاحنة متعددة الجوانب، ففى الوقت الذى تتلاحق فيه التطورات العلمية والفكرية والحضارية فى مناطق العالم المتقدم إذا بنا نرى التخلف بكل أبعاده المادية والمعنوية، العلمية والدينية، الفكرية والحضارية يخيم على العالم الإسلامى.

وقد حدا ذلك ببعض خصوم الإسلام فى الغرب إلى إلصاق هذا التخلف بالإسلام نفسه، إذ هو فى زعمهم دين يشد أتباعه إلى التخلف حيث يشكل عائقاً أمام التقدم العلمى والتطور الحضارى، وذلك بما يشتمل عليه من تعاليم جامدة، وتشريعات صارمة، تحد من الانطلاق فى مجالات التمدن والحضارة والرقى والتقدم.

ويستدل خصوم الإسلام على مقولتهم هذه بالواقع المشاهد فى العالم الإسلامى، فهذا العالم الإسلامى كله يقع اليوم فى صف دول العالم الثالث المتخلف، فإذا كان الإسلام دين حضارة وتقدم لما وجدنا هذا الوضع المتخلف فى عالم الإسلام، وهكذا يرجع هذا التخلف إذن إلى الإسلام ذاته.

ومن هنا فإن المسلمين إذا أرادوا أن يتحرروا من أسر هذا التخلف فإن عليهم أن يتحرروا من الجمود الإسلامى، وأن

يأخذوا بالنموذج الغربي الذى دفع بالغرب إلى قمة التقدم والحضارة.

ويبدى - في هذا الصدد - أحد المستشرقين المبشرين نصيحة للمسلمين لدفعهم إلى النهوض من وهدتهم بقوله: «إن على الإسلام إما أن يعتمد تغييراً جذرياً فيه، أو أن يتخلى عن مسايرة الحياة»[1].

فهذا الدين الذى ظهر في الصحراء لم يعد يستطيع مسايرة الحياة المعاصرة، ومن هنا فلابد من طرح ما فيه من جمود حتى يمكن للمسلمين اللحاق بركب العصر.

وقد سار خلف هذا الزعم الباطل نفر من أبناء الأمة الإسلامية التابعين للغرب في فكرهم تبعية ذليلة من منطلق مركب النقص والشعور بالدونية إزاء الغرب المتفوق، وكأن الإسلام لم يقدم للإنسانية أى إسهام في مجالات الفكر والعلم والحضارة.

وليس من غرضنا هنا أن نشغل أنفسنا بالرد على هذه المزاعم، فالاشتغال بذلك يعد لوناً من ألوان ردود الأفعال التى لم يعد يجدر بنا أن نقف عندها طويلاً، بل ينبغي علينا أن نقتحم

---

(١) راجع: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي للدكتور محمد البهي ص ٦١٢ - دار الفكر - بيروت ١٩٧٣م.

المشكلات المحيطة بنا بأسلوب عقلانى بعيد عن الانفعالات العاطفية، بصرف النظر عما يقال هنا أو هناك، من أجل البحث عن حلول سليمة لمشكلاتنا المصيرية، وعلى رأسها قضية التخلف الحضارى الشامل الذى لا يخفى على أحد، وذلك على الرغم من وجود قشرة حضارية يلمحها المرء هنا أو هناك.

إننا كمسلمين لا نستطيع أن ننكر أن واقع الأمة الإسلامية واقع متخلف ومحزن ويدمى النفس الإنسانية، ولكن لا نستطيع أن ننكر فى الوقت نفسه أن هذا الواقع المحزن منفصل عن النموذج الإسلامى بمائة وثمانين درجة، ولم تستطع الصحوة الإسلامية المعاصرة أن تقترب حتى اليوم بطريقة جدية من هذه القضية المصيرية الأولى. بل ظلت حتى يومنا هذا مشغولة بمحيط الدائرة، وببعض المظاهر الشكلية والأمور الهامشية، ومهتمة بالجزئيات دون الكليات، واختلط لديها سلم الأولويات، فانقلبت الضروريات هامشيات والهامشيات ضروريات، وغابت معالم الرؤية الواضحة المتعقلة المستنيرة، وضاعت أصوات المتعقلين من رواد هذه الأمة وسط ضجيج الانفعالات العاطفية التى تتصف فى بعض الأحيان بشدة حدتها، وانفلات وعيها بما يدور حولها فى عالم اليوم.

فما هى الأسباب الكامنة وراء هذه الأزمة الطاحنة المتمثلة فى هذا التخلف الحضارى الشامل فى العالم الإسلامى؟ وما مدى

مسئولية الإسلام والمسلمين عنها؟ وما الذى يمكن أن يسهم به الإسلام فى صنع الحضارة والتقدم الإنسانى؟ وهل يمكن أن تدخل الحضارة في دائرة الواجبات الإسلامية الضرورية التى يمكن أن توصف بأنها فريضة إسلامية؟.

٢ - الحضارة فريضة إسلامية:

لقد عرضنا فى القسم الأول من هذا الفصل بإيجاز شديد للملامح الأساسية التي تمثل الشروط الضرورية لقيام حضارة من الحضارات، أو التى ينبغى أن تقوم عليها الحضارة بصفة عامة، وعلينا الآن أن نتجه نحو الإسلام لنرى ما إذا كان يشتمل على هذه الشروط الضرورية أم لا؟

ولعل هناك من يعترض علينا فى هذا الصدد على اعتبار أن هذا البحث ربما يفهم منه افتراض أن الإسلام لم يصنع حتى الآن حضارة، وهذا أمر مخالف للواقع. فالإسلام قد أقام حضارة زاهرة كانت من أطول الحضارات عمراً فى التاريخ، وقد امتدت من أقصى الصين شرقاً إلى أقصى الأندلس غرباً، وهذا يعنى أن الإسلام فيه كل المقومات الأساسية لبناء الحضارة.

وهذا اعتراض له وجاهته، ولكننا لا نبحث الآن تاريخاً مضى وانقضى، ولكننا نبحث فى مشكلة واقعية نعيشها، ولابد من مواجهة الأمر الواقع لنرى ما إذا كانت المشكلات الحضارية

بمعطياتها المعاصرة تجد لها فى الإسلام حلـولا أم لا وذلـك من منطلق أن الإسلام دين صالح لكل زمان ومكان.

ومن هنا فإن مـن الأهميـة البالغـة تبيـان هـذا الأمـر بمنتـهى الوضوح حتى لا يتطرق هناك لبس أو يتسرب شك إلى عقل المسلم في مدى صلاحيـة إسـلامه للبنـاء الحضارى الإنسـانى فـى أى وقت وفى أى مكان.

ونحـن نزعـم فـى هـذا الصـدد أن الحضـارة بالمفـهوم الـذى ارتضيناه تعد فريضة إسلامية لا تقل أهمية عن أية فريضة أخرى فى الإسلام، وأن الخروج من هذه الوحدة التى ترددت فيها الأمة الإسلامية يعد واجباً دينيـاً لا يجـوز للمسـلمين أن يتـهاونوا فـى شأنه بأى حال من الأحوال.

ولعلنا بهذا المصطلح نثير مشكلة فقهية حول مصطلح الفريضة فى الإسلام. ولكننا لا نريد أن نضيـع وقتـاً فـى هـذه المناقشـات اللفظية فسيتضح لنا من خـلال مـا سـنعرضه هنـا أن اسـتخدامنا لهذا المصطلح استخدام سليم، فإن استعادة العزة التى كتبها الله للمؤمنين والتمكين لهم فى الأرض مـن الأمـور التـى لا تقـل فـى أهميتها عن فريضة الصـلاة والصيـام، بـل إن هـذه العـزة وهـذا التمكين يمثلان الضمان لإقامة فرائض الإسلام كلها، وصـدق الله

العظيم القائل ﴿ **الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر** ﴾[1].

ويكفى أن نشير هنا فى البداية إلى القاعدة الأصولية المعروفة التى تقول: إن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

(أ) الإنسان محور اهتمام القرآن:

وإذا كان الإنسان بصفة عامة هو العنصر الفاعل الإيجابى فى العملية الحضارية كلها فإن هذا يقتضينا أن نبحث موقف الإسلام من الإنسان لنتعرف على مكان الإنسان ومكانته فى تعاليم الإسلام. ومن خلال ذلك نستطيع أن نتعرف على موقف الإسلام من الحضارة.

إننا إذا تأملنا فى القرآن الكريم وهو فى حقيقته كتاب جاء لنتدبر معانيه ونتأمل فيها وصولاً إلى معرفة الحق الذى لا مراء فيه، وإلا حق علينا قول القرآن نفسه: ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾[2].

نقول إذا تأملنا فى القرآن الكريم فسيتضح لنا أن الإنسان هو محور اهتمام القرآن، فالقرآن الكريم كله إما حديث إلى الإنسان أو حديث عن الإنسان.

---

(١) سورة الحج: الآية ٤١.

(٢) سورة محمد: الآية ٢٤.

وقد تكررت كلمة الإنسان في القرآن ثلاثاً وستين مرة، وجاء الحديث بلفظ بني آدم ست مرات، وبلفظ الناس مائتين وأربعين مرة.

وإذا تدبرنا أول ما نزل من الوحي القرآني على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسيتضح لنا التركيز على العناية بشأن الإنسان بصفة خاصة، ويتجلى ذلك بوضوح من ذكر لفظ الإنسان مرتين في الآيات الخمس الأولى من الوحي. مع التركيز أيضاً على العلم وأدواته ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾[1].

ولا غرابة في ذلك، فالإنسان قد جعله الله خليفة في الأرض، وكرمه وفضله على سائر المخلوقات، وميزه بالعقل والإدراك، وحمله أمانة عمارة الأرض، وصنع الحضارة فيها.

إن مسئولية الإنسان الكبرى التى ارتضى أن يتحمل أعباءها بعد أن أشفقت من حملها السموات والأرض والجبال - هذه المسئولية تعد تكريماً للإنسان، لأن تحمل المسئولية يعني الحرية، ويعني استقلال الشخصية. وتتركز هذه المسئولية

---

(١) سورة العلق الآيات ١ - ٥ (راجع: الخصائص العامة للإسلام للدكتور يوسف القرضاوى ص ٦١ مكتبة وهبة ١٩٧٧م).

الكبرى – التى تتمثل فى الخلافة فى الأرض لعمارتها – على مسئولية الإنسان عن نفسه. ومن هنا فعليه نحو نفسه كفرد واجبات لا يجوز أن يفرط فيها، وهذه الواجبات تتمثل فى استخدام كل ما وهبه الله له من قوى وطاقات فيما خلقت من أجله، فالعقل وظيفته التفكير والفهم والإدراك، والحواس وظيفتها إدراكية فى مجالاتها، ووقت الإنسان ثمين لابد أن يقدر قيمته، ويشغله فيما يفيد، وصحته لا يجوز له أن يفسدها أو يهمل فيها، وإلا لن يكون قادراً على تحمل مسئولياته نحو نفسه ونحو الآخرين، وعلمه لابد أن يحسن استخدامه ويؤدى حقه، فطلب العلم إذا كان فريضة على كل مسلم ومسلمة كما قرر رسول الإسلام – صلى الله عليه وسلم – فإنه من ناحية أخرى مسئولية سيحاسب الإنسان عما فعل بها يوم القيامة، كما سيسأل أيضاً عن ماله كسباً وإنفاقاً، وفى ذلك كله يقول النبى عليه الصلاة والسلام:

«لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم»[1].

---

(١) رواه الترمذى.

وفضلا عن ذلك فالإنسان مسئول عن استخدامه أو عدم استخدامه لوسائل الإدراك العقلية والحسية، وفى ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** ﴾[1].

ومن هنا سيقول الكافرون يوم القيامة: ﴿ **لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم** ﴾[2].

وهذا يبين لنا أن عدم استخدام وسائل الإدراك من عقل، وحواس فيما خلقت من أجله يعد ذنباً من الذنوب، وينزل بالإنسان من مرتبة الإنسانية إلى مرتبة الحيوانية بل إلى أسفل منها. وفى ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل** ﴾[3].

وليس هناك دين من الأديان رفع من شأن العقل، وأعلى من قدره مثلما صنع القرآن. وقد حرص الإسلام على إزالة كل

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٣٦.

(٢) سورة الملك: الآيتان ١٠، ١١.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

العوائق التي تعترض سبيل العقل البشرى حتى يستطيع ممارسة دوره كاملاً فى هذا الوجود، ومن هنا رفض الإسلام التبعية الفكرية والتقليد الأعمى، ولم يرتض رسول الإسلام - صلى الله عليه وسلم - أن يكون المسلمون إمعات يسيرون وراء كل ناعق، بل عليهم أن يحكموا عقولهم ويميزوا بين ما يضرهم وما ينفعهم، فلا حُجِّية لأحد فى الإسلام بعد كتاب الله وسنة رسوله، وكل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد ما عدا صاحب الشريعة. وكذلك حرر الإسلام العقل من الخرافات والأوهام والشعوذات، وجعل المسئولية فردية في أساسها فليست هناك خطيئة موروثة، وهذه المسئولية الفردية لا تقوم إلا على أساس من حرية الفرد واطمئنانه إلى حقوقه فى الأمن على نفسه وعقله وماله. وقد جعل الإسلام الأمن على العقل من بين المقاصد الضرورية التى قصدت إليها الشريعة الإسلامية لقيام مصالح الدين والدنيا، وهذه المقاصد الضرورية هى حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال(1).

وغرس الإسلام فى نفس المؤمن العزة وقرنها بعزة الله وعزة رسوله ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾(2). وقرر الإسلام

---

(1) راجع الموافقات للشاطبى ج ٢ ص ١٠ - دار المعرفة - بيروت.

(2) سورة المنافقون: الآية ٨.

ألا طاعة لمخلوق فى معصية الخـالق، وأن المؤمـن لا يخشـى فـى الحق لومة لائم، وبذلك صان الإسلام كرامة الإنسان.

وأكد القرآن الكريم الكرامة الإنسانية فى قوله تعـالى: ﴿ **ولقـد كرمنـا بنـى آدم وحملنـاهم فـى الـبر والبحـر ورزقنـاهم مـن الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾[1].

وعقيدة التوحيد وعقيدة ختم النبوة فى الإسـلام تعنيان أيضاً رفع الوصاية عن العقل البشرى. وبذلك ينفتح المجال أمام العقل ليمارس وظيفته دون عوائق.

وقد كان مبدأ الاجتهاد فى الإسلام من المبـادئ التـى فتحـت الباب أمام العقل ليصـول ويجـول فـى مجـال اسـتنباط الأحكـام الشرعية، وإذا كان الإسلام قد أجاز للعقل هذا الحق فى مجـال الأحكام الشرعية فمن باب أولى يكون ذلك أمراً حتمياً فى مجال الأمور الدنيوية، والاجتهاد فى حقيقته دعوة إلى الإبداع فى كـل مجالات العلوم والفنون والصنائع.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٠ . يلحظ القارئ الكريم أن بعض ما ورد فى الصفحات السابقة من إشارات إلى العقل الإنسانى قد سبقت الإشـارة إليـه فـى الفصـل السابق. ويرجع السبب فى هذا التكرار إلى أن فصـول هـذا الكتـاب قـد كتبـت فـى مناسـبات مختلفة وفى أوقات متباعدة. ولم نشأ أن نحذف منها شيئاً.

(ب) مجالات النشاط الإنساني:

وهكـذا يتضح لنـا أن الإسـلام قـد هيـأ المجـال الملائـم أمـام الإنسان لاستخدام كل طاقاته الإبداعية، ووفـر لـه كـل الشـروط الضرورية التي تساعده على القيام بمهمتـه الكـبرى المتمثلـة فـى خلافته لله فى الأرض، والنهوض بمسئوليته فى عمـارة الأرض، وجعل الله الكون كله بسمائه وأرضـه ومـا بينـهما مجـالا لنشـاط الإنسان، فكل ما عدا الإنسان في هذا الكون مسخر لخدمة هـذا الإنسان ومجال لنشاط الإنسان، وفي ذلك يقول القـرآن الكريـم: **﴿وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منـه إن فـى ذلك لآيات لقـوم يتفكـرون ﴾**[1]، كمـا يقـول أيضـا: **﴿سـنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾**[2].

وقد حدد الحق تبارك وتعالى مهمة الإنسان الحضارية فى هذا الكون بقوله **﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾**[3]. وهذا يعنى أن الله قد فوض إلى الإنسان عمارة الأرض، والعمارة نقيض الخـراب، وتعنـى تمـهيد الأرض وتحويلـها إلى حـال يجعلـها

---

(١) سورة الجاثية: الآية ١٣.

(٢) سورة فصلت: الآية ٥٣.

(٣) سورة هود: الآية ٦١.

صالحة للانتفاع بها وبخيراتها. والاستعمار فى الآية الكريمة هو طلب العمارة. فالإنسان مطلوب منه - طبقا للمشيئة الإلهية - أن يجعل الأرض عامرة تصلح للانتفاع بها، وأن يبحث عن أفضل السبل لتيسير الحياة فيها، وكشف ما فى الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات من أجل خير البشرية جمعاء.

وقد أعطى الله الإنسان من الطاقات والاستعدادات والإمكانات ما يتناسب مع ما فى هذه الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات، فهناك تناسق بين القوانين الإلهية التى تحكم الأرض وتحكم الكون كله والقوانين التى تحكم الإنسان، وما حباه الله به من قوى وطاقات، حتى لا يقع التصادم بين هذه القوانين وتلك، وحتى لا تتحطم طاقة الإنسان على صخرة الكون[1].

وعمارة الأرض تتحقق بالعلم الذى هو فريضة إسلامية، وبالتقنية التى هى تطبيق للعلم، ومن أجل ذلك تدخل تحت مفهوم الفريضة، ولكن العمارة على هذا النحو المشار إليه ليست هى الحضارة بإطلاق، وكذلك ليست هى العمارة بإطلاق، بل هى أحد جوانب العمارة، ويمكن أن يطلق عليها مصطلح الحضارة الشيئية أو المادية. أما الجانب الآخر الذى به تكتمل

---

(١) راجع: فى ظلال القرآن لسيد قطب ج ١ ص ٥٦ - دار الشروق.

الحضارة – أو عمارة الأرض بالتعبير القرآني – فإنه يشمل كل القيم الدينية والعقلية والأخلاقية والجمالية.

ومن هنا فإن الحضارة في المفهوم الإسلامي تعني تحقيق المشيئة الإلهية في عمارة الأرض مادياً ومعنوياً. وبذلك يحقق الإنسان ذاته بوصفه خليفة لله في الأرض.

وهكذا نجد أن سيطرة الإنسان على قوى الطبيعة لا تكفي وحدها لبناء الحضارة، بل لابد أن ينضم إلى ذلك أيضاً سيطرة الإنسان على نوازعه الداخلية وأهوائه وشهواته حتى تكون منضبطة بالقيم الدينية والعقلية والأخلاقية والجمالية، وبذلك تتم عمارة الأرض كما أراد الله، وبذلك يكون الإنسان في صلة مستمرة بالله خالق الكون تصحح له دائماً مساره على الأرض حتى لا يضل الطريق، فيظن أنه سيد هذا الكون مع أن دوره لا يعدو أن يكون سيداً في هذا الكون، وهذا هو معنى خلافته لله في الأرض.

(جـ) القيم الحضارية المنسية:

مما تقدم يتضح لنا أن الإسلام بما يشتمل عليه من تعاليم قد هيأ السبيل أمام المسلمين لعمارة الأرض، أو بناء الحضارة على أفضل الوجوه، غير أننا في صلتنا بالإسلام قد ضيقنا رحمة الله

الواسعة، وحصرنا الإسلام فى مجموعة الشعائر المعروفة، فاختفت من حياتنا - أوكادت - مجموعة القيم الحضارية المشرقة، وأصبحت فى واقعنا الإسلامى قيماً منسية، لا أثر لها فى حياتنا ولا تأثير.

ونود فى هذا الصدد أن نشير مجرد إشارات عابرة إلى بعض النماذج من هذه القيم المنسية على سبيل التذكرة بها ومن هذه القيم:

١ - قيمة التفكير:

وهى من القيم التي حث عليها القرآن الكريم، وأشار إليها فى صيغ عديدة دليلاً على أهميتها، وما تؤدى إليه من إبداع فى شتى أنواع العلوم والفنون والصنائع. ولكننا بنظم التعليم لدينا قد نجحنا فى تعليم أبنائنا الخوف من التفكير، وقمنا بصبهم جميعاً فى قالب واحد يربطهم بحرفية المكتوب، وأغلقنا أمامهم فرص الإبداع والانطلاق، وأصبح الفكر لدينا في اللسان الشعبى أمراً مرادفاً للغم والهم حيث لا تجد الأم التى تحنو على أبنائها دعوة أفضل من أن تدعو الله أن يبعد عنهم الفكر.

ونحن مطالبون بأن نفكر، وأن يقض التفكير مضاجعنا ويقلقنا فى سبيل البحث عن مخرج لنا من أزمتنا الطاحنة.

ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى غرس قيمة التفكير فـي نفوس أبنائنا وبناتنا. فإذا تعلم شبابنا التفكير وأحسنوا استخدامه فلن يكون هناك مجال للتطرف فـي الفكـر أو فـي فـهم الديـن، ولـن يستطيع أحد عندئذ خداعهم بشعارات زائفة لا يقصد من ورائها إلا وضع العقبات أمام التفكير والغاء العقل بالكليـة حتـى يسـير الشباب معطل الفكر مشلول العقل نحـو مـا يريـده هـؤلاء الذيـن لا يريدون لأمتنا خيراً.

وقد اهتم القرآن الكريم بقيمة التفكير اهتمامـاً كبـيراً، وجعـل الكـون كلـه بسـمائه وأرضـه ومـا بينـهما مجـالاً واسـعاً للتفكـير الإنساني. ويتضح لنا ذلك بجـلاء عندمـا نقـرأ الأيـة الكريمـة التي سبقت الاشارة إليها ﴿ **وسخر لكم ما في السموات وما فـي الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾[1].

ومما لاشك فيه أن تمكـين العقـل مـن أداء دوره كـاملاً كفيـل بوضع حد لكل شكل من أشكال التطرف وكفيل أيضـاً بتجفيـف منابع التطرف. وفي المقابل نجد أن الغاء دور العقل من شأنه أن يفسح المجال واسعاً أمام هجمة التطرف الشرسة ومـا يتبـع هـذا التطرف من تعصب وعنف وإرهاب.

---

(١) سورة الجاثية: الآية ١٣. انظر أيضـاً التعليـق علـى هـذه الآيـة فـي الفصـل السابق.

إن دعـوة القـرآن للإنسـان لاستخدام ملكاتـه الفكريـة دعـوة صريحة لا تقبل التأويل. وهكـذا يجعـل الإسـلام التفكـير واجبـاً مقرراً وفريضة إسلامية. ومـن هنـا قـرر ابـن رشـد أن الشـرع قـد أوجب النظر بالعقل فى الموجودات واعتبارها، وذلـك أخـذاً مـن آيات القرآن العديدة فى هذا الشأن.

٢ - قيمة العمل:

يرتبط العمل فى القرآن الكريم بالإيمان، ويرتبط بقيمة أخـرى هى قيمة إتقان العمل واستمراريته، حتى ولو قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل كما يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم -[١]، ويرتبط بقيمـة العمـل قيمة الوقت، وأسلافنا كانوا يقولون الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك، وكانوا يقولون أيضا: الوقت من ذهب، ولكن هذه القيمة قد تحولت على أيدينا إلى شيء أرخص من التراب، وتفيد بعض التقارير أن متوسط عمل العامل فى بلادنا لا يتجاوز نصف ساعة فـى اليـوم، وقـد نسـينا أن الله سبحانه قـد أقسـم بـالعصر، وبالفجر، وبالضحى، وبالليل، وبالنهار، وهى تمثل أجـزاء من

(١) رواه الإمام أحمد بن حنبل ج ٣ ص ١٩١ طبعـة اسطنبول بعنـوان: الكتـب الستة مجلد ٢٢.

الوقت دليلا على أهميـة هـذه القيمـة، وليلفـت أنظارنـا إليـها، ويوجهنا لاستغلال أوقاتنا الاسـتغلال الأمثـل، فنحـن مسـئولون يوم القيامة عما صنعنا بأوقاتنا.

٣ - قيمة النظافة:

ويكفى أن نشير فى هذا الصدد إلى الحديث الشريف القـائل: **«الإيمـان بضـع وسـبعون شـعبة أعلاهـا لا إلـه إلا الله وأدناهـا إماطة الأذى عن الطريق»**[١]، فقد جعـل النبـى صلـى الله عليـه وسلم إماطة الأذى عن الطريق جزءا لا يتجـزأ مـن الإيمـان، ولـو حقق المسلمون هذا الجـزء مـن الحديـث النبـوى لكـانت شـوارع المسلمين فى قراهم ومدنهم أنظف الأماكن فى الدنيا كلها.

٤ - قيمة مراعاة شعور الغير:

وهنا نشير أيضاً إلى هذا التعليم النبوى الرائع فـى قولـه عليـه الصـلاة والسـلام: **«إذا كنتـم ثلاثـة فـلا يتنـاجى اثنـان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه»**[٢].

---

(١) رواه الإمام مسلم وأبو داود وابن ماجه والنسائى (فيض القديـر ج ٣ ص ١٨٥) بيروت - دار المعرفة.

(٢) رواه البخارى ومسلم (فيض القدير ج ١ ص ٤٣٥).

٥ - قيمة النظام:

لقد أصبحت حياتنا خليطاً عجيباً من الفوضى علـى المستوى الفكرى والدينى والعلمى والحياتى فى حـين أن تعـاليم الإسـلام فى الصلاة وفى الجهاد - على سـبيل المثـال - قـد أعطـت لنـا مثالاً رائعاً فى النظام.

٦ - قيمة الجمال:

. الإسلام دين الجمال يكره القبح وينفر المسلمين منـه، وتعـاليم الإسلام كلـها تحـث علـى الجمـال فـى كـل شـىء، والحديـث الشريف الصحيـح يقـول: **«إن الله جميـل يحـب الجمـال»**[1]، والمسلم مأمور بأن يـأخذ زينتـه عنـد كـل مسـجد، وكمـا يكـون الجمال مادياً كما نراه فى الأجسـام والأشـياء مـن حولنـا يكـون أيضاً جمالاً معنوياً يتمثل فى الأخلاق الجميلة والصفات النبيلة.

والكون بما فيه من تناسق وإحكام أعظـم مثـال علـى الجمـال الإلهى فى هذا الوجود، وأوصاف الجنة فى القـرآن الكريـم تعـد لوحات فنية رائعة الجمال.

إننا نفترى على الإسلام إذ نجعل منه ديناً ينفر مـن الجمـال ويدعو إلى الكآبة والتجهم.

---

(١) رواه الإمام مسـلم فـى صحيحـة ٨٩/٢ بـيروت ١٩٧٢م - دار إحيـاء الـتراث العربى.

إننا نظلم الإسلام حين نجعل منه دينا عدوا للعواطف والوجدانيات، وعدوا للتعبير الجمالى عن هذه العواطف بقصيدة جميلة، أو أغنية ذات كلمات عفيفة، أو لحن موسيقى يرقق المشاعر، أو رسم جميل يبرز آيات الله فى الكون.

لماذا ننسى أن أبا بكر - رضى الله عنه - قد دخل على عائشة فى يوم عيد فوجد عندها جاريتين تغنيان فقال أبو بكر: أبمزمور الشيطان فى بيت النبى - صلى الله عليه وسلم فقال النبى الكريم: **«يا أبا بكر إن لكل قوم عيدا وهذا عيدنا»**[1].

ولماذا ننسى أيضا ما رواه البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - أنها زفت جارية يتيمة كانت فى حجرها لرجل من الأنصار، فدخل رسول الله ولم يسمع الغناء، فقال يا عائشة: **«ألا بعثت معها من يغنى فإن الأنصار قوم يحبون الغناء، فلو بعثتم معها من يقول: أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم»**[2].

---

(١) رواه ابن ماجه فى سننه ج ١ ص ٦١٢ طبعة عيسى الحلبى.

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده ج ٣ ص ٣٩١ طبعة بيروت.

تلك كانت بعض الإشارات العابرة من تعاليم الإسلام في مجال القيم الحضارية، وما أكثرها، وهذا مجال واسع يطول شرحه[1].

(د) نحو حضارة إسلامية معاصرة:

والسؤال الآن هو: إذا كان هذا موقف الإسلام من الحضارة فما بال المسلمين قد تخلوا عن ركب الحضارة، وارتضوا لأنفسهم منذ قرون أن يكونوا في مؤخرة الركب لا يشاركون في صنع الحضارة، وإن كانوا يستخدمون منتجاتها؟ إن الحضارة المعاصرة إن باعتنا منتجاتها فلا يمكن أن تبيعنا روحها وأفكارها، وكل المعاني التي لا تلمسها الأنامل، فعملية التحضر عملية منبعثة من الداخل أساساً، وهذا يعني أن هناك شيئاً ذاتياً أساسياً يجب أن يقود عملية التحضر، ولهذا يمكن أن نرى فرداً من الأفراد يستخدم كل منتجات الحضارة، ولكنه لا يسلك سلوكاً حضارياً، ومثل هذا الفرد لا يمكن أن يقال عنه إنه متحضر، رغم الأكوام الهائلة التي يحيط بها نفسه من منتجات الحضارة، ومن هنا فعدم مشاركة المسلمين في صنع الحضارة يعني أنهم قد تخلوا

---

(١) وليقرأ من يريد كتاب روضة المحبين ونزهة المشتاقين للإمام الكبير ابن القيم، وكتاب طوق الحمامة للإمام ابن حزم. فقد احتفل كل منهما بقيمة الجمال احتفالاً لاحد له ووصفا ما لها من آثار عميقة في النفس البشرية.

عن مسئوليتهم فى عمارة الأرض وتركوها لغيرهم وهى تلك المهمة التى أكدها القرآن الكريم.

فماذا يريد المسلمون؟

هل ينتظر المسلمون انهيار الحضارة المعاصرة حتى يقيموا حضارتهم على أنقاضها؟ إذا كان الأمر كذلك فسيطول بهم الانتظار.

أم يرى المسلمون أن واجبهم فى المشاركة فى صنع الحضارة المعاصرة يتمثل فى الاهتمام بالجانب الروحى الذى أهملته الحضارة الحديثة حتى يقيم المسلمون بذلك التوازن الذى اختل فى الحضارة الحديثة؟

إن هذه مهمة جزئية ليست هى ما يريده الإسلام من أبنائه، فالإسلام لا يفصل الجانب المادى عن الجانب الروحى، والنموذج الذى ينبغى أن نسعى إليه ونقدمه لأمتنا ولغيرنا لابد أن يكون جامعاً للأمرين، وإلا كنا خائنين لرسالتنا نرتضى لأنفسنا أن نكون لقمة سائغة فى فم القوى العظمى. إننا فى عالم اليوم فى عصر لم يعد يعترف إلا بالقوة. وقوة اليوم لم تعد هى قوة السلاح فقط أو قوة الإيمان فقط، وإنما هى القوة التى تجمع بين الأمرين، وهذا هو جوهر تعاليم الإسلام.

فلا يجوز لنا إذن أن نتخلى عن فريضة العلم، وما يرتبط به من تقنية بجوار قيامنا بفرائض الروح والقلب.

ومن هنا فإنه لا مناص لنا من أن نتمكن من حضارة العصر بكل منجزاتها المادية، وتطوراتها العلمية والتقنية، فى الوقت الذى نراجع فيه موقفنا من الإسلام وتعاليمه، لنزيل الغبش الذى غطى على تعاليم الإسلام فحجب عنا الرؤية السليمة الواضحة لهذه التعاليم على مدى القرون الماضية، وهذا يتطلب تحولاً جذرياً فى العقلية الإسلامية لتنسجم مع تعاليم الإسلام تصحيحا للأوضاع الغريبة، والتقاليد البالية، والقصور العقلى، والفهم السقيم الذى أراد أن يشد تعاليم الإسلام لتنسجم مع ما درجنا عليه من عقلية متخلفة، فالعيب إذن فينا نحن المسلمين وليس فى الإسلام. فالإسلام سيظل شامخاً بتعاليمه، إذا اشرأبت أعناق المسلمين وقلوبهم وعقولهم نحوه بصدق جذبهم إلى أعلى، وإذا أرادوا أن يخضعوه إلى فهمهم السقيم تخلى عنهم، وتركهم يسقطون فى وهدة التخلف.

إن الأمر الذى يدعو للأسى والحسرة أننا كلما أدركنا ما نعانيه من قصور وعجز وتخلف فى المجال الحضارى فى عالم اليوم لجأنا إلى حيلة دفاعية نبرر بها موقفنا فنخدع أنفسنا بأنه إذا كان قد فاتنا اللحاق بركب الحضارة الحديثة المؤسسة

على العلم والصناعة فإننا ننعم بإيمان دينـى لا ينعـم بمثلـه بنـاة تلك الحضارة.

وهذا ادعاء ينقض نفسه بنفسه، لأننا لو كنا حقاً قـد تشـربنا الدين الذى نؤمن به لوجـب علينـا بحكم هـذا الديـن نفسـه أن نسـبق الدنيـا فـى إقامـة الحضارة القائمـة علـى كشوف العلـم وما ينبنى عليها، لأن الإسلام دين يحض على العلم بـأى معنـى فهمنا كلمة «علم»، فإذا كان العلـم الـذى بنيـت عليـه حضـارة عصرنا هو - أساساً - العلم بقوانين الطبيعة، فذلك ما دعانا إليه القرآن الكريم كلما دعانا إلى تدبر خلق الله، فخلـق الله هـو هـذا الكون بشتى كائناته وظواهـره، وتدبـر هـذه الكائنـات والظواهـر لا يعنى النظر إليها نظرة المتفرج، بل يعنى تعمقها والوصـول إلى درجة العلم بالأسس التى تحكـم سـلوكها والقوانـين التـى تنظـم مسيرتها، وذلك من صميم النشاط العلمى وما ينطوى عليه.

فإذا أمرنا القرآن الكريـم بـأن ننظـر إلى الإبل كيـف خلقـت أو إلى السحب كيف تتجمع لتنزل ماءها إلى أرضنا فتحييـها بمـا تنبته من نبات، فإن الهدف من ذلك ينتهى بنا إلى درجة العلـم بالحيوان أو العلم بالنبات. وينطبق ذلك على كل كائن أو ظـاهرة مما يجب علينا بحكم الدين أن نتناوله بالنظر[1]، ولكننا للأسف

---

(١) انظر: د. زكى نجيب محمود صحيفة الأهرام ٥/٦/٩٠.

لا نفعل شيئاً من ذلك، ونعتقد أن مجرد قراءة القرآن وحفظه يكفيان لاكتمال إيماننا بالدين، فأين ذلك من قول الله تعالى: ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾[1]. إن كثيراً من آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن الظواهر الكونية والكائنات المختلفة تنتهي بالدعوة إلى حث القوى الفكرية لدى الإنسان لتقوم بأداء وظيفتها في هذا الصدد ممثلا ذلك في قائمة الأفعال التي تعبر عن التفكير والتعقل والتفقه والاعتبار والتدبر والتبصر والتذكر والعلم وغيرها من أفعال مشابهة.

لقد ركزت الصحوة الإسلامية على أمور العبادات وهذا أمر مطلوب، واهتمت بالكثير من المظاهر والشكليات، وهذا من قبيل الهزل في وقت الجد.

إن المسألة الملحة اليوم هي البحث عن مخرج للمسلمين من وهدة التخلف الشامل، وذلك لن يكون إلا باستعادة الوعي بالإسلام.

والصحوة الإسلامية تظل مجرد كلمة خالية من المضمون طالما لم تصل إلى مرحلة عودة الوعي بالإسلام، وعودة الوعي هي الحالة التي يمكن أن تكون المنطلق الحقيقي للفهم الشامل

---

(١) سورة محمد: الآية ٢٤.

للإسلام بوصفه دين العزة والكرامة، دين التقدم والحضارة، دين العلم والمدنية، دين الدنيا والآخرة، دين التوازن بين الجسم والروح، دين الاعتدال والسماحة، دين السمو المادى والمعنوى، وبصفة عامة دين السلوك المسئول على جميع المستويات الفردية والاجتماعية والدينية. والسلوك المسئول هو دائماً سلوك حضارى، والتعاليم التى تنتج هذا السلوك المسئول هى التعاليم التى تدفع معتنقيها إلى صنع الحضارة والمشاركة فيها، لا بوصفهم مجرد مستهلكين أو متفرجين، ولكن بوصفهم فاعلين مؤثرين.

والتعاليم التى تستطيع أن تصنع ذلك كله هى تعاليم الإسلام.

إن ديناً بهذا الوصف لا يمكن أن يجعل أمر الحضارة من المسائل الهامشية ضمن اهتماماته، وإنما يجعلها فى قائمة أولوياته، وهذا ما فهمه المسلمون فى السابق، وبذلك استطاعوا فى فترة زمنية قصيرة أن يقيموا أعظم حضارة فى التاريخ، ومن هنا يمكننا مرة أخرى أن نقرر أن الحضارة فريضة إسلامية، وواجب دينى لا يجوز للمسلمين أن يتخلوا عنه، بل عليهم أن يجعلوه فى قمة أولوياتهم حتى يعودوا مرة أخرى أعزة، ويستعيدوا مكانهم الريادى ومكانتهم العليا فى عالم اليوم.

فهرس الموضوعات

الفصل الثالث: الحضارة فريضة إسلامية

العدد القادم

العرب وأسرار الحرب الخفية

د . محمد زكى عويس

رقم الإيداع	١٩٩٨/٩٠٦٨
الترقيم الدولى 977-02-5587-4	ISBN

١/٩٨/٢٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)



الدين هو المكوّن الرئيسى لكل الحضارات . فإذا تأملنا الحضارة المصرية القديمة نجد أن الدين كان الباعث الأساسى لها وهذا يتمثل فى المعابد والمقابر التى تعبر عن الطابع الدينى لهذه الحضارة وكذلك الشأن بالنسبة للحضارات الإنسانية الأخرى وعلى رأسها الحضارة الإسلامية وهذا يدل على مدى عمق العقيدة الدينية وتغلغلها فى النفس الإنسانية مهما بلغ التقدم المادى والحضارى.

والقضايا المطروحة فى هذا الكتاب تفتح الطريق أمام القارئ نحو مزيد من البحث والاطلاع.

٤٠٦٩٠٧/٠١



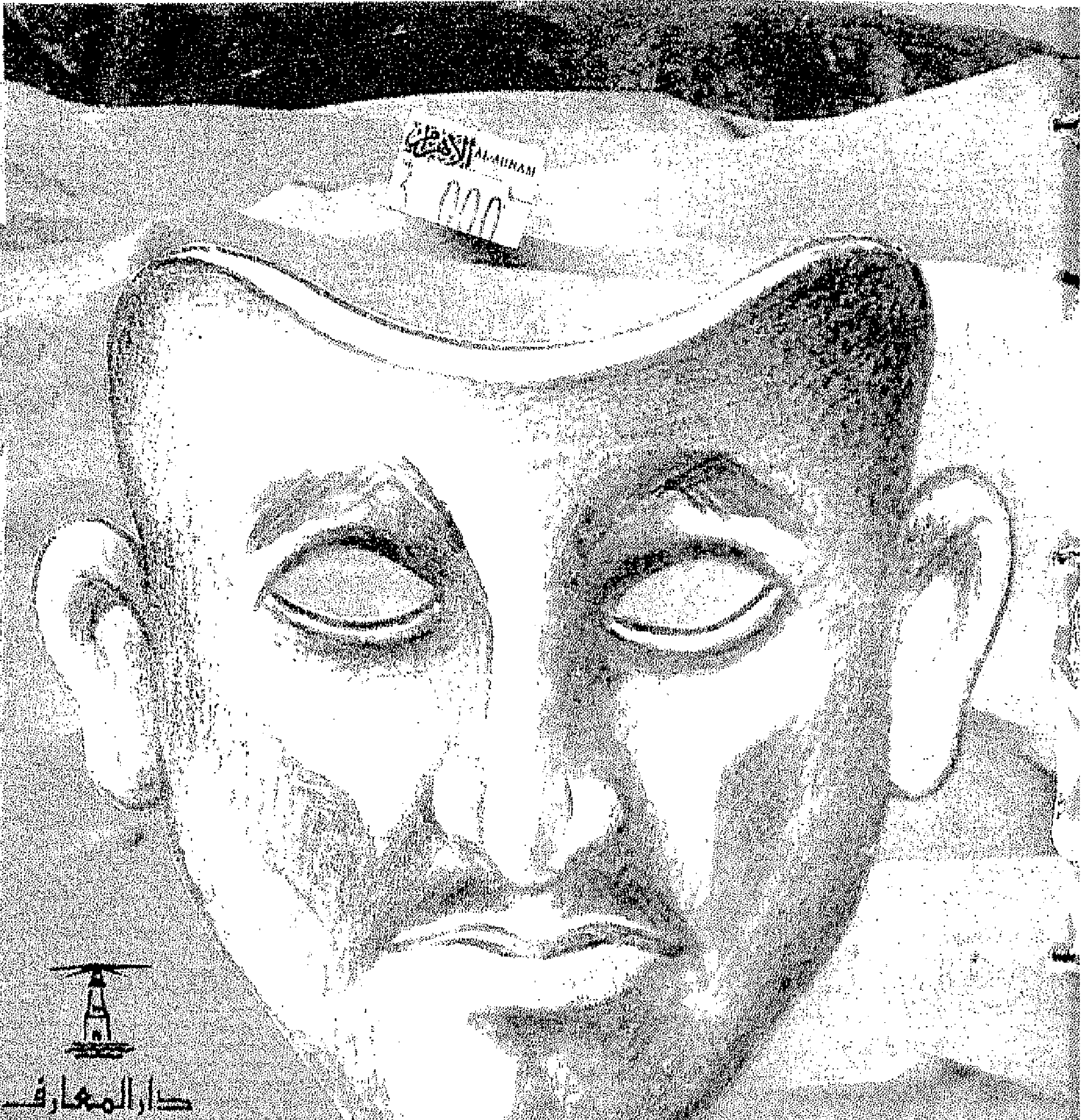
اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

طارق حجي

نقد العقل العربي

من عيوب تفكيرنا المعاصر



اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٦٣٣]

رئيس التحرير: رجب البنا

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

طارق حجّي

نقد العقل العربي

من عيوب تفكيرنا المعاصر



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

إهداء ...

إلى روح الدكتور على عبد المنعم المفتى - الصديق الذى طالما قلت له (وهو يشكو ذئابَ البشر): تذكر أبياتَ إيليا أبى ماضى الخالدة:

قالَ: "السماءُ كئيبةٌ!" وتجهما
قلتُ: إبتسمْ يكفى التجهمُ فى السما!

قالَ: العدى حولى علَتْ صيحاتُهمْ
أأُسَرُّ والأعداءُ حولى فى الحمى؟

قلتُ: ابتسمْ، لم يطلبوكَ بذمهم
لو لم تكُنْ منهمْ أجلُّ وأعظما!

إلى هذه الروح النورانية فى الملأ الأعلى أُهدى هذا الكتاب (والذى لا توجد فكرة أو فقرة فيه إلاَّ وكانت محورَ حديثٍ مستفيضٍ معه فى صيفِ ١٩٩٧).

طارق حجى.

هذا الكتاب ...

فى سنة ١٩٧٨ صدر كتابى الأول "أفكار ماركسية فى الميزان"... واليوم (سنة ١٩٩٨) يصدر كتابى العاشر "نقد العقل العربى" وبين التاريخين عشرون سنة من الكتابة وعشرةُ كتبٍ... فماذا كانت الرسائلُ التى أرادت تلك الكتبُ العشرةُ (خلال السنوات العشرين) أن تذيعها؟

أرادت الكتبُ الثلاثة الأولى[1] أن تقول إن الفكرَ

(١) وهى "أفكار ماركسية فى الميزان" والذى صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٧٨ و"الشيوعية والأديان" والذى صدرت طبعته الأولى ١٩٨٠. و"تجربتى مع الماركسية" والذى صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٨٣ -وقد صدرت أكثر من ثلاث طبعات (فى تواريخ لاحقة) من كلِ كتابٍ كما صدرت ترجماتٌ بالإنجليزية لها.

الاشتراكى وإن تميّزَ بالعمقِ والأصالةِ الفلسفيةِ فى أكثرِ من جانبٍ من جوانبِه إلاّ أنه لم ينجح على أرضِ الواقعِ فى تقديمِ نماذج مضيئة، إذ أخفق كليةً فى تحقيقِ ما وعد به من أهدافٍ ومارفعه من شعاراتٍ - ويبقى للفكرِ الاشتراكى شرفُ الاهتمامِ بالجانبِ الاجتماعى، فكل نظامٍ يريد أن ينجح ويزدهر ويستقر ويكون تجسيداً لما ينشده، فإن عليه أن يحقق حداً معقولاً من الاعتبارات الاجتماعية.

أما الكتبُ من الرابعِ للتاسعِ[٢] فقد حوَت عرضاً تفصيلياً لعيوبِ ومشكلاتِ مجتمعنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية المعاصرة مع إهتمام موازٍ بسبلِ العلاجِ يسيرُ

(٢) هذه الكتب هى:

- ما العمل؟ (١٩٨٦).
- الأصنام الأربعة (١٩٨٨).
- ثالوث الدمار (١٩٩٠).
- مصر بين زلزالين (١٩٩١).
- التحول المصيرى (١٩٩٣).
- نظرات فى الواقع المصرى (١٩٩٥).

فى محاذاته اهتمامٌ مماثلٌ بتشخيصِ منطلقاتِ ومنابتِ العيوب والمشكلات - وكان آخر هذه الكتب (نظرات فى الواقعِ المصرىّ) عبارة عن تجميع لأهم فصول هذه المجموعةِ من المؤلفاتِ.

وفى هذه الكتبِ الستةِ محاولةٌ وإن كان من الصوابِ أن توصف بأنها "إصلاحيةٌ" إلاّ أنها تكاد تصل إلى نقطةِ التماس بين ما هو (إصلاحى) وما هو (ثورى)، بمعنى أن روحَ هذه المحاولةِ تبتعد كثيراً عن الروح التى شاعت فى واقعنا خلال العقودِ الأخيرةِ الماضيةِ والتى تستعذبُ التغنى بالأمجادِ الماضيةِ والحاليةِ وتغدقُ فى عمليةِ التشدقِ بأنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان، أو بتعبيرٍ آخر تتسمُ بسمةٍ توصف فى اللغة الإنجليزية بلفظٍ بالغ الدلالة ولا أكاد أجد فى المفردات العربية نظيره المطابق تماماً وأعنى لفظ Complacency والذى يعنى رضى صاحبه عن نفسهِ وعما أنجزَ رضى غيرَ مبررٍ ولا مسوغ. وقد أغضبت هذه الكتاباتُ العديدين لا لسببٍ إلاّ لكونهم ثمرةٌ كاملةٌ لمؤثراتٍ حضارية وثقافية تجعلُ من "النقد" شيئاً ثقيلاً للغاية على النفس

وترى أنّ النقد الوحيد المقبول نفسياً هو النقد الذى يمسك العصا من المنتصف.

ثم تلت ذلك فترةٌ من التقوقعِ القلمىِ (١٩٩٥/١٩٩٨) كان فيها من العصىِّ على هذا القلم -من جهةٍ- أن يقول ما يُرضى الذوقَ العام، لأنه لم يقصد ذلك قط فى حياته. كما كان من العصى عليه من جهةٍ أُخرى- أن يقول "فى ظل مناخ عام سادرٍ فى مدحِ الذاتِ والرضى الكامل عن الإنجازاتِ والتغنى -غير المنقطع- بماضٍ تليدٍ وحاضرٍ مجيدٍ(!!)... أن يقول "كل ما يريد" و"كل ما ينبغى قوله".

وإبأن فترة العصيان تلك على الكتابةِ (أو بالأحرى عن مشاركةِ جوق المنشدين إنشادهم العجيب والغريب والمفتقد لكلِ مبررٍ ومسوغٍ من المنطق والعلم والثقافة والخبرة)، أصبح انشغالى الفكرى الأكبر ليس بمشكلاتنا وسبل علاجها... وإنما بالتساؤل الكبير التالى:

– ما هى عيوبنا الحضارية والثقافية التى سمحت للأمورِ بأن تصل لما وصلت إليه؟ وكنتُ هنا كمن يرفض المنطق

القائل "بأننا متخلفون لإننا كنا مستعمرين لفترات طويلة"... ولا يفتأ يرد على ذلك بقوله:"ولماذا كنا مستعمرين؟.. ولماذا كان البعض مُستعمِراً (بكسر الميم الثانية) والبعض مُستعمَراً (بفتح الميم االثانية)".

وكانت نتيجةُ الانشغال بهذه "المعضلة الفكرية" قائمةً بالعديد "من عيوب تفكيرنا المعاصر"، وهى العيوب التى أصبحت -من فرطِ ذيوعِها- تُشكل الجانب السلبى من عقلِنا (المصرى والعربى على السواءِ). إلاَّ أن معرفتى بما يمكن وما لا يمكن لمناهجِنا التفكيريةِ قبوله جعلتنى "أختصر" قائمة العيوب الحضارية والثقافية التى تشوب تفكيرَ قطاعاتٍ واسعةٍ من أبناءِ وبناتِ مجتمعِنا (بما فى ذلك أعداد كبيرة من المتعلمين تعليماً عالياً إلى أبعد الحدود).

فليست الغاية هى "النقد للنقد" أو بالأحرى "النقد للنقض"، وإنما الهدفُ أن أثير عند البعضِ من أبناءِ وبناتِ مجتمعنا التفكير فى هذه المنطقة "شبه المحرمة"، فمن هذا التفكيرِ ينبعُ العلاجُ القمينُ بالبرءِ من هذه العللِ.

والآن فما هو الكتاب الذى بين يدى القارئ؟

يَقول فيلسوف ألمانيا الأشهر عمانوئيل كانط (١٧٢٤-١٨٠٤) "إن النقدَ هو أهمُ أداةٍ بناءٍ عرفها العقلُ الإنسانى"؛ وهى عبارة بالغة العمق، لأنها تعنى - فيما تعنى- أن الإنسان بصفتهِ "غير كامل" ولا يملك أن يَبلغ الكمال، لا يسعُه إلاَّ أن "يتأخر" أو أن "يَتَقدم". والتَقدم، يعنى أن يرتقى، والارتقاء يعنى معرفة النقائص والعيوب ثم التخلى عنها أو عن بعضها. ولا توجد أداة يستطيع الإنسانُ بها ممارسةَ كل ذلك (التقدم عن طريقِ الارتقاءِ عن طريقِ معرفةِ النقائصِ والعيوبِ والتخلى عنها أو عن بعضها) إلاَّ بالنقدِ.

وإذا كان لى أن أُضيف لعبارةِ "كانط" العظيمة شيئاً، فإننى أقول إن النقدَ سواءً اتخذ شكلَ نقدِ الإنسانِ لذاته أو لذويه أو لمجتمعه أو لأمته هو دليلٌ قاطعٌ على عمقِ وشائجِ الصلةِ والإخلاصِ والمحبةِ بين الناقدِ وما يَنْقُدَه.

وفى هذا الكتابِ الصغير أمارس ضرباً من النقد الذاتى لطرائق وأساليب تفكيرنا المعاصرة.فرغم أننا شعبٌ يمكن أن يكون ذا شأن كبير على سطح الكرة الأرضية، إلاَّ أننا - وبفعل عوامل تاريخية وسياسية واجتماعية وحضارية وثقافية مختلفة - أصبحنا نعانى من مفاهيمٍ عديدةٍ خاطئة. وكل هذه المفاهيم يصح أن توْصف بأنها "مفاهيم ثقافية خاطئة". وأعنى، أن ضحالةَ الثقافةِ وفقَرها فى واقعنا هما اللذان أديا بنا - أو بأعدادٍ كبيرة منا - للتشبعِ بهذه الأفكارِ والمفاهيمِ (الثقافية) الخاطئةِ، ورغم أننى قلت إن النقْد الذاتى الذى يحتويه هذا الكتاب إنما هو موجه لأساليبِ تفكيرنا المُعاصرة فى مِصرَ إلاَّ أن ذلك ينطبق على أساليب التفكير العربى المعاصرة بشكلٍ شبه كاملٍ، نظراً لإشتراك مِصرَ والعالمِ العربى فى جوٍ ثقافىٍ قد لا يكون متماثلاً تماماً، إلاّ أنه بالقطع شديدُ التشابه والاتسام بملامحٍ ومعالمٍ وحقائقٍ متقاربة. ومن هنا، فقد عنونت الكتاب "نقد العقل العربى" وليس "نقد العقل المصرى".

وأنا لا أزعم أننى أحطت بكل المفاهيمِ الثقافية أو أنماط

التفكير الخاطئة التى شاعت وذاعت فى واقعِنا المصرى (والعربى) المعاصر، وإنما أزعم أننى انتقيت بعضاً منها وسلطت عليه الضوء.

ومن الضرورى أن أذكر هُنا أننى ما شرعت فى كتابةِ فصول هذا الكتاب الصغير إلاَّ وأنا موقن أنه سَيُثير الكثيرَ من ردودِ الفعلِ العاطفية، وهو دليل قاطع على صحةِ الكثيرِ مما يضمه هذا الكتابُ من نقدٍ.

ولكنى كنت - ولا أزال - على ثقةٍ، أن روحَ الإخلاص العميقة القابعة في وجدان كلِ عبارة من عبارات هذا الكتاب تنضحُ بأن دافعَ وروحَ وغايةَ هذا العملِ هو الأمل العميق فى مستقبل (لهذا الوطن) أكثر إشراقاً وازدهاراً من حاضرِها.

طارق حجِّى.

مارينا فى ١٢ يوليو ١٩٩٨.

الفصل الأول

"تقلص السماحة
فى تفكيرنا المعاصر"

"لكم دينكم ولى دين".

{قرآن كريم..}

الإنسانُ - بطبيعتهِ - قابل لأن يكون ضَيق الصدر ورافضاً (وفى أحيانٍ غير قليلة: "معاديا") لمن يَختلفون عنه اختلافات كبيرة. ومن صور الاختلاف التباين في الدينِ والعرقِ والمعتقداتِ والعاداتِ والمقدساتِ والاختلافات الحضارية والثقافية بشتى صورِها. وعبر التاريخ، كانت هذه الاختلافاتُ (مع اختلاف المصالح) بمثابةِ الوقود الذى أشعل - مراراً - الحروب والصراعات العديدة التى حشد بها تاريخُ الإنسانِ على الأرضِ.

ومن المؤكد، أن تاريخ الإنسانية قد شَهد تحَولات إيجابية

فى نموِ ظاهرة قبول الإنسان لكونِ هذهِ الاختلافات من الأمورِ الطبيعيةِ والملازمة لحياةِ البشر على الأرض. بمعنى أن الإنسان أصبح عبر القرون أقل رفضاً وغضباً منْ تلك الاختلافات وأكثر قبولاً للتعايش معها. ومع تطور الحياة المدنية، نما شعور بأن لوم الآخرين لمجردِ كونهم مُختلفين، هو مَوقف غير إنسانى وقد يَبلغ حد أن يَكون هَمجياً.

ومما لا شَك فيه، أن الحضارة الإسلامية كانت أفضل من الحضاراتِ القديمة الأخرى فى اتسامِها بدرجةٍ تَسامح عالية مع "الآخرين". والدَليل القاطع الذى نشير إليه دائماً، هو الفارق بين "المسلمين" و"المسيحيين" خلال العصور الوسطى. فبينما عاش "المسيحيون" و"اليهود" حَياة طيبة فى ظلِ الدولةِ الإسلامية (من العباسيةِ حتى العثمانية) فإن المسلمين قد تَعرضوا فى أسبانيا -بعد خروج العرب- لاضطهاد وتَعذيب بربرى فظ. أما اليهود فقد عاشوا فى "حاراتِ اليهودِ" وكأنهم "أمراض خبيثة" يَخشى المجُتمع على نفسه مما بها من أوبئة فَتاكة.

ومن المُهم للغاية أن نُبرز أن الدولة العثمانية التى عاش يهود ومسيحيو فلسطين وسوريا ولبنان والعراق ومِصرَ تحت رايتها كان من الميسور لها عملياً أن تَفعل -على الأقل - مِثلما فعلُه المسيحيون بالمسلمين فى الأندلسِ عندما أفل نجم الدولة الإسلامية فى هذا القطرِ.

أما إذا عدنا للعصرِ الحديثِ، فإن التَسامح بمعنى قبول أن الآخرين مُختلفون فى أشياءٍ عديدةٍ منها الدين والعرق والعادات والمقدسات والتقاليد، كان ولا يزال ظاهرة ثقافية فى المقامِ الأولِ. فكلما تَشبع المجُتمع بالتعليمِ والثقافةِ، كلما كان أبناؤه أكثر تَسامحاً مع الآخرين وأكثر قبولاً لفكرةٍ أن الاختلاف بين الناس أمرٌ طبيعى ويجب أن نَعيش معه فى هدوءٍ وسكينةٍ.

ورغم يَقينى أن الحَضارة التى تُعرف الآن بالحضارةِ الغربيةِ إتسمت تاريخياً بالتعصبِ العرقى، إلاَّ أن الواقع يُحتم علينا أن نَعترف أن الازدهار الثقافى فى العالمِ الغربىِ قد حوّل أبناء هذه المجتمعات لدرجةٍ أفضل من

التَسامح. ويكفى أن نُلاحظ التَحول الكبير الذى تم خلال نصف القرن الأخير فى الموقف الأوروبى من القضية الفلسطينية. فإسرائيل لم تَعُد تجد اليوم فى أوروبا من التفهمِ والتأييدِ والمساندةِ ما كانت تجَده عندما تَكونت (فى سنةِ ١٩٤٨) لأن الثقافة والوعى جَعلا مُعظم الأوروبيين يرون شرعية الحق الفلسطينى ويرون إسرائيل وهى تكيل فى العديد من الأمور بمكيالين، ولولا الوعى والثقافة لظلت الشعوب الأوروبية سادرة فى غيها الذى كانت عليه منذ قرابة نصف القرن. ولكن هذا القول لا يَنطبق على الولايات المتحدة لاعتبارات لا تخفى عن أحد وأهمها أن مُستوى مَعرفة المواطن الأمريكى بالعالمِ الخارجى هو مُستوى ضَحل بشكلٍ لا يكاد عقل الإنسان أن يَتَصَوره – ناهيك عن كونِ الإنسانِ الأمريكى بَعيداً للغايةِ عن أن يوصف بأنه إنسان مُثقف.

ولكننا عندما نَعود لمنطقتنا من العالمِ، فإننا لا نمَلك إلاّ أن نَعترف بحقيقةٍ بالغة الخطورة، وهى أن درجة تَسامحنا قد أخذت فى التقلصِ والضمورِ خلال العقود الأخيرة بشكلٍ

مُذهل. فمنذُ قرابة نصف القرن، كان المُناخ الثقافى العام لدينا مَشحوناً بعددٍ من القيمِ الإنسانية المُستقرة فى وجداننا بوجه عام وفى وجدان الطبقة التى تمثل قيادة المجتمع فكرياً وثقافياً بوجه خاص، وكان من هذه القيم أن الإختلاف سنةٌ من سُننِ الحياة ومعلم من معالمِ التَواجد الإنسانى على الأرض. وكان هذا الجو الثقافى يَجعلنا أبعد ما نكون عن "الصيغةِ الفكريةِ" التى نمَت خلال السنوات الأخيرة والتى تُقَسم الناس إلى "نحن" و"هم" وفى نفسِ الوقتِ تجعل "نحن" فى "رصيفِ الصوابِ" أما "هم" ففى "رصيفِ الخطأِ". وهى صيغة أقل ما يُقال عنها إنها تَتَسم بالسماتِ التالية:

* أنها صيغةٌ "غير إنسانية" و"عدوانية" وتُشكل حالة تَضاد فكرى وثقافى كاملة مع حقائق العصر العلمية والثقافية.

* أنها صيغةٌ "غير سلمية"، بمعنى أن مسايرتها حياتياً أمرٌ لا يؤدى لاشتراكنا فى حياةٍ سلمية على الأرض مع الآخرين، إذ أنها صيغة تَقود إلى "المواجهةِ" و"التضادِ" و"الصدامِ" مع الآخرين.

* أنها صيغةٌ تُخالف روح السلام والإنسانية العميقة الواردة فى أصولِنا الحضاريةِ الدينيةِ الإسلاميةِ والمسيحيةِ على السواءِ.

كنا إذن - منذ قرابة خمسين سنة - نعيش فى ظلِ مناخٍ ثقافىٍ يَسمح لمبدأ التسامح أن يَحكم روحنا العامة. إلاَّ أن واقعنا قد شهد - فى سنواتٍ لاحقة - أشكالاً من الفشل، جعلت هذا المُناخ الثقافى العام يتزلزل. ففى صباحِ الخامس من يونيه ١٩٦٧ تجَسد الفشل الكامل لتيار سياسى بُرمته. وخلال السنوات التالية، ظهرت معالم الفشل العام فى إدارة حياتنا الاقتصادية. وتبع ذلك، تَشققات كُبرى فى واقعنا الإجتماعى. ولما تجَسَدت تلك الأشكال المُختلفة للفشلِ، صار من حق البعض أن يَظُن أنه صاحب "طرح" أفضل. وعندما سَمحت الظروف العامة لأصحاب هذا الطرح بأن يروجوا لطرحِهم الفكرى (المُجافى تماماً لروحِ العصر والتمدن والعلم) ظهر بوضوح أن هذا الطرح لا يحمل ذرة من التسامح الفكرى، بل أنه التَجسيد الأوضح أمام عيوننا لصيغة "نحن" و"هم" بكل ما تَعنيه من مُغالاة وتَشدد.

ومن المهم للغاية أن نبدأ عملية التصحيح الثقافى لهذا العيب الخطير والذى أصبح يشوب تفكيرنا المعاصر بالوقوف على حقيقة وكنه المشكلة: فنحن -اليوم- أقل تسامحاً وأكثر تعصباً لمعتقداتنا عن الحد الذى كان يجب أن يكون أقصى مدى نصل إليه فى هذا الصدد. ويجب أن نُدرك أن عدم تَعاملنا - بموضوعية وعلمية - مع هذا العيب من عيوب تفكير معظمنا سوف يؤدى لاتساع الهوة بيننا وبين العالم (لاسيما العالم السائر على طريق التقدم).

كذلك يجب أن نَرى العلاقة الوثيقة بين هذا العيب من تفكيرنا (تَقلص التَسامح) وبين عيب آخر شاع وذاع فى طرائقِ تفكيرنا وهو الإيمان الغريب بنظريةِ المؤامرة. فاجتماع العيبين سيؤدى بنا لعزلةٍ هائلة عن العالمِ الخارجى وبالذات الأجزاء ذات القيمة والأهمية الاقتصادية والثقافية والاستراتيچية من هذا العالم الخارجى.

ورغم أننا أصحاب حق تاريخى لا يدحض فى عددٍ من المعضلاتِ السياسية الكُبرى فى واقعِنا، إلاَّ أن اتسام تَفكير

معظمنا بهذين العيبين (الإيمان المُطلق بنظريةِ المؤامرةِ وتَقَلص التَسامح) جعل خطوط التفاهم والحوار بيننا وبين القوى المؤثرة فى العالمِ الخارجى إما مقطوعة أو شبه مَقطوعة. كذلك فإن اجتماع العيبين أعطى أعداءنا التاريخيين (فى قضايا ليسوا هم أصحاب الحق الأقوى فيها) مكانة أفضل فى عينِ القوى المؤثرة فى العالمِ الخارجى.

ومن المُؤكد أن تَقَلص التَسامح هو عيب لا يَشوب تَفكيرنا -فقط- فى تعاملاتنا مع الغير أى مع العالم الخارجى، بل أنه عيب يؤثر فى مواقفِنا الداخلية، بمعنى أننا فى حواراتِنا الداخلية أصبحنا محكومين بهذا العيب الكبير بشكلٍ مهول بل أن الآراء المُختلفة داخل كل جبهة أصبحت تتناحر بروحٍ لا تُعبر عن شىء مثل تعبيرها عنْ تَقَلصِ التَسامح.

ومما لا شك فيه أن "مؤسسات التعليم" ثم "وسائل الإعلام" ثم "سائر الجهات الثقافية" هى المنابر ذات القدرة على التعامل العلمى والموضوعى مع هذا العيب الفتاك من عيوبِ تفكير السواد الأعظم فى واقعِنا. وللأسف الشديد أن إحراز

نجاح وتقدم كبيرين فى هذا المجال هو أمرٌ بالغ الصعوبة، إذ أن آثار وثمار برنامج إصلاحى فعّال فى هذا المجال (من خلال المنابر المذكورة) لا يمكن أن تُلمس قبل بضع سنين، فكل الإصلاحات التى تَتم منْ خلالِ مؤسسات التعليم والإعلام والثقافة هى من قبيل الاستثمار طويل الأجل، وإن كان استثماراً مضمون النتيجة ومُجدياً وفعالاً على المدى البعيد، ولا يتوفر أى بديل يُغنينا عنه.

الفصل الثانى

"المغالاة فى مدح الذات".

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله
وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم.
....
....
ومن البلية عذل من لا يرعـــوى
عن جهله وخطاب من لا يفهـــم.
"المتنبـــــى.."

يتطرقُ هذا الفصل لعيبٍ آخر من عيوب العقل العربى والتى شاعت فى مناهجِ تفكير معظمنا، وهو (مغالاتنا فى مدحِ الذاتِ) وما يتصل به من قيمٍ اجتماعيةٍ شاعت وذاعت فى واقعِنا. فنظرةٌ متأنية لما يذاع فى الناس من مواد إعلامية مكتوبة أو مقروءة تظهر بوضوحٍ أن وسائلَ إعلامِنا المختلفة (المرئية والمسموعة والمقروءة) أصبحت لا

تخلو -بصفةٍ يومية- من مدحِ الذاتِ وإطراءِ إنجازاتنا ومزايانا. وعلى المستوى الفردى، فإننا نمارس نفس الشئ بصفةٍ شبه دائمة. وإذا قارنا وسائل إعلامنا الحالية بصحفنا ومجلاتنا منذ نصفِ قرنٍ لاكتشفنا أن هذه الصفةَ لم تكن متفشيةً فى الماضى كما هى متفشية اليوم. كذلك إذا قارنا هذه الصفة الشائعة عندنا بالأوضاع المماثلة عالمياً، ولا سيما فى الدولِ المتقدمة؛ وجدنا أنفسنا -أيضاً- منفردين بهذا "الكم الهائل" من مدحِ الذاتِ بصفةٍ دائمةٍ.

وقد قمت شخصياً بمراجعةِ مئات الصحف والمجلات المصرية التى صدرت طيلة الأربعينيات؛ فاتضح لى بجلاءٍ تامٍ أننا لم نكن نَعرف تلك الصفة منذ قرابة خمسين سنة ولكنها بدأت -على استحياء- منذ نحو ربع القرن ثم استفحلت واستشرت خلال السنوات العشرين الأخيرة، مع ملاحظة أن معدلَ ازديادِها فى سنى العقدِ الأخير كان الأكبر والأشد ظهوراً بشكلٍ تصعب عدم رؤيته.

واليوم، فلا تكاد جريدة أو مجلة تخلو من موضوعٍ أو

مواضيعٍ تتضمن إطراءَ الذاتِ والإشادة بتميّزنا وتفوقنا وإنجازاتنا. وكثيراً ما تكون عباراتُ إطراءِ الذات منسوبةً لمصدرٍ خارجي، وهو ما يؤكد اعتقادنا بأن المصدرَ الخارجي يُضفى "مزيداً من القيمةِ" على عباراتِ الإطراءِ المذكورة.

ورغم أن الكثيرَ مما يُنشر فى هذا المجال يبدو بوضوحٍ أنه يثيرُ من التعجبِ أضعافَ ما يُحدثه من مصداقيةٍ، إلا أن "الظاهرة" تبقى ماثلةً أمامنا وهى أننا نفعل (فى هذا المجال) ما لا يفعله (الآخرون)...وأننا بحاجةٍ ماسةٍ لهذا الإطراءِ للذات، لأنه يُعالج عندنا (شيئاً ما).

فما معنى أن صحفَنا لا تكاد تخلو -كل يوم- من صيغةٍ تماثل أو تقترب من واحدةٍ من هذه الصيّغ:

* المجتمعُ الدولى يشيدُ بتجربةِ الإصلاحِ الاقتصادى فى مصرَ.
* البنك الدولى يبرز إنجازاتِ التجربةِ المصريةِ فى التنميةِ الاقتصادية.

* جامعة (......) تقول: الاقتصاد المصرى قوى ويقف على أرضية قوية.
* مركز (......) للدراسات الاقتصادية يقول: الاقتصاد المصرى لا يمكن أن يتعرض لهزة مثل هزة النمور الآسيوية.
* اليونيسكو يقرر تكرار تجربة مصرَ فى .... على مستوى العالم.

ما معنى ذلك؟ ... ولماذا لا نقرأ مثل هذه "الصيغ" فى أية صحيفة من صحف فرنسا وألمانيا وإنجلترا واليابان والولايات المتحدة؟

وما معنى التكرار شبه اليومى؟

المعنى الحقيقى بالغ السلبية، وهو أننا (رغم معرفتنا بأننا لا نزال فى معظم المجالاتِ على أولِ الطريق) نحتاج لخلقِ عالمٍ خاصٍ من اختراعنا "نرتاحُ فيه". وهذا النمط من السلوك هو (العكس) و (النقيض) و(الضد) لسلوكٍ آخرٍ

إيجابىً وبناءٍ وينبئ بأننا سنخرج حتماً من أتون مشاكلنا العديدة العويصة. النمطُ الإيجابى والبناء من السلوك يحتمُ علينا أن نعترف لأنفسنا (وبوضوحٍ تامٍ) بأن واقعنا عامرٌ بالمشاكلِ الاقتصاديةِ والاجتماعيةِ، وأننا (للأسف الشديد) دولةٌ من دول العالم الثالث (وما كان ينبغى لنا أن نكون) وأن أوضاعَنا ترجعُ كلُها للطريقةِ التى أديرت بها حياتنا العامة خلال أكثر من قرنٍ من الزمان (منذ وفاة محمد على فى سنة ١٨٤٩ وحتى الآن).

إن التخلى عن تلك الصيغ والتى نعلم جميعاً أنها خاويةٌ من الجوهرِ والمعنى والتزود بشجاعةِ الاعترافِ بالواقعِ، هو نقطة البداية الفعلية لتقدمٍ حقيقىٍّ على كافةِ المستوياتِ.

ومن المؤكد أن إنجازَ هذه المهمةِ (مهمة إيقاف طوفان مدح الذات وشحذ الهمم لتكون قادرة على فعل النقيض) لا يمكن أن يتم (على المستوى البعيد) إلا عن طريق غرز قيم إيجابية مختلفة عن طريق برامج التعليم، أما على المدى القصير فإن إنجاز هذه المهمة يبقىَ "مستحيلاً" ما لم تبدأ هذه العملية من

رأس الهرم لا من سفحه. كذلك فإن للاتجاه الذى أدعو إليه تداعيات لا يمكن تجنبها: فعندما نعترف بسوءِ الأحوالِ .... فإننا نكون على حافةِ السؤالِ الخطير: ولماذا وصلنا لذلك؟ ... ولا جواب إلاَّ لأن بعض القيادات التى تولت أمورنا العامة فى منتصف القرن الماضى لم تحسن الأداء. وأن علينا فى نفسِ الوقتِ أن ندرك أن "حسن الأداء" لا يحدث الآن فى عالمنا عن طريق تبنى أيدولوجيات معينة، ولكنه يحدث كنتيجةِ توفرِ "كادرٍ تنفيذى" على رأس المجتمع يقتفى أثرَ التجاربِ الناجحة منشغلاً بهذه المهمة "البرجماتية" عن أيةِ إضاعة للوقتِ فى جدلٍ أيدولوچى عقيم لا يزيدنا إلاَّ إمعاناً فى التأخرِ.

وأعتقد أن "المغالاةَ فى مدحِ الذات" ترتبطُ ارتباطاً وثيقاً بمجموعةٍ أخرى من "القيم السلبية" التى شاعت فى حياتنا لأسبابٍ عديدة (قد يكون يوم ٥ يونيه ١٩٦٧ من أقواها تأثيراً). وأهم هذه القيم هى:

* انفصال (الأقوال) عن (الأفعال) وتحولنا (بدرجة ما)إلى "واقع خطابى" أكثر من أن نكون "واقعاً عملياً". وهى

ظاهرة تعم المنطقة التى ننتمى إليها بشكلٍ بالغ الظهور والقوة. وترجع هذه الظاهرةُ لتواريخٍ بعيدةٍ وعواملٍ ثقافيةٍ ضاربة فى عمقِ هذه التواريخ. فنحن -بلا شك- من أكثر شعوب العالم تغنياً (بالألفاظ) بتاريخنا وأمجادنا الماضية وميزاتنا عن الآخرين. وإذا قارنا مجتمعاتنا (من هذه الزاوية) بمجتمع كالمجتمع اليابانى وجدنا اليابانيين على أعلى درجاتِ الفخرِ بوطنهم دون أن يتخذ هذا الفخرُ شكلَ "كبريات الألفاظ" و "القصائد" و "الأغانى" و "الشعارات".

* ارتكاز الأحكام العامة عند كثيرين على منطق (الحب) أو (الكراهية) وهو ما يقود إلى شيوع الشخصانية (Subjectivity) عوضاً عن "الموضوعية" (Objectivity) ثم يؤدى -أخيراً- إلى انطلاق الأحكام والآراء والمعتقدات من زوايا شخصيةٍ بحتةٍ.

ولاشك أن هاتين النقطتين الأخيرتين بحاجة ماسة لمزيد من الإيضاح وهو ما سيعنى به الفصل القادم من فصول هذا الكتاب.

الفصل الثالث

"ثقافة الكلام الكبير".

مقتلُنا يكمن فى لساننا-
فكم دفعنا غالياً ضريبةَ الكلامْ.
"نزار قباني..."

إذا خسرنا الحربَ - لا غرابةْ.
لأننا ندخلها بكلِ ما يملكه الشرقىُ من -مواهب الخطابةْ.
بالعنتريات التى ما قتلت ذبابةْ.
لأننا ندخلها بمنطق الطبلةِ والربابةْ.
"نزار قباني..."

فى الستينيات كنا نتحدث عن قوتنا واصفين إياها بأكبر قوة فى الشرق الأوسط... ثم جاء صباح الخامس من يونيه ١٩٦٧ ليفتح عيوننا على حقيقة أن ذلك لم يكن إلا مجرد "كلام كبير". وخلال نفس السنوات كنا نتكلم عن عدونا التاريخى بصفته "عصابات يهودية"... ثم جاءت الأحداث لتثبت أن هذا العدو كان شيئاً أخطر بكثير من

"مجرد عصابات"... كان كلامُنا مرة أخرى مجرد "كلام كبير". وعندما وصفنا رئيس وزراء بريطانيا بأنه (خرع) وهو لفظ عامى مصرى يعنى أنه ليس رجلاً بالمعنى الكامل... وعندما اقترحنا على الولايات المتحدة الأمريكية أن تشرب من البحرين (الأحمر والأبيض)... وعندما تحدثنا عن الصاروخ القاهر وشقيقه الظافر... لم يكن ذلك فى الحقيقة إلا مجرد "كلام كبير". وعندما نستمع الآن للأغانى الوطنية التى أُنتجت فى الستينيات (ورغم إعترافنا بجودة العمل الفنى وروعة الحلم الوطنى والقومى) فإننا نجد عشرات الأمثلة على كلام لم يكن إلا مجرد "كلام كبير". وعندما نترك الستينات ونمر على السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات نجد أن "داء الكلام الكبير" ظل ملازماً لنا بشكل لا يخفى على أحد؛ بل أنه وصل الآن إلى معظم مناطق حياتنا العامة، وأصبح الذين يتكلمون بلغةٍ غير لغته "ثلة من أشباه الغرباء" الذين يعزفون لحناً غريباً يصدمُ الآذان.

فنحن عندما نتحدث عن تاريخنا، لا نستعمل لغة العلم والموضوعية وإنما نغرق فى زخم من الكلام الكبير. وعندما

نتحدث عن واقعنا المعاصر، نحشر مرة أخرى "قوافل الكلام الكبير". وحتى عندما نفوز فى مباراة لكرة القدم، ينهمر "الكلام الكبير"؛ فرغم معرفتنا بأن مستوانا فى هذه اللعبة الرياضية يقع ما بين "المتوسط" و "المتواضع" (على المستوى العالمى) فإننا لا نتردد ولا نتأخر عن استعمال أوصاف مثل (الفراعنة يهزمون....).. ونكون هنا متسقين مع "تيار الكلام الكبير" الذى عم واستفحل فى تفكيرنا خلال نصف القرن الأخير.

وإذا تأملنا الصفحات الأولى بصحفنا ومجلاتنا وجدنا "جيوشاً عارمة من الكلام الكبير"..فكل لقاء هو "لقاء قمة"....وكل قرار هو "قرار تاريخى"..

ومن الواجب أن نقول إننا لا نفتعل ذلك افتعالاً، لأنه أصبح جزءاً من نسيج تفكيرنا، بمعنى أننا نكتب ونتكلم بهذه الكيفية (كيفية الكلام الكبير) لا من (باب التملق) وليس من باب (النفاق) ولا من باب (الكذب المقصود) وإنما نكتب ونتكلم هكذا من باب الاتساق مع "عيب كبير" استقر

فى ثقافتنا وعقولنا وأضبح من الطبيعى والمنطقى أن يجد طريقه لخارج رؤوسنا عن طريق ألسنتنا.

ورغم أن البعض (وربما القلة) يلاحظون هذا العيب الخطير من عيوب التفكير، إلا أن معظمهم عندما يتصدرون للحديث يقعون فى المحظور وينساقون مع تيار "الكلام الكبير"، وهو ما يثبت أن هذه السمة قد أضحت متفشية إلى أبعد الحدود وأن "الهواء الثقافى" لنا أصبح متشبعاً بهذه الخصلة إلى أبعد حدود التشبع.

ولعل ضرب الأمثلة يكون أيضاً مفيداً هنا: بعد حادثة الأقصر المفجعة فى خريف عام (١٩٩٧) أذاع التلفزيون المصرى تغطية لماراثون الجرى (العدو) حول أهرام الجيزة، وقامت الكاميرا بمقابلة نحو عشر أشخاص مختلفين.. كرروا نفس الكلام وبنفس الصيغ وقال كل منهم (وكأنه يكرر حديثاً محفوظاً): "أن مصر هى بلد الأمن والأمان.. وأن العالم كله يعرف ذلك... وأن الإرهاب لا يقع على أرض مصر فقط وإنما فى كل مكان بالعالم... وأن الدنيا كلها تتطلع

لزيارة آثارنا التى لا مثيل لها فى العالم".

وكان مصدر دهشتى تصورى أن تطابق الكلام بهذه الكيفية يكاد يكون مستحيلاً بين عشرة أشخاص مختلفين... ولكنها سطوة "الجو الثقافى العام" المشبع إلى أقصى حد بخصلة "الكلام الكبير".

وقد كانت السنوات العشرين التى قضيتها فى واحدة من أكبر المؤسسات الصناعية العالمية فرصة هائلة لكى أكتشف أننا فى هذا المضمار أصبحنا (وأكرر: أصبحنا) مختلفين عن معظم شعوب العالم بشرقه وغربه.

فأبناء الحضارة الغربية (بما فى ذلك أمريكا الشمالية) تواصل نموهم الثقافى فى اتجاه مختلف يقوم على اعتبار "الكلام الكبير" انعكساً مؤكداً لعدم المعرفة. فالمعرفة الإنسانية معقدة ومركبة ولا تسمح بالفرق فى "الكلام الكبير"، بل تأخذنا إلى لغة متوسطة تحاول -قدر الطاقة- أن تعكس حقائق العلم والثقافة.

أما أبناء الحضارة أو الحضارات الأسيوية (مثل اليابان وغيرها) فإن التحفظ كان ولا يزال من سمات هذه الحضارة بشكل واضح، وهو ما يمنع أيضاً استفحال ظاهرة الكلام الكبير.

أما شعوب العالم العربى، فإنها تشترك معنا -بدرجة أو بأخرى- لكون الثقافة العربية قد اتسمت فى مراحل عديدة بسمة "الكلام الكبير". فالشعر العربى عامر بقصائد المدح والهجاء التى تطفح بالكلام الكبير الذى لا يعكس بالضرورة حقائق الواقع والأشياء. بل أن ثقافتنا اعترفت بأن معظم هذا "الكلام الكبير" مجرد "كلام" ولا أساس له من الواقع، عندما نحتتنا المقولة المشهورة (أعذب الشعر: أكذبه).

وكان النص القرآنى (كالعادة) رائعاً فى وصفه الشعراء (فى هذه البيئة) عندما وصفهم بأنهم فى كل واد يهيمون (وأنهم يقولون ما لا يفعلون).

وكاتب هذه السطور يرى أن من أوجب واجبات من يهمه تصويب مسار العقل المصرى أن يقوم بإيقاظ هذا العقل

وينهره بشدة أمام ظاهرة اتسامه بعلة الكلام الكبير وحقيقة أنها ظاهرة منبتة الصلة بالواقع وحقائق الأشياء. وأن يُظهر الآثار الهدّامة لهذه الظاهرة التى جعلت البعض يصنفنا (بخبث وأغراض) بأننا حضارة كلامية أو حضارة حنجرية أو (مع التطور العلمى) حضارة ميكروفونية...

ومن المهم للغاية أن نفتح عيون أبناء وبنات هذا الوطن (من خلال برامج التعليم) على حقيقة هذا العيب وما يجره علينا من عواقب وخيمة؛ إذ يجعلنا من جهة مثار تعجب العالم... ويجعلنا من جهة أخرى "سجناء عالم خرافى من صنعنا ولا أساس له فى الواقع".. كما أنه يجعلنا "سجناء الماضى" حيث نصف ماضينا بزخم من الكلام الكبير ثم نهاجر إليه. ولا شك أن "علة الكلام الكبير" تتصل بعلل فكرية أخرى مثل: عدم الموضوعية.. والهجرة للماضى... والمغالاة فى مدح الذات... وضيق الصدر بالنقد. بل أننى لا أبالغ إذ أقول أن "علة الكلام الكبير" تقيم جسوراً للتواصل بين هذه العلل الأخرى.

كذلك، فإنه من الضرورى أن نناقش الصلة بين هذه العلة الفكرية (علة الكلام الكبير) وضيق الهامش الديموقراطى. ففى ظل مناخ ثقافى عام يتسم بداء الكلام الكبير يكون من الصعب تطوير الهامش الديموقراطى كما يكون من السهل نجاح فرق سياسية تملك من "الخطاب الغوغائى" (الديماجوجى) أضعاف ما تملك من "الخطاب الموضوعى". فالذى يقول لنا أن مشروعه الفكرى هو "الحل" إنما يقدم لنا وجبة أخرى ساخنة من وجبات "الكلام الكبير"، فمعضلات الواقع الاقتصادية والاجتماعية أكثر تعقيداً من أن يكون علاجها بشعار عام يستمد جذوره من تربة الكلام الكبير كهذا الشعار.

وما أكثر ما رددت لنفسى وأنا أسمع جولات الحوار العام تتلاطم أمواجها بفعل "الكلام الكبير" ما أكثر ما رددت لنفسى أبياتاً من شعر نزار قبانى يقول فيها (بعبقرية):

- لقد لبسنا قشرة الحضارة
والروح جاهليةْ.

الفصل الرابع

هامش "الموضوعية" المتآكل.

خلال أقل قليلاً من عشر سنوات توليت الموقع التنفيذى الأول فى واحدةٍ من أكبر الشركات العالمية. ورغم أن التنظيم كان جزءاً من المؤسسة التى هى دولية ومتعددة الجنسيات بتاريخها وطبيعتها فقد كان وجود عمليات لهذه المؤسسة العملاقة فى مصرَ بمليارات الدولارات يُحتم وجود تعاملات واسعة مع "الواقع المحلى". وكنت خلال ذلك أرى تطبيقاتٍ يوميةً ساطعةً وواضحةً لإختلافِ الحضاراتِ والثقافاتِ. وكان أحد أبرز هذه الاختلافات هو ما درجت على تسميته بشخصانية التفكير المحلى. وأعنى بذلك أن تفكيرَ أعدادٍ كبيرةٍ منا تنطلق من "زوايا شخصية" وتستمر فى ذلك فى عملية الأحكام التى تطلقها والآراء التى تعتقدها ووجهات النظر فى الأشياء والأشخاص التى تطرحها.

وربما يكون من المجدى ضرب مثال واضحٍ – لحالات عديدة مُتكررة، فهذا المثال يشخّص الظاهرة التى أود أن أجسدها أمام عين القارئ:

* خلال تلك السنوات الطويلة أجريت آلاف المقابلات مما يُعرف فى مجالِ الأعمال بالـInterviews أى المقابلات التى يكون الغرضُ منها الحكمَ على شخصٍ بهدفِ الوقوفِ على إمكاناته وقدراته ومواهبه (إن وجدت). وفى ألف (مرة أخرى: ألف) مقابلة مع مصريين حاصلين على درجات علمية عالية فى مجالات مُتعددة بعضها يقع تحت مُسمى العلوم التطبيقية والبعض يقع تحت مُسمى العلوم الاجتماعية والآخر يقع تحت مُسمى الدراسات الإنسانية.

وإلى جانب الهدفِ الأساسى من تلك المقابلات وهو الحكم على "قدرات" الشخص الذى تجرى معه المقابلة كنت معنياً بجوانب أخرى يمكن أن توصف بأنها "ملاحظات حضارية وثقافية" وكنت أدون هذه الملاحظات بإستفاضة لأهمية معظمها. ومن بين هذه الملاحظات أننى فى ألف (١٠٠٠) مقابلة من هذا النوع كنت أطرح أسماء لشخصيات عامة لأسمع وأسجل وأقيّم تعليقات من تجرى معه المقابلة عنها. وقد انتهيت لملاحظة يصعب دحضها، فقد انقسمت تلك

التعليقات إلى نوعين أو طائفتين:

الطائفة الأولى: يمكن أن تُسمى بالتعليقاتِ الشخصية وهى انطباعات كان الأشخاصُ يعبرون عنها بكلمات مثل (طيب).. (متواضع).. (لطيف)... (على خلقٍ رفيع)...(متدين)... (معروف بالسلوك المستقيم).... (مجامل)... (ودود) .... إلى آخر هذه النوعية من الانطباعات. وأحياناً كان التعليقاتُ تأتى أيضاً "شخصية" وإن كانت التعبيرات (والمعانى) على نقيض تلك الكلمات، كأن يُقال (شرير)..(مغرور)... (غير لطيف)... إلى آخر نفس السلسلة من المعانى وإن كانت فى الاتجاهِ المعاكس.

أما الطائفة الثانية: فيمكن أن تُسمى "آراء موضوعية" حيث كان الشخص الذى تجرى معه المقابلة يعبر عن آرائه بكلمات مثل (كفء)... (مثقف).. (يتقن عمله بشكل ملحوظ).. (منتج بشكل كبير).... (له قدرة بارزة على القيادة)... (صاحب قدرة كبيرة على

التحليل)... إلى آخر هذه النوعية من الانطباعات. وأحياناً أيضاً كانت هذه الطائفة الثانية من الآراء تأتى فى صورةٍ ما يخالف أو يمثل عكس هذه الآراء كان يقال (غير كفء)... (محدود الدراية)... (لا يتقن ما يعمله).. (متواضع الإنتاجية)... (لا يملك القدرة على قيادة الآخرين)... إلى آخر هذه السلسلة الثانية من المعانى.

وكانت "الملاحظة الصدمة" أن عددً الذين كانت تعليقاتهم تندرج ضمن الطائفة الأولى كانوا أكثر من ٩٠٪ من عدد من أجريت معهم هذه المقابلات والذين سجلت نتائج المقابلات معهم (١٠٠ مقابلة). ونظراً لأن الأسماء التى كانت تطرح للحوار بشأنها أسماء لشخصياتٍ عامةٍ لا تربطهم صلات خاصة بمن كانت المقابلات تجرى معهم، فإن المعنى الواضح والكبير كان أننا لا نفرق بين دائرة الأهل والأقارب والأصدقاء أى الدائرة الصغيرة الشخصية، ودائرة الحياة العامة. وأننا نستعمل أدوات الحكم على العلاقات الخاصة فى دائرة الحياة العامة. وكان ما يزيد الطينة بلة، أن كون الأشخاص الذين كانت تجرى معهم المقابلات لا يعرفون

-بصفة شخصية- أصحاب الأسماء التى كانت تُطرح من الشخصيات العامة، كان يعنى أن حتى هذه المجموعة من (الانطباعات الشخصية) ليست وليدة (تجربة ذاتية) وإنما هى ما يتكرر قوله وسماعه فى المجتمع. وهى ملاحظة أخرى جديرة بالاهتمام، وإن كانت لا تعنينا هنا كما تعنينا الملاحظة الأساسية وهى اختلاط الخاص بالعام وقيام الأحكام على اعتباراتٍ شخصية وغير عامةٍ وغير موضوعيةٍ.

وأغلب الظن أن هذا الغيب الكبير الشائع فى تفكير العديدين منا إنما يرجع لخصلة أخرى متفشية فى واقعنا قوامها أن نقطةَ البدايةِ فى حكمٍ إنسانٍ على آخر هى نقطةٌ ذاتيةٌ أو شخصيةٌ بمعنى أن البدايةَ تتمثل فى حبٍ (بسبب عوامل شخصية صرف) أو كرهٍ (أيضاً بسبب عوامل شخصية بحتة).

ونظراً لاننى كنت خلال تلك السنوات وإبان إجراء هذه التجارب معنياً بالوقوف على أكثر ما يمكننى معرفته من جوانبها، فقد أجريت نفس التجربة على ٣٠٠ أجنبى (من

جنسيات أوروبية غربية) من طوائف مماثلة (وأعنى من حيث التعليم العالى) وكانت النتيجة معاكسة تماماً؛ فأكثر من ٩٠٪ ممن أجريت معهم المقابلات لم يستعملوا إلاّ تعبيرات موضوعية تتعلق بالعمل والكفاءة والقدرات والمواهب، وأن أقل من ١٠٪ استعملوا تعبيراتٍ شخصيةٍ.

ولا شك أننا لو اتفقنا على وجودِ واستفحالِ انتشارِ هذا العيب بين أعدادٍ كبيرةٍ منا (متعلمين وغير متعلمين) فإن المنطق يُحتمُ أن نرى الأثرَ الهدّام لهذا العيب على مسائل عديدةٍ لعل من أهمها ما يلى:

* الاختيارات للوظائف.
* الترقية.
* المكافآت.
* الترشيحات للمناصب القيادية والعليا فى كل الدوائر.
* الانتخابات بشتى أنواعها ومجالاتها.
* الأحكام على الشخصيات العامة ومتولى الوظائف العليا والقيادية ورموز المجتمع.
* الكتابات الصحفية التى تتناول الشخصيات العامة.

* الكتابات النقدية فى سائر مجالات الإبداع.
* أعمال الأجهزة الثقافية والإعلامية والفنية.

ولعل تصاعد هذه الظاهرة واستفحال استشرائها ووصول جذورها وفروعها لنقاطٍ بعيدة ... لعل ذلك يكون هو التفسير المنطقى لبعض الظواهر التى يجمع معظمُنا على ذيوعِها وشيوعِها فى واقعِنا اليوم مثل:

* المناخ بالغ التوتر الذى تجرى فيه معظم الانتخابات فى معظم المجالات، وما يعقب ذلك من تراشق بالتهم.

* حملات الهجوم الشخصية الفاضحة على العديدِ من الشخصياتِ العامةِ.

* ندرة الاتفاق على عددٍ كبيرٍ من رموز المجتمع. فالاختلاف حول معظم هذه الرموز على أشده ويقع بعضه تحت مسمى "الافتتان الشامل" بينما يقع البعض الآخر تحت مسمى "الاستهجان الكامل".

* شيوع الاعتقاد بأن العلاقاتِ بين الناسِ أصبحت مهترئةً ولا تقارن بما كانت عليه في الماضي، وذلك أمرٌ طبيعيٌ، لأن الأحكام أصبحت تنطلق من (زاوية الحب) أو (زاوية الكره) وليس من زاوية (الرضى الموضوعي) أو (الرفض الموضوعي).

ومن المؤكد أن من حق البعض أن يُطالع كل هذا التشخيص للداءِ ثم يتساءل: وما العمل؟

والجواب، أن معالجة هذا العيب الكبير من عيوبِ التفكيرِ الشائعة في واقعِنا اليوم لا يمكن أن تتم بدون وسيلتين؛ أحدهما ذات "بعض الأثر" ولكنه "أثر على المدى القصير والمتوسط" والثانية ذات أثر شبه مطلق، ولكنه من قبيل الاستثمار طويل الأجل أي الذي لا تأتي ثماره إلاً بعد سنوات عديدة.

أما وسيلة الأمد القصير فهي ذات ثلاثة أبعاد:

* القدوة العليا في المجتمع.
* الأنشطة الثقافية.

* وسائل الإعلام.

فهذه الجهات الثلاثة قادرة على إحداث "بعض التغيير" على المدى القصير والمتوسط إذا وضحت الرؤيةُ وشحذت الهممُ ووظفت القدرات والإمكانات الكبيرة المتاحة لتسليطِ الضوءِ على هذا العيب الكبير من عيوب التفكير الشائعة لدينا اليوم. .

أما "العلاج الكامل الشامل" والذى هو "طويل المدى" بمعنى أن آثاره لا تظهر إلاّ بعد سنوات غير قليلة (وإن كانت أيضاً تبقى موجودة لسنوات عديدة) فهو "التعليم"، فمن المؤكد أن برامج دراسية تنطلق من رؤية واضحة للعيب وإسهاب فى تعريته أمام العيون وشرح كارثة آثاره على العديد من جوانب حياتنا لقادرة على استئصال شأفة هذا العيب وتفريخ أجيال أكثر موضوعية وأقل "شخصانية"..

ورغم أن ما سجلته عن الألف مقابلة من ملاحظات حافل بمئات من القصص والعبر، فإننى أود أن أختم هذا الفصل

بقصة واحدة منها ذات دلالة واضحة وضوح الشمس. ففى مقابلة من هذه المقابلات العديدة تطرق الحديث لاسم أحد الوزراء (وكان بكل الموضوعية من المشهود لهم بالكفاءة والقدرة العالية على التخطيط والتنفيذ) فكان تعليق الشخص الذى كانت تجرى معه المقابلة (أن هذا الوزير من أعظم الوزراء قاطبة فى بلدنا)... ودون ما حاجة لسؤال... أو استفسار استرسل المتحدث يقول (تصور أننى ذهبت لمقابلته، ورغم فارق المكانة فقد أصر على توصيلى للمصعد وانتظر حتى ذهبت)!

وهكذا لم تكن مبررات الحكم مستمدة من كفاءةٍ إداريةٍ أو عبقريةٍ فى التخطيط والتنفيذِ أو نتائجٍ مبهرةٍ لسنوات من العمل الشاق.... وإنما كان المبررُ بسيطاً للغاية: مجرد لمسة شخصية فى التعامل لا علاقة لها على الإطلاق بقدرات ومواهب وإمكانات وإنجازات من كان الحديثُ يدور حوله!

الفصل الخامس

الآخرون:
"معنا"...أم "ضدنا"؟

تجتمع عناصرُ وأبعادُ عددٍ من عيوب التفكير التى انتشرت فى واقعنا فيما يشبه المعادلة الكيميائية لتخرج لنا عيباً (أو عيوباً) إضافية جديدة. فمن اختلاط "تقلص السماحة" و"تآكل هامش الموضوعية" ينبثق عيبٌ آخر جديد هو عجز الكثيرين منا عن رؤية (من ليس معنا) إلاّ بصفته (ضدنا) أو (علينا). وقد ضاعف من عمق جذور هذا العيب، أن تاريخنا المملوكى الذى ترك أعمق الآثار فى تكوين شخصيتنا قد عرف هذا الأسلوب فى التفكير والحكم على الآخرين على أوسع نطاق. فطيلة القرون التى قبض فيها المماليكُ على زمامِ الأمور فى حياتنا، كان المجتمعُ يرى بوضوحٍ وكل يوم تطبيقاً عملياً على (أن من ليس معنا فهو ضدنا أو علينا) مع توابعِ هذه المقولة وآثارها المترجمة فى مواقفٍ كثيراً ما اتسمت بالعنفِ والقسوةِ والدمِ. وكما يقول أُستاذ جامعى مرموق، فإن علم الاجتماع التاريخى يؤكد أن آثار العهد المملوكى على التفكير المصرى لا تزال

قويةً وحيةً رغم انتهاء دولة المماليك فى مصر بمذبحة القلعة منذ أكثر من مائة وثمانين سنة، (وبالتحديد فى سنة ١٨١١).

وجوهر هذه المسألة، أننا ننشأ فى مناخٍ ثقافىٍّ عام يتسمُ -إلى حد بعيد- بالشخصانية أو الذاتية فى مواجهة الموضوعية، كما يتسم بضيقِ الصدرِ بالنقدِ وعدم الاحترام العميق لكون الآخرين مختلفين وهو ما يحتم أن يرى الكثيرون منا "الآخرين" من منظورِ السؤال النمطى: أهو معى؟.. أم ضدى؟ ويزيد من تأصيلِ حقيقةِ هذا البعد من أبعادِ تفكير الكثيرين منا أن أعداداً كبيرة منا "قرويون" جاءوا حديثاً إلى المدن وهم يحملون فى تكوينهم قانون تأسيسِ الانتماءِ على أرضيةِ الاشتراكِ فى الخلفيةِ المكانيةِ والعائليةِ. وهذه الضفيرة من الأبعاد (ذاتيون لا موضوعيون.... تقلص السماحة تجاه الآخر المختلف.... الضيق بالنقد) هى ما تجعل العملَ الجماعى أبعد ما يكون عن التوفر. فروحُ الفريق تنسفُ نسفاً عندما تضربها هذه الأبعادُ فى ذاتِ الوقت. وهذا الجانب هو أحد أهم أسباب

تأخرنا عن عددٍ من الشعوبِ الآسيوية فى اللحاقِ بركبِ التقدم الاقتصادى الحديث، فبينما كانت الحضارةُ الآسيوية (لا سيما فى اليابان والمجتمعات التى انتشرت فيها الأقلياتُ الصينية) عاملاً من أقوى عوامل دفع العمل الاقتصادى والصناعى إلى درجاتٍ مرتفعةٍ للغاية، لوجود هذا الاستعداد القوى للعملِ الجماعى، كنا نحن بعيدين إلى حدٍ بعيدٍ جداً عن توفر روح الفريق فى العملِ التى يصعب بدونها تصور أى إنجازٍ كبيرٍ فى العملِ والإنتاج.

وخلال سنوات عديدة شغلت فيها الموقعَ التنفيذى الأول فى مؤسسة اقتصادية عالمية كبرى كنت أرى -كل يوم تقريباً- كيف ينفرط عقدُ أى مجموعةٍ عمل منا بفعلِ غيابِ روحِ الفريقِ والعملِ الجماعى وغلبةِ تأسيسِ العلاقات على أرض (معنا أم ضدنا؟). وفى نفسِ الوقتِ كانت مجموعات العملِ التى ينتمى أفرادُها لخلفياتٍ أوروبيةٍ أو آسيويةٍ تنخرطُ فى العملِ الجماعى دون أية تشققاتٍ فى وحدة الفريق بسببِ العوامل الثقافية التى تلغى أسباب الفرقة وتغلب أسباب الوحدة. ومن الضرورى أن أُبرز أنه فى ظل

ظروف عامة معينة، وعندما تكون قيادة وحدات العمل فى يدِ من هو مشربُ للغاية بنفسِ الروح ("معنا" أم "علينا"؟) فإن قيمَ تفسخٍ روحِ الفريق تتعاظم وتضرب المناخ العام بسهامها من كل جانبٍ، تاركة إيانا أمام ما يشبه حالة استحالة لأن نعمل كفريقٍ واحدٍ متجانس ومتوائم.

الفصل السادس

نحـــن...وآراؤنـــا.

تناولتُ فى فصلٍ سابقٍ النظرةَ الشائعةَ للآخر إما بوصفه "معنا" أو "علينا". ولاشك عندى أن ذلك ليس سوى عيب ثقافى ذائع وليس سمةً مؤبدةً من سماتِ ثقافتنا، فكاتبُ هذه السطور لا يؤمن بوجودِ سماتٍ ثقافيةٍ أبديةٍ، وإنما هى مكتسبات أو نتائج أو ثمار طبيعية لعناصرٍ عدةٍ. ومن العيوبِ الثقافيةِ التى تشبه هذا العيب وإن كان عيباً ذا وجود مستقل اعتبارُ العديدين منّا أن آراءهم جزءٌ منهم ومن كيانِهم وبالتالى فإنها جزءٌ من كرامتهم وكبريائهم. وما أعنيه هنا أن أعداداً كبيرة للغايةِ منا ترى أن الإنسانَ وآراؤه يكونان "كلاً واحداً"، بمعنى أن شخصية الإنسان تشمل آرائه ووجهات نظره.

وقد أظهرت لى تجربةُ التعاملِ الطويلِ مع أبناءِ الحضارةِ الغربيةِ وكذلك مع أبناءِ الحضارتين الشرقيتين الكبيرتين اليابانية والصينية أن الإنسانَ فى مجتمعاتٍ

هذه الحضارات لا يعتبر أن آراءَه جزءٌ منه وبالتالى من كرامتِه وكبريائه بل كنت أرى -طيلة ما يقرب من عشرين سنة من التعاملِ الكثيفِ واللصيقِ مع أبناءِ هذه المجتمعات أن إنسانَ هذه الثقافاتِ يفصلُ بوضوحٍ تامٍ ما بين "ذاته" و"آرائه"، بل وكنت فى مئاتِ الحواراتِ أرى أن إنسانَ هذه الثقافاتِ يبدو أثناء الحوار وكأنه يضع آراءَه على مائدةِ الحوار مع آراء أخرى يضعها على نفسِ المائدةِ غيرُه ثم تتعامل وتتفاعل الآراءُ مع بعضِها بمعزلٍ عن اتصالِها بكينونةِ أصحابِها... فى عمليةٍ يستقلُ فيها الإنسانُ عن الآراءِ المطروحةِ. وبعد تفاعل الحوار، فإن كل إنسان يأخذ من فَوق المائدة "منتجاً" جديداً غير الذى وضعه بيده عليها -أنه نتاجُ تلاقحِ الأفكارِ والآراءِ ووجهاتِ النظرِ بشكلٍ حرٍ وخالٍ من العصبيةِ والانفعالِ الناجمِ عن التصاقِ الآراءِ بأصحابِها وكرامتهم وكبريائهم.

أما عندنا، فالأمرُ مختلفٌ كل الاختلاف إذ أن الآراءَ تكاد تكون لأصحابِها مثل الأعضاءِ والملامحِ فهم من جهةٍ يعتزون بها اعتزازاً يخرج بالعلاقةِ عن إطارِ الموضوعية ويدلف بها

إلى دائرة الذاتيةِ والشخصانيةِ، وهم من جهةٍ أخرى يخلطون ما بين كرامتهم وكبريائهم وأى مساسٍ بتلك الآراء أو محاولة لدحضها أو تفنيدها أو حتى تعديلها. وفى ظل عيوبٍ ثقافيةٍ أخرى، مثل تقلص السماحة وتآكل هامش الموضوعية والنظرة للآخر من منطلق السؤال الكبير: أهو معنا؟ .. أم علينا؟ مع حقائقٍ اجتماعيةٍ أخرى يصعبُ إنكارُها مثل حداثة مفهوم المواطنة وغلبة الانتماء للعائلة والقرية وتفشى السطحية التعليمية والثقافية ونحافة التربية الديمقراطية فى المجتمع من قاعدتِه لقمتِه مروراً بالأسرة والمدرسة والوظيفة والمناخ الثقافى العام... فى ظل كل ذلك معاً، فإن أسبابَ دمجِ "الذات" مع "الآراء" تتعاظمُ وتجعلنا أمام واحدٍ من أهم عوائق التقدم، فالتقدمُ يتطلب هواءً طلقاً ينمو فيه الحوار ويتطور وتتفاعل فيه الآراءُ ووجهاتُ النظرِ فى معادلةٍ مستمرةٍ تدفعُ بالعقولِ ودرجاتِ ومكوناتِ الوعى بل والمجتمع بأسره لمقاماتٍ أعلى من مقامات التطور الفكرى والثقافى وهو أساس التقدم الأول. وأكرر هنا أن تطورَ الشق الثقافى كان دائماً سابقاً لتطور الشق العلمى المادى فى كل الحضارات الكبرى، لأن خلقَ المناخِ

الفكرى والثقافى الرحب والخصب والثرى والذى يسمح بطرح الأفكار الجديدة وتلاقح وجهات النظر وتفاعل الرؤى هو الذى يخلق المناخَ الأمثل للتقدم العلمى والتقنى.

وكاتبُ هذه السطور لا يمل من تكرار قوله أن هوميروس ويوروبيدوس وأفلاطون وسقراط وأرستوفان وأرسطوطاليس كانوا مؤسسى المناخ العام الذى ازدهرت فيه العلومُ التطبيقيةُ فى الحضارةِ الإغريقيةِ... وأن الأدباءَ والشعراءَ والمتكلمة (الفلاسفة) كانوا السابقين فى الحضارة العربية وفى ظل المناخ العام الذى أوجدوه جاء العلماءُ من أمثال ابن الهيثم وابن سينا والرازى... ونفس الشئ هو ما حدث فى عصر النهضة إذ جاء الفلاسفة والأدباء والشعراء والفنانون الكبار ليخلقوا المناخ العام لما يسمى الآن بالحضارة الغربية.

ويستحيل أن تحدث تلك الفورة الفكرية والخصوبة الثقافية فى ظل مناخٍ عامٍ يكون الإنسانُ وآراؤه فيه شيئاً واحداً.

الفصل السابع

الإقامة في الماضي.

أجدادكم إن عظموا وأنتم لم تعظموا
فإن فخركم بهم عارٌ عليكم مبرمُ.
"العقاد.."

"علاقتُنا بالماضى" موضوعٌ يمكن أن يفرغ مفكرٌ لدراسته طيلة حياته دون أن يوفيه حقَه من الدراسةِ المعمقةِ كما ينبغى أن تكون الدراسةُ. لذلك فمن المستحيلِ تقديم تغطية كاملة لهذا الموضوع فى فصلٍ مقتضبٍ كهذا الفصل بكتابٍ موجز كهذا الكتاب. ولكن من الممكن تركيز الاهتمام حول عدةِ محاورٍ بشكلٍ يصلح لأن يكون أساساً لمزيدٍ من النظرِ والتفكيرِ.

فمن جهةٍ أولى، فإننا من أكثر شعوبِ العالمِ "فخراً" بماضيها"...

ومن جهةٍ ثانيـة، فإن مـلايين المفتـخرين بهذا الماضى يكادون أن يكونوا جميعاً من غير العالمين بألف باء هذا الماضى ناهيك عن العلم الواسع والعميق بسائر جوانبه...

ومن جهةٍ ثالثة، فإن هناك "خلطاً دائماً" بين هذا الماضى والحاضر...

أما كوننا من أكثرِ شعوبِ العالم فخراً بماضينا، فأمرٌ لا يحتاج للإثبات، إذ أن مطالعةَ جريدة أو مجلةٍ أو مشاهدةِ أى برنامج تليفزيونى تنبئ بهذا القدر الهائل من الفخرِ بالماضى، فنحن فى حالةِ تذكيرٍ مستمرةٍ للدنيا وللآخرين ولأنفسِنا بأن ماضينا أعظمُ وأمجدُ وأفخمُ من أى ماضٍ لأية أمةٍ أخرى.

ومن المؤكد، أن ماضينا "متميزٌ" و"خاصٌ": ولكن من المؤكد، أن هذا الماضى يضم صفحات بيضاء كما أنه يضم أيضاً صفحاتٍ سوداء. والوقوف على الصفحاتِ البيضاءِ والسوداء فى ماضينا من الأمور التى تستغرق أعماراً كاملة

لأشخاص وقفوا أنفسهم على دراسةِ ذلك. وبالتالى، فإن حديثنا الذى لا يتوقف عن ماضينا يعيبه -من الناحية الموضوعية- أنه يفترض أن صفحاتِ هذا الماضى كانت كلها بيضاءً ناصعةً- وهذا غير صحيح. كذلك فإن ظاهرةَ التغنى المستمر بالماضى تحتاجُ للتفكير والدراسة. فمن غير الطبيعى ألاّ يكون هناك توازنٌ بين "الفخر بالماضى" و"الانشغال بصنع حاضر ومستقبل مجيدين". ولاشك أن هناك خللا فى تفكيرنا فى هذه المسألة إذ أن الانشغال بصنع الحاضر والمستقبل يعتبر متواضعاً إلى جانب الإنشغال بالتفاخر بالماضى.

كذلك فإن افتراضَنا (الضمنى) أننا الوحيدون الذين يملكون ماضياً مجيداً هو الآخر أمرٌ مخالفٌ للواقعِ والثابتِ. فكما أن من حقنا أن نفخر بتاريخنا المصرى القديم فإن أبناء اليونان وإيطاليا (أحفاد الإغريق والرومان) هم أيضاً أصحاب حضارة وماضٍ مجيد لا يحق لمن يحترم الحقائق التاريخية أن يستهين بهما.

وفى اعتقادى أن "فقرَ مكوناتِ الواقع" هو ما يدفعنا باستمرار للتغنى والتفاخر بالماضى، كأننا نشعر أنه بدون ذلك الماضى فإن المعادلةَ ستكون مختلةً وفى غير صالحنا. والمنطقى، أن نفتخر بجوانب عديدة من ماضينا افتخاراً متزناً غير مشوبٍ بالحماسةِ الزائدة والتعصب وعدم إعطاء الآخرين حقوقهم، على أن يكون هناك "فخر متوازن" بمعطياتِ الحاضرِ ومكونات المستقبل.

وإذا كان العربُ هم الذين نحتوا المقولة الشهيرة والصائبة والتى تقول: (ليس الفتى من يقول كان أبى، وإنما الفتى من يقول هاأنذا) فإن الأمرَ هنا يكون بغيرِ حاجةٍ منى لمزيد من الشرحِ والتبيانِ.

ومن جهةٍ ثانيةٍ، فإن افتخارَ معظمنا بماضينا يُعطى الإحساس بأننا نعلم الكثير عن هذا الماضى. والحقيقة أن السوادَ الأعظم منا لا يعرف أى شئ (إلا الشعارات العامة) عن ماضينا وتاريخنا. بل أننى أزعم أن الأغلبية العظمى من المتعلمين تعليماً عالياً بمجتمعنا لا يعرفون -مثلاً- أعلام

الأسرة الثامنة عشرة فى تاريخنا الفرعونى القديم ولا يعرفون -مثلاً- الترتيب الزمنى لفراعنة عظماء أمثال سنوسرت وأحمس وتحتمس الثالث وسيتى الأول ورمسيس الثانى، رغم أن معرفة ذلك لا تعنى أى تضلع فى تاريخنا القديم. بل وأزعم أن معظم المتعلمين تعليماً عالياً فى مصر لا يعرفون الترتيب الزمنى للعهود التالية: العصر الإخشيدى والأيوبى والطولونى والمملوكى فى تاريخنا الوسيط. وأكرر، أن معرفة ذلك لا تسمح فى حد ذاتها بالاعتقاد بوجود أى تضلعٍ فى معرفةِ الموضوعِ محل الحديث، ولكن عدم المعرفة بها يعنى الجهل التام بأبسط المعارف التاريخية وهو ما يجعل الافتخار الحماسى بهذا الماضى (ممن لا يعرفون أى شئ عنه) ظاهرةً عقليةً ونفسيةً تحتاجُ للدراسةِ والتحليلِ.

وتنطبق هذه الحقيقة (حقيقة جهل السواد الأعظم منا بمفردات وعناصر ماضينا) على تياراتٍ فكريةٍ بأكملِها. فما أكثر الذين يسمّون أنفسَهم بأنصار مصر الفرعونية وهم لا يعرفون ألف باء تاريخ هذه الحقبة. وما أكثر الذين يسمون

أنفسهم بالإسلاميين وهم على غير علمٍ بمعظم التاريخ والتراث الذى لا يكتفون بالفخر به، بل ويضفون على عناصره من القداسة ما لا ينبغى أن يُقدس لأن معظمه "عمل وفكر بشرى".

وأذكر هنا حواراً مع شابٍ متحمسٍ للتيارِ الذى يُسمى نفسه بالإسلامى وجدته يُلحن (أى يخطئ فى تحريك الكلمات العربية) وهو يستشهد ببعض النصوص. أذكر أننى قلت له إن الفقهاء المسلمين الأوائل كانوا يعتبرون كل علم أصول الفقه عملاً بشرياً ولا أدل على ذلك من أمرين:

الأول، تعريف الفقهاء لعلم أصول الفقه بأنه "علم استنباط الأحكام العملية من أدلتها الشرعية" وهو تعريف عبقرى ولكنه يثبت "بشرية" هذا العلم. والثانى، كلمة أول وأكبر الفقهاء أبى حنيفة النعمان الشائعة (علمُنا هذا رأى، فمن جاءنا بأفضلَ منه قبلنَاه). ثم ذكرت لذلك المتحمس لما يُسمى بالتيار الإسلامى أن هؤلاء الفقهاء الأوائل قد وضعوا ستة شروط لأهلية الإفتاء، كان أولها العلم باللغة العربية علم العرب الأوائل. ثم قلت له، ونظراً لأنك (ومعظم زملائك

فى الحماس لما يُسمى بالتيار الإسلامى) تلحنون (أى تخطئون فى اللغة العربية) فإنكم -وفق الشرط الأول من شروط الإفتاء- قد فقدتم أهلية إبداء الرأى فى المسائل التى تتعرضون لها.

كل ذلك كان ضمن حديثى عن غرابةِ أن يفخر أناسٌ بماضٍ لا يعلمون عنه شيئاً يُذكر. وهو ما يدل -مرة أخرى- على أننا أمام "ظاهرة عقلية ونفسية" لا علاقة لها -فى الحقيقة- بالماضى الذى يتحمسون له.

وأخيراً، فإن الحياةَ المعاصرة فى مجتمعنا تجعلنا نشاهد -يومياً- عروضاً متكررةً للخلطِ بين هذا الفخر المتحمس بالماضى وبين الفخر الآنى أى الفخر بما نحن عليه الآن.

وهذه ظاهرة مفهومة، لأننا نستشعر فى أعماقنا تلك المفارقة المهولة بين "ماض مجيد" نفخر به وحاضر نبحث فى جوانبه عن أسباب للفخر فلا نكاد نجد إلا أقل القليل؛ فمعظم إنجازات عصرنا المادية والفكرية من أعمالِ الآخرين.

الفصل الثامن

"ضيق الصدر بالنقد".

لأقل قليلاً من عشرين سنة أتاح لى العملُ فى مؤسسةٍ اقتصاديةٍ من أكبرِ ثلاث مؤسسات صناعية فى العالمِ أن أكتشفَ -وبجلاءٍ تامٍ- قدرَ التباين بين ثقافةِ ما يُسمى بالعالمِ الغربى وثقافتنا فيما يتعلق بجزئية مُحددة هى "رحابة الصدر للنقدِ". وخلال النصف الثانى لهذه الفترة -غير القصيرة- أتاح لى تبوأُ الموقع القيادى الأول فى هذه المؤسسة رؤيةً أعمق لهذه الجزئيةِ ولحقيقةِ أن "النقدَ" هو أهمُ أدواتِ الفكرِ التى صنعت المجتمعاتِ الغربيةَ المتقدمةَ، وأن النقدَ يوجه للكبار بنفس قدر توجيهه لمن هم أقل منهم أهمية وموقعاً على خريطةِ الهرمِ الاجتماعى.

لقد أثبتت لى تجربةُ السنوات العشرين أن الهوةَ بين ثقافتِنا وثقافتِهم فى هذا المجال شاسعةٌ. فالنقدُ للأشياء والظواهرِ والأفكارِ والأشخاصِ والمسلماتِ هو "معلمٌ" من "معالمِ" الثقافة التى ساهمت فى بناءِ المجتمعاتِ الغربية

المتقدمة. والنقدُ أداةٌ يتعلمها ويكتسبها الإنسانُ منذ فجرِ وعيه وإدراكِه. فهو يتنفس هواءً يسمحُ بالنقدِ -من البدايةِ- لكل ما حوله. فالصغيرُ يتعلم أن كلَّ ما يحيطُ به من "أشياء وأشخاص" قابلٌ للنقدِ، كما يتعلم أن يُمارس هذا النقد فى ظلِ قبولٍ عامٍ له ودرجةٍ عاليةٍ من الهدوءِ وعدم التوتر والغضب الذين يحدثهم النقدُ فى أجواءٍ ثقافيةٍ أخرى.

وتأتى برامجُ التعليمِ لترسخ هذا الإهتمام بالنقدِ. كما أن المناخَ العام (بعناصرِه السياسيةِ والاجتماعيةِ والثقافيةِ) يعملون على ترسيخِ نفسِ الاهتمامِ بالنقدِ كأداةِ بناءٍ بالغةِ الأهميةِ وكأهمِ وسائلِ الارتقاءِ بكلِ النظمِ والمؤسساتِ والأفكارِ والممارساتِ.

أما ثقافتُنا، فقد واصلت نظرتَها العاطفية الممزوجة بالغضبِ تجاه النقدِ بوجهٍ عامٍ وتجاه نقدِ المسلماتِ (وما أكثرها فى واقعِنا) والشخصياتِ التى تتبوأ مواقعَ القيادةِ. بل أننا -فى حالاتٍ غير قليلة- ننظر لنقدِ هذه الجهاتِ وكأنه

عملٌ تخريبى وهدّام بل ويصل الشعورُ تجاهه أحياناً لحدِ اعتباره عملاً يقرب من أعمال الخيانة.

وضيقُ الصدرِ بالنقدِ من المسائلِ التى تتغلغل فى عقولِ أبناءِ وبناتِ مجتمعنا منذُ الصغر ويترسخ كأحدِ ملامحِ ثقافتنا ثم تأتى سلبياتٌ أُخرى شاعت فى تفكيرِنا المعاصر لتجعل المسألةَ بالغة الحدة: فعندما يجتمع ضيقُ الصدر بالنقدِ مع تقلصِ السماحةِ واتسامِ التفكيرِ بالشخصانيةِ (والبعدِ عن الموضوعيةِ) مع النظرةِ الضيقة للآخرين (بصفتِهم إما معنا أو ضدنا) والتعصبِ الشديدِ لأمجادِ ماضينا والميلِ الجارفِ لمدحِ الذاتِ -عندما يجتمع "ضيقُ الصدرِ بالنقدِ" مع هذه المعالم الأخرى الواضحة التى شاعت فى جونا الثقافى، فإن حدةَ ودرجةَ الضيقِ بالنقدِ تبلغ أبعدَ مدى وتصبح النظرةُ للنقدِ مشوبةً بالغضبِ والتوترِ والشكِ فى النوايا والإحساس بوجود خطر متربص بنا، ولن يكون من العسيرِ علينا إدماج كل ذلك فى الاعتقادِ بوجودِ تآمرٍ كاملٍ ضدنا.

ولا أعتقد أننى بحاجةٍ لضربِ أمثلةٍ على اتسامِ جونا الثقافى العام بالضيقِ الشديدِ من النقدِ، فخلال سنى العقود الأخيرة تكررت مئاتُ الحالاتِ النمطيةِ التى جسدت هذه الظاهرة بل وأكدت أن هذه الصفة (ضيق الصدر الشديد بالنقد) قد أصبحت من معالمِ الكثيرين بما فيهم قيادات فكرية وثقافية، فأصبح الجدلُ والحوارُ حولَ مسائلَ فكريةٍ تجسيداً جديداً لدرجةٍ ضيقنا من النقدِ وتوترنا وغضبنا منه.

ولنأخذ أمثلة قليلة تكررت وقائع مماثلة لها بأشكالٍ تكاد تكون مضاهية تماماً:

* فالذين يدعون للاحتفالِ بمرورِ قرنين على العلاقاتِ المصريةِ الفرنسيةِ يتبادلون مع الذين يستهجنون هذا الاحتفال أنماطاً من التهمِ وأساليبَ من التجريحِ تُجسد عجزنا عن الاختلافِ والنقدِ بتعقلٍ ورويةٍ.

* والذين يعتقدون أن الحوارَ مع العدو التاريخى هو

السبيل الوحيد للخروج من واقعٍ مترعٍ بالجراحِ، يواجهون بطوفانٍ من الكلماتِ والألفاظِ الحادة التى تجردهم من كلِ ميزةٍ وصفةٍ طيبةٍ بما فى ذلك صفة المواطن المحب لوطنهِ الحريص على واقعهِ ومستقبلِه.

وعشرات... بل مئات الأمثلة التى تؤكد أننا إما أن نتفقَ تماماً وإما أن ننطلق إلى مرحلةِ التراشقِ بأشدِ الكلماتِ حدة وتجريحاً. أما مرحلةُ النقد الهادئ والموضوعى والقائم على أسسٍ عقلانيةٍ، فمرحلة يندر أن نمر بها، لأن مُعظمنا لم ينشأ ولم يتدرب عليها ولم يكتمل وعيه وإدراكه فى جوٍ ثقافىٍ عام يؤمن بجدوى وإيجابيةِ وفعاليةِ النقد. ولا يدل على أننا لا نعترف بالنقدِ (إلاَّ عند التشدق بالشعاراتِ) من خلاءِ وسائل إعلامِنا خلال السنوات الثلاثين الأخيرة من مقالٍ أو حديثٍ واحدٍ يتضمن نقداً لرموزِ الحكم السياسى فى مجتمعِنا. فإذا كنا نسلم بوجودِ النقدِ فى حياتِنا العامة، وإذا كنا نسلم أن الذين حكمونا خلال السنوات الأخيرة هم بشرٌ غيرُ معصومين، وإذا كنا نؤمن بأن اختلافَ الرأى لا يُفسد للود قضية، فليدلنا من يقدر على مقالٍ أو حديثٍ واحد نشر

فى مصرَ فى وسائلِ اعلامِنا المرئية أو المسموعة أو المطبوعة ويتضمن نقداً للتوجهات السياسية الأساسية للحكمِ. فإذا لم يوجد كان ذلك أوضحَ دليلٍ على ضيقِ الصدرِ بالنقدِ ضيقاً يجب أن يقلقنا ويجعلنا متحمسين لمعالجةِ هذا الداء من أدواءِ جونا الثقافى العام بكلِ السبلِ التى تسمح بنموِ قبولنا للنقدِ والذى بدونه لا يمكن صنع المستقبلِ المنشودِ.

وهنا فإننى لا أجد عبارة أفضل من عبارةِ الفيلسوف العظيم "كانط" والتى أوردتها فى مقدمةِ هذا الكتاب والتى تقول "أن النقدَ هو أفضلُ أداةِ بناءٍ عرفها العقلُ البشرى".

الفصل التاسع

الاعتقاد المطلق فى "نظرية المؤامرة".

أسيرُ على نهجٍ يرى الناسُ غيرَه.
لكل امرئٍ فيما يحاولُ مذهبُ.
"أحمد شوقى.."

لكلِ إنسانٍ منشغلٍ بأمورِ الفكرِ ولاسيما ما يَتصل بالعلومِ الاجتماعيةِ وحركةِ وفكرِ المجُتمعاتِ مسائل تكون محلَ اهتمامه وانشغاله أكثر من غيرها. ومن المسائل التى لم تغادر تفكيرى منذ سنواتٍ شيوع الاعتقاد فى عالمِنا العربى وواقعنا المصرى "بنظريةِ المؤامرة". فمن المؤكد أن هُناك الكَثيرين -بالملايين- فى واقعِنا الذين لا يُساورهم شكٌ فى صحةِ المقولاتِ التالية:

* أن وقائعَ ماضينا القريب وحاضرنا جاءت وفقاً لمخططاتٍ وضعتها قوى كبرى وأن الواقعَ كان فى معظمهِ ترجَمة عملية لهذهِ المخُططات.

* أن هذه القوى التى صاغت تِلك المخُططات والتى سار على دَربِها ماضينا وحاضِرنا هى فى الأغلبِ القوى العالمية العُظمى وبالتحديدِ بريطانيا وفرنسا فى الماضى والولايات المتحدة (وابنتها إسرائيل) فى الأمسِ القريبِ والحاضرِ.

*أن مُخططاتِ هذه القوى موضوعة بشكلٍ تفصيلى وأن الأطرافَ الأقل نصيباً من القوةِ (ونحن من بينها) لم تَكن تملك (ولا تمتلك الآن) إلا أن تَنصاع لتيارِ تِلك المخُططاتِ.

* أننا -بناءً على ما سبق - غيرُ مسئولين مسؤليةً كبيرةً "عما حدث"...وبنفسِ الدرجة "عما يحدث"... ويُضيف البعضُ "عما سَوف يَحدث". وتلك نَتيجة مَنطقية - فى رأى واعتقاد الكثيرين لتلك "**المنظومة الفكرية**".

وعندما يُضاف "**العامل الإسرائيلى**" لتلك "النَظرة" تَكون الصورةُ بالغةَ "**الحرارةِ**" و"**الإثارةِ**". وإذا انتقلنا من "**العمومياتِ**" "**للجزئيات**" كان من الطبيعى أن

يردد البعضُ - حَسب تلك **"النظرة"** -أن أكبرَ وقائعِ تاريخنا الحديثِ ما هى إلاَّ نَتائج المُخططاتِ التى وضعتها القوى العظمى... فحرب ١٩٥٦ وانفصال سوريا عن مِصرَ فى سنة ١٩٦١... وحرب اليمن من سنة ١٩٦٢ وكارثة ٥ يونيه ١٩٦٧ وعدم استكمال عملية العبور العظيمة لقناة السويس فى أكتوبر ١٩٧٣ حتى نحرر -عسكرياً- سيناء كلها... وزيارة الرئيس السادات للقدسِ فى نوفمبر ١٩٧٧ وتوقيع اتفاقية "كامب ديفيد" بين مِصرَ وإسرائيل وسقوط الاتحاد السوفيتى وانهيار **"هيكل الاشتراكية"** فى كلِ مكان ... وانفراد الولايات المتحدة بدورِ القوى العظمى وأشياء أخرى كثيرة مَثل "النظام العالمى الجديد" و"اتفاقيات الجات" وخلافه... كل ذلك ليس إلاَّ نتائج مباشرة وترجمات عملية لتلك المُخططاتِ التى يعتقد كثيرون منا أنها وُضِعَتْ من طرفِ القوى العظمى ليسير التاريخُ وفق مفرادتها.

ومن الجدير بالاهتمامِ والتحليلِ أن الأطرافَ أو المجموعاتِ التالية تشترك فى هذا المفهومِ بدرجاتٍ مُختلفةٍ:

* فكل من يمكن أن يندرجوا تحت مسمى **"الإسلاميين"** يؤمنون إيماناً صخرياً واضحاً كضوءِ الشمس بصحةِ هذهِ المقولات والتى من مجموعِها تكتمل "نظريةُ المؤامرة" ... وينضوى تحت هذه الرايةِ الإخوانُ المسلمون وغيرهم كالجماعةِ الإسلامية وتنظيم الجهاد والحركات السلفية بل والمعتدلون للغاية من أصحابِ "الطرح الإسلامى" ويوجعنى أن أصف فرقة هى مجرد **"مجموعة سياسية لاغير"** بمصطلح **"الإسلامية"** لأن ذلك يعنى أن "غيرهم" يجب أن يصنف ضمن **"غير الإسلاميين"** أو "ضد **الإسلاميين"**؛ وهو أمر خاطىء تماماً - ولكن ضرورات استعمالِ الشائعِ والذائعِ من "المصطلحاتِ" قد تملى على المرءِ أن يستعمل تسميةً هو أول المعترضين على صوابِ ومعقوليةِ استعمالِها. وإذا كان لابد أن نختار أكبر المؤمنين "**بنظرية المؤامرة**"، فلابد أن نسلم للإسلاميين بهذه الرتبةِ.

* أما كل من كانوا - بشكلٍ أو بآخر تحت اللواء الاشتراكى، من ماركسيين إلى اشتراكيين ومروراً بعشراتِ

التصنيفات الفرعية للتوجهات اليسارية أو الاشتراكية بما فى ذلك الاتجاه الناصرى-فإنهم يؤمنون بنظرية المؤامرة ولكن بدرجة أقل من "التصخر" إن جازلنا نحت هذا التعبير. فهم إن كانوا يؤمنون بالنظرية ككل وبالتالى بالمقولات التى أوردتها فى مستهل هذا المقال؛ إلاّ أن إيمانهم هذا غير مشوب بما يمكن تسميته بالروح الجهادية أو الحربية أو "الضد - صليبية" التى تشوب موقف الإسلاميين فى هذا الصدد. ولاشك أن الاختلاف فى "صخرية" الاعتقاد هنا و"نارية" اليقين و"التهابية" الموقف إنما ترجعُ للروح الثيوقراطية (الدينية) للحركات المسماة بالإسلامية وفى نفس الوقت للروح الأكثر علمية وتقدماً وعصرية للأفكار الاشتراكية (وإن ثبت أنها كانت كلها خاطئةً وعاجزةً عن تحقيق أهدافها وشعاراتها).

* وثالثاً (وأخيراً) فإن السوادَ الأعظم من "المواطنين العاديين" فى واقعنا العربى والمصرى والذين لا ينتمون للفريق الإسلامى (سياسياً) أو الفريق الاشتراكى (عقائدياً)، فإن معظمَهم يميلُ ميلاً واضحاً لتبنى "نظرية

المؤامرة والتسليم -بالتالى- بصوابِ وصحةِ "المقولاتِ" المنبثقةِ عن الإيمانِ بهذه النظريةِ.

ولكن من الضرورى للغايةِ أن نذكر أن أسبابَ إيمانِ كل مجموعةٍ من هذه المجموعاتِ الثلاث الكبرى بنظريةِ المؤامرةِ إنما ينبعُ من مصادرٍ مختلفةٍ:

* فالمجموعةُ الإسلامية (بمختلفِ فرقِها) ترى أن تاريخَ منطقتنا هو تاريخُ الصراعِ بين (الإسلام) و(المسيحية واليهودية) ... وأن الحروبَ الصليبية لا تزال مستمرةً ولكن من خلالِ أشكالٍ مختلفةٍ. وتعطى هذه المجموعةُ للبعدِ اليهودى أهميةً كبرى، فهى تعزو له جل أسباب مشاكلنا وكوارثنا.

* أما المجموعةُ الاشتراكية (بالمعنى الواسعِ) فإنها ترى الأمرَ من خلالِ تصورِها المعروفِ للصراعِ بين القوى التى تسميها بالقوةِ الإمبرياليةِ والجانب الآخر والذى يضم الشعوب المقهورة والمستغَلة (بفتح الغين).

* وأما مجموعةُ **المواطنين العاديين**، فإنها كوّنَت ميلها هذا للإيمانِ بنظريةِ المؤامرةِ كأثرٍ حتميٍّ إما لسطوةِ اللون الاشتراكى أو لسطوةِ اللون الإسلامى على مواقع غيرِ قليلةٍ من عالمِ الإعلام فى واقعِنا ومن كثرةِ تكرارِ المقولاتِ المنبثقةِ عن نظريةِ المؤامرةِ والتى غَدت وكأنها من المُسَلماتِ. وفى المجتمعاتِ التى لا تتسم بمستوى عالٍ من التعليم والثقافة، فإن دورَ الإعلام (بما فى ذلك منبر المسجد) قد يصل إلى حدٍ (غسل العقول) و(تشكيل الوجدان)... ويكفى أن نذكر أن أولَ اسمٍ لوزارة الإعلام فى بعض البلدان كان "وزارة الإرشاد" وهو اعتراف صريح وواضح بالرسالةِ الأساسيةِ وهى "الإرشاد" أى "التوجيه".

والحقيقةِ، أن هذه "المنابع" لإيمان كل مجموعةٍ من المجموعاتِ الثلاث بنظريةِ المؤامرةِ هى "منابعُ وهميةٌ" ولا سند لها من الواقعِ والتاريخِ والمنطقِ ... فشعوبُ منطقتنا من العالمِ كانت سوف تلقى نفسَ المسَارِ التاريخى بما فى ذلك استعمار الغرب لها حتى لو كانت منطقتنا من العالم

"مسيحيةً" تماماً. فالغرب لم يُستعمرَ منطقتنا لأننا مسلمون، ولكن لأننا من جهةٍ كنا متخلفين وفى وضعٍ يسمح بأن نُستعمر ... ومن جهةٍ ثانيةٍ فإن دافعَ الغرب لاستعمارنا كان دافعاً تحركه عواملُ "اقتصاديةٌ" فى المقَامِ الأولِ و"حضاريةٌ" فى المقامِ الثانى. والعواملُ الحضارية أوسع وأرحب من العواملِ الدينيةِ. وهناك الكثير الذى يمكن أن يقال لدحضِ هذه الوجهة الساذجة من النظرِ، ولكننا نعتقد أن كثرةَ ووضوحَ القرائنِ تغنى عن الاسترسالِ والإسهابِ : فمن الجلى للغايةِ أن منطقتنا كانت سوف تُستعمرَ حتى لو كانت شعوبُها كلُها مسيحيةٌ. ومن الغريب، أن الذين يتبنون هذه الوجهة من النظرِ يغيبُ عنهم أن علاقةَ شعوبِ المنطقةِ بالدولةِ العثمانيةِ كانت أدنى ما تكون لعلاقةِ الضعيف المستعمَر (بفتح الميم الثانية). بالقوى المستعمِر (بكسر الميم الثانية)، رغم أن الطرفين مسلمان (!!!). فقد كانت شعوب منطقتنا خلال القرن الثامن عشر مرتعاً للتأخرِ والتخلف والرجعيةِ رغم أننا كنا (مسلمين) يحتلهم (مسلمون)، بمعنى أن الغربَ (المسيحى) كان لا يزال بعيداً عنا... كذلك فقد كنا عندما ولدت الحركةُ الصهيونية

المعاصرة على يد النمساوى المعروف تيودور هرتزل فى أواخرِ القرنِ التاسع عشر قد قطعنا شوطاً بعيداً فى التخلفِ لأكثرِ من ستةِ قرونٍ لم يكن اليهودُ فيها قادرين على تحريكِ أىّ حدثٍ تاريخىٍّ.

أما منطقُ المجموعةِ الاشتراكيةِ ففيه الكثيرُ من الصوابِ، دون أن يكون صواباً خالصاً. فمن المؤكد أن "الدافعَ الاقتصادى" هو العاملُ الأول الذى "ساقَ" الغرب فى علاقتهِ التاريخية بنا خلال القرنين الأخيرين. إلاَّ أن الأمرَ - كما سنوضح بعد قليلٍ - كان فى إطارٍ آخرٍ مُختلف تماماً عن إطارِ "المؤامرة".

وأما منطقُ المواطنين العاديين، فإنه وإن كان متهافتاً ولا يصمد أمام التحليلِ والتفنيدِ الدقيقين، إلا أنه مفهومٌ. فمن الطبيعى أن كثرةَ ترديدِ مقولاتٍ معينةٍ على مسامعِ شعوبٍ نصفها من الأميين والنصف الآخر أصحاب نصيبٍ متواضعٍ للغايةِ من التعليمِ والثقافةِ والوعى من شأنهِ أن يخلق انطباعاً بصوابِ مقولاتٍ لا تَستند إلا على "التوهمِ" و"الديماجوجية".

وجوهرُ القضيةِ في اعتقادى أن معظم من تناول "نظرية المؤامرة" لا يعرف إلاّ أقل القليل عن طبيعةِ وحقائقِ وآلياتِ الاقتصادِ الرأسمالى أو الاقتصاد الذى يسمى باقتصادِ السوق أو الاقتصاد الحر؛ فجوهر الاقتصاد الرأسمالى هو "المنافسة". وفكرةُ المَنافسة تعنى -فيما تعنى- أشياءً عديدةً إيجابيةً وصحيةً، ولكنها تعنى أيضاً أشياءً سلبيةً وغير صحيةٍ. ولكن نظراً لأن كلَ البدائلِ الفكريةِ (للرأسمالية أو لاقتصاد السوق) قد باءت بفشلٍ ذريعٍ وأحدثت من الدمارِ والخرابِ لمجتمعاتها ما أحالها لمتحفِ الأفكارِ المنقرضة، فإن الواقعَ يحتمُ علينا ونحن نمعن النظر فى حقائق وطبائع الاقتصادِ الحرِ ألاّ يدفعنا الانفعالُ وجموحُه للعودةِ بأى شكلٍ لدوائرِ الأفكارِ الاشتراكية، فقد أحدثت هذه الأفكارُ من الأضرارِ والخسائرِ ما لا يسمح بإعطائها أيةَ فرصةٍ أُخرى. والواقع (لا الفلسفة) يؤكد أن كلَّ ما هو اشتراكى (فى الفكرِ والتطبيقِ) مآله إما لمتحفِ الأفكار وإما للانقراض التام بفعل ما يسببه من إخفاقٍ وفشلٍ وخسارةٍ. فإذا عدنا للمنافسةِ بوصفها العمود الفقرى للاقتصاد الرأسمالى، كان علينا أن نعى أن "المنافسة" ليست

فقط تلك "الفكرة الجميلة" التى تعنى فوائداً للأفراد، حيثُ تؤدى المنافسة لعملية تجويد مستمرة فى نوعية ومستوى البضائع والخدمات وحيثُ تؤدى فى أحيانٍ كثيرةٍ لخفضِ السعرِ أو التكلفة، وإنما هى - أيضا- صراعٌ شرسٌ بين المنتجين بعضهم البعض : صراع يتجسد فى أشكالٍ عدةٍ.... كالطرد من السوقِ (إن أمكن) أو تهميش دور الآخرين والاستئثار بأكبر حصصٍ من السوقِ أو الأسواقِ. وهذه الطبيعة أو هذا المعلم من معالمِ النظامِ الاقتصادى الغربى هو الذى يفرزُ ما يبدو للأكثريةِ فى دول العالم غير العريقِ فى الصناعةِ والخدمات الرأسمالية المتقدمة وكأنه "مؤامرةٌ محبوكةٌ".

وهذا الجانب من جوانبِ "عنصر المنافسة" هو ما أود أن أُسلط مزيداً من الضوءِ عليه، لإننا إذا لم نفهمه جيداً وبوضوحٍ تامٍ ونقبل فكرةَ حتميته ونولّد استراتيچيتنا للتعاملِ معه كحقيقةٍ لا تقبل التجاهل من حقائقِ الحياةِ المعاصرة، فلن نبلغ أىَّ شئٍ مما نريد. وأعنى هنا أن المنافسة التى هى من أهم أسس الحياةِ الاقتصاديةِ القائمةِ على

ديناميكيات اقتصادِ السوق هى التى كانت خلال القرونِ الثلاثةِ الأخيرةِ سببَ كلِ المنازعاتِ الداخليةِ فى أوروبا بل وسبب الحروبِ التى كانت الحربان العظميان (حرب١٩١٤/١٩١٨ وحرب ١٩٣٩/١٩٤٥) من أهم صورِها. ولكن أوروبا التى تطاحنت وتشاحنت طويلاً تطاحناً وتشاحناً داخليين وصلت خلال العقودِ الثلاثةِ الأخيرةِ ليقينٍ بأن فوائدَ عدمِ التشاحن الأوروبى الداخلى أعظمُ من فوائدِ استمرارِ هذا التشاحن الذى لا سبب له إلا "المنافسة". وبذلك خرجت المنافسةُ (فى درجاتها الأعلى) من ملعبها الأوروبى لملاعبٍ أخرى خارج القارةِ الأوروبية، وإن بقت الساحةُ الأوروبية زاخرةً بأشكالٍ وألوانٍ شتى من المنافسةِ ولكن التى يحكمها قانونُ التعايشِ معاً وقانون الإتفاق على عددٍ من الحدودِ الدنيا.

وحتى تزداد الفكرةُ وضوحاً، فإننى أودُ إبراز حقيقةٍ بسيطةٍ للغايةِ إلاَّ أنها لا تحظى بالوضوحِ أمام الكثيرين، وهى أن النظامَ الاقتصادى القائم على المنافسةِ يحتم أن تكون مصالحُ المنتجِ أو البائعِ الاستراتيجية أن يظل "بائعاً" وأن

يبقى "المشترى" لأطولِ مدةٍ أو دائماً "مشترياً"؛ وألاَّ يَحدث -هنا- تبادل فى المواقع. هذا المفهوم البسيط هو جوهر جانب المنافسة الذى يراه الكثيرون فى عالمنا كمؤامرةٍ محبوكةٍ- والحقيقة أنه يشبه المؤامرة لحدٍ ما، إلاَّ أنه يختلف عنها تماماً فى الدوافع وقوانين الحركة. وهذا "القانون" من قوانين حركة "الاقتصاد الحر" والمنافسة إنما هو قانون يعمل "داخل" المجتمعات الصناعية المتقدمة، وبالتالى فإن "عمله" خارجها أمرٌ حتمىٌ ومُنتظر ولا مَحيص عنه.

والمعنى هنا أن النظام الاقتصادى السائد فى الدولِ الأكثر تقدماً صناعياً (والآن: تكنولوچياً وخدمياً) يقوم على صراعات لا يمكن تجنبها وقودها المنافسة وتتمثل فى محاولاتٍ لا تنتهى للاستئثار بالأسواقِ أو بأكبرِ حصص ممكنة من الأسواق، وأن ذلك يعنى أن "السمك الكبير" لا يتوقف عن محاولة "أكل السمك الصغير" وأن ذلك التفاعل وجوانبه السلبية (الشرسة) يعمل فى داخل المجتمع الواحد وخارجه (وعندئذٍ يكون أكثر شراسة)، وأن مفردات علوم وممارسات الإدارة العصرية تتضمن العديد من المفاهيم التى

تخدم فى المقام الأول "المنافسة" بجوانبها المختلفة (الإيجابية والسلبية) ... ورغم أننى لا أريد أن أدخل بالقارئ فى دقائقِ علومِ الإدارة الحديثة، إلا أن السياق واكتمال التحليل فى هذا المقالِ يحتمان أن أذكر أن المفاهيم الكبرى التالية من مفاهيم علوم الإدارة الحديثة: إدارة الجودة Quality Management تقنيات التسويق على مستوى العولمة Global Marketing وسرية البيانات Data Confidentiality والزخم الهائل من نظم المحافظة على الصحةِ المهنيةِ Occupational Health والاعتبارات البيئية Environmental Considerations وعشرات غيرها من مفردات علُوم وممارسات الإدارة العصرية إنما تهدف – فى أولوية عالية من أهدافها – إلى أن يكون أصحابها من "السمك الكبير" القادر عن طريق هذه المفاهيم وتطبيقها تطبيقاً ناجحاً إما لأكل السمك الصغير وإما لزيادة حجمه صغراً... ويمكن الآن أن نُضيف لقانون "إن السمك الكبير يأكل السمك الصغير" قانوناً جديداً يسير فى موازاة هذا القانون وهو قانون "إن السمك الكفء السريع يأكل السمك الأقل كفاءة وسرعة"... وقد ظهرت خلال السنوات العشرين

الأخيرة فى عالم المؤسسات الصناعية والخدمية والتكنولوجية والتجارية الكبرى على مستوى العالم الأدلة القاطعة على مولد وتعاظم شأن هذا القانون الجديد. ومن المهم للغاية هنا أن نمُيز بين "ما نحب أن نراه" وما لا وسيلة أمامنا "لكى لا نراه" إلا غش أنفسنا. فهذه القوانين موجودة وسائدة ولم يعد هناك أمل بعد نفوق (وفاة) الاشتراكية أن تستبدل بقوانين تضمن النجاح والوفرة وتتجنب هذه المثالب (عند الذين يرونها كعيوب).

ومن غيرِ الممكنِ أن نتجنب هنا التصريح بأن المثقفين أوسعَ ثقافة عالمية لن يكون بوسعهم أن يروا بوضوحٍ هذه الحقائق والقوانين وجوانب هذه القوانين المختلفة إذا كانت ثقافتهم تعنى معرفةً شاملةً بكلِ العلومِ والمعارفِ الإنسانيةِ والاجتماعيةِ دون علوم العصرِ الحديثِ فى مجالاتِ الإدارةِ والتسويقِ والمواردِ البشريةِ وما انبثق عن هذه المسميات الكبرى من عشراتِ المجالاتِ الجديدةِ المتخصصةِ. فالإنسانُ الذى يعرف كلَ ثمارِ الثقافةِ والمعرفةِ الإنسانيةِ من "سقراط" إلى "براتراند رسل" ومروراً بآلافِ الأسماءِ

ومناطق المعرفة الانسانية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأدبية والفلسفية يظل عاجزاً عن رؤية هذه الحقائق وقوانين الحركة وجوانبها المختلفة إذا كانت جعبتهُ الثقافية لم تتسع لتشمل علومَ العصرِ فى مجالاتِ الإدارةِ والتسويقِ والموارد البشريةِ - ويكون الإنسانُ عندئذٍ مثل عالم فيزياء أمضى نصف قرنٍ فى دراسةِ الفيزياء منذُ فجرِ تاريخِ هذا العلمِ خلال نصف القرنِ الأخير، فإنه عندئذ يكون ملماً بمعظمِ تاريخ هذا العلم إلا أن ماليديه يكون مثل متحفٍ للماضى دون أن يصلح بأى شكلٍ للحاضرِ - وللأسف الشديد، فإن عدداً غيرَ قليلٍ من مثقفى العالم الثالث يندرجون ضمن هذا الفريق الذى يعلمَ أصحابُه الكثيرَ دون أن يمتد علمُهم ليُغطى المناطق الحديثة والتى بدونها يكونون شخصياتٍ متحفيةٍ لا تقدر بأيةِ حال على فهمِ قوانين الحركة المُعاصرة وجوانبها المُختلفة - بل أن هؤلاء لا يكتفون بذلك وإنما يَستمرون فى حوارات طويلة لا يستعملون فيها إلا مفردات ومفاهيم تعيد تأكيد حقيقة أنهم يواصلون العيش فى الماضى وإنهم بنفسِ الدرجةِ غيرُ قادرين على فهمِ ما يحدث" بل أن هذه المفردات والمفاهيم

تصبح أداة إعاقةٍ للمجتمعِ عن ركوبِ وسيلة المواصلات الوحيدة القادرةِ على الوصولِ للأهدافِ المرجوةِ، وأعنى الاشتراك فى اللعبةِ حسب قواعِدها القائمة لا حسبِ القواعد المُثلى التى لا وجود لها إلا فى خيالِ أصحابِها.

وإذا وصلنا بالتحليلِ لهذهِ النقطةِ المتقدمة، كان من المحتم علينا أن نُلقى بعض الضوء على "الظاهرةِ اليابانيةِ" لما تتصل به من أوثقِ الصلاتِ بهذا التحليل. ففى محاضرةٍ ألقاها كاتبُ هذهِ السطور فى طوكيو فى ديسمبر ١٩٩٦ قال إن اليابان قد لعبت فى حياتهِ الفكرية واحداً من أخطرِ الأدوارِ، إذ أنها كانت أكبر دليلٍ أمامه على أن نظريةَ المؤامرةِ إما أنها "متوهمةٌ" وإما حقيقية، ولكنها ليست بالقيمةِ التى يعتقد الكثيرون أنها تتسم بها. فإذا كانت هناكَ "مؤامراتٌ" فلاشك أن أقصى ما يمكن أن تصل إليه المؤامرةُ هو ما حدث لليابان فى سنةِ ١٩٤٥، إذ تكون أبشع وأفظع المؤامرات قد بلغت ذروتها القصوى بإلقاءِ قنبلتين ذريتين على اليابانِ. فالمؤامرة إذا وجدت فإن هدفها يكون هو "الإضرار بالطرفِ الذى حيكت المؤامرة ضده"، ولاشك أن

ضرب اليابان بقنبلتين ذريتين لا يُجسد الرغبة فى الإضرارِ فقط بل يُجسد قمة تلك الرغبة.

ومعنى هذا الكلام أننا لو افترضنا وجود مؤامرة ثم افترضنا أن هذه المؤامرة ستبلغ الحد الأقصى وهو محاولة إنزال أكبر الأضرار بالطرفِ الذى تقصده المؤامرة فإن تحقيق الغاية المرجوة من طرفِ الجهةِ المتآمرة لا يمكن حدوثه إلا إذا كان الطرفُ الآخر (الذى توجه المؤامرة ضده) قابلاً ومستعداً لأن ينكسر. فاليابان التى ضُربت بالقنبلتين الذريتين هى اليوم المنافس الاقتصادى الأول للقوى التى كانت تبدو فى سنة ١٩٤٥ وكأنها قد قضت قضاءً مبرماً على اليابان.

يبقى بعد ذلك أهم ما يجب أن يُقال عن نظريةِ المؤامرةِ إذ أن الإيمانَ بها بالكيفيةِ المتفشيةِ إنما يعتبرُ - بلا أدنى شك عندى - نقضاً كاملاً لأسسٍ لا يجب أن نفرط فيها:

* فمن جهةٍ أولى، فإن الإيمانَ بنظريةِ المؤامرةِ بالشكلِ

الذائع حالياً يعنى أن "**إرادة الفعل**" بقدرٍ ما توجد بشكلٍ مطلقٍ عند المتآمِر (بكسر الميم الثانية) فأنها تكون مُنعدمةً عند المتآمَر عليه (بفتح الميم الثانية). وهو وضع يَلصق صفات الكفاءةِ والقدرةِ والعزمِ والإرادةِ ومُكنة الإحداث بالطرفِ "المتآمِر" (بكسر الميم الثانية) وفى نفسِ الوقتِ يجرد الطرف المتآمَر عليه (بفتح الميم الثانية) وهو جانبنا نحن من كل تلك الصفات، فيكون "**الفاعل**" هو "**المتآمِر**" (بكسر الميم الثانية) أما المتآمَر عليه (بفتح الميم الثانية) فيكون "**المفعول به**" دائماً والجهة التى تسَيّر وكأنها جمادٌ أعجم.

* ومن جهةٍ ثانية، فإن الإيمانَ بنظريةِ المؤامرةِ بهذهِ الكيفيةِ ينفى عنا (أى عن المتآمر عليهم) صفة الوطنية ويسبغُها أسباغاً كاملاً على الجهةِ (أو الجهاتِ) المتآمرة وبنفس الدرجة.

* ومن جهةٍ ثالثة، فإن هذا الاعتقاد يجعل من المتآمِر كياناً أسطورياً فى مخيلةِ المتآمَر عليه.

ومن جهةٍ رابعة، فإن هذا الإيمان يحتم ترسيخ الواقع ويفرض السلبية والانهزامية ويعارض كرامة الاعتقاد بأن "الإنسان يصنع واقعه ومستقبله" وأن الأممَ تملك بنفسِ القدرِ أن تصنع واقعها ومُستقبلها.

ويبقى كل ما كتبته عن نظريةِ المؤامرةِ ناقصاً (ومخالفاً لتصورى) إذا فهم القارىء أننى أُروج لهذين المفهومين:

* أن "المؤامرة" هى "الصراع" ، وبالتالى فإننى أنفى وجود "صراع دائم" بدوام مسيرة التاريخ الإنسانى.

* أو أننى أنفى وجود "مؤامرات" عبر مسار التاريخ الإنسانى.

فالواقع أننى أؤمن إيماناً قوياً بأن التاريخ الإنسانى هو سلسلة من الصراعاتِ، كما أننى أؤمن بنفس القدر أن واقعنا العالمى المعاصر هو مسرح لصراعات مريرة وكبيرة. ولكننى أؤمن أن "الصراع" مفهوم مختلف عن معنى المؤامرة.

فالصراع يعنى العمل الدؤوب من جانب (أو من جوانب معينة) بهدف استمرار تفوقها أو حتى توسيع دوائر هذا التفوق و ما يصاحبه من مزايا وامتيازات ولكن الصراع يعنى أن هناك "لعبةً لها فى كلٍ زمن قواعد" وأن على من يريد لنفسهِ مكانة بارزة فوق الأرض أن "يخوض الصراع" بأدواتٍ وقواعدٍ تضمن أطيب النتائج. وهنا فإن المثال اليابانى يَبرز مرةً أخرى كأحد أقوى الأدلة على هذا التشخيص. ومن بديهيات الأمور أن "الصراع" هو لعبة مفتوحة (نسبياً) عن المؤامرة، كما أن قدر الغموض الذى يكتنف "لعبة الصراع" (بل والكثير من المعالم التى تشبه معالم "السحر" و"الشعوذة") هو غموض أقل (نسبياً) مما يكتنف "لعبة الصراع". كذلك، فإن تصوير الأمر على أنه "لعبة الصراع" وليس "مؤامرة عامة محبوكة" تحكم مسار التاريخ، يحفز أصحاب الإرادة والكرامة والهمم على أن يدخلوا اللعبة بنية إحراز نتيجة طيبة، وهو وضع يختلف عن "الروح العامة" التى أفرزها الإيمان المترامى بنظرية المؤامرة العامة، وهى روح تميل الى جانب الشكوى والبكاء والاستسلام والرضى بالنتائج (الوخيمة) سلفاً وليس

التحدى والانخراط فى لعبة الصراع (رغم ضراوتها) بنية بلوغ نتائج كريمة وعظيمة كالتى حققها اليابانيون الذين خاضوا خلال نصف القرن الأخير واحدة من أشرس لعبات الصراع على مستوى التاريخ الإنسانى. كذلك فإننى لم أقصد على الإطلاق أن أقول إن التاريخ خال من المؤامرات. فمن الميسور لأى قارىء واسع الإطلاع على التاريخ أن يرصد العديد من "المؤامرات" المحددة، ولكنى أقول إن التاريخ ، وإن عَرفَ مؤامرات عديدة، فإنه ليس "مؤامرة عامة" وإنما هو صراع دؤوب لا يهدأ ولا مجال فيه للكرامة والظفر لمن دخله مهزوم الروح والوجدان مبلل الخدود بدموع البكاء والشكوى.

وأخيراً، فإننى أجد من اللازم هنا أن أبرز جانباً هاماً من كوارث الإيمان المستسلم بنظرية المؤامرة العامة وهو الجانب الذى يتعلق بالحكام غير الديمقراطيين (مثل بعض حكام العالم الثالث).

فالحاكم غير الديموقراطى يساهم بأفكاره وأقواله

وأجهزة إعلامه فى ترسيخ الإيمان بالنظرية العامة للمؤامرة، لأنه بذلك يكون قادراً على اخفاء خطاياه وأخطائه وراء الادعاء المستمر بأن "كل هذا الحجم من الفشل والمشاكل والمعاناة" إنما يرجع لعناصر خارجية (على رأسها "المؤامرة العامة") وليس للسبب الأكبر والحقيقى وهو غياب الديمقراطية ووجود حكام على شاكلته (ليسوا هم فى معظم الأحوال من أكثر أبناء المجتمع كفاءة وقدرات ورؤية ونزاهة وثقافة).

أما كاتب هذه السطور، فإنه يؤمن أن "الصراع العالمى" شرس ومضنى وبالغ الصعوبة ولكن الأمم تكون أكثر قدرة على خوضه بنجاح وكرامة إذا كانت مستعدة ومهيأة له، وهى لا تكون كذلك إلاّ إذا كانت تُقاد قيادة فعّالة وناجحة وذات رؤية صائبة وعن طريق كوادر تتسم بأعلى درجات الكفاءة والقدرة والنزاهة والثقافة (وأكرر: والثقافة لأنه لا "رؤية" فى اعتقادى لمن لا ثقافة له).

وخلاصةُ وجهة نظرى هنا، أن دعاةَ نظريةِ المؤامرةِ

يتحدثون كوطنيين يحبون أوطانهم واعتقادى الراسخ أنهم وإن كانوا بلا شك وطنيين يشغلهم همّ الوطن العام، إلا أنهم بالطريقة التى يؤمنون بها بنظرية المؤامرة العامة وبتداعيات وآثار هذا الإيمان المطلق فإنهم يكونون انهزاميين و"دعاة استسلام وخنوع وخضوع" قبل أن يكونوا "وطنيين" يبكون على الحظ العاثر الذى جعلهم فى موضع الطرف "المتآمَر عليه".

الفصل العاشر

"التيه الثقافى".

(إن العقلَ المصرى قد اتصلَ من جهةٍ بأقطارِ الشرق القريبِ اتصالاً منظماً مؤثراً فى حياته ومتأثراً بها، واتصل من جهةٍ أخرى بالعقل اليونانى منذ عصورِه الأولى).

"طه حسين..."

من الحَقائقِ التى كان يَنبغى أن تكون واضحة، وأن تكون ـائجُها - بنفس الدرجة - واضحة ومتسقة مع مقدماتها، ى أن هويتنا الثقافية تقوم على الحقائقِ التالية:

أننا -تاريخياً وآنياً- جزءٌ من الثقافةِ العربيةِ الإسلامية.

أننا -جغرافياً- جزءٌ من ثقافةِ شرقِ البحرِ المتوسط.

* أننا -زمنياً- جزءٌ من العالمِ الحديثِ والذى يقوده "الغربُ"، وإن كانت الثقافةُ الذائعة والشائعة باسم "الثقافةِ الغربيةِ" هى ثقافة ذات بُعدٍ غربىٍ (لا يُنكر) ولكنها أيضاً ثقافةٌ ذات بعدٍ "إنسانى"، بمعنى أن الكثير من "المحصولِ الثقافى الغربى" ليس غربياً وإنما وفَد من ثقافاتٍ أخرى سابقة.....

تلك حقائق ما كان لها أن تكون "غائبة" أو "غائمة" وإنما كان من المنطقى أن تكون واضحةً وجليةً، ولكن فى ظلِ انهيارِ المستوياتِ الثقافية وانحسارِ التألق الفكرى والثقافى (كنتيجةٍ لظروفٍ حياتيةٍ طاغيةٍ وعاتيةٍ) فإن الصورةَ أبعدُما تكون عن الوضوحِ، بل إن مُعظم المُهتمين بالشئونِ العامةِ فى واقعنا يعانون من "رؤيةٍ" بالغة الضبابية فى هذا الشأنِ تجعل من هؤلاء أصحاب أفكارٍ ومواقفٍ بالغة الفقر ثقافياً. ولننظر معاً لتلك الحقائق الثلاث الكبرى من منظورٍ واقعنا ومفرداتِ وحقائقِ ومواقفِ هذا الواقع.

نحن وثقافتنا العربية:

المُفترض ألا يكون هُناك إنكار لحقيقةٍ أننا -تاريخياً- جزءٌ من الثقافةِ العربيةِ، ويَعنى ذَلك أن مثقفينا والشَخصيات العامة لدينا يُفترض فيهم أن يكونوا أصحاب إلمام طيبٍ بالثقافةِ العربية. ولكن الواقعَ يؤكد أن ذلك وإن كان ينطبق على البعض إلا أن تعميمه أبعد ما يكون عن الحقيقةِ. إذ أن نظرةً مُتفحصة تُظهر ما يلى من حَقائقٍ مؤلمةٍ:

* رغم أن إتقان اللغة العربية هو العمودُ الفقرى للتعاملِ مع دنيا الثقافةِ العربيةِ الإسلاميةِ الثريةِ والرحبةِ، فإن أعداداً كبيرة من مُثقفينا والشَخصيات المُهتمة بالشؤونِ العامةِ فى واقعنا تملك محصولاً هزيلاً من اللغة العربية، بل وأكاد أجزم أن بعضهم لا يمَلك أن يَتكلم بلغةٍ عربيةٍ سليمة لمدةٍ وجيزةٍ لا تَتَعدى الدقائق القليلة. ومن المؤكد أن أىَّ مُراقبٍ مُنصفٍ لحياتنا العامة سيُلاحظ بوضوحٍ أن قدرةَ الشخصياتِ العامةِ على الحديثِ والكتابةِ بلغةٍ عربيةٍ سليمةٍ قد واصلت الانهيار والانحدار خلال السنوات الأربعين الأخيرة حتى بلغت اليوم ما هى عليه

من وضعٍ مؤسفٍ (بل وأراه كثيراً كوضعٍ "مهين" لكبريائنا الوطنى والقومى).

* أن عدداً من مثقفينا والشخصيات المهتمة بالشؤون العامة لدينا لا يكاد يعرف شيئاً عما أنتجته الثقافةُ العربية من "جبالٍ هائلةٍ" من الإنتاجِ. فمُعظم هؤلاء يكاد يكون مطلق عدم المعرفة بالشعر العربى وهو أهم أشكال الإبداع الأدبى العربى. وبإستثناءِ معرفةٍ سطحيةٍ ببعضٍ الأسماء كأسماءِ عنترة وإمرئ القيس وجرير والفرزدق وبشار وأبى نواس وأبى تمام والبحترى والمتنبى وأبى العلاء، فإن معرفة هذه الشريحة العليا من مجتمعنا بشعر بعض أو كل هؤلاء (وغيرهم) تَكاد تَكون مُنعدمةً. وقل نفس الشئ على معرفةِ مُعظم مثقفينا والشخصيات العامة لدينا بالنثر العربى، فمُعظم هؤلاء لم يَقرأ شيئاً يُذكر لابن المقفع والجاحظ والجرجانى وأبى هلال العسكرى وإبن قتيبة وإبن عبد ربه الأندلسى وياقوت الحموى والمبرد وأبى على القالى (وعشرات غيرهم).

أما إذا وصلنا لعالمِ الفكر وكان قصدنا مناطق كفكرٍ

المعتزلةِ والأشاعرةِ وسائر المذاهب الفكرية (والتى تعرف بالفرقِ عند المتكلمة أى أهل علم الكلام -أى الفكر والفلسفة) بما فى ذلك الأسماء العظيمة لرؤوس من أجّل رؤوس الفكر على مستوى التاريخ أمثال ابن رشد وأبى حيان التوحيدى والغزالى والفارابى والرازى وإبن خلدون (وعشرات غيرهم) فإن عدمَ المعرفةِ تَبلغ مَداها الأقصى.

* أن غير قليلين من المتحمسين للثقافة العربية هُم أصحاب مُطالعاتٍ وقراءاتٍ ومعرفة متواضعة بأمهات الكتب العربية والإسلامية مما أدى بهم للخلطِ بين ما هو "مُقدس" (لأنه جزء من الدين) وما كان ينبغى أن يَبقى خارج دائرة القداسة، (لأنه عمل بَشرى مَحض)، إذ تُضفى القَداسة على الكثير من المسائل التى لا علاقة لها بالقداسةِ لأنها -كما ذكرت- من عملِ الإنسان. وعلى سبيل المثال، فإن كثيرين من هؤلاء لا يعرفون الفارق بين (الشريعة الإسلامية) و(الفقه الإسلامى). بل أن كثيرين منهم يخلطون فى معظمِ ما يقولون ويكتبون بين

الدائرتين، مع ما يجرنا إليه ذلك من نتائجٍ وخيمةٍ وخطيرةٍ. فمعظم الآراء والأفكار والمفاهيم التى يُرددُها الكثيرون على أساسِ أنها ضمن (الشريعة الإسلامية) هى فى الحقيقةِ من أفكارٍ ومفاهيمٍ (الفقه الإسلامى). والذى لا يَعرفه مُعظم هؤلاء أن الفقه الإسلامى "عملٌ بشرىٌ" قابل للنقدِ والنقضِ والتطويرِ. ويرجع علمُ أصول الفقه لأحدٍ أكبرِ علم وأعظم العقول فى تاريخنا وهو الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان الذى يُعد أول الفقهاء الكبار. وهذا الرجل العظيم صاحب الفكر المُستنير هو الذى قال عن أصول الفقه، "علمنا هذا رأى فمن جاءنا بأفضل منه قبلناه". وهو تعبير بالغ الوضوح. وأبو حنيفة أيضاً هو الذى يرفض إضفاء القداسة على أحد (من غير الرُسل والأنبياء عليهم صلوات الله) عندما يقول عن التابعين (أى الجيل التالى للصحابة) "إذا كان التابعى رجلاً، فأنا رجل".

ورغم أن الإمام مالك ليس كمثل أبى حنيفة فيما يتيحه لنفسه من حرية الفكر والتصرف فهو أيضاً القائل لكل من

يدلو بدلوه فى المسائل الفقهية: "ما منا إلا من يخطئ ويرد عليه".

ومع ذلك، فإن الخلط بين الدائرتين عندنا على أوسعِ نطاق بل وبين العديد من المتخصصين، وهو خلط شكّل (ولا يزال) قيداً على الفكرِ المُستنيرِ.

ورغم هذهِ الحقائق الجلية، والتى تَدل على أن أعداداً كبيرة من مثقفينا... لا تعرف شيئاً عن ثقافتنا العربية، فإن البعض من هؤلاءِ لا يَتورع عن تنصيبِ نَفسه مُدافعاً (بعاطفية متأججة وانفعال عنفوانى) عن ثقافتنا العربية التى هو أبعد ما يكون عن معرفتها، لأنه -ببساطة- لم يقم بالجهدِ الواجبِ ويُطالع الثمار العديدة لهذهِ الثقافة فى مجالاتِ الشعرِ والنثرِ والفكرِ...

وإذا كان أحدُ روادِ الأدبِ العربى البارزين قد قال فى مقدمةِ أحدِ كتبهِ: "إن من لا يعرف شيئاً لا يملك حق الحكم عليه"، فإننا لا نملك إلا أن نَقول ان مُعظم المتحمسين عاطفياً

لثقافتنا العربية يفتقدون تماماً لأهلية الدفاع عن هذهِ الثقافة العظيمة، لأن من لا يَعرف شيئاً لا يَحق له الحكم عليه ناهيك عن الدفاعِ عنه.

ولهؤلاء نَقول: إذا كُنتم في شَبابكم لم تُطالعوا عشرات الدواوين الشعرية العربية ومئات الآثار العربية الأخرى في مجالاتِ الأدبِ والفلسفةِ (الكلام) فمن أين تَستمدون الحق في الدفاعِ عن ثقافةٍ لم تأخُذوها مأخَذ الجد الكافي عندما لم تعكفوا على الاطلاعِ على آثارها العظيمة؟

وخلاصة القول هنا، أننا عندما نَقف أمام مُعظم المتحمسين للثقافةِ العربيةِ فإننا نَقف أمام مُتعصبين عن غيرِ علم. أما الذين عرفوا هذه الثقافة حق المعرفة وطالعوا المئات والآلاف من آثارها، فهم وحدهم الذين يحق لهم الفَخر بها والدفاع عنها. وحتى أكون مُحدداً للغاية، فإننى أقول إن رجلاً مثل الأديب العظيم أحمد أمين صاحب موسوعة "فجر الإسلام" و"ضُحى الإسلام" و"ظُهر الإسلام" و"يوم الإسلام" يمَلك أن يَحكم على الثقافةِ العربيةِ، ويَملك أن يعجب

ويَفتَخر بها، لأنه أحاط بثِمارها العَديدة وعَرف أنها ثقافة تَستَحق أن تُبَجل وتُعظم، فمما لا شك فيه أن من حق العرب والمسلمين أن يفتخروا بكل الموضوعية - بما كان لأجدادهم من نصيب وافر فى إثراء الفكر والثقافة الإنسانية. فى الشعر العربى وهذه منطقة شاسعة من مناطق الإبداع العربى. وعلم أصول الفقه علم لا نظير له فى الفكر الدينى لأى أمة أخرى، بلغ فيه التميز العقلى شأواً بعيداً. أما النثر العربى فقد سبق نثر الحضارات العظمى الأخرى (باستثناء النثر الإغريقى) ولا أدل على ذلك من الأعمال العظيمة العديدة التى قد تكون رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى مجرد نموذج لها، فقد أبدع أبو العلاء فى هذه الرسالة شكلاً لم تعرفه ثقافة أخرى، بل أن العديد من الدارسين يربطون بين هذا العمل الأدبى الفذ وبين الكوميديا الإلهية لأليجيرى دانتى التى كتبت بعد قرون من رسالة الغفران. كذلك فإن الكتابات الفكرية لابن رشد والرازى والفارابى تقف كصروح عقلية شامخة تشهد لهذه الحضارة بالسبق والإبداع. كذلك فإن مساهمة ابن خلدون فى مجالين هامين من مجالات الفكر هما تنظير التاريخ ووضع اللبنة الأولى

فيما سمي بعد إذ بعلم الاجتماع هى أيضاً مساهمة يحق لنا ولثقافتنا الفخر بها بلا حد.

نحن وثقافة البحر المتوسط:

خلال العقود الأربعة الأولى من القرنِ العشرين كان المجُتمع المصرى شديدَ الصلةِ بالدوائرِ المُحيطة بمِصرَ جغرافياً وأعنى مَنطقة شرق البحر المتوسط. وخلال هذه الفترة كان من الواضحِ أن مِصرَ وإن كانت تَنتمى -تاريخياً- للثقافةِ العربيةِ والإسلاميةِ إلا أنها فى نفسِ الوقتِ ذات بُعد قوى يَنتمى لحضارةِ شرق البحر المتوسط وما يَعكسه ذَلك ثقافياً على مِصرَ والمصريين. وكان العَقلُ المصرى على درجةٍ من الوضوحِ تَسمح له أن يرى الحكمةَ الواضحة فى كلماتِ الدكتور طه حسين فى كتابهِ "مُستقبل الثقافة فى مِصرَ" الذى صَدَر فى سنةِ ١٩٣٨، عندما أبرز أهميةَ البعدِ الحضارى والثقافى الناجم عن كوننا منْ دول البحر المتوسط كما أننا منْ الدولِ العربية الإسلامية الأفريقية. وتأتى أهميةُ هذا البعد من حقيقةِ أن مُعظم الحضاراتِ القديمة كانت حَضاراتٍ مُطلة على البحر

المتوسط (الحضارة المصرية... الحضارة الفينيقية... الحضارة الإغريقية... الحضارة الرومانية). وأن إنكار هذا البُعد (لحسابِ أبعاد أخرى) هو عملية غير علميةٍ ومُخالفة لحقائق التاريخ والجغرافيا التى لا يمكن مخالفتها.

وإذا كان العقلُ المصرى قد اتسم دائماً -عبر التاريخ- بصفةٍ تسامحٍ قويةٍ، هى أهم مزايا الشخصيةِ المصريةِ، فأنها سِمةٌ أو صفةٌ تتصل بهذا البُعد (بعد البحر المتوسط) أكثر من اتصالها بأبعادنا الأخرى.

وأنا هُنا لا أتكلم عنْ (الشرق أوسطية) التى شاع الحديثُ عنها خلال السنوات القليلة الماضية، لأنها فى اعتقادى من المفاهيمِ التى "طُبخت على عجلٍ" فى "مَطبخ السياسة" وليس فى "مطبخ التاريخ"، وإنما أتكلم عن حقيقةٍ أننا أصحابُ بُعدٍ ثَقافىٍّ واضحٍ يَستمد جذورَه من موقعِنا الجغرافى.

ومن المؤكد، أن الهزالَ الثقافى الذى اعترانا خلال

السنوات الأخيرة وما واكب ذلك من جموحٍ بعض التيارات الفكرية وعدم إعتزازها إلا ببعدٍ واحدٍ من أبعادنا الثقافية، قد لعب دوراً كبيراً فى إضعافِ هذا البُعد من أبعادنا الثقافية، رغم عظيم أهميته كجسرٍ بيننا وبين العالمِ كله، وكمصدرٍ من مصادر مَلمحٍ منْ أهم ملامحنا الحضارية وأعنى "التَسامح".

نحن وثقافة العصر:

من أكثر المسائل الفكرية والثقافية التى حيرتْنى ولسنواتٍ طويلة والتى كلما شُغلتُ بها فكرياً وظننت أننى وصلت فيها إلى يقينٍ قاطعٍ جاءت محاوراتٌ ولقاءاتٌ وحواراتٌ وقراءاتٌ ووجهاتُ نظرٍ شخصية لتثبت لى أننى لم أبلغ فيها بعد حد اليقين وأعنى علاقة العقل العربى بالثقافة التى تُعرف بالثقافة الغربية وما أكثرَ ما حيرتنى الطريقةُ التى نتعامل بها مع هذا الموضوع. فهناك كثيرون فى واقعنا يظنونَ أن الإيمانَ والاعتدادَ والإعتزاز بثقافتنا الخاصة وهى الثقافة العربية إنما يعنى أن نكونَ فى موقفِ المعاداةِ أو التحفز أو التوتر تجاه الثقافة الغربية. والبعضُ

الآخر يرى أن العصرية ومسايرة الزمن يعنيان معرفة الثقافة الغربية والتفاخر بها، دون اكتراث بالثقافة العربية الإسلامية أو الإسلامية العربية.

وقد لاحظتُ فى مُعظَم الحالات أن الذين يقولون بأن علينا أن نعتز بثقافتنا الخاصة يضمون أعداداً كبيرة ممن أُتيحَ لهم أن يعرفوا بعضَ الأشياء عن الثقافة العربية دون أن يُتاح لهم معرفة القدر الكافى عن الحضارة الغربية. بل وحيرنى كثيراً أن بعضَ هؤلاء "المعتزين" لا يعرف إلا أقل القليل عن ثقافتنا.

نحن إذن بصدد فريقٍ يعتز ويفتخر بثقافتنا العربية وهو يعرف القليل عنها ولا يعرف تقريباً أى شىء عن الثقافة الغربية، كما أننا بصددِ فريق ثان يعتز بثقافتنا العربية ولا يكاد يعرفُ شيئاً عنها، وهو فى نفس الوقت لا يعرفُ شيئاً عن الثقافة الغربية، وكان الفريقُ الثانى يذهلنى كثيراً لأنه كان يشبه أمامى رجلاً يعتز بقبيلته اعتزازاً يقوم على العصبية لا غير. أما الفريقُ الأول فكنت

أفهم موقفه لأنه أُتيحَ له القليل من المعرفة عن الثقافة العربية ولم تُتَح له معرفة وافية بالثقافة الغربية فكان من الطبيعى أن يتخذ موقفاً فكرياً هو أيضاً أقرب ما يكون للموقفِ الوجدانى العاطفى عن الموقف الفكرى.

وكانت حيرتى تمتد لدائرةٍ ثالثة من دوائر الحيرة عندما كُنتُ أخوضُ فى حواراتٍ طويلة مع فريق ثالث مختلف تماماً إذ أنه يزدرى الثقافة العربية ويُعجب كل الإعجاب بالثقافة الغربية وهؤلاء كانوا ينقسمون أيضاً إلى فريقين، فريق لا يعرف إلا أقل القليل عن الثقافة الغربية. فى نفس الوقت لا يعرفُ شيئاً عن ثقافتنا العربية، وفريق رغم ولعه الشديد بالحضارة الغربية فإنه لا يعرف عن الثقافة الغربية شيئاً يُذكر ناهيك عن عدم معرفته شيئاً يُذكر عن الثقافة العربية. وفى سنواتِ التفكير والحيرة بصدد هذه المسألة وجدتُ أننى لا أملكُ إلا التعجب، وأنا أرقبُ هذه المجموعاتِ الأربعة.

وكما ذكرت، فقد حيرتنى هذه المجموعات الأربعة وأذهلنى موقفُ كلٍ منها وأذهلنى موقفُ أفرادها كما

أضنانى الحوارُ معها لأنه حوار يشبه ما يسميه العربُ بحوار الطرشان، لأنك تتكلم مع أى فردٍ من أى مجموعةٍ من هذه المجموعات فيردُ عليكَ رداً ينبىء بأنه يتكلم كلاماً ما هو إلا صحيفة اتهام كانت جاهزة لديه من البداية وهى صحيفةُ اتهام تقومُ على التعصبِ والتشددِ والتحيز الوجدانى والعاطفى، ولا تقوم على فهمٍ ودرايةٍ واسعة وثقافةٍ عميقةٍ أو عريضة. ولا شك عندى اليوم بعد سنواتٍ طويلة من الاهتمامِ بهذا الموضوع أن معظمَ الأفرادِ فى مجتمعنا المصرى والعربى يندرجون تحت واحدة من هذه الفئات الأربعة.

ولكن هناك أيضاً فئة خامسة تختلفُ اختلافاً كبيراً عن الفئات الأربعة التى ذكرتها ولكنها فئة لا تضمُ إلا أعداداً صغيرة للغاية، إنها الفئة التى يؤمنُ أفرادُها بأن الثقافة العربية كانت كنزاً كبيراً ومصدراً يجعلنا أصحاب حقٍ فى أن نفتخرَ بها. وأفراد هذه الفئة يعرفون عن هذه الثقافة الكثير، فقد قرأوا عيون إبداعات هذه الثقافة منذُ ازدهرت بعد أقل قليلٌ من مائةِ سنة على ظهورِ نورِ الإسلام، ثم إرتفع نجمُها فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين

حتى بلغَ آفاقاً بعيدة من آفاقِ التألق . هؤلاء يعرفون عن الشعر العربى الكثير ويدركون قيمة ما توصل إليه الفكر العربى من أبعاد رائعة من التأنقِ والتألقِ والعبقريةِ تجلّت فى إبداعاتِ فكرِ المُعتزلة، وفى ما بلغه فقهاء المسلمين من آفاق بعيدة من الدقة الفكرية فى علمِ أصولِ الفقه.

إن أفراد هذه المجموعةِ القليلة يتيهون إعجاباً بفكرِ ابن رشد وابن سينا وابن خلدون كما يفتخرونَ بعبقرياتٍ شعرية مثل أبى نواس والمتنبى وأبى العلاء المعرى. وبعبقرياتٍ فى النثرِ العربى مثل ابن المقفع والجاحظ. وإذا تذكروا الشأو البعيد الذى بلغه علامةٌ مثل الرازى شعروا بدرجةٍ رفيعةٍ من الزهو والمجدِ. إذن أفراد هذه الفئة الخامسة مطلعون بعمقٍ على الثقافة العربية وهم يفتخرون بما يعرفون، ولكنهم أيضاً يدركون أن الثقافة العربية هى عمل إنسانى ولا يضفونَ عليها القداسة وإنما يكتفون بإضفاء هذه القداسة على القرآن الكريم.

إن أفراد هذه المجموعة الخامسة وهم أيضاً يعرفون أن القرآن الكريم أعلى من أن يكون مجموعة من القواعد

الدستورية أو مجموعة قواعد قانونية مدنية وجنائية، فهو النص الإلهى الذى نزل لينظم أهم علاقة فى الوجود وهى علاقة الخالقِ بالمخلوق ثم لينظم علاقة المخلوق بنفسه عن طريق مجموعةٍ سامية من المبادىء الكلية التى لو استلهمها الإنسانُ فى أفكارِه ونظمِه وتشريعاته وقوانينه لوفر لنفسهِ ولبنى الإنسان على الأرض أفضل النظم. وأفرادُ هذه المجموعة أيضاً يعرفون عن الثقافةِ الغربية الكثير فهم غطوا مساحاتٍ واسعة من مناطقِ الثقافة الغربية بل ومن منابعها القديمة مثل الثقافة اليونانية والرومانية وثقافة عصر النهضة أو الرينيسانس. أما ثقافات الحضارة الغربية الحديثة فقد أحاطوا بها إحاطةً جيدةً وخاضوا فى معظم فروعها كالأدبِ والفنون والتاريخ وعلوم السياسةِ والإجتماع والاقتصاد وعلوم الفلسفة وعلم النفس كما توسعوا فى الاطلاع على موجات العلوم الحديثة المتصلة بحركة الاقتصاد المعاصر. وأفرادُ هذه المجموعة وإن كانوا يعجبون بالكثيرِ من إنجازاتِ الحضارة الغربية إلا أنهم لا يصلون إلى حد الافتتان والتقديس لأنهم يعلمون أن الحضارة الغربية حضارة إنسانية لها ما لها وعليها ما عليها، وإن كانت

صاحبة إنجازات عظمى مثل خلقِ نظامِ عملٍ مُنتج وفعال، ومثل تطوير علاقة الحاكم بالمحكوم أو المحكوم بالحاكم فى ظل منظومةٍ راقية تسمى الديموقراطية ومثل حقوقِ الإنسان، إلاَّ أن الحضارة الغربية لها أيضاً كبوات كبرى مثل انحلال الأسرة وتفاقم الظواهر السلبية كالجريمة والشذوذ والعنف، ناهيك عن التعصب العرقى الذى لم تستطع الحضارةُ الغربية أن تتخلصَ منه منذُ بدايتها، فقد كانت دائماً حتى فى أوقات ازدهارها العظمى حضارة ذات ثقافةٍ عنصرية، عرقية وأحياناً شوفينية.

وقد حيرنى أن الأغلبية العظمى فى واقعنا تنتمى لمجموعةٍ من المجموعاتِ الأربعة الأولى. أما المجموعة الخامسة فلا يكاد أفرادُها يتجاوزون فى عددهم المئات على مستوى الوطن العربى بأسره وهم فى الأغلب الأعم يتخوفون من إبداءِ وجهاتِ نظرهم، لأنهم كثيراً ما يقابلون بالهجوم وغالباً ما يكون الهجوم ظالماً عندما يتهمون بأنهم مبهورون بالحضارةِ الغربيةِ. والحق أن معظم هؤلاء غير مبهورين بالحضارة الغربية لأنهم يعرفون عنها ما يجعلهم يعجبون

بالكثيرِ من ثِمارها ولكن دون أن يمنعهم إعجابهم من رؤية وهدات الثقافة الغربية لا يستطيع أحدٌ أن يدافع عنها بعد أن أفقدت الإنسانَ مجموعةً من أهم مناطق خصوصياته التى كانت يجب أن تُصان وأن لا تذروها رياحُ العصرِ وهى كما قد ذكرت آنفاً تفكك الأسرة وشيوع أشكال أخرى عديدة من تعثر الفرد بالمجتمع.

ومع ذلك فإن معظم أفراد المجموعات الأربعة الأولى لا يفهمون موقفَ هذه المجموعة الخامسة ولعل السبب أن الإنسانَ عادةً لا يرى ما يجهل ويفقد تماماً القدرة على الحكم على ما لا يعرف. ولكن فى داخل المجموعات الأربعة تختلف المواقفُ، فبينما يتسم أفرادُ المجموعة الثالثة والرابعة بمسحةٍ تظهرهم وكأنهم عصريون ومتمدنون، فإن أفرادَ المجموعة الأولى والثانية يظهرون فى موقفٍ بالغ التعصب. والحقيقة أن أفرادَ المجموعات الأربعة يشتركون فى صفةٍ أساسيةٍ وهى أنهم يحكمون على أشياءٍ لا يعرفونها وأنهم يفتقدون ويفتقرون لأهم عناصر الحكم. كذلك فإن أفراد المجموعة الثالثة والرابعة ليسوا بالضرورةِ أكثرَ تحضراً

وتمدناً من أفرادِ المجموعةِ الأولى والثانية وإن كانت المظاهرُ الشكلية قد تدل أحياناً على ذلك وهو غير صحيح.

والمشكلة الكبرى أن الحوارَ يكاد يصبَحُ مستحيلاً بين أفراد المجموعة الخامسة والمجموعات الأربعة الأخرى، فإن ما يطلبه أفرادُ المجموعة الخامسة لا يجد أذناً صاغيةً لدى أفراد المجموعات الأربع الأخرى. لأنهم فى الحقيقة يظنون أنهم يُهاجمون ويُطعَنونَ فى مُقدساتهم فيتخذون موقفاً عاطفياً وجدانياً قد يبلغ حد العنف لأنهم يشعرون أن الواجب يملى عليهم الدفاع عما يعتزون به ويفتخرون به. ولا شك أن المسؤولية الثقافية والفكرية بل والوطنية، تلقى على أكتاف المجموعة الخامسة مهمةً كبرى. هى إقامةِ حوارٍ متحضر مع أفراد المجموعات الأربع الأخرى يؤسس على تسليطِ الضوء على الحقائق والأخذِ بيدِ أفرادِ المجموعاتِ الأربع الأخرى، ليروا أنه لا تعارض فى الحقيقة بين أن يعرف الإنسانُ ثقافته ويفتخر بها ويبلغ فى الاعتزاز بها أبعد الحدود وأن يكونَ فى نفس الوقت ملماً بثقافةِ العصر المتمثلة فى الثقافةِ الغربيةِ دون أن يَسقطَ فى وهدةِ الانبهار الأعمى

والتقديس الذليل لهذة الثقافة لأنها مجرد ثقافة إنسانية لها مزاياها ولها أيضاً عيوبها. ويجب على أفراد المجموعة الخامسة أن يحيطوا الحوارَ دائماً بإطارٍ من الاحترامِ مع بذلِ كل الجهودِ الفكريةِ والعقليةِ والثقافيةِ والموضوعيةِ لكى يظهروا لأفراد المجموعة الأولى والثانية بالذات أن الثقافة التى تسمى بالثقافةِ الغربيةِ ليست فى الحقيقة حضارة غربية محضة وإنما ثقافة إنسانية تمركزت حالياً فى الدولِ الغربيةِ المتقدمة ولكنها فى جذورِها أخذت الكثيرَ من الحضارةِ اليونانية القديمة ومن الحضارة العربية فى عصورِ ازدهارها كما أنهاأخذت الكثير من حضاراتٍ أخرى قديمة كالحضارةِ الرومانية وغيرها من الثقافاتِ الحديثةِ.

إن على أفرادِ المجموعة الخامسة أن يُظهروا أن الجمعَ بين فهم ثقافتنا العربية الإسلامية وبين فهم واستيعابِ الثقافةِ الغربيةِ أمرٌ ممكنٌ وميسورٌ، دون أن يفقد الإنسانُ هويته ودون أن يصير تابعاً للثقافة الغربية بشكل أعمى. لذا لا يجب أن نسقط أبداً فى حفرة التساؤل المستحيل: "هل نتبع أم نأخذ هذه أوتلك؟" لأن الجواب السليم هو "هذه وتلك".

نأخذ من ثقافتنا الكثير، ونأخذ من ثقافة الغرب الكثير أيضاً وليس بواجبٍ علينا أن نأخذ من الغرب بالقدر الذى يمحو هويتنا وخصوصيتنا. ويبقى المحورُ الهام هو أن يعترف أفرادُ المجموعاتِ الأربعة الأولى بأن من لا يعرف شيئاً لايعرف حق الحكم عليه، وبالتالى فإن على أفراد المجموعتين الأولى والثانية أن يؤمنوا أن أحكامهم على الثقافةِ الغربية لا يمكن أن تكون سليمةً لأنهم بسهولةٍ وبوضوحٍ تامٍ لا يعرفونها، ولا يعنى ذلك على الإطلاق أن ثقافتهم العربية الإسلامية خاطئة، ولكنه يعنى أن أحكامهم على الثقافة الغربية لا تستند على أى أساسٍ من منطقٍ أو علمٍ. كذلك ينبغى أن نصل بأفرادِ المجموعةِ الثالثةِ والرابعة ليقينٍ واضح بأن مواقفهم ليست أفضل من موقف المجموعة الأولى والثانية لأنهم أيضاً يؤمنون إيماناً يقوم على التقديس فى غير محله والانبهار وهو ما لا يصلح لأن يكون أساساً للأحكام. ناهيك عن أنهم لا يعرفون عن الثقافة الغربية إلا القليل والقشور كما أنهم يجهلون عن ثقافتهم العربية كل شىء تقريباً، وهنا فإنهم يقعون مرة أخرى تحت طائلة الحكم المنطقى الذى لا يقبل النقاش بأن من لا يعرف

شيئاً لا يملك حق الحكم عليه وقد يكون أفرادَ المجموعةِ الثالثةِ والرابعةِ غير مهتمين بالحوار أصلاً. أما أفراد المجموعة الأولى والثانية فإن الانفعال والالتهاب الوجدانى الذى يتخذونه والربط الشديد بين المناقشة هنا وبين الكرامة والإعتزاز التى تشوب تناولهم للأمر تجعل الحوار شبه مستحيل وتجعله صعباً للغاية فهم أقرب ما يكونون للصدام، الأمر الذى يحول بينهم وبين أن يفتحوا أعينهم على حقائق إذا رأوها وجدوا أنهم يمكن أن يظلوا متمسكين باعتزازهم وفخرهم وانتمائهم لثقافتهم مع تعلم واسع وإدراك ومعرفة بثقافة الغرب التى هى ثقافة العصر دون أن يفقدوا هويتهم أو كرامتهم ودون أن يصبحوا تابعين لأحد. والحقيقة أنهم فى هذه الحالة يزدادون ولا ينقصون ويقوون ولا يضعفون، إلا أن الموقف الوجدانى الذى يتخذونه يجعل من الحوار معهم مهمة صعبة-وليست مستحيلة -وعلى أفراد المجموعة الخامسة أن يعرفوا أنه بدون الموضوعية والبعد عن الانفعال عن مس المقدسات، فإن الحوار مع أفراد المجموعة الأولى والثانية سرعان ما ينقطع ويُصبح من شبه المستحيل وصله مرة أخرى.

الفصل الحادى عشر

ثقافة الموظفين.

إن جـالك (جـاءك) الميـرى، اتمرغ (تمرغ) فـى ترابه.

"مثل عامى مصرى.."

فى كل مجتمع من المجتمعات يكونُ المناخ الثقافى مُشبعاً بعدة أفكار عن العملِ والوظائف يُشكلُ اتجاهها عنصراً من عناصرِ المناخِ الثقافيِ العام. فماذا عن هذا البعد فى "عقلِنا المصرى"؟.

إن نظرةً سريعةً لتاريخِنا الممتدِ عبر قرونٍ عديدةٍ تثبت أن (العملَ للحاكمِ أو للأميرِ أو للحكومةِ) كان دائماً شيئاً بالغَ القيمةِ والأهميةِ فى ذهنِ وعقولِ وتفكيرِ المصريين .... إن نظرةً سريعةً لتاريخِ مصرَ كما كتبُه مؤرخون ثقاةٌ مثلُ المقريزى وابن إياس (صاحب أوثق تاريخ للحقبةِ المملوكيةِ

التى امتدت بشكلٍ سافرٍ حتى سنة ١٥١٧ وهى السنة التى قُتلَ فيها طومان باى بعد دخولِ الجيش العثمانى لمصرَ بقيادةِ السلطان سليم شخصياً وصيرورة مصرَ "ولايةً عثمانيةً"..) إن نظرةً سريعةً لهذهِ الكتاباتِ التاريخيةِ الرائعةِ تُثبت أن (العملَ للحاكمِ أو للأميرِ أو للحكومةِ) كان دائماً شيئاً قيماً ومميزاً عند المصريين ...

وما أن بدأت الحكومةُ تتحول إلى شكلٍ عصرىٍّ من أشكالِ الإدارةِ فى عهدِ محمد على حتى تعاظمتْ قيمة أن يعمل المصرى فى عملٍ مرتبطٍ بالحكومةِ ... أو بالأميرِ... وهو مصدر كلمة (أميرى) أو ميرى التى كانت دائماً ذات دلالةٍ واضحةٍ...الموظف الميرى... والثياب الميرى... وكل ما هو (ميرى)، كان دائماً ذا دلالةٍ واضحةٍ ومميزةٍ.

وإذا كانت الأمثالُ الشعبية هى ترجمةٌ واضحةٌ ودقيقةٌ لمكوناتِ عقلِ الجماعةِ، فإن كتابَ الأمثالِ الشعبيةِ المصريةِ لأحمد باشا تيمور يقفُ شاهداً بما احتواه من أمثلةٍ عن قيمةِ وأهميةِ العمل تبع الحكومة عند المصريين الذى عبّروا عن

حبهم الشديد للارتباطِ مدى الحياة بالعملِ الميرى والذى جاءت الأمثلةُ لتبالغ فى تصويرِه عندما تحدثت عن روعةِ التمرغ فى ترابِ الميرى أى الأميرى أى الحكومى.

ومن هذا الارتباط الوثيق بين المصرى والميرى، نبتت عدةُ مفاهيمٍ صارت كالمسلماتِ، لعل من أهمِها ما يلى:

١- أن التوظفَ الحكومى أرقى وأكرم من التوظفِ للقطاعِ الخاص.

٢- أن التوظفَ الحكومى هو (الضمانةُ الكبرى) فى مواجهةِ مخاطرِ الرزق والحياةِ.

٣- أن التوظفَ الحكومى أفضلُ من التوظفِ للقطاعِ الخاصِ حتى لو كان مردودُه المادى أقلَ بكثيرٍ.

٤- أن التوظفَ الحكومى مصدرُ "وجاهةٍ اجتماعيةٍ" لاسيما عندما يرتقى الموظفُ العام لقممِ الوظائف العامة،

وهذه الوجاهةُ الاجتماعية بالذات أصبحت عبر السنين مصدرَ "قيمة عظمى" عند المصريين.

٥- أن "الاستقالةَ" و"تغييرَ العملِ" هما من الأمورِ نادرةِ الحدوث نظراً لأنهما ينطويان على إخلالٍ جسيمٍ بالمفهومِ المستديمِ للوظيفةِ العامةِ، لدرجةِ أن المجتمعَ أصبح ينظر للمستقيلِ نظرتَه للمغامرِ أو الطائشِ الذى لا يُحسن تقديرَ الأمورِ.

وقد قصَّ على أحدُ الأصدقاء وهو مؤلفٌ لأكثر من خمسين كتابٌ نصفها عن الحضارةِ المصريةِ القديمةِ والنصفُ الآخر عن الآدابِ الأوروبيةِ الحديثةِ أنه عندما قدم استقالته من العملِ الوظيفى وهو وكيل وزارة النقل قام رئيسُه بتمزيقِ الاستقالة فى موقفٍ يُعبرُ عن أنه إنقاذٌ له من مغبةِ ورقةٍ طائشةٍ لابد أن صاحبَها قد سطرَها فى لحظةِ إحباطٍ أو غضبٍ أو طيش! وهذا المؤلف هو الأستاذ/ مختار السويفى الذى أصرَ على قراره وعلى تفرغه للتأليفِ والكتابةِ. وهناك عشرات الأمثلة المشابهة والتى تعبرُ كلُها عن "عمقِ قيمةِ

الوظيفةِ الحكوميةِ الآمنةِ والمستمرةِ" عند معظمِ المصريين.

وربما لا توجد قصةٌ تدلُ على عمقِ هذا المفهومِ من حوارٍ دار بيني وبين شابٍ كنت أعلم أنه يعملُ بإحدى الصحف إلاَّ أنه أدهشني بقوله أنه ما زال لا يعمل ... فلما سألته عن عمله بالجريدةِ التي كنت أعلم أنه يعملُ بها قال لي (أنا لم أثبت بعد...يعني لا أعمل)...وهكذا فإن العملَ الذي يُقومُ به والأجر الذي يحصلُ عليه ليسا في اعتقادِه دليلاً على أنه يعمل لأنه (غيرُ مثبتٍ) وهي حالة تعبر بوضوحٍ كاملٍ عن مفاهيمٍ إداريةٍ ثقافيةٍ تنبعُ كلُها من دائرةِ الوظيفةِ الحكوميةِ.

ولكن من المؤكدِ أن المستقبلَ لن يكون -في هذا المجالِ- صورةً مكررةً من الماضي. فمن المؤكدِ أن دورَ الدولةِ الواسع في الحياةِ الاقتصاديةِ والذي بلغ قمةَ اتساعِه في مصرَ في الستينيات سوف يكون مختلفاً تماماً في المستقبلِ القريب. فالدولةُ التي كانت بمثابةِ (ربِ العملِ) للسوادِ الأعظمِ من المصريين، لن تكون كذلك في المستقبل. وسيقتصر دورُ

الدولة -كما ذكرت- على وضعِ السياساتِ والتشريعاتِ ومراقبةِ تطبيقها. أما الأنشطةُ الاقتصاديةُ الإنتاجيةُ والخدميةُ فسيتحول معظمُها للقطاعِ الخاصِ، وستكون فرصُ العملِ لدى الحكومةِ أو القطاعِ العام فى انحسارٍ مستمرٍ. وفى المقابلِ، فإن معظمَ فرصِ العملِ الجديدةِ ستكونُ فرصاً يطرحُها القطاعُ الخاصِ.

ولاشك أن ذلك سيعنى -فيما يعنى- ذبول العديدِ من المفاهيم الإداريةِ التى كانت تنبعُ من كونِ الأغلبيةِ تعملُ لدى الحكومةِ. ولاشك أن مفاهيماً أخرى جديدة سوف تبرز وتصبح هى (الأساسَ) للثقافةِ الإداريةِ الشائعةِ فى المجتمعِ.

فما هى أهم ملامح تلك المفاهيم التى يُعتقد أنها ستصاحبُ وتواكبُ تحولَ المجتمعِ لاقتصادِ السوقِ؟

من الممكن الاسترسال فى العديدِ من ملامحِ هذا التغييرِ، ولكننى أفضلُ الإيجازَ والاقتصارَ على بعضٍ (لا كل) المفاهيمِ المتوقعِ أن تكوّن ما نسميه بثقافةِ المستقبلِ الإداريةِ:

١- فرصُ العملِ بين احتياجاتِ السوق الفعليةِ والمؤهلات الدراسية:

بينما تحكم سوق الوظائف نوعية وخلفية المؤهلات الدراسية للشخصِ في نظمِ الاقتصادِ الموجه، فإن نظم إقتصاد السوق تنطلق في هذه الجزئية من زاوية مختلفة وهي حقائق واحتياجات السوق وهو ما ينعكسُ على المدى الطويلِ على البرامجِ الدراسيةٍ وتوجهاتِ الأشخاصِ الذين يأخذون في الاعتبارِ حقائقِ السوقِ قبل أي اعتبارٍ آخر.

٢- تراجع عددِ الوظائف التي تستغرق الحياةً العملية للإنسان:

منذ سنوات غير بعيدة كان أشخاص عديدون يقضون عمرهم العملي أو الوظيفي في مكان عملٍ واحدٍ ولكن من المؤكد أن حقائق الحياة الاقتصادية العصرية لن تسمح بالعديدِ من هذه الحالاتِ حيثُ سيكون من الصعبِ تصور وجود وظيفة لمدى العمر العملي لأعدادٍ كبيرةٍ من الناسِ وقد بدأت مجتمعات عديدة تشهد ظاهرة تنقل

الإنسان فى حياته العملية من وظيفةٍ لأخرى ومن مجالٍ عملى لمجالٍ آخر، ومع ذلك فمن الضرورى أن نذكر أن المناخ الحضارى والثقافى يلعب دوراً هاماً فى ما يتعلق بهذه الجزئية ولا أدل على ذلك من النموذج اليابانى.

٣- ذبول واندثار مفهوم "الأقدمية" الذى نشأ واستقر فى ظل الوظيفةِ العامة:

كان شغل الوظائف الكبرى فى مجتمعنا، مثله مثل العديد من المجتمعاتِ، على أساسٍ من مفهوم الأقدمية الذى رسخ فى مفاهيمنا الإدارية لسنواتٍ طويلةٍ ولكن حقائق الإقتصاد المعاصرة تؤكد أن تولى الوظائف العليا سيكون فى المستقبل لأسبابٍ ليس من بينها الأقدمية.

٤- ذبول واندثار أهمـيـة (السن) و(المؤهل الدراسى) كمعيارين أساسيين للعديدِ من الوظائفِ. وفى المقابلِ، فإن المستقبلَ سيشهدُ حالاتٍ عديدةٍ يرأسُ فيها من هم (أصغر سناً) أشخاصاً فى سنٍ أكبرْ... كما سيشهدُ المستقبلُ حالاتٍ عديدة يرأس فيها أصحابُ مؤهلاتٍ

دراسية ما أشخاصاً يحملون درجات علمية أكبر وأعلى، وهو الوضع الشائع فى المؤسسات الاقتصادية العالمية الكبرى كالشركات متعددة الجنسيات، حيث يكون المعّول على (الكفاءة) كما تُعبر عنها النتائجُ لا كما تُعبر عنها (الأوراق).

٥- تعاظم قيمة (الكفاءة الشخصية) Personal Competence محل القيم التى تأخذ طريقها للاندثار مثل قيم (السن) و(الأقدمية) و(مسميات الدرجات العلمية).

٦- تعاظم أهمية قيم جديدة مثل:

أ- القدرة على الاتصالات.
Communication Skills.

ب-القدرة على القيادة.
Leadership Ability.

ج- التمييز بين فئة الـ Generalist وفئة الـ Specialist.

د- التمييز بين الأداء Performance والقدرة Potential.

٧- كذلك سينحسرُ دورُ القياداتِ الإداريةِ ذات الأبعادِ المحليةِ (Localized) لصالحِ القياداتِ الإداريةِ ذات البعد الدولى، وهى نتيجةٌ طبيعيةٌ لنظمِ العولمةِ (Globalization) ولاتفاقياتِ الجات وما يماثلها من نظمٍ تهدفُ للتقليلِ من الحمائيةِ وتعظيمِ المنافسةِ.

الفصل الثانى عشر

تمجيد الفرد.

(نجاهد ليرضى "الجهاد" لا ليرضى"عمر بن الخطاب"...).

"أبو عبيدة بن الجراح".

أقوامُ هذا الشرق ما سئمت
شيمَ العبيدِ، وقبحت شيما
لا يحفلون بغير من رفعت
سادتُهم .. فليرفعوا الخدما.

"العقاد

موضوع هذا الفصل من الأمورِ التى تقف على الحدِ الفاصلِ بين مناطق عديدة، لذلك فإن تناوله ينبغى أن يتم بمزيد من الموضوعيةِ وبدون انفعال لا مبرر له، رغم أنه موضوع يدعو للانفعالِ. ولب الموضوع هو علاقة المصريين بحكامِهم (تاريخياً) وهى علاقة تختلف عن علاقة معظم شعوب العالم بحكامهم. فمصرُ التى ألّهت حكامها منذ عشرات القرون ...

ومصر التى أعطت حكامها المماليك "الأبهة والسلطان المطلق والتفخيم العظيم"، لا تزال آثار منها فى وجدانِ وعقولِ أبنائها وهم يقفون اليوم على مشارف القرن الحادى والعشرين.

فهل هذه "العلاقة الخاصة" بين المصريين وحكامهم أمر إيجابى يجب الاحتفاظ به، أم أنه أمر تشوبه جوانب سلبية يجب أن ننعم النظر فيها وندرسها كعيوب يجب العمل على التخلى عنها؟ .. ثم ما هى الجهة المسئولة عن وجود هذه العلاقة: التاريخ؟ .. أم الحكام؟ .. أم نحن أبناء هذا الوطن؟ وإذا كانت هناك سلبيات، فما هى الجهة القادرة على بدءِ مشروع العلاج؟

وهكذا، يجد القارئ نفسه (معنا) فى خضم مناطق بالغة الحساسية وتحتاج لأن يكبح المرء عنان انفعالاته وهو يتدبرها ويعتمد -أساساً- على العقلِ والتفكيرِ الموضوعى الذى يتجنب الحماس الزائد والشطط.

أما **الجزئية الأولى**، فأعتقد أن علاقة المصريين بالشخصياتِ العامةِ تحتاج لأن تُخلى من هالاتِ التقديس التى تكتنفها أحياناً. فحتى الحاكم فإنه ابن من أبناء هذا الوطن يتحلى بقدرات وإمكانات عقلية ودراية وخبرة وموضوعية واتزان وإخلاص تجعله قادراً على تنفيذ ما هو منوط به من مهام. ويعنى ذلك أن العلاقة يجب أن تكون مؤسسة على هذه الأرضية وأن تخلى مما يشوبها من أبعاد تضرب جذورها فى التاريخ الطويل لهذا الوطن وبالذات للتاريخ الفرعونى والمملوكى.

فنحن إذن نخرج بالعلاقة من كونها (مهمة بالغة الأهمية) إلى صيغة عاطفية نحيطها بهالاتٍ من التقديسِ والارتفاعِ عن أرضِ الواقعِ. ونحن نفعل ذلك -بنفس الكيفية- مع كل حكامنا. ويقينى، أن "الحاكم" ليس هو مصدر هذه الظاهرة، وإنما هى "ظاهرة" ذات جذور عميقة فى وجداننا بشكلٍ يجعلها تتكرر -منذ قرون عديدة- وبنفس الكيفية مع أشخاص مختلفين.

وهناك الكثير الذى يمكن أن يُقال عن أثرِ العهد المملوكى على تكوين الشخصية (أو العقلية) المصرية فى هذا المجال بالتحديد، ولكن ذلك سيخرجنا عن المحور الذى يدور حوله اهتمامُنا. فنحن نزعم أن هناك شبه اتفاق تام بين المثقفين فى هذا الوطن على أن علاقة "الحاكم بالحكومين" والموجودة في الديمقراطيات المستقرة هى هدف نتطلع لأن نبلغه. وإن هذه العلاقة تقوم على أساس أن الحاكم يقوم بمهمة وأنه مسئول عن تحقيقِ أهداف هذه المهمة دون أن ننتقل به إلى مكانة غير واقعية محاطة بالتقديس المبالغ فيه والذى يخرج بالعلاقةِ عن الحدودِ التى يسمح بها الزمن وتطور الديمقراطية.

ونحن هنا لا نبسط الأمور بتوجيه الاتهام لأحد، فالتاريخ هو الصانع الأول للظاهرة التى نتناولها، ونحن (الشعب) الجهة الأساسية التى تنبع منها هذه الظاهرة. والمثقفون فى هذا الوطن يأملون أن يحدث تطوير فى هذه الجزئية بحيث تتحول العلاقة إلى ما يشبه "علاقات العمل" وإن كانت "علاقة عمل" على أعلى درجة من الأهميةِ.

وأما **الجزئية الثانية**، فتتعلق بآلية إحداث التغيير فى هذا الشأن. ورغم تسليمى بأن "المحكومين" فى هذا الوطن هو مصدر "الظاهرة" إلاَّ أن التغيير يبقى مستحيلاً ما لم يبدأ من قمة الهرم المجتمعى، إذ أن البدء من القاعدة مستحيل لعمقِ الظاهرة ومدى اتساعها.

وأعنى، أن رأس المجتمع هو القادر على البدءِ فى بث قيم أخرى مختلفة فى هذا المجال: قيم تناسب حقيقة العلاقة بين الطرفين (كما آلت إليه مع التطور الإنسانى) وتناسب القيم التى استقرت فى المجتمعات ذات الحظ الوافر من الديموقراطية.

ولا شك أن بدء هذه المهمة من قمة المجتمع يجب أن تتبعها تغيرات فى برامجِ التعليمِ والإعلامِ تبث (بهدوء وعقلانية) القيم المعاصرة للمجتمعاتِ المتقدمة فى هذا الشأن.

الفصل الثالث عشر

محليون.... للنخاع.

تجتمع عدةُ أسباب لجعل (جرعة المحلية) عند المواطن المصرى المتوسط المعاصر مفرطة في الاتساع، كما أن نفس الأسباب تجتمع لتجعل (جرعة العالمية) عند نفس المواطن بالغة التواضع.

فالمجتمعات القديمة من جهة، كثيراً ما يُعانى أبناؤها من الإغراقِ فى المحليةِ، فالدنيا عند هؤلاء هى هذا الوطن فى المقامِ الأول والأخير.... ومن هنا خرجت المقولة الدارجة (مصر أم الدنيا).

ومن جهةٍ ثانية، فإن سنوات الستينيات والسبعينيات والتى كانت بمثابة "قاعدة الانطلاق" على مستوى العالم الخارجى لما جاء بعد ذلك من ثورة الاتصالاتِ وسقوط الجدران الفاصلة والعازلة بين الدول والشعوب وبداية

الإعلام الذى يتخطى حدود الدول والاقتصاد الذى يتبع نفس النسق، خلال هذين العقدين، كنا نحن ممعنين فى المحلية والحد من التواصل مع "دنيا الخارج".

ومن جهةٍ ثالثة، فإن برامجنا التعليمية قد توالت التركيز على الداخلِ (تاريخنا وحضارتنا وآدابنا) بشكل يناقض -مثلاً- برامج التعليم فى دولة مثل فرنسا تولى مقررات دراسة تاريخ مصر القديمة والصين والحضارتين الإغريقية والرومانية ما توليه لمقررات دراسة تاريخ فرنسا ذاتها.

ومن جهةٍ رابعة، فإن نشأة جهاز الإعلام المصرى من بدايته كذراع للحكومة وما حدث (على نفس الشاكلة) للصحف المحلية، قد جعل "رسالة الإعلام المصرى" لسنوات غير قليلة "رسالة محلية بحت"، ولا أدل على ذلك من مقارنةِ نشرة الأخبار الرئيسية لدينا بنشرة الأخبار فى معظم دول العالم -فالأخبار المحلية لدينا تكتسح الصورة، بينما معظم نشرات الأخبار تتابع الأحداث أياً كان موقعها الجغرافى.

ومن **جهةٍ خامسة**، فإن نمو التيار السلفى (نسبياً) فى مجتمعنا كان انتصاراً قوياً للمحلية على حساب الدولية. ولا شك أن مستقبل العالم بأسره يشهد إنحساراً نسبياً للمحلية وازدياداً واضحاً للدولية أو العالمية. وإن ذلك يقع على أرض الإقتصاد كما يقع على أرض الثقافة والفكر والتعليم والإعلام.

وبالتالى، فإن عدم استفاقتنا على ضرورة العمل العلمى الجاد على خلق معادلة متوازنة بين (المحلية) و(العالمية) سيجعلنا أقل قدرةً على التعامل الفعّال والإيجابى والمثمر مع آليات الواقع الجديد.

وإذا كنت قد ذكرْت -مكرراً- فى العديدِ من الكتاباتِ والمحاضرات، أن المحرك (الموتور) الذى ستعتمد عليه المؤسسات والشركات والمجتمعات هو (الإدارة الفعّالة)، فإننى أُضيف هنا أن الإدارة الغارقة فى المحلية (ستكون عاجزة تماماً عن خوض لعبة المستقبل بنجاح فأساس هذه اللعبة مزدوج:

* الإدارة الفعّالة، بمعنى القيادة المثمرة.

* المعرفة الواسعة بعناصرِ اللعبة على المستوى الدولى.

وسينطبق ذلك على (الشق الاقتصادى) من حياة المجتمعات كما سينطبق على (الشق السياسى).

خاتمة

ما دَخل اليهودُ من حدودِنا...
وإنما تسربوا كالنملِ من عيوبِنا..
"نزار قباني..."

(أ)

تضمن هذا الكتاب عدداً من العيوب التى أعتقد أنها تشوبُ تفكيرَ العديدين منا، بشكل يسوّغ لنا أن نقول إنها باتت تشكل المعالم أو الملامح السلبية لعقل قطاعات كبيرة منا (كمصريين وكعرب). وإن كان ذلك يقتضى إدراج الملاحظات التالية:

* أن الكتابةَ عن هذه العيوبِ لا تعنى أنها تشكل "كل ملامحنا" الثقافية، فأنا لم أقصد ذلك ولم أكتب وصفاً

لحضارتنا أو لثقافتنا، وذلك ما كان يقتضى الكتابة عن "المناقب" و"المثالب" -وإنما كنت أكتب تحت عنوان محدد للغاية هو (نقد العقل العربى). فإذا جاء قارئ بعد ذلك وقال: إن هذا الكاتب لا يرى فى تفكيرنا إلاَّ مآخذاً وعيوباً، كان من حقى أن أصف ذلك بالتعسفِ وإلقاء القول على عواهنه.

* أننى كرجل يمقت "التعميم" أقول إن هذه العيوب تشوب تفكير البعض، ولا يمكن أن يكون قصدى أن تلك العيوب (جميعها) هى ملامح تفكير الكل. فلا أنا قصدت اتسام كل أساليب التفكير بهذه العيوب، ولا أنا قصدت توفر كل هذه العيوب بدرجةٍ واحدةٍ عند الكل.

(ب)

كذلك من المهم للغاية فى هذه الخاتمة أن أقرر أننى من بين اثنين وعشرين فصلاً كتبتها بالفعل تحت عنوان (من عيوب تفكيرنا المعاصر)، فإننى اخترت أن يتضمن هذا الكتاب نصفها فقط، فلم أضمنه ما كتبت عن عيوب أخرى

لأننى رأيت أن "درجة الاستعداد" لقبول مثل هذه الكتابة لا تحتمل أكثر مما انتقيت من فصول. فإن ما كتبته -مثلاً- عن "الآخر... فى تفكيرنا" قد يصدم بجرعة أكبر مما يراد من موقف الرغبة فى الإصلاح لا الرغبة فى الإيلام. لذلك فقد اكتفيت بأن يتضمن الفصل الخامس من هذا الكتاب أقل من عشر (١٠٪) ما كتبته بخصوص هذه المسألة. وربما تسمح ظروف تطورنا الاجتماعى والاقتصادى والثقافى بنشر الأجزاء التى رأيت صواب تأجيل نشرها فيما بعد، فالذى يكتب لقراء هم منه بمثابة الأهل لن يكون بوسعه تقديم جرعة من الصراحة "توجع" أكثر مما تفيد.

(ج)

وخلاصة ما أردت فى هذا الكتاب الصغير (فى حجمه) أن أقوله إن الحاضر والمستقبل يشهدان تغيّرات جذرية فى الحياة الإقتصادية كما يشهدان عالماً مختلفاً يشهد من الصراع والمنافسة أكثر وأكبر مما يُقدر الكثيرون منا. وأن ذلك يقتضى عملاً جاداً على مستوى الإصلاح الاقتصادى والسياسى والاجتماعى، ولكنه يقتضى أيضاً نوعاً من

الواجب الداخلى Home Work على مستوى التعليم والإعلام والثقافة بهدف أن ننقى أبناء وبنات هذا الوطن من مآخذ ستجعلهم أقل قدرة على الأداء المتميّز فى لعبة المنافسة التى تمليها قواعدُ الواقع الجديد.

وكاتب هذه السطور يؤمن إيماناً عميقاً وصلباً بأن الإنسان بصفته (مورداً بشرياً) سيكون هو عماد الحركة المجتمعية المستقبلية بوجه عام والحركة الاقتصادية بشكلٍ خاص- وهو ما يعنى حتمية العمل الجاد على خلق إنسانٍ أكثر تحرراً من عيوبِ التفكيرِ الموصوفة فى هذا الكتاب، حتى يكون إنساناً تنافسياً فعالاً (Effective Competitive Person) يملك القدرةَ على خلقِ مكانٍ متميّزٍ فى عالمِ الواقعِ الجديد، حيث تنحسر سبلُ الحماية الاصطناعية وينفتح المجالُ على مصراعيه أمام التنافسِ بكل ما تعنيه الكلمةُ من معانٍ.

"لحن ختامى من جبران".

(بالاختصار فالشرقيون يعيشون فى مسارح الماضى الغابر ويميلون إلى الأمور السلبية المسلية المفكهة ويكرهون المبادئ والتعاليم الإيجابية المجرّدة التى تلسعهم وتنبّههم من رقادهم العميق المغمور بالأحلام الهادئة. إنما الشرق مريض قد تناوبه العلل وتداولته الأوبئة حتى تعوّد السقم وألف وأصبح ينظر إلى أوصابه وأوجاعه كصفات طبيعيّة بل كخلال حسنة ترافق الأرواح النبيلة والأجساد الصحيحة فمن كان خالياً منها عُد ناقصاً محروماً من المواهب والكمالات العلوية.

وأطباء الشرق كثيرون يلازمون مضجعه ويتآمرون فى شأنه ولكنهم لا يداوونه بغير المخدّرات الوقتّية التى تطيل زمن العلّة ولا تبرئها. أنا أبكى على الشرقيين لأن الضحك على الأمراض جهل كبير. أنا أنوح على تلك البلاد المحبوبة لأن الغناء أمام المصيبة غباوة عمياء).

جبران خليل جبران

من كتاب "العواصف" (١٩٢٠).

مؤلفات طارق حجّى

١- افكار ماركسية فى الميزان. (١٩٧٨)
٢- الشيوعية والأديان. (١٩٨٠)
٣- تجربتى مع الماركسية. (١٩٨٣)
٤- ما العمل؟ (١٩٨٦)
٥- الأصنام الأربعة. (١٩٨٨)
٦- ثالوث الدمار. (١٩٩٠)
٧- مصرَ بين زلزالين. (١٩٩١)
٨- التحول المصيرى. (١٩٩٣)
٩- نظرات فى الواقع المصرى. (١٩٩٥)
١٠-نقد العقل العربى. (١٩٩٨)

11 -Egypt's Contemporary Problems (1992).
12 -Critique of Marxism (1992).
13 -On Management and Petroleum Industry(1991).
14 -L'inéluctable Transformation.

فهرست الكتاب

العدد القادم

مصر فى عيون الغرب وأدبه

د . منى حسين مؤنس

رقم الإيداع	١٩٩٨/١٠١٠١
الترقيم الدولى 977-02-5591-0	ISBN

١/٩٨/٤٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)



يقول الفيلسوف الألمانى كانط «إن النقد هو أهم أداة بناء ابتدعها العقل الإنسانى». وانطلاقاً من هذا المفهوم وضع طارق حجى هذا الكتاب الذى يتضمن تشريحاً لعدد من عيوب تفكيرنا المعاصر التى أصبحت تجسد الوجه السلبى لعقلنا المعاصر، برغم أنها ليست من سماتنا العرقية ولكنها ثمار طبيعية للظروف التاريخية والسياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية، وهو ما يعنى أن التعامل معها وعلاجها أمر ممكن عن طريق القدوة ومناهج التعليم والمناخ الثقافى والأعلامى العام.

هذا الكتاب يقف فى مواجهة طوفانات مدح الذات والتفاخر الشديد التى أصبحت من معالم الجو الثقافى العام.

٤٠٦٩٣٤/٠١

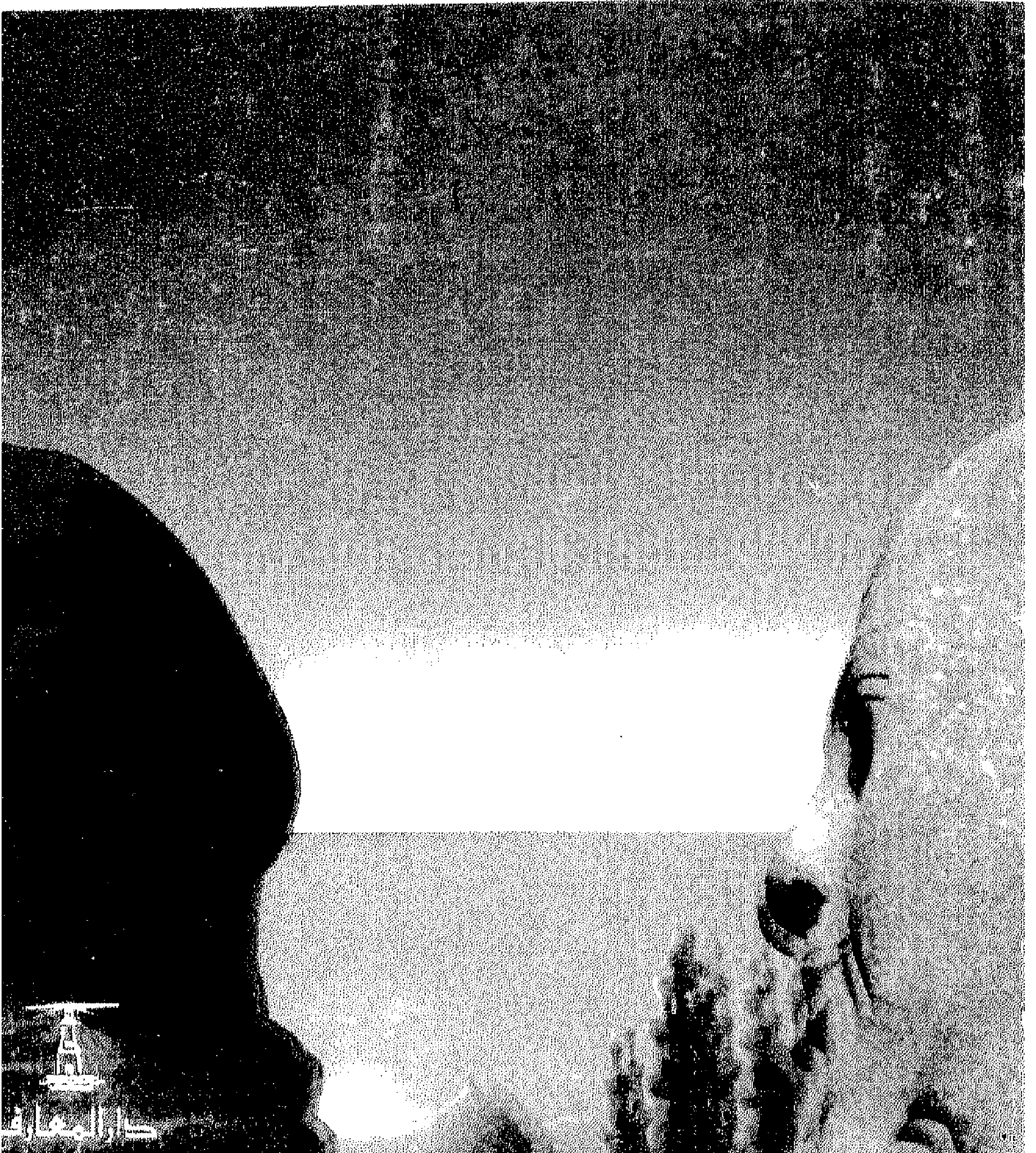


اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

دكتورة منى حسين مؤنس

مصر في عيون الغرب وأدبه



اقرأ
سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

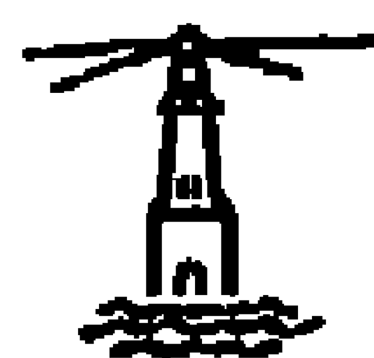
[٦٣٤]

رئيس التحرير: رجب البنا

تصميم الغلاف : **محمد أبو طالب**

دكتورة منى حسين مؤنس

مصر في عيون الغرب وأدبه



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شيء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

على سبيل التقديم

يتناول هذا الكتاب صورة مصر والمصريين والإسلام في الأدب الغربي ولدى الرأى العام هناك وهو موضوع يشدني منذ زمن طويل ويثير في نفسي انزعاجًا مستمرًا ، ولم أبادر بالكتابة فيه من قبل خوفًا من أن يعتقد البعض أنني قد أعادى الغرب وهذا - بطبيعة الحال - غير صحيح ، وذلك لأنني تعلمت في مدارس وجامعات أجنبية ثم إنني تخصصت في الأدب الإنجليزي ، ومن هنا فإن الكثير من مناهجهم في العمل والتفكير أصبح جزءًا من تكويني الشخصي ، فليس من الممكن إذن أن أعادى الغرب أو ما هو غربي لأنني أعترف بأن هناك الكثير مما يجب علينا أن نتعلمه منهم .

وإن كنت قد بادرت بالكتابة في هذا الموضوع فذلك يرجع إلى إنني لاحظت أن الغربيين يتخذون منا موقفًا عامًا سلبيًا لا يقتصر على تصويرنا في الأدب فقط بل يتعدى ذلك ويشمل جميع الميادين مثل السياسة والاقتصاد والفلسفة والتاريخ ووسائل الإعلام المختلفة ، ويعملون على أن نظهر في كتاباتهم وتصويراتهم لنا دائما على أننا الأضعف والأقل قيمة حضاريًا وثقافيًا وفكريًا وسلوكيًا وهذا - بطبيعة الحال - يمثل موقفًا عنصريًا بعيدًا كل البعد عن الواقع الذى نعيشه فنحن كمصريين لدينا جوانب

إيجابيـة كثيرة يتعمـدون أن يتناسوها حتى يقنعوننـا بأنـه ليـس لدينـا هويـة واضحـة ولا شخصية قويـة ذات ملامـح بـارزة ولا شـىء جديـر بالاحـترام نقدمـه .

أملـى أن تـزول هـذه الوقفـة العنصريـة مـن جانبـهم لأنـها أصبحـت تـهدد سـلامتنا واسـتقرارنا إذ صـارت تؤثـر حتـى علـى قراراتـهم السياسـية والاقتصاديـة تجاهنـا ، وهـذا هـو مـا يطالعنـا دائمـا فـى الصحـف اليوميـة وسـائر أجـهزة الإعـلام الغربيـة .

والنمـاذج التـى اخترتـها مـن الأدب الغربـى هنـا لكـى أعـرض فكرتى كلـها كُتـب قرأتـها منـذ زمـن بعيـد أو قريـب وقـد يجـد القـارئ أمثلـة أخـرى ، فـهناك الكثـير مـن الروايـات الأجنبيـة التـى تصورنـا ، وسيلاحظ القـارئ أنـها فـى غـالب الأمـر تصورنـا فـى صـورة سـلبية لابـد أن تثـير فينـا جميعًـا مشـاعر الحـزن بـل الغضـب لأنـها غـير مطابقـة للواقـع ، فكـل شـعب يجمـع بـين السـلبيات والإيجابيـات ولكنـهم فيمـا يتعلـق بنـا لا يصـورون إلا السـلبيات ويصورونـها بطريقـة مضخمـة ومبالغًـا فيـها فـى أكـثر الأحـوال إلا أن هنـاك الكثـير ممـا ينسـبونه لنـا مـن سلبيات ليـس ممـا تتسـم بـه شـخصيتنا ، بـل هـو مطـاعن علـى عقيدتنـا الإسـلامية .

لقـد ذكـرت فـى هـذا الكتـاب العديـد مـن الأمثلـة لتصرفـات نـاس من المثقفين المصريـين الذيـن ظـهروا بطريقـة غـير مشـرفة ، كلـها أمثلـة رأيتـها وعشـتها ، ولسـت أذكـر أسمـاء هـؤلاء الأشـخاص لأنـهم فـى

حد ذاتهم لا يعنونني بل يعنيني من قد يفعل مثلهم ولهذا فإنني أتمنى أن تتلاشى هذه الصور والتصرفات من بيننا.

أنني زودت الكتاب بقائمة تضم الأعمال الأدبية التى تناولتها بالعرض والدراسة وكذلك المراجع التى أشرت إليها لأهميتها ، وكان كل اعتمادى على المؤلفات فى طبعاتها الأصلية الأجنبية أما ترجماتها العربية فقد ذكرتها أيضا حتى يتيسر على الجميع قراءة ما فيها.

وقبل أن أنهى تقديمى يجب أن أتقدم بالشكر للأستاذ رجب البنا - رئيس مجلس إدارة دار المعارف ورئيس تحرير مجلة أكتوبر وللأستاذ الدكتور محمود على مكى أستاذ الأدب الأندلسى بجامعة القاهرة وقد شجعنى كلاهما كثيرًا على تأليف هذا الكتاب وهما يمثلان كل منهما فى مجاله - قدوة لكل من يعرفهما.

وأخيراً أتقدم بالشكر لأسرة دار المعارف ولكل من ساهم فى إخراج هذا الكتاب.

القاهرة فى ١٩٩٨/٩/١

د. منى حسين مؤنس

أستاذ مساعد بقسم اللغة الإنجليزية

كلية الآداب - جامعة القاهرة

المصريون والغربيون

قرأت باهتمام شديد كتاب الصحفى الكبير الأستاذ رجب البنا ، الغرب والإسلام ، (دار المعارف ١٩٩٧) الذى تناول فيه صورة الإسلام فى الغرب وشرح فيه بالتفصيل كيف أن هذه الصورة - وهى سلبية للغاية - تؤثر على القرارات السياسية المهمة التى يتخذونها فى الأمور التى تخص عالمنا الشرقى اليوم .

فى أول الأمر اندهشت كثيرًا لخطورة ذلك بالنسبة لنا ورويدًا رويدًا قلّت دهشتى هذه لأُننى أدركت أن هذه الصورة السلبية للإسلام الذى لم يحاولوا فهمه لم تنشأ بين يوم وليلة ولكنها تكونت بالتدريج عبر سنوات طويلة حتى أصبحت راسخة فى العقل الباطن الغربى ولم يعطوا لأنفسهم فرصة فى أن يعيدوا النظر فيها أو قد لا يريدون ذلك ، وقد يرجع ذلك إلى أن فكرة الدين عمومًا كعقيدة مرتبطة بإيمان تلاشت لديهم إلى حد كبير وأصبح الدين عندهم نوعًا من الأيديولوجيا أو اتجاهًا فكريًا عامًا أكثر ارتباطا بالسياسة منه بالدين كعقيدة.. وهو بذلك يمثل حضارة بالنسبة لهم . وبناءً على ذلك أصبح الإسلام كدين وحضارة مرتبطًا بالنسبة لهم بالبلاد العربية بحكم أن أغلبية هذه الشعوب من معتنقيه ، على الرغم من

وجـود أديـان أخـرى لدينـا ، والهندوكيـة مرتبطـة بـالهند والبوذيـة بـالبلاد الآسيوية والمسيحية بـالبلاد الغربيـة حتـى لـو كـان الأمـر الواقـع أن المسيحية كديـن وكعقيـدة ضعفـت إلى حـد كبير لديـهم .

أصبحـت الأديـان إذن عمومًـا معيـارًا يصنفـون علـى أساسـه الثقافـات أو الحضـارات المختلفـة وأصبحـت هـذه الثقافـات أو الحضـارات أكـثر ارتباطـا بالسياسـة منـها بالعقـائد والإيمـان وممـا لا شـك فيـه أن الأديـان المختلفـة هـى التـى تحـدد الملامـح العريضة للثقافـات المختلفـة. (أذكـر أننـى أول مـرة سمعـت فيـها إشـارة إلى أن المستقبل سـيرى حربًـا وتنافسًـا بـين الحضـارات كـانت فـى برنـامج رمضـانى اسمـه «فـاكس» فـى حـوار أجرتـه المذيعـة مرفـت سلامة مـع الدبلوماسـى ورجـل السياسـة اللامـع الدكتور أسامة الباز منـذ مـا يقـرب مـن سـنتين) .

وإن قلنـا إن صـورة الإسـلام سلبية فـى الغـرب – حسـب مـا قرأتـه فـى كتـاب «الغـرب والإسـلام» – فلابـد أن نقـول أيضـا إن صورتنـا نحـن كعـرب أو كمصريـين سلبية أيضـا عندهـم ولا يظـهر ذلـك فـى ميـدان السياسـة فقـط ، بـل هـو موجـود ومنتشـر فـى علاقاتنـا بـالأفراد الغربيـين وفـى الأدب الغربـى بكـثرة مذهلـة وهـذا هـو الموضـوع الـذى أتناولـه هنـا أى صورتنـا كشـعب وصـورة الإسـلام عمومـا فـى بعـض نمـاذج الأدب الغربـى ، كمـا سـأتناول أيضا كيف نشـأت ثـم ترسـخت هـذه الصورة لديـهم .

إن الكثيرين منا يتصورون أن مصطلح صراع الحضارات أو صراع الثقافات كلام معقد ذو دلالات كبيرة بحيث يتجاوز أفهام عامة الشعب إلا المتخصصين فى السياسة والتاريخ والمشتغلين بالآداب ، والفنون . ولكن الحقيقة غير ذلك لأن صراع الحضارات ينبغى أن يهم كل واحد من أفراد الشعب لأنه صراع خفى غير منطوق ، ولكنه موجود وكلنا - أيا كان مستوانا الثقافى - نلمسه ونعيشه .

وأنا شخصيا - على سبيل المثال - كم من مرة استضفت أصدقاء أجا[illegible] غربيين فى مصر ولاحظت أنهم بدون استثناء لا يلتفتون عموما إلا لما هو سلبى لدينا فأجدهم مثلا يصورون أكوام القمامة فى الشوارع الرئيسية حتى يثبتوا لأنفسهم الفكرة الراسخة لديهم وهى أننا شعب غير نظيف وكسول لذلك يبتسمون عندما يرون كناسى الشوارع وقد ركنوا عربات القمامة قرب الرصيف ، وغالبا ما تعطل هذه العربات المرور ، وتتسبب فى حوادث ، بينما يجلسون على الرصيف ليدخنوا وهم يستريحون - كما يقولون - من كثرة العمل ، هذا ولا ينظر هؤلاء الزائرون الغربيون إلى المحلات التجارية الكثيرة المليئة بالملابس المصنوعة فى مصر والتى يتحسن نوعها وذوقها يوما بعد يوم ، ثم إن الكثير من واجهات عرض هذه الأزياء لا يقل جمالها وذوقها عما لديهم . إنهم لا يرون ذلك أو ربما لا يريدون أن يروه .

وهم يلتقطون أيضا صور المتسولين عند إشارات المرور وعند تقاطع بعض الشوارع المهمة ويلاحظون أن منهم من يعرج أو يبرز عاهة من العاهات وأن السيدات يحملن على أكتافهن أطفالا صغارًا وهم في الغالب مرضى وأشكالهم تنطق بالفقر . وهم يلتقطون صورًا لهؤلاء إثباتا لأنفسهم أن بلدنا بلد فقير وأن لا أمل في رفع مستواه ولا يرون الشوارع مليئة بالسيارات المارة يرتدون ملابس جيدة والعمارات التي تنشأ وكثرة الكبارى العلوية مما يدل على أن مستوانا المعيشي مقبول وهو في ارتفاع مستمر . إنهم لا يرون إلاّ السلبيات .

وبمناسبة المتسولين فإنهم ينسون أن لديهم في بلادهم هذه الظاهرة أيضا ، أذكر أنني عشت فترة من الزمن في إنجلترا ، وفي مرة من المرات وأنا في الشارع اقتربت مني سيدة مسنة وطلبت مني «شيلين» لكي تشتري بطاطس (والبطاطس في إنجلترا بمثابة الفول عندنا) ، فاندهشت وطلبت منها أن تعيد جملتها فقالت مرة أخرى بوضوح : «أنا جائعة وفي حاجة إلى «شيلين» لكي اشترى بطاطس» ، وكان ذلك في مساء يوم الجمعة أي في بداية عطلة نهاية الأسبوع . وفهمت أنها ربما تقضي يومين كاملين بدون أن تأكل . وعندما رجعت إلى المنزل الذي كنت أقيم فيه - وكنت أسكن مع أسرة إنجليزية في ضاحية من ضواحي لندن الشمالية -

سألتهم لو كان لديهم فى إنجلترا متسولون ثم حكيت لهم ما حدث ، فقالوا : إن لديهم بطبيعة الحالة فقراء كثيرين وأن الحكومة الإنجليزية تعطى للمحتاجين مثل العاطلين والمسنين معونة اجتماعية أسبوعية ، ولكن هذه المعونة ضئيلة فالكثيرون من المسنين بالذات يموتون خلال فصل الشتاء من الجوع ومن البرد .

إن لدى صديقة مصرية تعيش فى بلاد الغرب منذ سنوات طويلة ولكن حبها لمصر يجعلها تقضى هنا معظم اجازاتها . وقد عاشت فى الغربة مدة طويلة حتى أصبح مظهرها يوحى بأنها غربية . المهم ، أنه عندما تأتى صديقتى هذه إلى مصر تلاحظ كل التقدم الذى نحرزه ولكنها فى نفس الوقت - تلاحظ السلبيات وبعض النماذج غير الحضارية التى ما زالت لدينا . فماذا تفعل صديقتى هذه حتى تساعد فى إزالة هذه السلبيات ؟ رأت أن تنزل الشارع «بكاميرا» للتصوير وتصور ما لا يعجبها وترسل هذه الصور إلى المحافظ ورئيس الحى والوزراء المختلفين فى مصر الذين فى يدهم إصلاح هذه السلبيات .

وحدث أننى نزلت معها للشارع فى إحدى «جولاتها التصويرية» وكان ذلك فى حى الزمالك . ووصلنا إلى شارع ٢٦ يوليو حيث بائعات الخضراوات اللاتى يجلسن على

الرصيف يبعن خضراوات الموسم وجمعيهن يرتدين الملابس «البلدية» وعلى وجوههن ابتسامة عريضة . فقالت صديقتى : «هذا يا منى منظر غير حضارى على الإطلاق ، ثم أن بعض هذه البائعات صغيرات السن وكان يجب أن تكُنَّ فى المدارس لتلقى التعليم ، يجب أن أصورهن لكى يعلم المسئولون الكبار بما يحدث ويجب أن يوقفوا مثل هذه السلبيات» .

وما إن أخذت صديقتى «الكاميرا» وبدأت فى التصوير حتى وجدنا رجلا من رجال الطبقة الشعبية يرتدى الجلباب وهو يجرى نحونا ، وإذا به يختطف من صديقتى «الكاميرا» وهو يصرخ فى غضب ويقول : «ما كفاياكم شرّ بقة !! ما تصوروا حاجة عدلة !! ألم تجدوا فى الشارع كله ما تصورونه إلا هذا المشهد ؟ لماذا تصممون دائما على تشويه صورة بلدنا ؟ قلنا كفاية يعنى كفاية !!» وكان هذا الرجل المصرى الشهم فى حالة عصبية لا توصف وكأنه اعتقد أن صديقتى أجنبية ، فحاولت أن تفهمه ما كانت تقصده من وراء تصويرها ، ولكنه لم يسمع كلمة واحدة . وطال النقاش وعلت الأصوات ووقف المارون فى الطريق يسألون عن سبب الخلاف الذى وقع ، ولم ينته الموضوع إلا بعد أن أعطت صديقتى لهذا الرجل «البلدى المستنير» الفيلم الذى بداخل «الكاميرا» وحرق الرجل «الفيلم» أمامنا واستدار وعاد من حيث جاء.

ما الذى نفهمه من هذه الواقعة التى تبدو بسيطة ؟ نفهم أن صراع الحضارات وصل إلى أدنى طبقات مجتمعنا وأن كلنا نعيشه ونراه ونعرفه جيدا .

إن الزائرين الأجانب يفرحون فرحة غامرة عندما يرون عربات «الكارو» العتيقة تتزاحم فى بعض الشوارع وتعطل المرور . أنهم يهتمون بالحمار الذى يشد العربة هذه ويتعاطفون معه ويتساءلون عما يمكن أن يفعله هذا الحمار «الصغير المسكين» تجاه هجوم العربات «المفترسة» ويؤكد لهم ذلك شيئان وهو أن التحضر بعيد كل البعد عنا وأننا قساة لا نبالى بحال الحيوانات وهم لا يرون – أو لا يلاحظون إطلاقا – إذ أنهم لا يعلقون على ذلك ، مستويات بيوتنا من الداخل التى نستضيفهم فيها ولا نوعية المأكولات التى نقدمها إليهم إلاّ لو كانت حلويات شرقية يعتبرونها نوعا من «الفولكلور» الشعبى : أنهم لا يرون إلاّ السلبيات .

أذكر أننى اصطحبت إحدى صديقاتى الإنجليزيات إلى جامعتى – جامعة القاهرة – وأول ما لفت نظرها أن ساعة الجامعة واقفة (وأذكر أن هذه الساعة مكثت معطلة فترة طويلة جدا من الزمن وأنها مكثت تدق بطريقة عشوائية حتى بعد أن أصلحوها) فرسخ فى ذهنها أن الوقت لدينا ليس له قيمة ولا معنى ، هذا مع أنها لم تقل كلمة واحدة عن مئات

الطلبة الذين داخل الجامعة وعلى الأرصفة خارج أسوار الجامعة ممن يتلقون التعليم ليضمنوا لأنفسهم مستوى حياة أفضل ولينفعوا بلادهم ويرفعوا مستواها في نفس الوقت .

ولذلك ولأسباب أخرى كثيرة تأكدت أنهم- أي الغربيون - لا يرون لدينا إلاّ ما يريدون رؤيته وما يؤكد لهم الفكرة الراسخة لديهم عنا وهي - باختصار شديد - أننا رجعيون ومتخلفون حضاريًا وثقافيًا وأقل منهم في كل شيء ، وإن كانوا يحترمونني كصديقة أو زميلة فيرجع ذلك إلى تعليمي الأجنبي ثم إلى تخصصي في الأدب الإنجليزي .. وذلك - في رأيهم حتى لو لم يقولوه - هو الذي رفع من مستواي في عيونهم . إن فكرتهم عنا راسخة منذ زمن طويل وهذه الفكرة لا تتغّير وهي هي حتى يومنا هذا ، والسؤال هو : من أين أتى الغربيون بمثل هذه الفكرة عنا ؟ وكيف ترسخت لديهم بحيث أنهم لا يرون إلاّ ما هو سلبي لدينا ، وحتى أصبحوا يعتقدون اعتقاداً لا جدال فيه بأنهم أحسن منا في كل شيء ؟

إنني منذ بضعة أشهر تقريبا أمضيت أسبوعا في قرية سياحية في الغردقة وكان في هذه القرية مصريون مثلي وأجانب كثيرون أتوا باحثين عن شواطئنا التي لا مثيل لها في بلادهم وإلى دفء شمسنا التي لا يجدون مثلها لديهم

(إننى لا أذكر جنسياتهم لأن موقفهم نحونا وتصرفاتهم واحدة سواء كانوا ألمانًا أو إيطاليين أو سويديين ففكرتهم عنا كلهم واحدة) ، لاحظت أنهم بدون استثناء يحاولون تجنب الجلوس تحت شماسى قريبة من شماسى المصريين وكأنهم يخشون أن تصيبهم «جراثيمنا» ، ولاحظت أيضا -وهذا هو المدهش- أن العيوب التى يتهموننا بها أى الصوت العالى وعدم احترام المكان والتصرفات غير الحضارية وأشياء أخرى ، كل ذلك كان لديهم أيضا على نحو لافت للنظر قبل أن يكون لدينا . وعلى سبيل المثال وجدتهم يكلم بعضهم بعضا بصوت عال من تحت شمسية إلى شمسية أخرى وكأنهم سادة المكان ، وهم كذلك لا يحترمون ما يستعملونه من أشياء تابعة للفندق مثل مناشف حمامات الغرف التى يأتون بها إلى الشاطئ والكراسى الخوص التى يستعملونها على «البلاج» إذ يحملونها داخل مياه البحر ولا يبالون بأنهم بذلك قد يتلفونها للأبد . ومن المؤكد أنهم لا يفعلون ذلك فى فنادق بلادهم ، ومعظم سيداتهم يرتدين «المايوه البكينى» ذا القطعة الواحدة، بغير احترام لأخلاقيات بلدنا التى مازالت متحفظة جدا من هذه الناحية . وكل تصرفاتهم هذه جعلتنى أنا وغيرى من المصريين نتفادى نحن أيضا الجلوس بالقرب منهم . وهناك أشياء يقومون بها فى بلادنا من المستحيل أن يفعلوها فى بلادهم أو فى أى بلد غربى .

وأنا أعرف أن المنشورات التى توزع عليهم من قبل الشركات السياحية التى يأتون عن طريقها إلى هنا تحذرهم بألا يرتدوا ملابس قد تثير غضب المصريين مثل «البنطلون الشورت» بالشوارع ، و«المايوهات» المسرفة فى العرى على الشواطئ ، ورغم أنهم يعلمون ذلك فهم لا يبالون فيتصرفون وكأنهم وحدهم فى المكان .

ولاحظت أكثر من مرة تصرفات الأطفال المصريين والأطفال الأجانب : إن الطفل بطبيعته لا يعرف شيئا عن فروق الجنسيات والثقافات فيجرى الطفل المصرى – على سبيل المثال – نحو الطفل الأجنبى ذى الشعر الذهبى والعيون الزرق وينظر إليه بشدة أولاً حتى يتعرف على انه طفل مثله ، ثم يبتسم ويقذف نحوه كرة كان يلعب بها وهو يريد بذلك بداية صداقة بينهما ، وتقع الكرة على الأرض . فيفهم الطفل الأجنبى ما قصده الطفل المصرى فيجرى ليأخذها فتلاحظ أمه الأجنبية الحادث فتقوم مسرعة وتمنع ابنها من لمس هذه الكرة وتأمره أن يعود إلى أسرته ، فيفهم الطفل الأجنبى منذ صغره أنه يجب عليه ألا يلعب إلاّ مع أطفال من جنسه وبلده .

إننى لا أقصد من وراء كلامى هذا الإشارة إلى أن هناك عداوة بيننا وبين الغربيين فهذه العداوة غير موجودة بين

الناس ولكنى أريد أن أشير إلى أن هناك فروقًا كثيرة أغلبها حضارية وثقافية تجعل الأجنبى يشعر دائما بأنه أحسن منا ، وهو فى بلدنا ، ويرجع هذا الشعور إلى تربية معيّنة وقراءات عديدة رسخت لديهم صورا عنا أصبح من الصعب جدا تغييرها ، وقد يرجع السبب أيضا إلى سياسات دولية مرسومة من مصلحتها أن تربى لدى أفراد شعبها فكرة أنهم أحسن وأقوى .

إن هذا الصراع بين الثقافات أو الحضارات نراه أيضا فى جامعاتنا فكثير من الأساتذة الأجانب الزائرين يلقون علينا أحيانًا محاضرات لا تزودنا بمعلومة جديدة واحدة ويرجع ذلك إلى أنهم فى صميم أنفسهم يعتقدون أن مستوانا المعرفى تحت المستوى المطلوب بكثير ويندهشون عندما يرون أننا فى بلادنا نقرأ ونكتب ونبدع فى مثل مستواهم ولكنهم لا يعترفون بذلك إلا نادرا ، وهم عموما يحبون التعاون معنا ثقافيا ولكن على شرط - وهو شرط يشعر به ولا ينُطق - أن نفهم أنهم الأحسن والأذكى والأقوى ، أننى أتكلم هنا على الحالة العامة وقد تكون هناك استثناءات ولكنها قليلة ونادرة ، ألم نسمع عن كثير من المصريين الذين سافروا أو هاجروا إلى الخارج وحققوا نجاحًا فى مجال عملهم ، انهم اضطروا إلى تغيير أسمائهم إلى أسماء أجنبية . إن وراء ذلك شيئًا واحدًا وهو

أنهم يريدون الانتفاع من هذا أو ذاك المصرى ولكنهم يريدون إخفاء أصله حتى يظهروا دائما أنهم هم المتفوقون ، وماذا يقولون للمصرى عندما يطلبون منه أن يغّير اسمه ؟ يقولون له : إن الاسم الأجنبى سيسهل المعاملة معه فى الأعمال الرسمية ، وغالبا ما يفهم المصرى الحقيقة وراء تغيير اسمه وهو إخفاء أصله ولكنه يسكت ويوافق لأنه لا يريد أن يفقد المكانة التي وصل إليها والتى تعب كثيرا لكى يصل إليها .

ألا نسمع أن الكثيرين ممن سافروا ليعدوا دراستهم العليا فى بلاد الغرب اضطروا أن يغيروا مواضيع رسائلهم الأكاديمية حسب توجيهات المشرف الأجنبى؟ نعم ، يحدث ذلك كثيرًا ولسبب واحد وهو أن الموضوع الذى سيعمل فيه الطالب المصرى يجب أن ينفعهم مباشرة أو يساعدهم على مزيد من التعرف بنا فكلما ازدادت معرفتهم بنا أصبحوا فى مكان الأقوى المسيطر .

إن علاقاتنا بالغربيين بمثابة حرب خفية بيننا وبينهم ولكنها حرب تقاد بدون أسلحة وبدون كلام مباشر ولكنها مستمرة لا تمنع أبدا الصداقة والعلاقات الاجتماعية والتبادل الثقافى بيننا وبينهم ولكنها فى الأغلب علاقات قوة وسيطرة لإثبات من هو الأقوى والأرقى والأذكى وهى – فى النهاية – صراع بين الحضارات أو الثقافات حتى لو لم يُصرح بذلك .

إننى أذكر أن أحد الأقسام بكلية الآداب استضاف أستاذًا زائرًا لمدة أسبوع ، وكانت الاستضافة هذه تشمل تذكرة السفر بالطائرة ثم إقامة لمدة أسبوع فى «بيت الضيافة» بجامعة القاهرة ثم مبلغًا من الجنيهات المصرية يصرفها الزائر خلال إقامته هنا . وكان كل ذلك على حسابنا . وحدث أن هذا الأستاذ الزائر صرف ما كان قد تسلمه كمصروفات نثرية فطلب من إحدى زميلاتى أن تقرضه مبلغًا من الجنيهات إذْ لم يكن يريد أن يحوّل العملة الصعبة التى لديه وفضل أن يقترض . وبعد مرور أسبوع وعند مغادرته لمصر ظننا أنه سيرجع لزميلتى هذا المبلغ الذى اقترضه ودُهشنا عندما قال إنه لن يُرجّع لها المبلغ نقدا بل سيرسل لها كتبا من بلده بالمبلغ الذى اقترضه ، وفهمنا من ذلك أنه لا يريد أن ينفق مليما من جيبه فى مصر حتى بعد أن أمضى هنا أياماً جميلة جدًا فى استضافة المصريين ونحن كلنا نعلم سخاءنا وتكريمنا للغريب . وهذا الأجنبى أحب بلدنا فعلا ولكنه بحكم تربيته لا يريد أن يعطينا شيئا أبدا وهو لا يفهم أن ترحيبنا به هو عادتنا مع كل غريب عنا ، بل اعتبرها حقا من حقوقه لأنه غربى ولأنه من أجل ذلك أحسن منا ، هذا مجرد مثال وهناك أمثلة أخرى كثيرة ترينا أن شعورهم بالتفوق علينا جزء من تركيبة شخصياتهم .

والسؤال هو : من أين أتوا بهذه الثقة وبشعور الاستعلاء هذا ؟ إنهم توارثوه جيلا بعد جيل من الصورة السلبية التى لديهم عنا والتى أتوا بها غالبا مما يسمعونه عنا من إعلامهم ومما يقرءونه عنا فى آدابهم فصورتنا فى هذه الآداب غالبا ما تكون سلبية للغاية وهم كما نعلم – كثيرو القراءة والاستطلاع وهكذا رسخت هذه القراءات فيهم شعورًا قويًّا بأننا – مهما فعلنا – فنحن دائما الأضعف والأقل ذكاءً . أليس لدينا ما نسميه «بعقدة الأجنبى ؟» ويرجع ذلك إلى أن الكثيرين منا يعتقد اعتقادا لا جدال فيه بأن ما هو من صناعة الغرب يجب أن يكون أجود مما نصنعه فى بلادنا وهى ظاهرة عامة تدل على أنهم استطاعوا أن يؤثروا حتى على صورتنا عن أنفسنا .

هناك مثال آخر يظهر الصورة السلبية التى لديهم عنا وهو متعلق بموت الأميرة ديانا وعماد الفايد ، لقد تابعت فى التليفزيون الألمانى برنامجا أذيع يوم واحد عن مراسم دفن الأميرة وكان موضوع المناقشة الأميرة ديانا وحياتها وتشييع جنازتها . وكانت من ضمن المشتركين امرأة ألمانية اسمها أليس شفارتسير وهى إحدى كبار ممثلات الحركة النسائية بألمانيا وقالت إن ديانا كانت قد حصلت على درجة كبيرة جدا من النضج والاستقلال الذاتى فى حياتها كامرأة ولكنها

رغم كل نضجها وقوة شخصيتها كانت قد وقعت «فريسة» في يد عماد الفايد الذى «استغل» الفراغ العاطفى الذى كانت تعانى منه الأميرة . وبالمناسبة فإن هذا الرأى هو الشائع بين معظم المعلقين الأوربيين .

ثم قرأت في مجلة أجنبية مؤخرا عن آخر الأحداث والأخبار المتعلقة بقضية مصرع الأميرة وكان من بين ما قرأت تساؤل عن آل الفايد أن أحدًا لا يعرف كيف كوّن محمد الفايد ثروته الهائلة إذ قيل : إنه كان مرتبطا بتاجر أسلحة معروف وأن المخابرات الإنجليزية كانت لذلك تتابع عن قرب تطوّر العلاقة بين الأميرة وعماد الفايد .

ونفهم من هذين الخبرين أن علاقة الأميرة بالرجل المصرى لم تكن علاقة حب عادية بل علاقة استغلال مدروس من الطرف المصرى للطرف الإنجليزى ثم نفهم أيضا من بين السطور أن موت الأميرة أنقذها من مستقبل غامض غير نقى ، ونتساءل هنا : لو كان حبيب الأميرة رجلاً غربيًا وليس مصريًا هل كانوا سيقولون نفس الكلام ؟ يُهيأ إلى أن هذا الحادث وما قيل وكُتب عنه عندنا ولديهم ، أكبر وأوضح صورة لصراع الحضارات أو الثقافات الذى نتكلم عنه هنا ومن أجل ذلك هزّنا ذلك الخبر المؤسف هزة شديدة .

وكـل مـا نتمنـاه هـو ألا ينجـح الإعـلام الغربـي فـي أن يغّـير رد فعلنـا الأول كمصريـين تجـاه هـذا الحـادث وهـو رأى قلنـاه فـي دوائرنـا الخاصـة وقرأنـاه فـي صحفنـا اليوميـة ومجلاتنـا الأسـبوعية ، فقـد كنـا علـى يقـين مـن أنـهم لـن يسـمحوا بإتمـام ذلـك الـزواج حتـى لـو كـان ذلـك يتطلـب مـوت أحدهمـا أو كليهما ، وهـذا هـو مـا حـدث بـالفعل ، لم يكـن الغـرب مسـتعدًا لقبول زواج الأميرة من الشـاب المصـرى وهـو موضـوع يمـس صميـم الصراع بين الحضارات وهـو صراع موجـود حتـى يومنـا هـذا علـى جميـع المسـتويات ونحـن نـراه ونعيشـه كلمـا التقينـا بشـخص غربي أجنبـي وتعاملنـا معـه .

إدوارد سعيد وموقفه من الاستشراق

لفت نظرى من بين الإصدارات الجديدة لـدار المعـارف فـى هـذه السنة كتاب اسمه ، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى، للدكتور محمود حمدى زقزوق وكتابه الغرب والإسلام للأستاذ رجب البنا والذى أشرت إليه ســابقا ويتنـاول كلاهمـا فكـرة الاستشـراق ، ويعرض أولهما سلبيات وإيجابيات الاستشراق ، أما ثانيهما فيسـلط الأضواء على الصورة السـلبية للإسـلام التـى رسمـها لنـا الاستشـراق الغربى وهى صورة تأخذ بها الحكومات الغربيـة المختلفـة وتتصـرف فى أمور العالم حسبها . ويبرز الأستاذ رجب البنا بذلك خطورة هذا التصرف إذ يتعامل معنا الغرب في المجال السياسـى معتمـدا علـى صورة كونها عنا أو أفكار راسخة لديه لا تصور الحقيقـة كلـها؛ بـل لا تظهر منا إلا سلبياتنا . وهذان الكتابان ـ بصراحة ـ أهم ما كتـب في هذا المجال مؤخرا لدينا لأنهما يثيران إلى خـط السـير السياسـى المستقبلى الذى قد يضرنا فى نهاية الأمر ضرراً قد يصبح من الصعب تصحيحه ، وذلك لأن الفكرة السلبية عنـا قـد ترسـخت عنـد عامـة الشعوب فى الغرب كما أوضحت ذلك فى تصرفاتهم معنا فيما سبق .

ومن المهم الآن أن نستعيد اسم من فجر ناقوس الخطر فى بدايـة الأمـر وهـو الكـاتب الفلسـطينى الأصـل والأمريكـى الجنسـية إدوارد سعيد. إننى أؤكد أنه فجر الموضوع ولكنه لم يبدأه لأن كتابنا الكبـار

المشتغلين فى مجالات التاريخ الإسلامى والأدب العربى والأدب المقارن والفلسفة لهم كثير من الكتابات ينقدون فيها ما كتبه بعض المستشرقين الغربيين عنا ، ولكن الغرب - فى أغلب الأحوال - تجنبهم ولم يحاول الأخذ بآرائهم لأنه رأى من مصلحته أن نظهر دائما فى صورة الأضعف حضارياً وثقافيا حتى يستطيعوا التصرف فى مستقبلنا وكأننا لا رأى ولا موقف لنا .

المهم الآن أن نقدم مفهوماً مبسطا للاستشراق وهو- كما كتبه الدكتور حمدى زقزوق فى كتابه المذكور عندما كتب قائلا إن «الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقى وكلمة ، مستشرق ، بالمعنى العام تطلق على كل عالم غربى يشتغل بدراسة الشرق كله : أقصاه وأوسطه وأدناه، فى لغاته وآدابه وحضاراته وأديانه ، ص ١٨» أما عن المعنى الخاص لمفهوم الاستشراق الذى يعنينا هذا فهو يخص -- حسب كلام الدكتور زقزوق - «الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامى فى لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام . وهذا المعنى هو الذى ينصرف إليه الذهن فى عالمنا العربى الإسلامى عندما يطلق لفظ استشراق ومستشرق ، وهو الشائع أيضا فى كتابات المستشرقين المعنيين» (ص١٨) .

كلنا سمعنا عن اسم إدوارد سعيد وكلنا نعرف أنه شخصية مهمة ، ولكن قد لا يعرف البعض سبب أهميته أو إن كان مهما

فعلا، وقد يخجل البعض أن يسأل عنه خوفا من أن يتهموه بالجهل أو اعتبارا منهم أنه لا يهم إلا بعض المتخصصين ، سأحاول أن أثبت هنا أن شخصيات مثل إدوارد سعيد تهمنا جميعا وذلك لأسباب شتى .

من هو إدوارد سعيد ؟

إنه رجل عربى فلسطينى مسيحى بروتستانتى نشأ وتعلم ما بين فلسطين ومصر – إذ تلقى كل تعليمه المدرسى فى مصر – والولايات المتحدة الأمريكية حيث حصل على الجنسية الأمريكية ويعمل حاليا أستاذاً للأدب المقارن فى إحدى جامعاتها الكبرى .

ما هو تخصص عمله ؟

إنه مجال الأدب الإنجليزى وبالذات الأدب المقارن . أما اهتمامه المستمر فهو بالقضية الفلسطينية ، وهو كمعظم الفلسطينيين الفخورين بأصولهم يعد نفسه طرفا فى المسألة الفلسطينية ، وهو كمعظم الفلسطينيين الفخورين بأصولهم يعد نفسه طرفا فى المسألة الفلسطينية وله أكثر من كتاب يعالج فيه قضية بلاده .

ما هى أهمية إدوارد سعيد بالنسبة لنا ؟

هو - فى الحقيقة – مهم جدا حتى لو حاول البعض عندنا أن يتجاهله بسبب أنهم لا يجيدون اللغة الإنجليزية – وهى اللغة التى يؤلف بها سعيد– أو اعتقادا منهم بأن كل من يكتب بلغة أجنبية

ويجد من ينشر له كلامه فى الغرب فلابد أن يكون عدوا لنا. والحقيقة بعيدة عن ذلك لأن أهمية سعيد ترجع إلى أنه لا يتناول فى كتاباته منظور الغرب للأمور بل يقدم ما يقدمه من كتابات من وجهة نظر عكسية لما تعود الغربيون– وأقصد هنا أمريكا الشمالية وأوربا عموما – أن يجدوه فيما كتب بلغتهم. ويتضح لنا ذلك بشدة فى كلام ما كتبه عن العرب والإسلام والقضية الفلسطينية . وكتابات سعيد كثيرة – إذ يفوق عدد كتبه المنشورة العشرة كتب– وتدور كلها فى مجال تخصصه أى الأدب المقارن ثم اهتماماته السياسية وهى القضية الفلسطينية . ومن بين كتبه الكثيرة اخترت اثنين لأننى وجدت أنهما يمسان موضوعنا هذا ربما أكثر من كتبه الأخرى وهما كتابه الشهير، الاستشراق، (١٩٧٨) –وترجمه إلى العربية كمال أبو ديب ونشر فى ١٩٨١ عن مؤسسة الأبحاث العربية بيروت – ثم كتاب التغطية الإعلامية للإسلام ، (١٩٨١) الذى لم يترجم بعد على ما أظن .

ما هو مضمون كتاب الاستشراق ؟

يتناول سعيد فى كتابه موضوع الاستشراق ابتداء من القرن الثامن عشر الميلادى وهو القرن الذى تكونت فيه الإمبراطوريات الأوروبية ثم بدأت تتحدد خلاله عبر العالم عن طريق الاستعمار ، ومن أمثلتها الإمبراطورية الإنجليزية والفرنسية والأسبانية وأخريات . اضطرت الدول الغربية المختلفة فى ذلك الوقت أن تسيطر حسب أساليب

مختلفة سيطرة محكمة على جميع مستعمراتها التى كانت تشمل شعوبا وأجناسا مختلفة من الناس . وكان من بين هذه الأساليب التى لجأت إليها الدول الغربية المستعمرة –وبالذات إنجلترا وفرنسا – الاستشراق الذى استخدم سلاحا سياسيا تستطيع عن طريقه أن تحكم وتفرض سيطرتها على بلاد عديدة .

ويعرض سعيد فى كتابه تاريخ الاستشراق وهو يوازى عنده تاريخ اكتشاف الدول الأوروبية لبلاد الشرق الأوسط والأقصى ، وكيف كونت بل ابتكرت صورة محددة لهذه البلاد توحى دائما بالضعف والرجعية ، وكيف نجحت البلاد الغربية المستعمرة فى السيطرة على هذه البلاد العديدة من خلال هذه الصورة التى أوهمت شعوبا كثيرة بأنها ضعيفة وفى أشد الحاجة إلى توجيه فمن أقوى منها وهى بلاد الغرب المستعمر ؟

ويشرح سعيد فى كتابه كيف اشترك جميع الغربيين فى تحديد هذه الصورة التى كانوا جميعهم مقتنعين بها فمنهم رجال السياسة ثم المشتغلون بالآثار ، والفنانون والكتاب والمصورون التشكيليون وغيرهم وكأنهم اتفقوا جميعا على رسم صورة واضحة لملامح بلاد الشرق لا توجد فيها إلا صفات سلبية . ثم وضح سعيد كيف نجحوا فى السيطرة على هذه البلاد بهذه الطريقة. فالمقصود من وراء كل هذه الكتابات كان نوعا من إثارة الإحباط لدى شعوب المستعمرات وإضعاف الروح المعنوية وغرس الشعور بالنقص فيها، وقد تكون مصر على قائمة هذه البلاد .

ويتعرض كتاب »الاستشراق« لنقد دقيق لنماذج عديدة من الأعمال الغربية تظهر المواقف التى اتخذها الكتاب المختلفون منا.

وكيف نظهر نحن المصريين - على سبيل المثال - في هذه الأعمال ؟

يوضح سعيد أن صورتنا تظهر - بطبيعة الحال - سلبية للغاية : على شكل شعب غير متحضر ورجعى يعتنق معظم أفراده دينا لا يساعدهم على التقدم والترقى بل يدفعهم إلى التجمد فى الماضى والسلبية ، شعب عديم الإرادة والابتكار هو فى أشد الحاجة إلى توجيه سليم نير . هذا التوجيه الذى لن نجده إلا من جانب الدول الغربية المسيطرة التى تعرف تمام المعرفة معنى التقدم والرفاهية وكيفية تحقيقها .

ويوضح سعيد فى كتابه أن عمل المستشرقين بأجمله يظهر صورتين لا صورة واحدة .

أولهما هى الصورة السلبية التى رسموها لنا فى أعمالهم العديدة ، وثانيهما صورة لهم وهى سلبية أيضا لأنها تظهر بلاد الغرب على أنها قوة مسيطرة تفرض وجودها بالقوة والقسوة وبتزييف الواقع ، وأنها مستغلة وليست راعية لمصالح البلاد المستعمرة، فسياستها لا تعرف الرحمة . ونفهم إذن من كتاب «الاستشراق» أن هناك صورتين سلبيتين إحداهما للشرق ، وهو يجسد التخلف كما

أراد أن يرسمها لنا المستشرقون وكأنهم اتفقوا فيما يقولونه ، ثم صورة أخرى – سلبية أيضا – للغرب وهى صورة كمسيطر أنانى لا يرحم .

ويتعرض الكتاب للعديد من المستشرقين وللعديد من الكتاب للعديد من المستشرقين وللعديد من الكتاب ورجال السياسة الغربيين ومهم رجال معرفون مثل الكاتب الفرنسى فلوبير ورجل السياسة الإنجليزى ديزرائيلي وغيرهم ممن أقل شهرة . ويشرح سعيد إننا نجد فى كتابات كل هؤلاء صلة وثيقة تجمع بين المعلومات التى يقدمونها وعنصرية واضحة ، وكذلك بين فكرة الاستعمار والفكر السياسى المعاصر.

ثم إن مفهوم «الشرق» يتوسع خلال قراءتنا للكتاب فبدلا من أن يقتصر على منطقة معروفة جغرافيا يصبح شاملا للناس الذين يعيشون فى هذه المنطقة ثم الأرض التى يعيشون عليها ثم الروح الشائعة فيها، وكل ذلك ينجذب إليه الغرب ولكنه يخشاه فى نفس الوقت إذ تتضمن بلاد الشرق قوة روحية معنوية قوية يجهل الغرب أبعادها ولذلك يخشاها ويحاول أن يقهرها عن طريق السيطرة العسكرية وكتابات المستشرقين .

وقد سبق أن ذكرت أن الكثيرين من كبار كتابنا فى مجالات التاريخ الإسلامى والفلسفة والأدب العربى والأدب المقارن ومجالات أخرى كتبوا باستفاضة وبطريقة علمية أكاديمية مقنعة بغرض

تصحيح رؤى المستشرقين الغربيين ولكن كتاباتهم استبعدت بل نادرا ما أخذ بها الغربيون حتى يظل الرأى المسيطر هو رأيهم وحتى نفهم أن ما يقولونه ويكتبونه عنا هو الصح بلا جدال .

وهنا نأتى أهمية إدوارد سعيد وكتابه «الاستشراق» ، إذ ينتقد فيه أعمال المستشرقين الغربيين ، محاولا بهذه الطريقة أن ينصفنا وأن يوضح إلى أى مدى تجنو علينا فى مؤلفاتهم . وهذا وإن كان فى أحكامه كثير من التعميم وتجاهل لبعض الأقلام الغربية فى عالم الاستشراق ، وقد يكون السبب فى ذلك هو إبراز أفكاره الأساسية حول الاستشراق .

وأذكر أنه بمجرد نزول هذا الكتاب إلى سوق الكتب الغربية رافقته حملة إعلامية هائلة وفهمنا من ضمن ما فهمناه حينذاك أن الغربيين كانوا وكأنهم يريدون أن يستمعوا إلى وجهة نظرنا نحن الشرقيين فيما كتبه فى مجال الاستشراق أى كان نوعا من فتح باب المناقشة فى هذا المجال وكأنهم هم البادئون وكل ما آخذه شخصيا على إدوارد سعيد وكتابه إنه لا يشير فى كتابه إلى أى من كتابنا العرب – والمصريين بالذات – ممن كتبوا كثيرا وبشكل جيد فى هذا المجال وكأنه بذلك قد بدأ الكتابة فى ميدان جديد لم يطرقه أحد قبل . وهو بالنسبة للغرب مجال جديد بالفعل إذ يعتبر سعيد بالنسبة لهم الفاتح لنقد الاستشراق الغربى فهو– كما ذكرت – يعيش ويعمل فى الغرب ويتكلم بلغتهم – فهو أمريكى الجنسية كما ذكرت – ولكن

ما يكتبه آراء فى صالحنا تدعم موقفنا . على إننا إذا طرحنا جانبا كل ما أخذناه عليه ونظرنا إلى كتاب «الاستشراق» بنظرة إيجابية وبمحايدة فإننا سنجد ما يلى:

إنه كتاب ممتع وثرى يقدم وجهة نظر جديدة فى موضوع قديم . وهو يقدم كذلك أسلوبا جديدا فى الكتابة ونبرة جديدة فى «صوت» الكاتب إذ أنه يكتب وكأنه يخاطب القارئ مخاطبة شفاهية ثم يعيد ويؤكد ما يقوله مرة ومرتين وثلاثا حتى يثبت رأيه ، وأحيانا وخلال قراءتنا للكتاب نشعر وكأن الكاتب يرفع صوته حتى يفرض رأيه لأنه يعلم أنه أتى بفكرة جديدة وبموقف جديد ، ويواجه معتقدات وكتابات ورؤى قد ترسخت واستقرت فى الغرب حتى أصبح من الصعب تغييرها ، ولكنه يهاجمها كلها وبكل قوته ، ويعبر عن وجهة نظره بطريقة أكاديمية مقنعة للغاية ولكنها مقنعة فقط لهؤلاء الذين مازالت لديهم مرونة فى الفكر وتقبل للتغيير وحب للتطور والتقدم والفهم .

كان كل ما جاء به سعيد فى كتاب «الاستشراق» جديدًا بالنسبة للكتابات الغربية أى من ناحية منظوره للموضوع ثم أسلوبه ونبرة «صوته». ولكنه كان جديدا فى أواخر السبعينات أى منذ ما يقرب من عشرين سنة . وفتح سعيد بكتابه هذا مجالا جديدا وواسعا للبحث العلمى إذ أصبح من الممكن إعادة قراءة النصوص الأدبية والفلسفية والتاريخية والاجتماعية والسياسية وتفسيرها تفسيرا جديدا وهو مجال ممتع للغاية لأنه يظهر معانى جديدة – وأحيانا مبهرة –

لنصوص كانت مجمدة حسب مفاهيم وقوالب راسخة لا تتحرك . وتساعد نظريات سعيد هذه أيضا على اكتشاف نوايا المؤلفين التى تكون أحيانا خبيثة للغاية ولكنها مغطاة بأسلوب كتابى جميل إذ ساعدت هذه النظريات على رؤية ما نقرؤه من زاوية مختلفة ذات أبعاد عديدة وثرية .

وتولدت عن كتاب «الاستشراق» فى الغرب مؤلفات كثيرة بنت نظرياتها عليه واشتهر مؤلفوها وإن كان بعضهم قد تجاهل اسم سعيد ومؤلفاته ، ولاحظت أن بعضهم أصبح يشير إليه أحيانا على أنه «قديم» مع أنه هو الذى فتح هذا المجال للبحث العلمى وبهذا انفتح مجال واسع للبحث حول أدب الاستعمار، وأدب ما بعد الاستعمار.

وهنا أتساءل : هل يرجع السبب فى ذلك إلى أن إدوارد سعيد فى نهاية الأمر عربى وفلسطينى؟ ربما ، فكل ما أعرفه أنه من الصعب تجاهله أو تخطيه.

إننى أقف هنا لحظة وأسأل : لماذا لم نستفد هنا فى مصر من كتاب مثل «الاستشراق» هذا بنسبة أكبر؟ إنه كتاب وكأنه آلف لنا فنحن فى أشد الحاجة له ولأمثاله من المؤلفات.فقد صدر- كما ذكرت- فى أواخر السبعينات وما زالت تصدر له طبعات جديدة حتى الآن فى الغرب لأنه من الكتب التى تعيش وتبقى دائما جديدة. ومع هذا فإننى حينما أتتبع ما يكتب لدينا أى أن ما تضمنه

من نظريات وتوجيهات لم يؤخذ به إلا فى مجالات الأدب والفلسفة وحتى فى هذين المجالين فالاستفادة منه ما زالت محددة جـــدا. ما هو- أو من هو – السبب فى ذلك يا ترى ؟؟

....

والكتاب الثانى لإدوارد سعيد الذى اخترت أن أتكلم عنه هنا ، هو كتابه «التغطية الإعلامية للإسلام» (١٩٨١) ويشرح فيه كيف يتكاتف الإعلام الغربى والمتخصصون فى رسالته حتى يحددوا المنظور الذى نرى من خلاله العالم .

إن هذا الكتاب لم يحظ من النقاد الغربيين من الاهتمام بما حظى به كتاب «الاستشراق» رغم أنه لنفس المؤلف ورغم إنه يستكمل فيه ما بداه فى كتابه الأول المذكور . وعندما نقرأ الكتاب نفهم سبب تفاديه وعدم انتشاره فالكثيرون لم يسمعوا عنه قط . والسبب فى تجنبه وعدم إلقاء الضوء عليه – رغم إنه نشر منذ ما يفوق السنوات العشر – هو إنه يتناول موضوع الإسلام ويوضح كيف يظهر الإعلام الغربى صورة واحدة سلبية له وكيف يحاولون ترسيخ هذه الصورة غير المحايدة وغير الصحيحة.

وموضوع الإسلام فى ذاته غير مستحب لدى الغربيين والسبب فى هذا يكمن فى أنه موضوع يمس مجال الصراع بين الحضارات ولكننا نعلم مدى قوة الإسلام كدين وكحضارة ، ثم الأعداد الهائلة من الناس الذين يعتنقون هذه العقيدة ويؤمنون بالحضارة التى تستند إليها .

لا يتعرض سعيد لتفاصيل العقيدة الإسلامية فى كتابه ولكنه يتخذ الإسلام كموضوع مهم تناوله الإعلام الغربى وأشاع من خلاله صورة محددة له ليُعرف جمهوره بها. ويشرح لنا سعيد كيف كونت أجهزة الإعلام الغربى فكرة محددة وغير كاملة وعديمة العمق عن الإسلام ، ثم نشرت هذه الصورة السلبية للغاية خلال جميع أجهزة الإعلام المكتوبة والمرئية والسمعية . وكان من نتائج ذلك أن معظم الغربيين ينفرون من مجرد سماع كلمة «إسلام» إذ يربطونه تلقائيا بفكره العنف والجريمة والرجعية والعدائية والتصوف الهمجى وقيم أخرى غير مستحبة فى الغرب (وهم غافلون عن حقيقة أن هذه القيم غير مستحبة لدينا أيضا).

ويقول سعيد: إن صورة الإسلام السلبية هذه بدأت تتكون فى الإعلام الأمريكى فى السبعينات وبعد حرب أكتوبر عندما اتفقت البلاد العربية على قطع مد البلاد الغربية بالبترول وهو مورد أساسى للحياة هناك .

وبما أن معظم سكان البلاد العربية مسلمون ارتبطت فكرة الإسلام فى العقل الغربى بالخطر الذى يهدد حياتهم فهو أيضا يثير فيهم الخوف ، وأصبح معنى ذلك أن كل من هو مسلم يعتبر عدوا لهم. هكذا صور الإعلام الأمريكى الإسلام ، وهكذا انتقلت نفس الصورة إلى البلاد الأوروبية.

ويشرح سعيد كيف أثير موضوع الإسلام مرة أخرى عندما قامت الثورة الإيرانية ودخلت إيران تحت حكم آية الله الخومينى ويقول

سعيد : إن كل تصرفات الخوميني ومن حوله لم يفهمها الغربيون لأنه كان رافضا لكل من النظام السياسى الشيوعى، وكذلك الرأسمالى الذى كان يقدمه الغرب حينذاك والذى يعدونه تقدميا وأن اكثر ما لفت النظر حينذاك كان ارتباط الخوميني بالإسلام ، وهكذا أصبح مفهوم الإسلام مرتبطا عندهم بالأصولية وبعدم المقدرة على فهم الغير. ولم يربط الإعلام الغربى– وبالذات الأمريكى– هذه الأفكار السلبية بإيران فحسب بل ربطها بجميع الدول العربية إذ معظم سكانها من المسلمين.

ويؤكد سعيد أن من استفاد استفادة كلية من صورة الإسلام السلبية هذه كانت دولة إسرائيل إذ كان يصورها الغرب فى إعلامه دائما على أنها دولة ديمقراطية متزنة وقريبة إلى نفوس الغربيين وعقلانيتهم ونادرا ما يربط الإعلام الغربى – والأمريكى بالذات – إسرائيل بكونها دولة دينية فى المقام الأول وهذا ما نعرفه جميعا.

وصورة الإسلام التي بدأت تظهر منذ السبعينات ثم ترسخت بالتدريج فى أمريكا الشمالية أولا ثم فى جميع بلاد الغرب هى صورة غير كاملة وسلبية للغاية ويراد منها إثارة خوف الغربيين من كل ما هو مرتبط بالإسلام .

وهنا علينا أن نتساءل : **لماذا لم تتغير هذه الصورة السيئة للإسلام فى الإعلام الغربى ؟ لماذا لا تتزن وتشمل صورة كاملة له؟**

يقول سعيد فى كتابه : إن الغرب يرى انه ليس من مصلحته أن تتغير هذه الصورة ويذكر على سبيل المثال أن معظم المتخصصين فــى دراسات الشرق الأوسط بالجماعــات هنـاك متصلـون عمومـا بطريقـة مباشرة أو غير مباشرة بشركات بترول ومصارف كبرى أو بقطاعات حكومية مهمة من مصلحتها أن تبقى هذه الصورة على ما هى عليه ويقول أيضا : إن هنـــاك رقابـة قويـة وتوجـهات عليـا أحيانـا غـير مباشرة وغير ملحوظة. ترى إنه من مصلحتها أيضا أن يظهر الإسلام فى صورة سلبية حتى تتحـد رؤى ومواقـف الشعوب تجـاه القضايـا الخـارجية ، وأن كل ما يحدث الآن أو ما يقوم به الإعلام فى الغرب بتشويه صورة الإسلام وربطه بقيم مرفوضة ليــس إلا إكمـالا لمـا بـدأه المستشرقون الغربيون من قبل. ويضيف سعيد أن رجل الإعلام الغربى يعلم بفطرته من أى منظور يصور أى موضوع حتى يفيد بذلك موقف وطنه منه ويدعمه فهو يعلم أن مصالح وطنـــه مرتبطـة ارتباطـا وثيقـا بمصلحته الشخصية الذاتية فى نهاية الأمر. ويحذر سعيد فى الجزء الأخير من كتابه من خطورة ترسخ هذه الصـورة السـلبية وأن تصبـح جزءا من المعتقدات الغربية المسلم بهما ويصبح من الصعب تغييرها ، وهو يؤكد أن نتيجة كل هذا قد تؤدى إلى ردود فعل من قبل المسلمين قد يأسف عليها الجميع فى المستقبل .

إن كتاب «التغطية الإعلامية للإسلام» يحتوى على ما يقرب من مائتى صفحة وهو يتألف من ثلاثة أجزاء . موضوع الجـزء الأول هـو

«الإسلام كخبر إعلامى» ، والثانى «قصة إيران» ، أما الثالث فموضوعه ، «المعرفة والسلطة» ، وهو كتاب جرىء فى الموضوع الذى يتناوله وفي الأسلوب الذى كتب به ، ثم إنه ثرى فى مضمونه إذ به أمثله كثيرة ومستفيضة مرتبطة بأحداث شتى وقعت فى عالمنا العربى، ويصف سعيد كيف غطى الإعلام الأمريكى والأوربى هذه الأحداث بحيث تظهر من خلال التغطية صورة واحدة سلبية للإسلام هى صورة مخيفة وغير مرضية . والغريب فى أمر هذا الكتاب أنه على الرغم من أهميته ومن أن واجبنا أن نقرأه جميعا فإنه لم يترجم إلى العربية حتى الآن .

إن الكتاب يمس فى الصميم موضوع الصراع بين الحضارات الذى نتكلم عنه هنا وبما أنه يكشف طريقة عمل الإعلام الغربى - وهى طريقة تتصادم مع الديمقراطية التى يزعم بها الغرب - ولا سيما الولايات المتحدة - إذن فهو خير ممثل لها ولذلك لم ينتشر انتشار بعض مؤلفات إدوارد سعيد الأخرى .

....

إن كل ما ذكرته هنا ذكرنى بحديث جرى بينى وبين أبى الدكتور حسين مؤنس رحمه الله إذ كنت قد قصصت عليه كيف شككت فى أمر امرأة إنجليزية ، وقلت له إنها من المؤكد أنها تعمل فى المخابرات الإنجليزية . وأذكر أنه رد علي قائلا : «لماذا تظنين أن هذه السيدة بالذات مخبرة لحكومتها؟ إن كل إنجليزى مخبر

تابع لحكومته . فإن شك الإنجليزى - أى إنجليزى - فى شىء على أنه قد يضر ببلده أو سمعته فلابد أن يذهب من تلقاء نفسه ويبلغ عن الأمر. وهذا جزء من تصرفاته العادية. هل رأيت مرة واحدة إنجليزيا يمس سمعة بلده فى الكلام؟ أو يقوم بعمل يضر ببلده بأى طريقة؟ هذا مستحيل والسبب هو أن شعورهم بوطنيتهم رسخ فى نفوسهم منذ الصغر حتى أصبح جزءاً لا يتجزأ من شخصياتهم» وأدركت أن هذه السمة هى سمة يشترك فيها جميع مواطنى الدول الغربية وهو اعتزازهم بوطنيتهم . إذ إنهم يعرفون تاريخ ماضيهم معرفة جيدة ويعملون على الحفاظ على مصالحهم ومصالح دولهم ويتفقون عموما فى مواقفهم تجاه الأمور الخارجية.

وعندما ألتفت إلى واقعنا المصرى وجدت أن هناك نماذج غير مشرفة فيما يخص التمسك بقوميتنا تجاه الغرب ولكنها والحمد لله قليلة والكثيرون منا يلاحظونها وينتقدونها . أمثلتى مأخوذة من إطار عملى وهو الجامعة :

إننا نعلم أن هناك مؤرخين فى الغرب يكتبون تاريخنا وبالذات تاريخنا المعاصر، ولكنهم يفعلون ذلك من وجهة نظرهم هم ويأملون أن يؤثروا فينا حتى يستطيعوا أن يشتركوا فى تكوين مسار مستقبلنا. وماذا نقرأ فى معظم هذه المراجع العلمية ؟ إننا نجد أنهم يبرزون فيها الشخصيات المصرية أو العربية - التى تميل إلى فكرهم وتحقيق مصالحهم ويساندونها ويتجاهلون آخرين ، ثم أنهم يؤكدون

أن أى علم مفيد لا يأتى إلينا إلا من الغرب، ثم يوضحون كيف أن الدين الإسلامى يمثل عقبة فى طريق التقدم والمستقبل ويحاولون إثبات إن كل مفكر مصرى ذى قيمة له ميول علمانية حتى لو لم يفصح بذلك وأشياء أخرى موجودة فى كتب ذات طبعات جميلة صادرة معظمها عن دور نشر غربية كبيرة ، وماذا يريدون من وراء ذلك ؟ إنهم يريدون أن يرسموا لنا تاريخنا حسب رؤيتهم حتى يتحكموا فى مسار مستقبلنا.

ومن ضمن هذه الكتب كتاب ألفه مؤرخ أمريكى عن تاريخ جامعة القاهرة - وهذا الكتاب متداول فى الأسواق المصرية ويباع بخمسة جنيهات فقط أى أنه فى متناول أى إنسان يقرأ الإنجليزية أيا كانت قدرته المالية .

حتى هنا والكلام مقبول فلا بأس فى أن تطرح فى الأسواق جميع أنواع الكتب حتى نعلم ما يدور فى عالمنا من أفكار عنا .

ولكن كيف نحكم على أستاذ جامعى مصرى يختار هذا الكتاب - وهو اختيار شخصى وفردى - ويهديه باسم الجامعة التى ينتمى إليها من يزور الجامعة من أساتذة غربيين ؟

هل قرأ هذا الأستاذ المصرى الكتاب قبل أن يهديه؟ هل هو مقتنع بما كتب فيه ؟

وماذا يقصد من وراء إهداء مثل هذا الكتاب ؟

....

إننى حضرت محاضرة ألقاها أحد الأساتذة الزائرين الغربيين فى إحدى المؤسسات العلمية الكبرى فى مصر. وكان موضوع المحاضرة عن تاريخ البحر الأبيض المتوسط وما به من تعدد ثقافات وأديان الخ.

وكانت خلاصة كلام هذا الأستاذ الزائر- وهو ذو سمعة كبيرة - أن العرب لم يكن لهم أى وجود ملحوظ مهم فى البحر الأبيض المتوسط على مدى التاريخ - والسؤال هنا هو: لماذا دعت هذه المؤسسة العلمية هذا الأستاذ بالذات لكى يلقى محاضرة عامة فى مصر؟ هل كانت تعلم بمحتوى محاضرته؟ وما هو الغرض من وراء هذا ؟

....

إننى حضرت ندوة دولية عقدت فى مصر عن موضوع هام. وكما جرت العادة فى مثل هذه المناسبات هناك فترة من الزمن بعد كل بحث يقرأ يدلى فيها من يريد التعقيب من الحضور . وتواتتنى الدهشة عندما سمعت أستاذا جامعيا مصريا احترمه جدا واقرأ له كثيرا يقول إن مظاهرات الطلاب التى كانت تقام فى عهد ما قبل الثورة لم يكن لها أى صفة وطنية. فالذين قاموا بها كانوا طلابا رسبوا فى مادة اللغة الإنجليزية وهذا كان احتجاجهم على رسوبهم ، لا أكثر ولا أقل .

والسؤال هنا هو : هل يؤمن هذا الأستاذ الجامعى المصرى بمثل هذا الرأى فعلا ؟ أو أنه قال هذا الكلام على سبيل الدعابة ؟ هل

نسي أن كل ما يقال عنا أو نقوله نحن فى مؤتمر دولى يؤخذ دائما مأخذ الجد ؟

....

إن الأمثلة التى ذكرتها تمس صحيح موضوع الصراع بين الحضارات الموجودة بالفعل وكلها تشير إلى أن بعض أساتذة جامعاتنا- وهم قليلون والحمد لله - لا يأخذونه مأخذ الجد ويتصرفون أحيانا بتلقائية وعفوية مجردة من أى شعور بالمسئولية تجاه مصر ومن المؤكد أنها تصرفات ستعود إلينا بالضرر بمرور الزمن.

إننى أترك للقارئ أن يحكم على الأمثلة التى ذكرتها وأن يسترجع من ذاكرته أمثلة مشابهة قد صادفها فى مجال عمله وأن يسأل نفسه :

هل من الممكن أن نخلق لأنفسنا صورة قوية واضحة صريحة نواجه بها الصورة السلبية التى رسمها لنا الغربيون - والتي ذكرها إدوارد سعيد فى مؤلفاته المشار إليها هنا - بمثل هذا التصرف؟ إن التصرفات والأقوال الواردة فى الأمثلة المذكورة لا تمت بصلة إلى حرية الفكر لأنها تخص واقعنا المصرى الماضى والحاضر الذى عاشته أجيال قبلنا ونعيشه نحن الآن .

إدوارد لين : الجلباب و «الجوزة»

كان اختيارى لإدوارد لين (١٨٠١ – ١٨٦٧) نموذجا لمستشرقى القرن التاسع عشر ، لأنه من الكتّاب الذين هاجمهم إدوارد سعيد فى كتابه «الاستشراق» وقال عنهم إنهم أساءوا فى تصويرهم لبلادنا ، وقد وقع اختيارى هذا على إدوارد لين بالذات لأنه كان أيضا من المستشرقين القليلين الذين أحبوا مصر فعلا ، وجاءوا إليها فى بداية الأمر لكى يتعرفوا على البلد وعلى الناس وعلى الأدب العربى . ومن المعروف عنه أنه كان يحب أن يختلط بالمصريين ، وكان يفضل أثناء وجوده هنا أن يبتعد عن الإنجليز أو عن الأجانب عموما، وأن يعيش مع المصريين ويشاركهم فى عاداتهم وتقاليدهم ، فكان يلبس الجلباب أثناء إقامته فى مصر ويدخن الجوزة ، ويخفى أنه إنجليزى ، ويفهم الناس أنه تركى حتى يتمكن من دخول الجوامع ومتابعة تقاليد المصريين وعاداتهم عن قرب ، حتى بلغ به الأمر أنهم كانوا يسمونه «منصور بك» وكان هو يحب هذه التسمية .

ومن المعروف عن إدوارد لين أيضا – كما تثبت خطاباته لأصدقائه – أنه كان يفتقد الحياة فى مصر طوال وجوده فى إنجلترا، وكان دائما يسعى إلى الرجوع إلى بلدنا .

إن من أجمل الكتب التى قرأتها عن حياة إدوارد لين وأعماله هو كتاب كتبته الباحثة المصرية الدكتورة ليلى أحمد التى تعمل حاليا

بإحدى الجامعات الكبرى بالولايات المتحدة الأمريكيـة وتسـرد فيـه كيف كان لين يعشق مصر ، وكيف كان يعيش بيننا ، وكيف وهـب حياته لدراسة مصر وكل ما هو عربى ونستنتج من كتابها عنه – وهو كتاب ممتع – أن لين لم يقدم فى كتاباته إلا صورة إيجابية لمصر ، هذا رأيها .

وعندما نراجع أعمال إدوارد لـين نجـد أنـه فعـلا وهـب حياتـه لدراسة كل ما يخص مصر ومـا يتصـل بـها ، فإنتاجـه فـى مجـال الاستشراق معروف لدى المتخصصين فى هذا المجال ، ومعروف عنه كبـاحث دقتـه الأكاديميـة وأسـلوبه المـتزن ، واسـتفاضة شـرحه لمـا يتناوله من مواضيع ، مما يثبت أنه يعـرف مـا يكتـب عنـه معرفـة جيدة وأنه يخلص إلى نتائج معتمدا أساسًا عل ما رآه هو شخصيا.

ونذكر من أعمال لين كتابه المعروف «**تقاليد المصريين المحدثـين وعاداتهم**» (١٨٣٦) الـذى ترجمـه إلى اللغـة العربيـة الأسـتاذ عـدلى طاهر نور فى عام ١٩٥٠ وصدر عن مطبعة الرسـالة تحـت عنـوان : «المصريون يتحدثون ، تقاليدهم وعاداتهم فى القرن التاسع عشر» .

وترجم لـين كتـــــاب «**ألـف ليلـة وليلـة**» فـى ثلاثـة أجـزاء (١٨٣٨–١٨٤١) واعتمد فى ذلك على معرفته باللغة العربيـة . ومـن المعروف أن ما أضافه لين من هوامش لترجمته هذه يمثل جهدا غـير مسبوق لشرح الحياة الاجتماعية فـى مصـر . ويقـال أيضـا إن لهـذه

الهوامش فى حد ذاتها قيمة كبيرة فهى تفيد الدارس الغربى فى فهم كثير من النواحى المختلفة لحياة المصريين فى القرن الماضى .

ثم إنه ترجم بعض المختارات من القرآن الكريم (١٨٤٣) وكذلك ألف قاموسا عربيا إنجليزيا من ثمانية مجلدات (١٨٦٣ - ١٨٩٣) أضيفت إليها أربعة مجلدات أخرى نشرت بعد ذلك تحت إشراف زوج أخته ، وقد علمت أن كبار لغويينا فى مجمع اللغة العربية فى مصر مازالوا يرجعون إليه ويستعملونه فى كثير من الأحيان كمرجع لغوى أساسى حتى يومنا هذا .

كل ما ذكرته هنا يثبت أن إدوارد لين كان مستشرقاً وباحثاً فى علم الاستشراق أفاد فى مجال علمه وأفادنا نحن أيضاً . **والموضوع الذى أريد أن أثيره هنا هو أن إدوارد لين رغم حبه الشديد لمصر وللمصريين ورغم ادعائه بإنصافه لنا فى كتاباته فإنه قدم صورة غير إيجابية للإسلام فى كتابه عن تقاليد المصريين وعاداتهم وهو بذلك يثبت أنه تأثر بميول عامة المستشرقين فى زمنه** ، بالرغم من أنه أكد دائما أنه حرص على الكتابة المحايدة ، ويعتبر لين من الشخصيات المحبوبة جدا لدى الغربيين والمحترمة جدا بيننا .

يقدم لين فى كتابه «تقاليد المصريين المحدثين وعاداتهم» صورة كاملة لحياة المصريين اليومية بالقاهرة فى بداية القرن التاسع عشر أى فى فترة من الزمن كانت الحياة فى مصر ما زالت هادئة إذ لم

تكن قد وقعت بعد تحت نير الاستعمار ، وكان ذلك فى أواخر عهد محمد على . صحيح أن مكانة مصر الجغرافية المهمة بالنسبة لعالم الغرب كانت قد برزت بقدوم الحملة الفرنسية ووقوع معركة أبو قير بين الإنجليز والفرنسيين فى ١٧٩٨ ولكن لم يصل لها الاستعمار بمفهومه المعروف وما يأتى به من فرض القوة على السكان المحليين . إن الكثيرين من الرحالة الأوربيين ، وكذلك الكتّاب المستشرقون - مثل لين- كانوا يأتون إلى مصر لإرضاء فضولهم والتطلع إلى معرفة تراث مصر القديمة والحديثة ، وأيضًا لأسباب صحية ، لكن الحياة هنا كانت هادئة ومستقرة إلى حد كبير ، واستطاع لين أن يقدم تصويرا دقيقا لحياة مصر وعاداتها فى ذلك الوقت ولم ينس أى وجه من أوجه الحياة الاجتماعية .

يتكوّن الكتاب من ثمانية وعشرين فصلا ويشمل مواضيع مثل وصف الملابس ، ونوعية التعليم الموجود ، والحياة المنزلية ، وعادة التدخين وشرب القهوة ، والحمامات العامة والألعاب والموسيقى ، والاحتفالات الشعبية والدينية ، ومراسم الموت ، وهناك ستة ملحقات للكتاب يصف فيها لين أشياء من الحلية النسائية ، وعناية المصريين ببعض الأمراض المنتشرة محليًا ومواضيع أخرى . ويصف لين كل هذه الأشياء وصفا دقيقًا للغاية يساعد القارئ على تصور الشيء الموصوف . ثم يحتوى الكتاب أيضا على أكثر من مائة وثلاثين رسمًا قام بعملها لين نفسه حتى يوضح ما يصفه ، وساعد

لين فى ذلك أنه كــان قـد تعلـم الرسـم فـى بدايـة حياتـه ، ثـم أن الأسلوب الذى كان يكتب به لين كان هادئا ومتزنا لا يتغـير خـلال الكتاب كله . وأخيرا ساعد تنظيم مواد الكتاب وترتيبها القارئ على استيعاب المادة المقدمة وعلى تتبع القراءة فيه بطريقة منطقية ، وقيل بخصوص طريقة عرض محتويات الكتاب إن لين استعان فيه بكتاب «وصف مصر» الفرنسى المعروف . المهم ما يعنينا هنا أن لين قدم فى كتابه عن المصريين وعاداتهم نموذجا ممتازا لكتاب مرشد للسفر لكل من يريد السفر إلى مصر ، هـذا إلى جـانب أنـه عمـل أدبـى جميـل ومتكامل .

ويُعد هذا الكتاب دليلا سياحيا لمصر منطلقا من فكرة كان مأخوذا بها فى أيام لين بل حتى اليوم ، فالكثيرون من الغربيين القادمين – حتى يومنا هذا – يقرءون كتـاب لـين ويعتمـدون علـى مـا فيـه مـن معلومات ، برغم أنه مضى على نشره أكثر من مائة وخمسين عاما . يرجع السبب فى ذلك – كما ذكرت – إلى أن الكتـاب يقـدم صـورة متكاملة لعادات مصـر وتقاليدهـا فـى القـرن المـاضى . وبعـض هـذه العادات ما زالت موجودة حتى يومنا هذا .

كان يعتبر كتاب لين إذن الكتاب العمدة لمعرفـة مصـر آنَ ذاكَ ، وكذلك لمعرفة باقي البلاد العربية لما بين هذه البلاد مـن تشـابه فـى العقيدة الدينية وبعض العادات والتقاليد المتوارثة ، أى لأنـه كتـاب قرأه معظم الغربيين وقت أن نشر لأول مرة ومـا زال يقـرؤه كـل مـن

يأتي لزيارتنا حتى يومنا هذا لأنه - كما ذكرت - كتاب مملوء بالتفاصيل التي تخص حياة المصريين اليومية ، ويثير بذلك اهتمام الغرب عنا . ثم أنه عمل أدبي لا يمل منه القارئ ، ونفهم من وراء ذلك أن الصورة التي قدمها لين لمصر انطبعت في خيال كل من فكر في زيارة بلدنا من الغربيين ، وأنا أعرف أن الكثيرين ممن كتبوا عن بلدنا في مجال الأدب رجعوا إلى كتاب لين ليستكملوا شرح فكرة أو وصف تقليد أو عادة مصرية لم يعيشوها أو لم يجدوها بيننا عند مجيئهم إلى بلدنا . وأصبح بذلك كتاب لين يقنع القارئ الغربي بدرجة أكبر من الواقع المصري نفسه ، كذلك أن الكثيرين من الروائيين الغربيين على سبيل المثال قد نقلوا في كتاباتهم وصف لين لبعض مظاهر من حياتنا الشعبية بدلا من أن يعتمدوا على ما رأوه بأنفسهم اعتقادًا منهم أن مصر بلد لا تتغير مهما مرت عليها السنون ، وأن ما كتبه لين عن مصر من هذا الكلام الذي أعجبهم يقدم صورة لبلد تثير خيالهم ، فهم يفضلون أن تبقى هذه الصورة كما هي في كتاب لين ، ثم إن أغلبهم على يقين من أنه من الصعب علينا أن نتطور أو أن نحرز أي نوع من التقدم الحقيقي .

وعندما نقرأ الكتاب يبدو لنا في البداية أنه يقدم وصفًا محايدًا للحياة الاجتماعية المصرية في بداية القرن التاسع عشر إلاّ أن توجيهات لين للقارئ وأراءه موجودة وبكثرة ، لكنها خفية وغير لافتة للنظر . إنني سأقتصر هنا على وصف صورة الإسلام التي

تتكون من خلال قراءتنا للكتاب ، وموقف لين من المصريين عمومًا .
فنحن نجد أن لين رغم حبه الشديد لمصر فإن النزعة العنصرية التى كانت منتشرة فى أيامه قد أثرت على رؤيته لمصر وللإسلام وتظهر فى كتابه على الوجه التالى :

يبدأ لين كتابه بمقدمة طويلة يشرح فيها كيف نبتت فكرة تأليف كتاب عن تقاليد وعادات المصريين ، ومدى حبه لهذا الشعب الذى يعتبره «من أكثر الشعوب إثارة للإستطلاع فى هذا العالم» ، وكيف حرص على مصاحبة بعض المصريين أثناء وجوده بينهم حتى يتعرف من خلال إقامته هذه على دخائل حياتهم وتقاليدهم ، ثم يصف لين أحد هؤلاء الأصدقاء المصريين ، ونفهم انه يقدمه كنموذج لأصدقائه المصريين الحميمين وهو «الشيخ أحمد» على أنه مصرى مسلم ، ومن المتدينين ، ويقول إنه يكثر من أكل الزجاج ، إذ لا يتمالك نفسه عندما يراه ويضع فى فمه قطعا منها ويبتلعها ، وأنه عوقب لذلك عدة مرات ، ويقول لين أيضا إن الشيخ أحمد هذا يأكل الثعابين حية ، ثم إنه عاشر امرأة فى الحرام داخل بيت أخيها ، وإنه لم يتمم زواجه منها إلا بعد أن دفع له أحد الغرباء المهر المطلوب ، ثم أثار الشيخ أحمد نفسه المشاكل بينه وبين زوجته الجديدة - إذ كان متزوجاً من قبل - حتى طلبت زوجته الجديدة الطلاق منه ، وذلك من أجل أن يتركها بدون أن يعطى لها حقوقها الشرعية التى تدفع عند إتمام الطلاق .

يقول لين كل هذا فى وصف للشيخ أحمد وهو – كما قلت – أحد أصدقائه المصريين المسلمين المتدينين المقربين إليه ، وهو بطبيعة الحال وصف غير مقنع لإنسان يفوق الخيال ، ثم يضيف لين فى نهاية هذه المقدمة لكتابه عن الحياة الاجتماعية فى مصر انه تعمد أن يكون محايدا فى كتابه بقدر المستطاع .. وأنه لن يسرد فيه إلا الحقيقة حتى يقدم صورة حقيقية لشعب مصر الذى أحبه واحترمه .

ماذا يتضح لنا من مقدمة لين هذه ؟ وماذا يفهم القارئ الغربى منها ؟

يفهم القارئ الغربى وبالذات القارئ الغربى فى بداية القرن التاسع عشر ، أى فى وقت لم تكن مصر ولا المصريون معروفين- أن لين– وهو يمثل هنا الإنسان الغربى المتحضر ذا التفكير والتصرف المتحضر المنطقى سيدخل قراءه إلى عالم يشبه عالم الحكايات الخرافية حيث نجد أصدقاءه المصريين المسلمين يميلون إلى التصرف غير السوى ولا يحترمون كيان الأسرة ولا قدسية الزواج ، ولا سيما إذا ذكرنا أن الزواج كمؤسسة اجتماعية كان مقدسا لدى الإنجليز بالذات فى بداية القرن الماضى ، أى فى العصر الفيكتورى فى إنجلترا .

أما نحن فنقرأ فى هذه المقدمة ميول إدوارد لين العنصرية إذ أنه يبدأ كتابا مهما يصف فيه شعبًا غريبًا عنه ومنذ بداية كلامه يؤكد

أنه كرجل إنجليزى غربى يتفوق على صديقه المصرى الشرقى حضاريًا ودينيًا ، ومما يزيد ذلك تأكيدًا هو ما قرره منذ البداية من أنه سيلتزم بالحياد وبالدقة فيما سيسرده .

والسؤال هنا هو : هل كان يقصد لين أن يضفى الطابع العنصرى لكتابه ؟ ربما ، ولكن إذا استرجعنا حبه الشديد لمصر وعمله الجاد المتواصل المستفيض فى مجال الاستشراق فمن الممكن أن نستنتج أن ميوله العنصرية راجعة لتربيته الأولى حيث تعلم أن الإنسان الغربى يتفوق بطبيعته على الإنسان الشرقى ، ولهذا فليس من السهل أن نرجع هذه الميول العنصرية لدى لين إلى غرض مبيت .

وعند تكملتنا لقراءة نص لين عن عادات وتقاليد المصريين فى عهده نجد ما يلى : يحدد لين فى الفصل الأولى من كتابه أنه سيصف عادات وتقاليد المصريين المسلمين أو – كما يسميهم أيضا – المصريين العرب – لأنهم – حسب كلامه – يمثلون أغلبية سكان مصر فى ذلك الحين . ونفهم من ذلك أن أى كلام سيسرده عن المسلمين يشمل المصريين عمومًا .

ونلاحظ هنا أيضا أن لين يفصل ما بين المصريين حسب الديانة التى يعتنقونها . وأعتقد أن ذلك من الخطأ أن يقال عند وصف عادات وتقاليد شعب مثل مصر ، حيث نجد أن كثيرا من العادات والتقاليد مشتركة بين الطوائف الدينية المختلفة ، ثم إن الكثير منها

يرجع إلى عـهود مـا قبـل الإسـلام ، والتفرقـة بـين المصريـين التـى يتعمدها لين هنا ليثبت دقته العلمية كان مـن الممكـن أن يتجنبـها . ألم تكن مثل هذه التفرقة بين المصريين على أساس دينـهم هـى مـن أول مظاهر التفريق بين أفراد الشعب المصرى وزرع بـذرة الاختـلاف بين الأديان عندنا مما أدى بعد مرور زمن طويل إلى مـا نقـرؤه اليـوم عن «أقباط المهجر» على سـبيل المثـال ؟ (نظـر ١٠٨٧ و ١٠٨٨ مـن مجلة أكتوبر حيث يثار هذا الموضوع) .

ويخصص لين فى كتابـه فصـلا واحـدا – وهـو الفصـل الثـالث – لشرح مبادئ العقيدة الإسلامية والشريعة . وأكثر ما لفت انتباهى فى هذا الفصل أن لين يقوم فيه بترجمة قام بها من العربية للإنجليزيـة لخطبة تقدم – حسب كلامه – فى كل أول يـوم جمعـة فـى بدايـة العام الهجرى ويؤكد أن هذه الخطبة لا تتغـير . وينقـل فـى آخرهـا دعاءً يلعن فيه خطيب الجامع كل من هو غير مسلم ويصفهم بأنـهم أعـداء للمسـلمين – أى المصريـين – متمنيًـا لهـم المـوت والعـذاب والهلاك، ثم يضيف لين هامشًا فى أسفل نفس الصفحة يقول فيه إن هذا الدعاء ليس متضمنا فى خطبة يوم الجمعة هذه وأن هنـاك إمـام جامع صديقًا له أكد له أن كثيرًا من هذه الأدعية ضد غير المسلمين كثيرا ما تستبعد من الخطب (ص ٩١ من كتاب لين هنا الإشـارة إلى الأصل الإنجليزى المطبوع سنة ١٩٢٣) .

والسؤال هنا هو : من هو الإمام أو الأئمة الذين حصل لين منهم على نسخة هذه الخطبة ؟ فهو برغم دقته العلمية المعروفة لا يذكر أى اسم ، ولماذا يذكر فقرات فى الخطبة المترجمة التى يستعملها كنموذج للخطب التى تلقى فى الواقع فى المناسبات الدينية ويعترف بعد ذلك فى الهامش أنه ليس على يقين بأن هذه الأدعية تقال بالفعل ؟ ألم يدرك لين أنه بهذه الطريقة يربط فكرة الإسلام بقيم القسوة والكراهية والعدائية لكل غريب ؟

ونقرأ فى الفصل الثانى من الكتاب – ويتناول فيه لين موضوع تربية الأطفال المصريين – أن الطفل المصرى المسلم يتعلم منذ صغره أن يكره المسيحيين وكل من ينتمى لدين غير دينه وأن هذه الكراهية نحو غير المسلم تظل معه حتى نهاية عمره (ص٦٠) .

ويؤكد لين أن فكرة العدوانية والكراهية للغريب موجودة لدى المصريين المسلمين مرة أخرى عندما يتناول موضوع «الشخصية المصرية» فى الفصل الثالث عشر من كتابه (ص ٢٨٣) ثم يضيف هامشا آخر هنا يشير فيه للقارئ أن يقرأ ملحقا فى آخر كتابه نشر فيها ما أسماه «بدعاء تلامذة المدارس» يتعلمه الطفل المصرى المسلم منذ صغره ويغرس فيه كراهية المسيحى بالذات (ص ٥٨٢) ، وينص لين على أن هذا الدعاء يقرؤه الأطفال المصريون كل يوم بعد صلاة العصر إلا يوم الخميس فإنهم يتلونه بعد صلاة الظهر ! ! ثم يضيف لين فى أسفل نفس الصفحة هامشًا يوجه فيها القارئ إلى خطبة

الجمعة المذكورة أعلاه حيث يقول إنه ليس متأكدًا من أن مثـل هـذه الأدعية عادة متبعة في مصر أم لا .

والسؤال هنا هو : هل من الممكن فعلا أن توصف طريقة لين فـي الكتابة بأنها دقيقة وعلمية فيما يخص وصفـه لبعـض تعـاليم الديـن الإسلامى فى مصر ؟ أليس فى طريقته نوع مـن توجيـه رأى القـارئ حتى يربط فكرة عقيدة الإسـلام بالعدائيـة لكـل مـن هـو غـير مسـلم وبالذات للمسيحى وهو مدرك أن معظم قراء كتابه غربيون مسيحيون بحكم نشأتهم وتربيتهم وأنهم لذلك سيتأثرون بما يكتــب ؟ ثـم لمـاذا يلجأ لين للهوامش حتى ينفى فيها ما قاله فى متن نصه ؟ ألا يعلـم لين أن الكثيرين من القراء لا يقرءون الهوامش هذه ؟

ونشعر خلال قراءتنا لكتاب لين كأنــه مكـرس مـن أولـه إلى آخـر صفحة فيــه إلى إفـهام القـارئ الغربـى أولا أن الإنسـان الغربـى هـو الأحسن والأقوى والأذكى إذا قورن بالإنسان الشرقى . ثم إن الغربى بما أنه مسيحى يجب أن يحترس من الشرقى المسلم إذ إن لدينا فى الشرق شعورا كامنا يربى فينا منذ نشأتنا يعلمنا أن نكره كل مـا هـو غير مسلم ، ومعنى هذا باختصار شديد أننا نمثل لهم خطـرًا يجـب الاحتراس منه .

كتب لين هذا الكلام فى ١٨٣٦ . ونفهم من هذا أن الصـراع بـين الحضارات موجود وقائم منذ ذلك الحين ، وربما من قبله ، وما دام

موجودا وملموسًا حتى اليوم كما أشار إلى ذلك الأستاذ رجب البنا فى كتابه «الغرب والإسلام» ، قائلا : «لم أكن أتصور أن كبار المفكرين ورجال السياسة في أوربا يأخذون مأخذ الجد النظرية التى تقول: إن الإسلام هو العدو القادم للحضارة الغربية .. وأنه العدو الأكبر.. وأنه دين يحمل فى داخله عوامل التخلف .. والعنف .. والجهل» (ص٢١٠) ، وموضحا لهذا الكلام يلخص الأفكار الرئيسية التى يحتويها كتاب مثل كتاب «صراع الحضارات» (١٩٩٦) لمفكر أمريكى اسمه صامويل هانتجتون حيث يعتبر فيه الإسلام دينًا وحضارة وثقافة ويقول «وهناك حوالى ألف مليون مسلم يعتنوقن هذا الدين ..لهم أفكار ومعتقدات وميراث ثقافى وحضارى مختلف تماما عن الغرب .. وهم يريدون أن يفرضوا عقيدتهم بالقوة .. بالعنف .. بالإرهاب .. بتدمير الحضارة الغربية.. المسلمون هم التهديد الأخير .. وهم الخطر الماثل أمام الغرب كله.. وإما أن يقضى الإسلام على الغرب .. وأما أن يقضى الغرب على الإسلام ، (ص٢١٤) » ويشرح لنا الأستاذ رجب قائلا : «إن هذا الصراع فى رأيه ليس صراعا عقائديا ، وليس صراع ديانات .. وليس صراع حضارات ولا ثقافات ولكنه صراع مصالح» (ص٢١٥) ..

وعودة إلى كتاب إدوارد لين نجد أن موقف البلاد الغربية اليوم من الإسلام وبالتالى منا كشعب لم يحدد فقط فى عهدنا هذا بل هو موقف موجود منذ زمن طويل ساهم فى إنشائه كتاب كثيرون مثلما

فعل لين فى كتابه عن عادات وتقاليد المصريين . وكما ذكرت من قبل إن لين لا يحاضر عن الإسلام ويصفه على أنه عقيدة تجسد العنف ولكنه يضيف من حين لآخر متضمنا فى نص كتابه جملا وملاحظات وإشارات تفهم القارئ الغربى أن من يعتنق الإسلام يجب أن يحذر منه لأن الإسلام دين يعلم العنف والعداء والقسوة ..

وهناك أمثلة أخرى فى كتاب لين تقلل من قيمة الدين الإسلامى، وأذكر على سبيل المثال أنه يكرس فصلا واحدا يشرح فيه مبادئ الإسلام وعادات المسلمين بينما يكرس فصلين كاملين - وهما الفصل العاشر والفصل الحادى عشر - ليشرح فيهما الخرافات المنتشرة فى مصر ويمزج ما بين هذه الخرافات والدين بطريقة تجعل القارئ الغربى فى نهاية الأمر لا يعرف تماما إن كان المصريون يعلمون دينهم وحدوده أم أنهم لا يفرقون بين ما هو دين وما هو اعتقاد خرافى أو أن كانت مبادئ الإسلام نفسها غير واضحة أمامهم . وبناء على ذلك تظهر صورة الإسلام من هذين الفصلين على أنها عقيدة غير جادة وعديمة العقلانية والمنطق يعتمد من يعتنقها على أحاسيسه وشعوره أكثر من اعتماده على قدرته العقلية .

وعندما يشير لين إلى وصف الملامح العامة لشخصية الإنسان المصرى - ويقصد المسلم - فى الفصل الثالث عشر من كتابة يقول بصراحة ووضوح : إن المصرى فى شبابه ذكى وسريع الفهم وله ذاكرة قوية ولكن قوة عقله هذه تقل بمرور الزمن ويرجع ذلك إلى

الديـن الإسـلامى والشـريعة والمنـاخ فـى مصـر و «أشـيـاء أخـرى» لا يحددها (ص ٢٨٣) . ونفهم من ذلك أن الدين فى رأيه من ضمـن الأسباب الأساسية وراء تخلف المصريين ونستنتج أنهم فى حاجة إلى ريادة وتوجيه مثل ما يمكن أن يقدمه لهم الغرب .

ثم يضيف لين من حين إلى آخر فى متن نصـه ملاحظـات تشـوه صورة الإسلام عند القارئ الغربي مثل الجمل الآتية على سبيل المثال والنص – بالمناسبة – ملئ بأمثالها :

– «يعتقد الكثيرون أن نص القـرآن لم يتغير كثيرا عبر الزمان» (ص ٦٧)

– «هنـاك الكثـيرون مـن المصريـين لا يقومـون بفريضـة الصـلاة» (ص ١٤٤)

– «أن المصرى يخطئ كثيرا فى تعاليم دينه ويكتفى بأن يسـتغفر الله» (ص ٢٨٦)..

– «إن إيمان المسلم بعقيدته ضعيف إلى حد كبير» (ص ٢٩٠)

والسؤال هنا هو : ما هى الصورة التى يكونها القارئ الغربى عـن الإسلام – وبالتالى عن المصريين – من كتاب لين ؟ إن الإسلام يظهر كعقيدة غير محددة الملامح وغير منطقيـة وأنـه ديـن عـداء وكراهيـة وقسوة وأنه لا يعرف الرحمة لغير المسلم .

وانطبعت مثل هـذه الصـورة عنـا فـى عقـل القـارئ الغربـى منـذ بدايات القرن الماضى عن طريق كتب ذات سمعة عظيمة فى الغـرب مثل تلك التى نُسبت إلى كتاب لين عن عادات وتقـاليد المصريـين ، وكان هذا الكتاب بالذات يُعتبر الكتاب العمدة لمعرفة شعب مصر إذ لم يقرؤه المئات ، بل الملايين منذ أن صدر لأول مرة فى عـام ١٨٣٦ حتى يومنا هذا .

والأفكـار والصـور التـى تُستنتج مـن مثـل هـذا الكتـاب تترسـخ وتتوارث فى الغرب من جيـل إلى جيـل حتـى وصلـت إلينـا الآن ، ونحن نتحدث عن «الصراع بين الحضارات» الـذى نعيشـه ونسـمع عنه بدلا من أن يكون «حوارا بين الحضارات» .

إن مستشرقا مثل إدوارد لين أفاد الدراسات في مجال الاستشراق ولكنه ضرنا نحن كشعب وضرّ علاقاتنا بالغرب إذ جعلهم يتصرفـون معنا حسب صورة مرسومة لا تطابق دائما الواقع الملموس ..

هـذا وإن كـان مـا صـوّره مـن أخطــاء يرجـع إلى تربيتــه الأولى التــى علمتـه أن ينظـر إلينـا مـن منظـور خـاص غـير محـايد وليـس راجعا إلى غـرض مبّيـت : هـل كـان لـين فـى نهايـة الأمـر يُعّـرف الأجنبـى الـذى يعـرف حقيقـة مصـر بحقيقــة مصـر التــى كـان يحبـها أم كـان يخـدم مصـالح وطنـه إنجلـترا ؟ وأيـن ذهـب حبـه الشديد لمصـر؟

....

عندما أفكر في أمر إدوارد لين كإنسان إنجليزي أتى إلى بلدنا وأحب المعيشة بيننا وأقرأ كتابه أشعر وكأن حبه لمصر كان ممزوجا بكراهية شديدة في نفس الوقت ، وذكرني أمره بأمر مستشرق إنجليزي آخر أتى إلى مصر في الأربعينيات من هذا القرن وكان- مثل لين يحب عشرة المصريين وصداقتهم ويحترم الدين الإسلامي بل إنه أسلم بالفعل . ثم أحب مصرية من طبقة اجتماعية راقية وطلبها من أهلها وتم الزواج بينهما . وكل من حضر حفل الزفاف—وبعضهم لا زال على قيد الحياة— حكى أنه كان فرحا يشبه أفراح ألف ليلة وليلة وكان مستشرقا إنجليزيا معروفا ولا يزال معروفا حتى الآن وكان يدرس بجامعتنا أي جامعة فؤاد الأول في ذلك الحين ، ثم أنه كان محبوباً لمن عرفه من المصريين .

وبعد إتمام الزواج ظهرت معاملته لزوجته المصرية غير سوية فكانت مزيجا من الحب والكراهية في آن واحد . استمر الزواج وأنجبت منه طفلين ، ثم عاد هو إلى إنجلترا ورافقته هي من أجل أبنائها ، واستمرت معاملته لها تعبر عن حب شديد وكراهية لا ترحم في نفس الوقت .

بدأت الزوجة المصرية تخشاه وتخشى تصرفاته واضطرت إلى أن تهرب من جانبه تاركة أبناءه معه ، وبهذا التصرف

كانت قد خسرت بيتها وزواجها وأولادها ثم أنها لم تجد في مصر بلدها بيتا تستقر فيه ولا مالا يعينها على الحياة .

ثم تعرفت على مصرى فهم موقفها واحترمه ، وحيث أنها أعجبته تزوجها وعاشت معه حياة مستقرة ، ومكثت طوال عمرها تفكر في أبنائها في إنجلترا وتراسلهم وترسل إليهم الهدايا . ولاحظت الأم المصرية أنه بمرور الزمن قلّت اتصالاتهم بها حتى طلبوا منها ألا تحاول الاتصال بهم ثانية . والذى حدث في هذا الوقت هو أن أباهم المستشرق الإنجليزى كان قد نقل لهم كراهيته لأمهم ، وتوفيت الابنة وقالوا أنها لم تكن ترغب في الحياة إذ عانت كثيرا من حرمان حب الأبوين وعدم وجود استقرار أسرى .

وتوفيت هذه السيدة المصرية منذ سنوات قليلة وماتت وهى امرأة ثرية إذ كانت الحكومة المصرية قد أعادت لها كل ما كانت أممته الدولة من أملاكها من قبل . وأرسلوا رسالة لابنها في إنجلترا حتى يأتى ليتسلم ميراثه ، وكان رد ابنها أنه متنازل عن ميراثه من أمه : كان الأب المستشرق الإنجليزى ملأ قلب ابنه بكراهية شديدة نحو أمه المصرية لدرجة أنه لم يرد تسلم أى شىء منها ولا حتى حقه في الميراث .

• إننى تعرفت على هذه السيدة فى الثمانينات ، كانت قد كبرت فى السن ولكنها مازالت جميلة وأتذكر نظرة عينيها وكانت عينين كبيرتين سوداوين ، وكانت ذكية جدا وخفيفة الظل ، وكلما كنت أفكر فى أمرها كان يُسهيّا إلىّ أن زوجها المستشرق الإنجليزى لم يكن يعاملها بصفتها امرأة وزوجة بل كان يعكس شعوره نحو مصر فى معاملته لها وهو شعور غريب يختلط فيه الحب والكراهية بنفس الدرجة ، أما أبناء هذه الزيجة فلم يبق فيهم إلاّ الكراهية نحو أمهم المصرية .

لورينس داريل: عنصرى من الدرجة الأولى

قد يكون لورينس داريل من أكثر الكتّاب الإنجليز ذِكرًا فى صفحات الأدب من صحفنا اليومية ، فكثيرًا ما نقرأ كلامًا مثل التالى : «إن لورينس داريل هو كاتب رباعية الإسكندرية» المعروف أو «داريل هو الكاتب الإنجليزى العظيم الذى أثر على نجيب محفوظ فى كتابة روايته ميرامار». أو نقرأ خبرًا يشير إليه ، مثل الخبر الآتي الذى نشر فى الأهرام بتاريخ ١٩٩٥/٨/٦ حيث يقول كاتبه : «اكتشاف منزل الأديب العالمى لورينس داريل فى الإسكندرية». ونقرأ تحت هذا العنوان كلاما من بينه ما يلى: « فى هذا المنزل – هو قصر قديم – كتب الأديب العالمي رائعته التى اختار لها عنوان «رباعية الاسكندرية» . وسجل فيها الحياة فى المدينة فى لوحات أدبية بديعة».

وهنا نتساءل : هل قرأ كل من يشير إلى رباعية داريل هذه الروايات الأربع بالفعل ؟ هل سأل أحد عن محتوى هذه الروايات قبل أن يمتدح بها ويضرب بها المثل ؟ لا أظن أن هذا حدث بالفعل لأن الصورة التي يقدمها داريل للإسكندرية وللمصريين من ناسها صورة غير مشرفة لنا على الإطلاق وهو الموضوع الذى أتناوله هنا .

وبالمناسبة : كم أتمنى ألا يصدر أحد أحكاما عن أعمال غربية في صحفنا اليومية ومجلاتنا الأسبوعية إلا بعد أن يتعرف على هذه

الأعمال بنفسه فمن ضمن ما نقرؤه أشياء ليست إلا تعميمات عائمة أو نقل آراء مشكوك فى أمرها. إننى لا أقصد هنا ما كتب عن داريل بصفة خاصة هنا وهناك ولكنى أقصد ما يكتب عموما عن الأدب الغربى أو عن نماذج منه.

وعودة إلى لورينس داريل فهو عاش ما بين ١٩١٢ و ١٩٩٠. وهو أيرلندى الأصل ولكن – مثل الكثيرين من الكتاب الإيرلنديين – مثل جيمس جويس وصامويل بيكيت – ألف أعماله باللغة الإنجليزية بدلا من اللغة الأيرلندية الأصلية ، ثم أنه عبر فى أعماله عن كل ما يؤمن به الإنجليز ومن هنا فهو ينتسب للأدب الإنجليزى . إنه كتب الرواية والشعر وأبدع فى المجالين إذ يعتبر إنتاجه من النوع المتميز من حيث الأسلوب وتقنيات السرد التى يطبقها .

عاش داريل فى كل من إنجلترا والهند واليونان ومصر وأمريكا اللاتينية وفرنسا فهو بحكم وظيفته وهى الصحافة – كان كثير التنقل والسفر وأثرت هذه السفريات – بطبيعة الحال – على كتاباته وأثْرَتها .

إن داريل لم يعش فى مصر إلا أربع سنوات إذ أتى إلى بلادنا بعد بداية الحرب العالمية الثانية وجاء مضطرًا لا بإرادته . فقد كان يعيش فى اليونان مثل الكثير من الإنجليز الآخرين فى ذلك الحين – أى فى بداية الأربعينيات من هذا القرن – ثم اضطروا جميعا إلى أن

يلجئوا إلى مصر هربا من خطر الحرب الذى كان يهدد اليونان وكان فرارهم بحثا عن الأمان فى مصر تحت رعاية حكومتهم التى كـانت تحكم بلدنا فى ذلك الحين.

وصل داريل إلى مصر في عام ١٩٤١ وغادرها فى ١٩٤٥ متوجـها إلى فرنسا حيث أقام سـنوات طويلـة . وفـى فرنسـا ألـف الروايـات الأربع التى تكون رباعيته المشهورة وهى تتضمن روايـة «جوسـتين» (١٩٥٧) ورواية بالتازار (١٩٥٨) ورواية «ماونت أليف» (١٩٥٨)ثـم روايـة «كليـا» (١٩٦٠) . نفـهم مـن هـذا أنـه كتـب الرباعيـة بعـد مغادرته لمصر بمدة طويلة وأنه استند في ذلك على ذكرياته عن مصر ثم إنه لم يبدأ فى نشرها إلا بعد مرور ما يفوق على عشر سنوات من مغادرته لبلدنا .

إن داريل– كما ذكرت – لم يأت إلى مصر إلا مضطرا ، وما نعلمه عن انطباعاته عن بلدنا وشعوره نحوها – كما يثبت ذلك الكثير مـن الخطابات التى كتبها لأصدقائه أثناء وجوده بيننـا – إنـه لم يحـب مصر أبدًا فكان لا يطيق جونا ولا أهلنا ولا طبيعتهم فهو يعبر فى كل خطاباته عن أمله فى مغادرة مصر فى أسرع مدة ممكنة ، وقد يرجع نفوره من بلدنا إلى ظروف فترة الحرب العالميـة الثانيـة التـى كـانت فترة غـير عاديـة بالنسـبة للأجـانب، وقـد يرجـع ذلـك إلى ظروفـه العائلية إذ وقع انفصاله عن زوجته خلال وجوده هنا ، وقد يرجـع إلى الأمر الواقع الذى يواجه كل إنسان غربى يجىء إلى مصـر، وهـو

أن يحب مصر ويتعلق بما فيها من أشياء غريبة عما تقدمها له حضارته الغربية ، أو لا يحبها فلا يعرف كيف يتأقلم بما هو غريب عليه فالأجانب عندما يأتون إلى مصر يحدث لهم أمر من أمرين : إما أن يحبوا مصر وكل ما فيها ، وإما أن يكرهوها ولا يتحملون المعيشة فيها. ومن الواضح أن داريل كان من النوع الثانى كما تدل على هذا خطاباته وكذلك محتوى «رباعية الإسكندرية» المشهورة. ثم أنه لم يأت إلى مصر منذ مغادرته لها فى عام ١٩٤٥ وحتى وفاته فى ١٩٩٠ إلا مرة واحدة إذ كان مدعوًا من إحدى الجمعيات الأدبية فى مصر.

اعتمد داريل فى تأليف «رباعية الإسكندرية» على ذكرياته وانطباعاته عن مصر خلال الفترة القصيرة التى أمضاها بيننا، ثم اعتمد أيضا وبكثرة – كما اعترف للكثيرين من محاوريه – على كتاب إدوارد لين وأفكاره عن تقاليد وعادات المصريين وتأثر بمواقفه تجاه مصر والمصريين وإن كان قد بلغ فى العنصرية حدا تجاوز به لين بكثير . وكذلك اعتمد بنسبة أقل على كتاب أحد الإنجليز الذين أقاموا بيننا فى مصر فترة طويلة من الزمن – وسوف أتكلم عنه هنا فيما بعد – وهو جوزيف ماك فيرسون وكتابه «موالد مصر» الذى كان نشره على نفقته فى مصر فى عام ١٩٣٧. وكان اعتماد داريل على هذين المرجعين من أجل وصف بعض مشاهد لم يرها بنفسه وكأنه رأى ألا بأس بالاستعانة بما قدمه غيره .

إن أمامى الآن مجلدًا ضخمًا يقرب عدد صفحاته من الألف ويحتوى على الروايات الأربع التى تتكون منها رباعية داريل . وذلك لأنه بعد أن نشرت كل رواية على حدة فى أواخر الخمسينيات نشرت كلها فى مجلد واحد عام ١٩٦٢ ، الطبعة التى لدى هى لسنة ١٩٩١ وهى الحادية عشرة ، كم من طبعات صدرت لها منذ عام ١٩٩١ حتى الآن ؟ وكم نسخة تطبع عادة فى كل طبعة؟ لا أدرى ، ولكن ما هو مؤكد أن «رباعية الإسكندرية» عمل ناجح ومحبوب عالميا فإسم لورينس داريل مرتبط دائما بهذا العمل بالذات . أننى قرأت العمل مرتين وفى كل مرة انبهرت بأسلوبه وبرسم الشخصيات التى فيه – وهى عشرات الشخصيات – وكلها مرسومة بدقة شديدة سواء فى شكلها الخارجى أو فى تركيبتها النفسية ، ثم المحاور أو الأفكار الرئيسية التى فى الروايات الأربع إنها كلها متناسقة ومتماشية من أول صفحة إلى آخر العمل وهى تربط ما بين الشخصيات بعضها وبعض وكذلك بين الروايات الأربع.

أما بالنسبة للخلفية التى تقع فيها أحداث الروايات – وهى مدينة الإسكندرية – فلا تتغير فى الروايات جميعها ، إذ أننا نرى نفس الألوان ونشم نفس الرائحة ونسمع نفس الأصوات ونشعر بنفس الجو ، وعندما نصل بالقراءة إلى نهاية العمل ندرك أن «إسكندرية داريل» تجسدت فى وجداننا بطريقة أقوى – إن أمكن ذلك – من شخصيات الروايات الأربع . وطابع مدينة الإسكندرية هو من ضمن

العناصر الرئيسية التى توحد كل رواية على حدة وتوحد كذلك ما بين الروايات الأربع التى تكون عملا عملاقا واحدا . كان هذا هو مقصد داريل : أن نقرأ رباعيته على أنها عمل واحد لا يتجزأ كما ذكر هو ذلك في المقدمة . إن «رباعية الإسكندرية» عمل عملاق ممتاز يذهل- بدون شك- كل من قرأه وهو يقدم عالما قائما بذاته بصرف النظر عما إذا كان ما يصوره عن مصر والمصريين مطابقا للواقع أم لا .

وبالمناسبة إننى كلما قرأت عملا روائيًا غربيا عظيما مثل «رباعية داريل» زاد تأكدى من أن هؤلاء الكتاب ليسوا فنانين فحسب ، بل إنهم فى نفس الوقت مهندسون يبنون عملاً هندسيًا . والذى لا شك فيه هو أن موهبة الفنان وحدها لا تكفي لإنتاج عمل متميز فيجب أن تكون مع الموهبة رؤية محددة وواضحة للحياة وإحساس وفهم بالتكامل الشكلى للعمل الفنى . ولا يأتى هذا إلا بالتعرف على أعمال فنية كثيرة وفهمها واستيعابها ، وبالثقافة الواسعة ، وبمعرفة الماضى والحاضر التاريخيين ، وفهم التيارات السياسية واتجاهاتها فى عالمنا ، وأن يكون صاحب القلم يقظا وذا موقف ورأى وكلمة فى كل ما يدور حولنا من أحداث وآراء . وهو عمل شاق لا ينتهى يستغرق من الفنان أياماً وليالى طويلة ، وهذا ما لسته فى جميع كبار الفنانين الغربيين- مثل داريل- وكبار أدبائنا مثل نجيب محفوظ ويوسف إدريس وإحسان عبد القدوس وجمال الغيطانى وآخرين على اختلاف

ميولهم السياسية ورؤاهم لحياتنا ، فالوصول إلى الامتياز في مجال الفن بالذات لا يأتي بسهولة أبدًا .

وعودة إلى رباعية داريل أود أن أذكر أنها ترجمت بأكملها إلى اللغة العربية وقام بترجمتها الأستاذ فخرى لبيب ونشرت الرواية الأولى منها- وهى «جوستين» - بدار المعارف سنة ١٩٦٩ ، أما باقى الروايات الثلاث- وهى «بالتازار» و«ماونت آليف» و«كليا» . فصدرت عن دار سعاد الصباح فى عام ١٩٩٤ .

ما هو محتوى «رباعية الإسكندرية» «لداريل»؟

تقع أحداث الروايات الأربع فى الإسكندرية ، وكل شخصيات الروايات أوربيون أو ناس يعيشون فى مصر إلا أن أصلهم أوروبى وليس بينهم مصريون إلا أسرة نسيم حسنانى وتتكون منه ومن أخيه فيروز ومن والدته ليلى. أما «القصة» التى تدور حولها الروايات فهو ما يحدث لهؤلاء الأجانب خلال وجودهم في مصر . وتسلط الأنوار فى كل رواية على حدة على مجموعة من هؤلاء الأشخاص . أما ما يقع من أحداث في الروايات الثلاث الأولى فهى تتكرر فى كل رواية والفارق بينها هو أن كل رواية تقدم الأحداث من زاوية مختلفة فتبدو وكأنها رواية مختلفة رغم أن الفترة الزمنية واحدة وشخصياتها هى هي . أما الأحداث فتبدو وكأنها مختلفة لأن كل راو له تفسيره الذاتى الخاص به لما عاشه وشاهده . أما الرواية الرابعة فتقدم تطورا

للأحداث ومرحلة زمنية تالية حيث تغادر معظم شخصيات الروايـة مصر متجهة إلى بلاد الغرب .

كيف نظهر نحن المصريين في رباعية داريل ؟ وما هو الانطباع الذى يأخذه عنا القارئ الأجنبى منها ؟

باختصار شديد من الممكن القول بأننا لا وجود ملموس لنا فى الرباعية رغم أن أحداثها كلها تقع فى الإسكندرية ونواحيها وهى منطقة العجمى وبحيرة مريوط . لقد ذكرنا من قبل أن الشخصيات الرئيسية كلها من الأجانب بل معظمها من أصل يهودى مثل جوستين-وسميت الرواية الأولى باسمها- فهى يهودية الأصل وتتزوج من مصرى ثرى تربى فى بلاد الغرب وتأثر بتفكير الغربيين وعاداتهم فيبدو وكأنه أجنبى عنا رغم أنه يمثل نموذجا لمصرى «متحضر» فى الرباعية وهذا المصرى تخونه زوجته جوستين مع أحد أصدقائه ، وتصوره لنا الرباعية على أنه عاش معذبا بحبه لزوجته فيظهر الزوج المصرى ضعيفا مسلوب الكرامة لا يستطيع أن يسيطر على مشاعره ولا على حياته . هذه هى شخصية نسيم حسنانى وهى أهم شخصية مصرية فى الرباعية . أما والدة نسيم حسنانى- واسمها ليلى- التى تظهر بكثرة فى الرواية الثالثة من الرباعية فنسمع عنها أنها أنشأت علاقة غرامية مع شاب إنجليزى كان قد زار بيتها وكان صديقا لولديها . فهى تخون زوجها المصرى الذى لم يمانع هذه العلاقة بل كان يشجعها .

أما أخو نسيم– وهو فيروز حسناني– فيحب إنجليزية لا توليه أي اهتمام ويظهر فيروز على أنه فاقد السيطرة على شعوره وتصرفاته. وتتطور شخصيته في الرباعية إلى أنه يصبح متطرفا دينيا ويلقى حتفه على يد مصريين مجهولين .

هكذا يصور داريل الشخصيات المصرية الوحيدة التي تلعب دورًا– وأدوارها ثانوية وبسيطة– في أحداث «رباعية الإسكندرية» ويفهمنا داريل أن أسرة حسناني هذه أسرة مصرية عريقة ومعروفة بين أسر الأقباط في مصر وهم يمثلوننا في الرباعية ولكن تمثيلهم لنا – وهكذا أراد داريل – غير مشرف وغير مطابق لما نعرفه عن الأسر المصرية سواء أكانوا من المسلمين أو الأقباط.

أما باقي المصريين في الروايات الأربع فكلها شخصيات ثانوية بل هامشية وليس لها وجود بارز بالنسبة لأحداث الرباعية فمعظمهم مستخدمون أو شحاذون أو باعة لا رأى لهم ولا هدف إلا خدمة الرجل الغربي وتعظيمه والإعلاء من شأنه.

وتظهر في الجزء الثالث من الرباعية شخصية مصرية تبدو مهمة بالنسبة للمجتمع المصري إذ هو وزير في الحكومة– ويسميه داريل «مملوك باشا» – ولكنه يغدر بمصلحة مصر ويخدم الأجنبي ويصوره داريل على أنه رجل مسلم متدين يحب سماع تلاوة القرآن الكريم

وقراءة المصحف الشريف ، ويفهم القارئ أن ما تعلمه هذا الشخص من دينه لم ينفعه فى حياته ولا حياة من حوله .

ثم يصور داريل نفس هذه الشخصية بأنها تجمع المصاحف الأثرية الجميلة وأن لديها مجموعة مصاحف لا تقدر بثمن . ويفهم القارئ من هذا أن الدين الإسلامى لا علاقة له بالحياة فهو - فى رأى داريل- لا يعلم ولا يهذب النفوس . وفى الرباعية شواهد أخرى كثيرة تؤكد هذا المعنى عن الإسلام . ثم يصور داريل الكثير من الموالد والاحتفالات والمواكب الشعبية ويطيل فى تصويرها ويدقق فى تفاصيلها ويفهم القارئ الأجنبى أن هذا هو جوهر الإنسان المصرى وهو أقرب إلى الحيوان الهمجى منه إلى الإنسان المثقف المسيطر على شعوره وحياته.

هذه هى- باختصار شديد- رؤية داريل للمصريين وهذه هى الصورة التى تقدمها لنا «رباعية الإسكندرية» لقراء الغرب ونظهر من خلالها كشعب متخلف ، لا علاقة له بالعلم والثقافة والتقدم ، ولم ينفعه دينه للترقى ، وهو شعب يميل إلى الهمجية والجريمة والقسوة فهو لا يعرف معنى الحضارة ، يبيع شرفه ومصلحة بلده بدون وعى أو من أجل مصلحة ذاتية لا تذكر ، شعب غدار لا يعرف المبادئ الأخلاقية ، شعب يعبد الغربيين ويخدمهم ، ومعظم الغربيين من أبطال الرباعية وهم - كما ذكرت - من الإنجليز أو ناس من أصل يهودى .

ومن الغريب في رباعية داريل هذه أن مؤلفها أمضى فترة من فترات الحرب العالمية الثانية في مصر- أى في بداية الأربعينيات - ثم أنه ألف ونشر الرباعية في أواخر الخمسينيات وكانت مصر في خلال هذه الفترة قد حصلت على استقلالها السياسى ثم أنها دخلت في حرب السويس وانتصرت فيها . وحرب السويس عندما وقعت هزت العالم كله وغيرت الكثير من المفاهيم التى كانت سائدة في الغرب. والسؤال هنا هو : ألم يؤثر استقلالنا السياسى ثم انتصارنا في حرب السويس في عام ١٩٥٦ على رؤية داريل لنا؟ إنه كتب الرباعية وكأنه يريد أن يفرض صورة سلبية للغاية عنا وهى صورة لا تطابق الواقع المصرى إطلاقا إذ أن داريل لا يتفضل علينا بصفة واحدة إيجابية.

ثم ماذا يفهمه الغربيون عندما يرون أننا نشيد «برباعية» الإسكندرية في صحفنا اليومية ومجلاتنا الأسبوعية كلما جاء الحديث عنها ؟ إنهم يفهمون إما أننا راضون عن الصورة التى نظهر بها فيها أو يتأكدون انهم الأقوى حضاريًا لأن بعض المصريين يرددون ما يقوله الغربيون بدون التأكد من صحة أقوالهم أو خطئها . والوحيد الذى قرأت له نقدًا واعيًا للرباعية هو أديبنا أدوارد الخراط عندما كتب قائلا إنه بصفته إسكندرانيًا لا يتعرف على بلدته في إسكندرية داريل .

وبمناسبة إبداء الرأى : هل نؤهل شبابنا فى جامعاتنا على أن يبدى رأيًا شخصيًا ذاتيًا ونحترمه؟ إننى أعرف أساتذة فى كلية الآداب - لا داعى لذكر تخصصاتهم ولا الأقسام التى ينتمون إليها- يعدون الطالب راسبا إذا وجدوا فى ورقة إجابته رأيا غير رأيهم أو إشارة إلى بحث أو كتاب لم يذكروه فى محاضراتهم فهم يفرضون على الطالب آراء معينة وقراءات محددة ولا يدركون أنهم بهذه الطريقة يحددون بل يوقفون النمو الطبيعى لذكاء الطالب المصرى، المنتظر منه بعد تخرجه أن يكون صاحب رأى وصاحب موقف أيضا . ونفس هؤلاء الأساتذة يضعفون بمرور الزمن - موقفنا كشعب من صراع الحضارات القائم الذى ذكرته مرارا هنا، إذ أنه من المهم أن نظهر نحن المصريين فى صورة واضحة متكاملة الملامح مقنعة قوية حتى نحترم ويقام لنا حساب من ممثلى أى حضارة أجنبية . وهو ما ينتج عنه بمرور الزمن حوار بين الحضارات بدلا من الصراع القائم حاليا .

عودة إلى رباعية داريل نجد أن الصورة التى تظهر بها أرض مصر ومدينة الإسكندرية فيها صورة تقدم أرض مصر بحقولها الخضراء وسمائها الصافية وخصوصًا طلوع وغروب الشمس بطريقة جميلة رومانسية ولكننا نلاحظ أن وصف هذه المناظر الطبيعية خالية من المصريين ، وعندما يدخل داريل القارئ فى مدينة الإسكندرية نجد أن شوارعها مزدحمة وغير نظيفة وضجيجها كثير والذباب منتشر

فى كل مكان والأمراض متفشية بسبب جهل المصريين وهـى ظـاهرة عامة تجعلهم أقرب إلى مستوى الحيوان منـهم إلى مسـتوى الإنسـان المتحضر. يظهر ذلك فى عاداتهم اليومية وفـى احتفالاتـهم الشعبية ويخشى الإنسان الغربى أن يدخل الأحياء التى يسكنها المصريون إذ أنه غالبًا ما يهاجم هناك بقسوة غير آدمية ويسرق ما قد يحمله مـن ممتلكات . أما الفقر فيصوره داريـل علـى أنـه ظـاهرة عامـة أيضًـا . ونفهم من تقديمه لنـا أن لا أمـل فـى إصـلاح حـالنـا . الخلاصـة أن داريل يقدم لمصر صورة جارحة مؤلمة لكل مصرى يقرؤها. نرى ذلـك بصورة خاصة فى الروايـة الرابعـة والأخـيرة حيـث نجـد أن معظـم الشخصيات الغربية غادرت مصر أو على وشـك أن تغادرهـا وينفتـح أمامها مستقبل ترتسم فيه أحلام قد تتحقق ومشاريع قد ترى النور ، وتترك هذه الشخصيات الغربية فى الرباعية مصر فى حالـة ميئـوس منها ، فالكاتب يصور لنـا مجموعـة مـن المصريـين تحتفـل بسـنوية «السكوب» وهو رجل إنجليزى أحبـوه واحـترموه لدرجـة التقديـس حيث أقاموا له ضريحا يزورونه فيه . يوحى ذلك القـارئ بأننـا فـى مصر نخلط بين الدين والخرافة ولا نسـتطيع إلا أن نقـول أن صـورة المصريين وموقفهم من الدين فـى «رباعيـة الإسـكندرية» مهينـة لنـا لأقصى درجـة .

أما الشخصيات الغربية التى فى الرباعية- وهـم كمـا ذكرنـا فـى الغالب من الإنجليز ومن اليهود- فهؤلاء أذكيـاء ومثقفـون يحـاولون

تعليم المصريين ومساعدتهم وإرشادهم وإصلاحهم ولكن جهودهم تظل بدون جدوى . هناك فى الرواية الثالثة– على سبيل المثال– شخصية دبلوماسى إنجليزى أمضى وقتا من الزمن فى شبابه فى مصر. ثم سعى إلى المجيء إلى هنا بعد أن أصبح سفيرا فى وزارة الخارجية الإنجليزية . يقدم إلى مصر ويبحث عن صديق شبابه نسيم حسنانى ولكنه لا يتلقى من نسيم إلا الغدر والخيانة واستغلال منصب صديقه لأن المصرى– حسبما يصور داريل– لا يعرف قيم الصداقة والوفاء واحترام الغير حتى لو كان متعلمًا تعليمًا رفيعًا.

والسؤال هنا هو : **هل يجب أن نعتبر كاتبا مثل لورينس داريل عدونا ؟**

والإجابة هى أن ذلك يجب ألا يحدث لأنه فنان ممتاز يفهم عمله ومتميز فيه ومن الممكن أن نتعلم منه كثيرا. وما صوره عنا هو رؤيته التى آلت إليه من تراثه وأدبه وقراءاته ولم يحاول أن يغيرها لأنه تعلم ألا يرى فينا إلا السلبيات فترسخت هذه الأفكار لديه ونتجست عنها «رباعية الإسكندرية» وتظهر الإسكندرية فيها مدينة تمثل الجهل والفقر والرجعية . الذى أراه واجبا هو أن نقيم حوارًا مع الغربيين نقدم لهم ولغيرهم فيه صورًا إيجابية لنا موجودة بين صفحات أدبنا .

وبمناسبة داريل فإننى حضرت مؤتمرًا فى الإسكندرية أقامته جمعية أمريكية هدفها تخليد اسم «لورينس داريل» فى شهر يونيو

من عام ١٩٩٦. وهذه الجمعية تمولها مجهودات ذاتية أى إنها ليست تابعة للحكومة الأمريكية . والذين يقومون بتمويلها هم نفر من الأثرياء الأمريكان الذين يحبون داريل وفنه وهمهم أن يبقى اسمه متداولاً . ومع أن معظم هؤلاء من الأمريكان فإن من بينهم من ينتمون إلى جنسيات أخرى كثيرة. وهم يقيمون مؤتمرًا كل سنتين عن داريل مراعين أن يعقد في مكان عاش فيه الكاتب المعروف فترة من حياته .

وقد رأيت أنهم جادون جدا فى عملهم إذ أن الأبحاث التى قدموها كانت رفيعة المستوى . وبالمناسبة أذكر أن مستوى أبحاث المصريين التى قدمت لا تقل عن مستوى أبحاثهم . المهم ، أننا نجدهم فى ساعة العمل جادين وأنهم يحترمون الآراء التى قد تعارض آراءهم فليس فى العلم تعصب بل هناك حوار يقرب الناس بعضهم إلى بعض .

أما فى الوقت الخارج عن برنامج قراءة الأبحاث فقد قاموا برحلات كثيرة لكل مكان ذهب إليه داريل أثناء وجوده فى الإسكندرية فهم يحبون فنه ويحبون أيضا الرجل وحياته وعاداته . أذكر أننى زرت مع بعضهم المنزل الذى سكن فيه داريل أثناء وجوده فى الإسكندرية وأتذكر كم ابتهجوا لذلك وراحوا يتذكرون أنه هنا كان ينام وفى هذا المطبخ كان يحضر وجبات طعامه وفى الحديقة هذه كان يستريح . ويحدث من وراء هذا كله نوع من التوحد ما بين

محبى الفنان والفنان نفسه .إذ يعلمون انه جزء من تراثهم يفخرون به ويعتزون به ويريدونه أن يبقى .

إننى تأملت معهم بيت داريل بمنطقة محرم بك وتأملتهم هم أيضا ولاحظت تعبيرهم عن الفرحة والاهتمام برؤية هذا المكان . ثم تساءلت : لماذا لا يمول بعض أثرياء مصر جمعيات ثقافية مماثلة لتخليد أسماء شخصيات مصرية ساهمت فى إثراء تراثنا؟ إنهم بهذه الطريقة سوف يخلدون أسماءهم هم عن طرق تمويلهم لأمثال هذه الجمعيات فى الوقت الذى يحافظون فيه على استمرار أسماء كبار كتابنا وفنانينا. إن الذين يقومون بمساهمات للحفاظ على تراثنا هم مؤسسات حكومية مثل الجامعات أو الهيئة العامة للكتاب التى تقوم بنشر الأعمال الكاملة لمعظم كبار مؤلفينا ، ثم المجلس الأعلى للثقافة الذى ينهض بإقامة احتفاليات للذكرى أو مؤتمرات دولية . ولكن هذه مجهودات مؤقتة تنتهى بانتهاء الاحتفالية بينما الجمعيات الخاصة هى التى يمكن بفضل حماسة أعضائها أن تكفل لمثل هذه الاحتفاليات استمرارية ودوما وذلك فى حد ذاته قيمة كبيرة إذ يتعانق فيها المال بالثقافة ، وهو ما يدعم موقفنا الحضارى بغير شك.

«مونتايجر» : رواية تثير الغضب

عندما نقرا رواية أجنبية ونستمتع بها يهيأ للكثيرين منا أننا نقرؤها ربما للتسلية أو للتعرف علي قوم آخرين ذوى عادات وتقاليد وأفكار مختلفة عمّا لدينا ، أو قد يكون السبب ببساطة هو تحسين معرفتنا بلغة أجنبية أو توسيع رقعة تجربتنا الإنسانية . وقد لا يدرك الكثيرون أن نفس هذا العمل الفنى الذى يشد انتباهنا حتى نستمر فى قراءته حتى آخر صفحة فيه يمثل فى نفس الوقت عملاً سياسيا من الطراز الأول . وينطبق هذا على أى عمل فنى سواء أكان مسموعا أو مرئيا أو مقروءا . وقد يظهر ذلك بوضوح أكبر فى الرواية، ويرجع ذلك إلى أن الرواية بحكم شكلها البنائى تقدم لنا تطورا لشخصياتها وللأحداث التى تسردها وللأفكار الرئيسية المتضمنة فيها وعناصر أخرى . وتمثل كل هذه العناصر رؤية المؤلف للحياة عموما وكذلك موقفه السياسى مما تدور حوله من أحداث . ونفهم من هذا أن أى رواية نقرؤها تعبر بجملتها عن – أيديولوجية – أو رؤية عامة للأمور . وغالبا ما تتفق هذه الرؤية مع الرؤية السياسية التى يتبناها الوطن الذى ينتمى إليه الروائى ، فأى روائى سواءً أراد أم لم يرد لابد أنه يتأثر بالمناخ الاجتماعى والسياسى الذى ينشأ فيه . وتتمثل هذه الأيديولوجية بالتالى فى القيم الأخلاقية والمعنوية التى يقدمها الكاتب الروائى فى روايته ، وفى المعتقدات الشعبية التى يقدمها

فيها ، وكذلك فى السلوك العام لشخصياته ، وفى المواقف التى تتخذها هذه الشخصيات تجاه أى مشكلة تواجهها . ومن الممكن أن نقول – باختصار شديد – إن أى رواية نقرؤها تقدم لنا قصة تمتعنا بأحداثها وشخصياتها ، ولكنها فى نفس الوقت تجسد عبر صفحاتها موقفًا سياسيًا أو رؤية سياسية أو أيدلوجية لما يحيطنا من أمور سواء كانت هذه الأمور مرتبطة بأمور شخصية أو وطنية أو عالمية ، فالرواية بالذات تعبر عن معتقدات قوم بأكملهم وهى لذلك تحتوى على ضمير الأمة .

وبالمناسبة أذكر أننى استمعت لمحاضرة كان قد ألقاها الناقد الإنجليزى تيرى إيجلتون فى عام ١٩٩٠ بجامعة القاهرة وقال فيما قاله : إن الحكومة الإنجليزية فى القرن التاسع عشر كانت مهتمة اهتمامًا خاصًا بإذاعة الرواية الإنجليزية عبر مستعمراتها ليس بهدف توفير جو من الشهرة للكتّاب الإنجليز من أمثال ديكنس وجورج إليوت وغيرهما من الأسماء المعروفة ولا لغرض انتشار اللغة الإنجليزية عبر العالم فحسب . بل كانت تصدر ضمن هذه الروايات أيضا رؤية سياسية وسلوكًا وتصرفًا اجتماعيًا وتأصيلا لتراث غربى إنجليزى . وكان هذا من ضمن الأساليب التى لجأت إليها إنجلترا لتعليم سكان مستعمراتها وتهذيبهم .

وبالمناسبة أيضًا نلاحظ – على سبيل المثال – أن اهتمام الغربيين بترجمات نماذج من أدبنا المصرى والعربى إلى لغتهم يتزايد يوما بعد

يوم وأن ذلك الاهتمام يرجع فى أغلب الحالات إلى أنهم يريدون مزيدا من معرفتنا حتى يتخذوا منا موقفا يدعم موقفهم السياسى تجاهنا . ونفهم من ذلك أن مجال الترجمة يمس هو الآخر صميم الصراع بين الحضارات الذى نتمنى مرة أخرى أن يتحول إلى «حوار» بمرور الزمن .

وعودة إلى موضوعنا فإننى اخترت أن أتناول بالعرض بعض نماذج لروايات ألفها كتّاب إنجليز معاصرون وحرصت على أن يكونوا كلهم ممن عاشوا فترة من حياتهم فى مصر أى أنهم جميعًا عايشوا الواقع المصرى ولمسوه بأنفسهم فى فترة من حياتهم لنرى انطباعاتهم وتصورهم لمصر ولشعبها ولدين الإسلام ، وأريد أن ألفت نظر القارئ منذ البداية الى أن الصورة السلبية التى رأيناها موجودة عند إدوارد لين وعند لورينس داريل ترسخت أيضًا لدى الروائيين الإنجليز المعاصرين لدرجة أنهم يعبرون فى رواياتهم عن رؤى توارثوها بدلا من أن يصفوا الواقع المصرى الذى تعايشوا معه : هكذا تسيطر السياسة وتوجه رؤية شعب بأكمله حتى رؤية الفنانين فيه .

ولنتذكر هنا أن الفنانين أيا كان مجال عملهم فهم فى نهاية الأمر ليسوا إلا مواطنين عاديين يمتازون عن غيرهم بموهبة التعبير عن مشاعرهم ورؤيتهم فى مجالات تخصصهم المختلفة . وإن ظهرت موهبتهم فى الكتابة بحيث يستطيعون من خلالها أن يعبروا عن شعور ورؤية أغلبية الشعب الذى ينتمون إليه ، وغالبا ما يخدمون

بذلك مصالح دولهم وتوطيد موقفها وهى فى النهاية مصالحهم الشخصية . والتعبير عن رؤية وموقف معترف به ليس إلا نوعا من الولاء الوطنى . وإن أراد فنان أو كاتب أن يعبر عن رؤية جديدة قد تصلح من حال وطنه فيجب أن يكون معروفا عنه أولا أنه وطنى ويراعى مصالح قومه ، وأنه ليس عميلا لقوى أجنبية حتى تصبح رؤيته الإصلاحية صادقة ومقبولة ومقنعة . هل فكرنا لماذا يوجد فنانون وكتّاب صحفيون نحب أن نقرأ لهم وآخرون نتجنب قراءتهم عمدًا ؟ هل فكرنا لماذا أحرز كاتب مصرى مثل الأستاذ نجيب محفوظ- أطال الله في عمره - جائزة نوبل فى عام ١٩٨٨ ولماذا نحب جميعا أن نقرأ له حتى ولو اختلفت ميولنا السياسية أو العقائدية ؟ الذى أراه أن ذلك يرجع إلى كونه كاتبا صريحا وصادقا فيما يكتب .

الرواية الإنجليزية الأولى التى اخترتها هى لروائية اسمها بينيلوبى ليفلى التى ولدت فى مصر فى عام ١٩٣٣ وأمضت فترة طفولتها فى مصر ، ولم تغادر بلدنا مع أهلها إلاّ بعد الحرب العالمية الثانية بفترة قصيرة ، ونعلم جميعا كم تؤثر فترة الطفولة بالذات على تكوين شخصية المرء وعلى رؤيته للأمور . ونفترض إذن أن هذه الكاتبة عاشرت مصريين وتجولت فى بلادنا خلال وجودها بيننا وأن ذلك ساعدها على تكوين رأى خاص عنا قد أثر على تصويرها لنا فى كتاباتها .

أما الرواية التى اخترتها لهذه الروائية فهى رواية «مونتايجر» التى نُشرت فى ١٩٨٧ والتى لم تترجم مع الأسف إلى العربية حتى الآن . إن هذه الرواية ليست فى عظمة رباعية داريل من الناحية الفنية إلا أنها تجمع ما بين أسلوب متميز خاص بها ، وتقنية روائية تعتمد فيها الكاتبة على تيار الوعى ، ثم إنها تقدم رؤية واضحة مميزة وهى رؤية غربية بحتة للأمور وبالذات فيما يخص تصويرها لنا ، وبالمناسبة أحرزت صاحبة هذه الرواية جائزة إنجليزية مهمة منذ أن نُشرت ، ونفهم من وراء إجازتها أنها تشتمل على عناصر فنية ورؤية للأمور تتفق مع متطلبات القاعدة العامة من الإنجليز .

ما هو محتوى رواية «مونتايجر» ؟

تتناول الرواية قصة حياة امرأة تعمل صحفية ومعروفة بأنها صاحبة رأى مستقل ، وأنها ليست تقليدية فى حياتها الشخصية ، وأنها واسعة الأفق وتتقبل كل ما هو جديد ، وأنها مستقلة ماديا فى حياتها ولا تخضع لسيطرة أحد ، وأنها جريئة تحب المغامرة واكتشاف كل ما هو جديد .

تبدأ الرواية بهذه الشخصية النسائية التى اجتازت العام السبعين من عمرها وهى راقدة فى مستشفى تعانى من مرض لا شفاء له ، وتقرر هذه المرأة أن تسترجع ذكريات حياتها منذ طفولتها وأن تربط

جميع الأحداث المهمة فيها بأحداث سياسية أثــرت فيــها شـخصيًا وفى مجرى التاريخ العالمى . ومما يُسهل عليها هذا الأمر أنها عملت طوال حياتها فى مجال الصحافة الحرة أى أنها لم تُعيَن فى صحيفة تعمل بها . ومن ضمن الفترات المهمة جدا التى عاشتها هناك أربـــع سنوات أمضتها فى مصر خلال فترة الحرب العالمية الثانية ثم نفــهم أنها عادت إلى مصر بعد ذلــك فــى رحــلات سـياحية ، وهـذه هــى الفترات التى تهمنا هنا فى حياتها حيــث نجـد أن هـذه الصحفيـة المتحررة الذكيــة ، ذات الأفـق الواسـع تلاحـظ وتسـتنتج مسترجعة ذكريات إقامتها فى مصر ، ونعرض فيما يلى بعض أفكارها :

الانطباع العام الذى أخذته عن القاهرة وهو ما يظهر فــى خيالهـا كلما تذكرت عاصمة بلادنا هو رائحة القاهرة وهى مزيج من فضلات المواشــى والجــاز ، ثـم حـرارة الجـو الشـديدة ، وضجيـج «الـترام» وعربات «الكارو» وازدحــام النـاس فـى الشـوارع ، وعربـات النقـل البدائية التى تجرها الخيل أو الحمير، وطيور الحدأة التى تحلق فى السماء . هذا ما تتذكره الصحفيـة كلمـا ذكـرت أيامـها فـى القـاهرة وتقـول : إنـها لم تسـتطع أن تـهرب مـن هـذا العـالم الـذى يملـؤه الضجيج إلاّ عندما تدخل – على سبيل المثال – مكانا مثل الكنيسـة حيث تجد الراحــة والسـكون والطقس المعتـدل المحتمـل ، وتقـابل بداخلـها قومـا مثلـها مـن الإنجليز وكلـهم متحضـرون ومحـــترمون ومهذبون ومنظمون فــى سـلوكهم وصلواتـهم . وتشـير الكاتبـة بذلـك

وبطريقة غير مباشرة إلى التناقض الذى يفرق بين حضارة الشرق الرجعية وحضارة الغرب الجديرة بالاحترام ، وتفهمنا أن الحضارتين متعايشتان فى نفس المكان وأن الفارق بينهما هو حاملو كل منهما أى أن المصريين يمثلون كل ما هو مرتبط بالجهل والرجعية بينما توجد الحضارة حيث يوجد الإنجليز لأنها مرتبطة بأشخاصهم .

وتكثر الكاتبة من أمثلة هذه المقارنات غير المباشرة بين الإنجليز فى مصر الذين يمثلون الحضارة والرقى والمصريين الذين يمثلون الهمجية غير المفهومة عبر صفحات الرواية التى تفوق المائتى صفحة حتى تنطبع هذه الفكرة فى ذاكرة القارئ وتترسخ فيها بمرور الزمن .

ثم نفهم من الرواية أن الصحفية تعود إلى مصر فى السبعينيات من هذا القرن فتجد أن القاهرة لم تتغير فى خلال الثلاثين سنة ، وكل ما أضيف إليها هو بعض الفنادق الأمريكية الحديثة مثل الشيراتون والهيلتون مع استمرار الازدحام فى المرور الخالى من النظام ، ثم تتمنى أن تعود للقاهرة التى عرفتها فى الماضى أى فى الأربعينات التى كان لها رغم كل شىء طابع خاص بها.

والسؤال هنا هو : ألم تفكر هذه الصحفية فيما إذا كانت مصانع قد بنيت وجامعات قد فتحت وأفكار تعبر عن رؤية مصرية تجاه الأمور قد تكونت فى خلال هذه الفترة من الزمن ؟ ألم تلق نظرة ولو من باب الفضول – على جريدة مثل «الإجيبشيان جازيت» التى

تقدم أخبارنا وتعبر عن وجهة نظرنا باللغة الإنجليزية في السبعينيات عند زيارتها السياحية لنا فى ذلك الحين ؟

إن كل ما نفهمه من كلامها في الرواية أن مصر تتأخر بمرور الزمن بدلاً من أن تتقدم ، ونفهم كذلك أن استقلال مصر السياسى لم يفدها فى شيء .

وتصف الصحفية منظرًا رأته من شباك القطار في الأربعينات من هذا القرن حيث رأت الطبيعة المصرية على ضفتى النيل وشاهدت الفلاحين وهم يقومون بعملهم اليومى وهم يرتدون الملابس الشعبية الملونة ثم تقول : إنه هيئ إليها أن المنظر كله لا ينتمى إلى الواقع الملموس ، فهو كالصورة المرسومة التى تعلق فى المعارض أو على جدران المنازل ، وأن مصر كلها لا تمثل مكانا مهما يذكر بالنسبة للشخص الغربى ، فقد تكون مصر بلدًا جميلاً ولكنهم أى الإنجليز - لا يرونها لأن ناسها سلبيون لا يفرضون وجودهم .

وتتذكر الصحفية أيضًا أن الإنجليز هم الذين خلقوا فى مصر خلال وجودهم هنا نوعا من الحياة المتحضرة ، أما مصر فلم تكن تمثل لهم إلاّ خلفية سلبية لحياتهم .

وأما بالنسبة للمصريين فتقول : إن أحوالهم لم تتغير وتضيف قائلة إنه حتى لو كان فى مصر أى نوع من الجمال الطبيعى الذى قد يشد انتباه الغريب عنها فهذا الجمال يختفى برؤية أشياء مثل

التراب والمياه ، والقش وأوراق الأشجار ، والناس والحيوانات ثم الفقر الشديد الذى يتمثل فى الالتهابات التى يتعرض لها الأطفال والذباب المستقر حول عيونهم العمياء ، وما يُرى على ظهور الحمير من إصابات ناتجة عن قسوة أصحابها . وكل هذا يشير إلى جهل المصريين ورجعيتهم وإهمالهم ، ثم أن هذه الأوصاف تشير أيضا – بطبيعة الحال – إلى فقر غير طبيعى إذ نفهم أنه لا يكاد يصاحبه وعى من المصريين بما يعانون منه .

ونشعر أيضًا خلال قراءتنا لوصف مصر على هذا الشكل غير المرضى أن الكاتبة لا تعبر عن شعورها الشخصى فقط ، بل إنها تسعى إلى أن تنفر قارئها من مصر .

والسؤال هنا هو : ألم تدرك هذه الصحفية التى تُوصف بأنها واسعة الأفق أن من أكثر الأسباب التى تسببت فى تأخر مصر حضاريًا هو احتلال الإنجليز لنا طوال النصف الأول من القرن العشرين ؟ ألم تدرك أن المصريين كانوا فى هذه الفترة من الزمن كأنهم مكتفو الأيدى لا يستطيعون التصرف فى أمور بلدهم ؟ ألا تلاحظ – وقد نشرت روايتها فى ١٩٨٧ – أنه من أصعب الأشياء على كل بلد استعمره الإنجليز هو التخلص منهم ؟ إنها وبدون شك تحكى وتحكم على الأمور بحسب أفكار ترسخت لديها ، تحجب عنها الواقع الحقيقى وتحول بينها وبين الحكم المحايد الذى قد ينتج عنه حوار وتفاهم بين الحضارات المختلفة بدلا من الصراع

الحضارى الذى نعيشه اليوم ، والذى ستكون نتائجه سلبية وخطيرة للغاية لو استمر .

إننى أحب أن أوجه قارئى هنا إلى كتّاب مصريين كتبوا عما تغفله بينيلوبى ليفلى فى روايتها ، ويحضرنى كتاب أبى الدكتور حسين مؤنس «مصر ورسالتها» (١٩٥٥، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٩) وكتاب «دراسات فى ثورة ١٩١٩» (دار المعارف ، ١٩٧٦) ، وهناك أيضًا كتابات الدكتور عبد العظيم رمضان . ثم أوجه القارئ أيضا إلى كتابات الصحفى البارز جمال بدوى رئيس تحرير صحيفة «الوفد» وإلى مقالاته التى تصدر كل خميس فى صحيفته . وبالمناسبة : أتمنى أن يعيد التليفزيون المصرى برنامج جمال بدوى عن تاريخ مصر المعاصر فالكثيرون منا يفتقدونه . ونحن جميعا فى أشد الحاجة إلى مثل هذه الكتب والبرامج التليفزيونية حتى نفهم موقفنا وحتى نستطيع أن نصمد أمام كل من يصورنا بطريقة خاطئة .

وعودة إلى رواية «مونتايجر» نجد أن الصحفية كانت أثناء وجودها فى مصر فى الأربعينات هى وباقى الأوربيين ينتقلون فى الشوارع فى سيارات أو عربات «حنطور» وكل ما كانت تراه حولها مجموعة من المتناقضات لا يفهمها أى عقل بشرى فكانت القاهرة – حسب كلامها – تجمع بين أجناس مختلفة من الناس يتكلم كل واحد لغته ، وكأن مصر تفتقد لغة قومية .

وتذكر ليفلى أيضًا ، أن الناس فى مصر تموت بدون أن يسأل عنهم أحد ، وأن الشوارع مليئة بعربات «الكارو» التى تشدها الخيل والحمير وكذلك الدراجات ، وأن هناك الألوف الذين يمشون حفاة ، وعربات «الترام» مليئة بالناس لدرجة أنها كانت تشبه خلايا النحل .

وتقول أيضًا : إنه حتى الفترات التاريخية المختلفة التى مرت عليها مصر لا تخضع لأى نظام منطقى فهناك الفترة اليونانية ثم الرومانية ثم الفرعونية ثم القبطية ثم المسلمة (ونلاحظ أنها تخطئ فى تنظيم هذه الفترات التاريخية !) وتقول : إن نهاية كل ذلك أن متوسط عمر الفلاح المصرى هو ثلاثون سنة ، وأنه يعيش فى أكواخ فقيرة جدا ولكنه راض بها .

ونفهم من ذلك أن المصرى سلبى بطبيعته وأنه لا أمل فى أن ينهض ويتقدم أبدا وكأنه يعيش خارج التاريخ فى عالم غير العالم المعروف لدى الجميع - أى الغربيين . وتنظر الصحفية الإنجليزية إلى السماء وتلاحظ النجوم وتندهش وتقول لنفسها إنه غير ممكن أن تكون هذه النجوم هى نفس النجوم التى يرونها فى سماء إنجلترا .

الخلاصة أن كل ما تقدمه بينيلوبى ليفلى فى روايتها عن مصر هو صور سلبية للغاية ترتبط كلها بفقر المصريين وجهلهم ورجعيتهم ، ونلاحظ أنها لا تقدم شخصية مصرية واحدة ذات كيان ، فكل من

تعاملهم أثناء وجودها بيننا سفرجية ومستخدمون وشحاذون يملئون الشوارع .

ونجد أن الصحفية فى الرواية على سبيل المثال تحاول أن تبعد عنها بائعًا مصريًا فى الشارع وتصرخ وتقول له «إمشى» وتراجع نفسها بعد ذلك وتدرك أنها لا تكلم المصريين إلا بفعل الأمر ، ثم تستنتج أن المصريين متعودون على الأوامر لأنهم خضعوا لأوامر غيرهم لمدة قرون من الزمن فهم مؤهلون لذلك بطبيعتهم .

إننى ذكرت فى تلخيصى لهذه الرواية فى البداية أن الكاتبة كانت تسعى إلى الربط بين حياة الصحفية الشخصية فى الرواية والأحداث السياسية والتاريخية المهمة التى حدثت فى نفس الفترة الزمنية . وقد نتساءل أين تضع الكاتبة مصر فى تاريخ العالم المعاصر ؟

إننا نقرأ فى أكثر من جزء من الرواية إسهابًا مطولاً يصف مصر أيام الفراعنة وغالبا ما ينتهى هذا الكلام بإشارة إلى اختفاء عظمة مصر والمصريين ، وكأن الموجودين منهم فى الأربعينيات من هذا القرن ليسوا من سلالة عصر الفراعنة . وتؤكد الكاتبة من خلال شخصية الصحفية التى فى الرواية أن المصريين المعاصرين يعيشون فى عالم خاص بهم خارج أحداث العالم الحقيقى وينطبق هذا حتى على المتعلمين منهم لأنه - حسب كلامها - كلما تكلم الأوربيون

وبالذات الإنجليز- عن حملة القائد الألماني روميل فإننا نجد المصريين لا يبالون بالموضوع ويعاملونه وكأنه موضوع هامشي ،وحتي بعد مرور الزمن لا يعرف المصريون حديثا عن الحرب إلا ما يتصل «بحرب إسرائيل» وهي لا تعلق على تلك الحرب بكلمة واحدة .

ونلاحظ في كلامها أنها تسمى المواجهات بين العرب وإسرائيل بحروب إسرائيلية ، وكأن الطرف المواجه لإسرائيل لا يستحق أن يُذكر .

وتشير الصحفية خلال الرواية إلى جانب الحرب العالمية الثانية مشكلة كوريا ومشكلة لاوس ومشكلة كوبا ، وحرب فيتنام لأنها كلها أحداث سياسية تاريخية كان الغرب طرفا فيها فهي لذلك جديرة بالذكر .

وتذكر في جزء آخر من الرواية سنة ١٩٥٦ على أنها كانت سنة مهمة تاريخيا لأنها كانت – حسب كلامها – «سنة القناة وسنة المجر».

وتقصد هنا سنة الاعتداء الثلاثي وتحرير قناة السويس ، ولكنها لا تعلق على ما تسميها «بحرب القناة» بكلمة واحدة وإن كانت تبدى رأيها بإسهاب في دخول القوات الروسية في المجر . إننا في هذه النقطة بالذات نلاحظ أنها تتفادى الكلام عن مصر المعاصرة حتى تجعلها تبدو كما لو لم تكن لها مكانة في العالم لها تأثير في

أحداثه . ونحن نعلم – بطبيعة الحال – كيف أثرت حرب السويس على مكانة إنجلترا بصفة خاصة في العالم كقوة سياسية كبرى ، وكيف كان تحرير مصر بعد ثورة يوليو بداية لتحرير شعوب أخرى كثيرة كانت مستعمرة . تغفل الروائية كل ذلك لأنه يتعارض مع رؤيتها للأمور وهي تريد أن تفرض على القارئ هذه الرؤية الغربية .

وبمناسبة قناة السويس وتحريرها أذكر أنني تعرفت على ناس إنجليز أثناء وجودى في إنجلترا وأذكر أنهم عندما عرفوا أنني مصرية قالوا لى باستعلاء شديد: «أنت من مصر البلد التى أخذت منا قناة السويس؟ وماذا فعلتم بالقناة بعد أن أخذتموها؟» . وفهمت عندئذ أن الكثيرين من الإنجليز وبالذات المتحفظين منهم لم يتقبلوا أبدا فكرة تحررنا منهم لأن السؤال الذى وجه إلىّ كان في الثمانينيات ومع ذلك فإنهم كانوا يعتبرون مصر والمصريين والقناة من ضمن ممتلكاتهم الشخصية التى انتشلت منهم .

وعودة إلى رواية بينيلوبى ليفلى نلاحظ أن الكاتبة ورغم أنها تحاول استبعاد مصر من أى حدث سياسى أو تاريخى مهم وقع فى القرن العشرين فإنها لا تعامل اليهود نفس المعاملة فتقول – على سبيل المثال – إنها عندما ذهبت في عام ١٩٤١ لزيارة القدس أقامت في فندق صغير كان يديره يهوديان كانا قد باعا جميع ممتلكاتهما في أمريكا فى العشرينيات من هذا القرن ثم سافرا «الأرض المقدسة» بكل مدخراتهما فى انتظار عودة المسيح التى كانت منتظرة فى عام

١٩٣٣ . وعندما لم يأت المسيح فى التاريخ الموعود استمرا فى العيشة هناك متقبلين الأمر الواقع . ثم تصف المكان بأسلوب رومانسى جميل ، وهى تمهد بذلك لإنشاء دولة إسرائيل فيما بعد وكأن إنشاءها كان حلمًا سلميًا جميلاً .

ونفهم من هذا – بطبيعة الحال – أن إسرائيل ذات منزلة خاصة عن الغربيين وأنها جديرة بالذكر فى التاريخ العالمى من المنظور الغربى .

إن رواية «مونتايجر» لبينيلوبى ليفلى رواية جميلة من الناحية الفنية ومتماسكة ومتكاملة فيما يخص الرؤية التى تقدمها للعالم . وكما قلت فى بداية حديثى عنها إنها تقدم رؤية غربية بحتة أى أنها لا تأخذ فى الاعتبار إلا ما هو غربى أو ما يؤكد أهمية الغرب ويرسخ قيمه ، ونحن المصريين – أو العرب عمومًا – لا وجود لنا فيها على الإطلاق .

إن نسخة الرواية التى بين يدى هى طبعة ١٩٨٨ أى أنها صدرت سنة واحدة بعد نشر الرواية للمرة الأولى وهى الطبعة السادسة لها ، والسؤال هنا هو : كم طبعة صدرت لهذه الرواية فى السنوات العشرة الماضية ؟ كم من قرأ وتتبع تصويرنا السلبى جدا فيها ؟

أليس الأدب وسيلة أخرى لإنتشار أفكار وسياسات ومواقف محددة وبالذات عند ناس يقرءون الكثير مثلما هو شأن الغربيين

جميعا ؟ هل من المعقول ألا يقتنع كل قارئ غربى بما تقوله الروائية الإنجليزية ليفلى فى روايتها وبالذات عندما يعلم أنها عاشت بنفسها فترة من الزمن فى مصر ؟

إن هذه الرواية لابد أن تثير الغضب فى أى مصرى يقرؤها لأنها مثل رباعية لورنس داريل ـ عنصرية لأقصى درجة ويرجع السبب فى ذلك ـ كما ذكرت من قبل ـ إلى أفكار ترسخت فى أذهان الغربيين وتوارثوها جيلاً بعد جيل ثم عرضوها فى أعمالهم الفنية .

أوليفيا مانينج : صورة غير مشرفة

إن الكثيرين من الغربيين يتهموننا بأننا نعيش في الماضي لأننا مازلنا نتفاخر بماضينا حينما كان العرب على قمة الحضارة العالمية . إنهم يتهموننا بأننا ننسى الحاضر ونمضي وقتنا بالتفاخر بما مضى . ويوجه ذلك الاتهام لنا سواء في مصر أو في سائر البلاد العربية ، إنني أقر بأن بعضنا يفعل ذلك ولكنني أرى أيضا أن بعضنا الآخر واع تماما بماضيه وكذلك بما يحدث اليوم في العالم من تطورات في جميع الميادين وهو يواكب العصر بإدراك وبقوة ، وقراءة أي صحيفة من صحفنا اليومية يثبت كلامي هذا لكل من يريد أن يفهم حاضرنا .

إن هؤلاء الغربيين يتهموننا بتمسكنا بأفكار قديمة وهم أنفسهم يعانون من هذا الداء ربما أكثر منا لأن معظم ما يقدمونه من صور لنا في أدبهم المعاصر مبني على أفكار قديمة ترسخت لديهم عبر السنين ولا يحاولون أن يغيروها وكأنهم مصممون - وهذا أملهم - على أن نبقى دائما الضعفاء وهم الأقوياء ، وأن تقيم حضارتنا وموقفنا الثقافي على أنه هو الضعيف وحضارتهم وموقفهم الثقافي هو الأقوى وهو المرشد وهو النموذج الأول والأفضل والأوحد . وهذا موقف تتخذه جميع الدول الغربية تجاه عالمنا وهو يعبر عن رؤية سياسية واضحة تشمل الحضارات والثقافات والأديان المختلفة ، ولهذا السبب كنت

قد أشرت من قبل إلى أن أى رواية نقرؤها لابد أن تكون سياسية في جوهرها .

والرواية التى أقدمها الآن رواية إنجليزية معاصرة أخرى نجد صورتنا فيها سلبية للغاية وهو ما تعوّدنا أن نجده فى معظم أعمالهم الفنية ولذلك كنت ذكرت فى بداية كتابى لهذا الموضوع أننى لم أندهش كثيرا عندما قرأت فى كتاب «الغرب والإسلام» للأستاذ رجب البنا أنهم فى الغرب اليوم يتخذون قراراتهم السياسية الكبرى معتمدين فى ذلك على صورة أو فكرة راسخة فى أذهانهم لا تطابق الواقع الذى نعيشه اليوم . وهذه الفكرة مبنية أساسًا على أن الإسلام – وهو دين الأغلبية لدينا – لا يولدّ فى معتنقيه إلا العنف والقسوة ، وأنه يشجع الرجعية ، وأنه يجب لذلك الاحتراس منه ، فالكثير من هذه الأفكار مأخوذة من الأدب الغربى .

الرواية التى أمامى الآن هى لكاتبة إنجليزية معاصرة أسمها أوليفيا مانينج ، وهى ثلاثية اسمها «ثلاثية الشرق» وتتكون من رواية «شجرة الخطر» (١٩٧٧) ، ورواية «المعركة» (١٩٧٨) ، ورواية «الخلاصة» (١٩٨٠) . ولم تترجم هذه الروايات للعربية ، وليتها تُرجمت حتى يتعرف كل مثقف لدينا كيف يصوروننا فى الأدب الغربى حتى نستطيع محاورة هذه الصورة الراسخة التى نادرا جدا ما تتغيّر ، فكيف نستطيع أن ندخل حوارًا بناءً معهم بدون أن نتعرف تماما على ما يقولونه عنا ويؤمنون به ؟

إن الطبعة التى بين يدى هى طبعة ١٩٨٢ وهى الطبعة الرابعة لهذه الثلاثية . ولاحظت أنها قد طبعت فى كل من إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية فى نفس الوقت . تُرى كم من مرة طُبعت فى السنوات الخمس عشرة الماضية ؟ لا أدرى ، ولكن من المؤكد أن الناشرين فى الغرب لا يتأخرون فى إعادة نشر مثل هذا العمل المتقن . والناشر هناك تاجر ماهر يخلق القارئ عن طريق الدعاية الملائمة ثم التسويق اليقظ ولا يُتعب عميله فهو يخدمه ليكسبه .

والجدير بالذكر هنا أن أوليفيا مانينج نالت جائزة إنجليزية عام ١٩٧٧ عن الرواية الأولى فى ثلاثيتها ، ومعنى أنها نالت جائزة عن روايتها هو أنها - مثل بينيلوبى ليفلى - حققت فيها شيئين أساسيين : أولهما أنها قدمت عملا فنيا ممتازا من ناحية الأسلوب الذى كتبت به عملها والبناء الفنى الذى قدمت فيه . وثانيا - وهذا مهم جدا بالنسبة للغربيين - أنها قدمت رؤية غربية ترضى الأغلبية العظمى من القراء ثم أنها تقدم الأمور من منظورهم ، وغالبا لا تتعارض هذه الرواية مع الخط السياسى الرئيسى - أو ما نسميه أيضا بالأيديولوجيا - لديهم . ولاحظت مرارا - كما لاحظ غيرى - أن البلاد الغربية قد تختلف فيما بين بعضها والبعض ولكنهم فى ساعة الجد يتحدون دائما ويصبحون يدًا واحدة ، وهل هناك أهم من الرؤية التى تحكم وتحدد من خلالها الأمور والموقف الحضارى؟

من هي أوليفيا مانينج ؟

إنها كاتبة إنجليزية من أصل أيرلندى لها ما يفوق العشرة المؤلفات . إنها جاءت إلى مصر فى فترة الحرب العالمية الثانية مرافقة لزوجها وهو محاضر فى الأدب الإنجليزى . لقد أتيا مع الإنجليز الكثيرين الآخرين فى البلقان هربا من خطر الحرب . وكان زوجها يعمل فى مجال التدريس فى مصر حيث عمل فى المركز الثقافى البريطانى . وكان كلاهما على صلة مع باقى المثقفين الإنجليز فى مصر ، ثم إنهما بدون شك تعاملا مع المثقفين المصريين فى الأربعينيات ، كما أن زوجها كان أيضا ممن اشتركوا فى تحرير بعض المجلات الثقافية الإنجليزية التى كانت تصدر فى مصر فى ذلك الحين مثل مجلة «أورينتيشونس» (وترجمتها «اتجاهات») ومثل «السيتاديل» (وترجمتها «القلعة») ومجلات أخرى كانت تطبع فى مصر بالإنجليزية فى ذلك الحين . ويقال إنهم كانوا يشجعون المصريين فى الكتابة فيها . وأوليفيا مانينيج نفسها كانت تنشر فى هذه المجلات ثم أنها كانت تكتب من قبل قدومها إلى مصر .

قد يكون من المهم هنا أن نتذكر أن الإنجليز عموما عندما كانوا يقيمون فى مصر خلال فترة الاحتلال كانوا يكونون جالية مترابطة ومتضامنة نادرا ما كانت تختلط بالمصريين ، وكانت هذه هى عادتهم وكانوا يستريحون لها وكانت لهم حياة اجتماعية خاصة بهم ،

ونواد لهم قلّما يدخلها مصرى . فمن ناحية كانت هذه هى تعليمات حكومتهم لهم أى ألا يختلطوا بالمصريين ، ثم إنهم كانوا من تلقاء أنفسهم يؤمنون بأنهم أحسن وأرقى من المصريين لمجرد أنهم إنجليز ، فلا يحاولون الاختلاط بنا . وكانت هذه القاعدة متبعة من قبل جميع الإنجليز أيا كانت طبقتهم الاجتماعية أو مستواهم الثقافى، وكان موقفهم من المصريين ومعاملتهم لهم حينذاك مما جعلهم غير محبوبين بيننا .

وسمعت كثيرا من مصريين عاشروا الإنجليز وقت وجودهم بيننا أنهم كانوا يندهشون عندما يرون أن الإنجليز كانوا يعتبرون مصر ملكا لهم ولا يتصورون أنهم سيغادرونها فى يوم من الأيام .

وإذا كان ما ذكرته حول تجنب هؤلاء الإنجليز للتعامل مع المصريين هو القاعدة العامة فإن ذلك – على ما سمعت – لم يمنع بعض الاستثناءات التى تتمثل فى المشتغلين بالتعليم المدرسى والجامعى الذين كانوا وثيقى الصلة بحياة المصريين وكانوا أحيانا حريصين على التعرف على دخائل المجتمع المصرى ، وذلك وفقا لتعليمات غير منصوص عليها من قبل حكومتهم . هذا ما سمعته .

وأذكر بمناسبة الإنجليز المشتغلين بالتدريس والفنانين الإنجليز فى مصر أيام الاحتلال كتابًا ألفّه بالإنجليزية د. مرسى سعد الدين بالاشتراك مع الإنجليزى جون كرومير اسمه «تحت سحر مصر» (١٩٩١) يجمعان فيه أسماء جميع الروائيين والشعراء الذين عاشوا

فترة حياتهم بيننا والظروف التى عاشوا فيها ، ومن المؤكد أن مثل هذا المؤلف لابد أن يهم كل من يعمل فى مجال الأدب المقارن .

ما هو محتوى روايات «ثلاثية الشرق» ؟

تقع أحداث الثلاثية فى أنحاء مصر أى بين القاهرة والإسكندرية والسويس وحلوان وطنطا ثم منطقة العلمين . وهى تسرد قصتين متوازيتين ، أحدهما قصة عسكرى إنجليزى جُند ليحارب فى معركة العلمين ، ثم قصة زوجين إنجليزيين هاربين من أوربا – من اليونان بالتحديد – ولاجئين إلى مصر حيث يبحث الزوج عن عمل فى مجال التدريس لكى يعيشا . ونتابع فى الروايات الثلاث ما يقابل هذه الشخصيات الإنجليزية الثلاثة خلال وجودهم فى مصر . ونلاحظ أنهم لا يعاملون إلا أمثالهم من الإنجليز ، أما المصريون فليس لهم وجود ملموس فى الثلاثية فمصر بالنسبة للإنجليز جميعا مجرد خلفية لأحداث حياتهم ولا يتعاملون مع المصرى إلا لو لزم الأمر لذلك.

وبما أن ما تصوره الروايات الثلاث عن مصر لا يختلف فيما بينها فإننى سأختص بحديثى الرواية الأولى فقط . وقبل أن أبدأ أحب أن أقول إن ما نجده فى رواية مانينج فى نهاية الأمر لا يختلف كثيرا عما وجدناه فى رواية ليفلى، إلا أننى شعرت أنها أقل قسوة فى الحكم علينا كما سأشير إلى ذلك خلال تناولى للرواية . ولذلك أحب

أن أكرر ما قلته من قبل أن معظم الكتـاب الإنجلـيز لا يحـاولون أن يصوروا الواقع المصرى كما هو أمامهم ولكنهم يستندون فى تصويرهم على أفكار ترسخت لديهم منذ زمن طويل – أى منذ أيام إدوارد لين وأمثاله وربما قبل ذلك – وهى أفكار قديمـة وقليلـة الصلـة بـالواقع ولكنهم معجبون بها لأنها تريحهم وتصورهم فى موضع القوة دائما ، ثم أنها تمثل أساس رؤيتهم الغربية للحياة .

تبـدأ روايـة أوليفيـا مـانينج «شـجرة الخطـر» (١٩٧٧) بوصــول الجندى الإنجليزى – واسمه «سيمون» من إنجلترا إلى القاهرة حيث جند فى الجيش الإنجليزى فى مصر ومن المنتظـر أن يلحـق بفريقـه فى الساحل الشمالى غرب العلمين . إنه شخص صغير السن وبسيط إذ أنه لا يعرف من العالم كله إلا قريته بإنجلترا ، وجاء من هنـاك رأسا إلى هنا . وكل ما يلاحظه «سيمون» هذا عند وصوله إلى مصر أشياء غريبة عنه وجديدة عليه . ونلاحظ أن ما يلفت نظره يتضمـن فى حد ذاته نقدا لنا ولعاداتنا ويرى «سيمون» فيما رآه ما يلى فــى الأربعينيات من هذا القرن :

– وهو فى القطار المتجه من السـويس إلى القـاهرة لا يـرى خلـف نافذة القطار إلاّ مناطق عشوائية تدل على فقر مدقع .

– إن النـاس بالقطار كثيرون وتطفح منهم رائحة كريهة هى مزيج من العفونة والعرق .

– إن الحر لا يطاق حتى أن «سيمون» يشعر بأنه يذوب داخل ملابسه .

– يحاول «سيمون» أن يفتح نافذة في القطار الذى ينقله من السويس للقاهرة ويمنعه من ذلك مصرى ولم يظهر له هذا المصرى أى ذوق فى معاملته له .

– يلاحظ في شوارع القاهرة «أشباحا» ترتدى ثيابا بيضاء مثل قمصان النوم وهى تجرى مرتدية «شباشب» . أما السيدات فلا ترى تقريبا إذ كلها ملفوفة في عباءات سوداء . والمكان كله قذر ومقزز .

وبالمناسبة لا تظهر خلال الرواية كلها سيدة مصرية ذات قيمة رغم أنه من المعروف أن المرأة المصرية في الأربعينيات من هذا القرن كان لها صوت ووجود .

– كانت الرائحة في المعسكر بحلوان لا تحتمل فى رأى «سيمون» ، ثم إن المكان كله يملؤه البق . ويقول له أحد زملائه الإنجليز إن هذه الحشرات تعيش مئات السنين وأنه من الصعب التخلص منها وهى تتسبب فى عذاب أليم لهم . وكل ما حوله كان يوحى لسيمون بالشر والموت .

– يلاحظ أن الذباب يملأ البلد وهو أكثر من الطعام فى الأطباق .

– ويرى أطفالا صغـارا يخيّـل إليـه فـى أول الأمـر أنـهم كحَلـوا عيونهم ثم يتضح له بعد ذلك أن ما حـول عيونـهم إنمـا هـو ذبـاب مكدس .

– وأن فى حـى «جـاردن سـيتى» منـازل توحـى بمـاض ثـرى ولكنها فى حالة يصعب إصلاحها ، وأن القـاهرة كلـها فـى تدهـور مستمر .

– إنه يؤمن بأن الإنجليز أتوا إلى مصر ليعلموا شـعبها ويحضّروه ولم يفهم لماذا لا يُقدر المصريون هـذا الجميـل مـن قبـل أكـبر وأعظـم شعب فى العالم .

– يخدم فى بيوت الإنجليز سفرجية كثـيرون ولكنـهم يتصرفـون كما لو كانوا نياما غير واعين بما يجرى حولهم .

– المصريون يتكلمون الإنجليزية ولكن لغتهم الإنجليزية لا تعرف القواعد النحوية .

– منظر أهرامات الجيزة لم يبهره ، أما نـهر النيـل فلونـه غـير جميل بسبب الطمى ، ومصر كلها ليس فيـها جمـال طبيعـى فيبـدو «لسيمون» أن معظمها صحراء مجردة من الحياة . أما الشمس فـهى فى مصر عدوة الإنسان تسلبه من قوته وتضعف إرادته . وقـد يكـون فى مصر جمال طبيعى ولكن عناصر الجهـل والمرض والرجعية تقضى عليه فلا يظهر . ونذكر أن هذا نفس رأى بينيلوبى ليفلى .

– لم يجد «سيمون» سمة التحضر إلا فى الإنجليز الذين يقابلهم فى مصر ويتكلم معهم وهم يمثلون العنصر الوحيد الذى يجسد فى مصر الحياة والذكاء والتحضر .

وقائمة السلبيات التى يلاحظها «سيمون» طويلة جدا لدرجة أنه يشفق على مصر . ونلاحظ أن الكثير من هذه السلبيات مبالغ فيها .

والسؤال هنا هو : هل هذا تصوير حقيقى للواقع المصرى فى الأربعينيات تقدمه كاتبة إنجليزية مثقفة وواعية يعمل زوجها فى مجال التعليم فى مصر ؟ أليست أوصافها بالأحرى محاولة لفرض أفكار ترسخت لديها منذ صغرها على واقع مصرى لا تريد أن ترى فيه إلا علامات الجهل والرجعية والبدائية ؟ أيا كان الرد الصحيح فهذه هى الفكرة التى ما زالت تنتشر فى بلاد الغرب عنَّا والتى ما زالت تؤثر على موقفهم منا سواء أرادوا أو لا ، وسواء وضحوا ذلك الموقف لنا أو لم يوضحوه .

وإذا حاولنا أن نتتبع الفقرات الإخبارية على شاشات التليفزيون الأجنبية اليوم . سنجد أن كل تركيزهم على الظواهر السلبية لدينا . والغرض من ذلك هو تثبيت صورة الجهل والرجعية فى ذهن المشاهد الغربى . هل نتذكر «الهوجة» الإعلامية التى أقاموها فى الغرب عن ظاهرة ختان الإناث فى مصر منذ ما يقرب من سنتين ؟ هل تمثل هذه الظاهرة مكانة المرأة المصرية فى مجتمعنا اليوم ؟ لقد صدق

إدوارد سعيد فى كتاب «التغطية الإعلامية للإسلام» – الذى أشرت إليه فى بداية كتابتى فى هذا الموضوع – حيث قال إنهم لا يظهرون إلا ما يسىء لسمعتنا . والحمد لله لقد منع ختان الإناث مؤخرا .

وعودة إلى رواية أوليفيا مانينج نجد فيها ما يلى :

– تعمل إحدى الشخصيات الإنجليزية – واسمها «هاريت» – فى السفارة الأمريكية بالقاهرة. وضمن زملائها هناك شاب مصرى اسمه «إقلال» (هكذا يظهر اسمه فى الرواية ولاحظت أن معظم الروائيين الأجانب يؤلفون أسماءنا . ومن ضمن ما يقوله هذا المصرى – الذى يعمل مترجما – «لهاريت» ما يلى:

– «ماذا تفعلون (ويقصد الإنجلين) ببلادنا يا سيدتى؟ إنكم أتيتم لكى تحكمونا وتحمونا وعندما يأتى العدو (ويقصد الألمان) تهربون من مصر وتتركوننا». وبذلك يعبر المصرى المثقف عن حاجة المصريين لحماية الإنجليز.

– إن الألمان سيدخلون مصر قريبا وإنه هو شخصيا بدأ يدرس اللغة الألمانية. ويظهر المصرى بذلك أنه لا يعرف الوفاء لمن يخدمه أى الإنجليز .

– «وحتى حينما يؤكد لنا الألمان بأنهم سيمنحوننا استقلالنا فنحن المصريين نسينا كيف نحكم بلدنا . أما المستعمرون فكلهم مثل غيرهم ونحن متعودون عليهم وعلى أساليبهم» . ويوضح المصرى هنا أن المصريين فى حاجة دائمة إلى من يحكمهم ويرشدهم .

– وتلاحظ «هاريت» أن المصريين عموما لا يفهمون بل لا يقدرون خطورة أيام الحرب هذه (وتقصد الحرب العالمية الثانية) فهم دائما مبتسمون وكأنهم فى عالم غير عالم الواقع. ثم إنه حتى المتعلمون منهم ليسوا على دراية بالأحداث السياسية العالمية.

– تسأل «هاريت» أحد المصريين إن كان يعتبر الإنجليز مستغلين للمصريين ، وإن كان هذا ما يعتقدونه فلماذا لا يقومون بثورة ضدهم؟ فيجيبها المصرى بأنهم فى مصر يشعرون بالاستغلال الإنجليزى ولكنهم ينتظرون قدوم الألمان فى البلد وحينئذ سوف «يذبح» المصريون الإنجليز . ويعبر المصرى بذلك عن الروح العدوانية وقسوة قلبه إذ أنه «سيذبح» زميلته الإنجليزية فى أول فرصة تتاح له.

ونلاحظ فى الأمثلة التى ذكرتها أن فكرة الجهل واللامبالاة وعدم تقدير الأمور المهمة والجبن والقسوة والعدوانية ، كل هذه الأفكار يربطها الغربيون بنا منذ أجل بعيد وهى تتجسد فى مثل هذه الروايات فى كل شخصية مصرية تظهر على صفحات الرواية. ومن الواجب أن نذكر هنا مرة أخرى أنه حتى لو وقعت أحداث رواية غربية فى مصر فإننا لا نرى أى شخصية مصرية تقوم بدور مهم فأدوار المصرى فيها دائما ثانوية، بل هامشية، إذ أن هذه الروايات مليئة بالمستخدمين المصريين مثل السفرجية والبوابين وسائقى السيارات وهم يظهرون على صفحات هذه الروايات لخدمة الشخص الغربى وطاعته وكأن خدمة الغربى أمر طبيعى لدينا.

وعودة إلى روايتنا نجد أن هناك شخصية إنجليزية أخرى يجب الإشارة إليها وهى شخصية «جاى برينجل» وهو اللاجئ الإنجليزى الذى يبحث عن عمل ويجده فى تدريس اللغة الإنجليزية لتلامذة مصريين بالإسكندرية. ونجد أن هذا الإنجليزى يتفانى فى التدريس لهؤلاء الشبان المصريين ، ثم إنه أحيانا يجازف بحياته إذ أن المقر الذى يدرس فيه قريب من منطقة الحرب. وكيف يعاملونه هؤلاء المصريون؟ إنهم لا يريدون دراسة الأدب الإنجليزى بل يفضلون اللغة الإنجليزية البسيطة التى قد تنفعهم لمزاولة التجارة. وهم يتغيبون عن الدروس ولا يلتزمون بها ويحاولون ابتزاز مدرسهم حتى ينجحهم. ثم ينقطعون عن حضور الدروس عندما سمعوا أنباء تفيد أن الجيش الألمانى على وشك أن يدخل مصر فراحوا يدرسون اللغة الألمانية مما يدل على أنهم شبان أنانيون سطحيون لا يبحثون إلا عن مصلحتهم ولا يعرفون معنى القيم الإنسانية.

هل يظهر الإسلام فى الرواية ؟

نعم، يظهر الإسلام فى الرواية مرتبطا بالعادات المصرية، وكل ما هو عادة مصرية يشار إليها على أنه «تقليد إسلامى» مثل ارتداء الرجال للجلاليب ، أو أن الحريم داخل المنازل يجب ألا يراها الرجال . ثم إن الشخصيات الإنجليزية لا تبدى أى إعجاب عند رؤية الجوامع فتبدو لهم بدون لون مميز ولا شىء يلفت النظر فيها .

أما الآذان الذى يسمع من الجوامع المختلفة عند مواعيد الصلاة فإننا نرى إحدى الشخصيات الإنجليزية تسمعه وتتعرف على كلمة «أكبر» فيذكرها ذلك بأن العرب عموما يحبون سرد حكايات تراثهم على مكبرات الصوت . والأكبر من هذا - كما شرح لها من قبل - هو بطل كبير أنجبه ملك عظيم من أم سودانية. وبما أنه ولد بلون أكثر سمرة من أخويه فقد اضطر أن يثبت وجوده بالقيام بأعمال بطولية . ولكنه كان كسولاً جدًا وكثيرا ما كان يرقد فى خيمته فلا يدفعه للقيام بعمل بطولى إلا حبيبته وكانت آية فى الجمال .

هكذا تصور الرواية الإسلام وأظن أن عدم إبراز الدين الإسلامى يرجع إلى عدم اهتمام الكاتبة بما هو مصرى عموما فلم تحاول أن تدقق معرفتها على كل ما قابلته من جديد فى مصر حتي تصوره فى روايتها ، بل اكتفت بما سمعته من غيرها .

وهكذا نرى كيف تتوارث أفكار ومفاهيم عنا وتنتشر فى البلاد الغربية ونادرا ما يهتم أحد هناك بأن يصححها. ويحدث هذا حتى في يومنا هذا. ألم نقرأ فى باب «علامات استفهام» الذى يكتبه الأستاذ رجب البنا ما يلى: «وزير الأوقاف قال إن على شبكة الانترنت أخطاء كثيرة ضد الإسلام.. من الذى وضعها؟.. وهل هو حسن النية؟ وماذا ستفعل الدول الإسلامية لمواجهة هذا العدوان على شبكة يتعامل معها ٢٠٠ مليون مثقف فى كل العالم؟.. (انظر مجلة أكتوبر - عدد ١١٠٠).

إن الأستاذ رجب البنا، يفترض سوء النية ولكننى أرى أن هذه الأخطاء ترجع إلى عدم اهتمام مسئولى الانترنت بنا عموما أو أنهم ادخلوا في الشبكة المعلومات التى كانت لديهم فلم يجدوا سواها . وبما أننا عرفنا أن هناك أخطاء فهل سارع أحد بإرسال المعلومات الصحيحة للمسئولين فى شبكة الانترنت؟.

وعودة إلى رواية «شجرة الخطر» نجد أنها - كما قلنا - مليئة بالصور غير المشرفة لنا ولمصر كبلد وكطبيعة. ويجسد المصريون فيها كل القيم السلبية أما الإنجليز فيمثلون الحضارة المتقدمة والذكاء والنبل والشجاعة والإنسانية.

إننا نجد خلال قراءتنا للرواية أن الكثيرين من الشخصيات الإنجليزية تحاول أن تتناسى وجودها فى مصر فتتذكر الأيام التى أمضوها في اليونان قبل لجوئهم إلى بلدنا. فكل ما يخص ذكرياتهم عن اليونان سواء كانت متعلقة بالبشر أو التقاليد أو الطعام أو الطبيعة اليونانية كل ذلك يعد لهم بمثابة الجنة، أما مصر فكأنما قد اجتمع كل ما يجب أن ينفر منه أى إنسان متحضر . وما هو سبب هذا التباين الواضح بين مصر واليونان فى رواية «شجرة الخطر» ؟ السبب بسيط: وهو أن الأوربيين يعتبرون اليونان مهد الحضارة الأوربية، ولذلك يجب أن تمجد وتعظم .

....

ويذكرنى ذلك بكتاب مهم ألفه إنجليزى وهو يعمل حاليا فى جامعة أمريكية كبرى اسمه مارتين بيرنال. أما كتابه فاسمه «أثينا السوداء» وصدرت أول طبعة له فى إنجلترا فى أواخر الثمانينيات .

إن صاحب هذا المؤلف العظيم كان بيننا فى القاهرة فى ديسمبر ١٩٩٥ وألقى عدة محاضرات تكلم فيها عن كتابه وحكى كم هوجم فى البلاد الغربية بسبب محتوى كتابه هذا. ومحتواه - باختصار شديد إذ أنه يتكون من عدة أجزاء - هو أن أصل الحضارة الأوروبية أو الغربية لا يرجع إلى اليونان بل يرجع إلى القارة الإفريقية وبالتحديد إلى مصر وحضارتها الفرعونية. وحسب كلام بيرنال لم يأت اليونانيون القدماء بأى جديد فى حضارتهم إلا مما أخذوه من الحضارة المصرية الفرعونية وطوروه بعد ذلك.

وفكرة كتاب «أثينا السوداء» لا تعجب الغربيين بطبيعة الحال لأنه يرجع أصول حضارته إلينا وهذا لا يشرفهم بل يؤلمهم لأنه يقلب رأسا على عقب كل بنائهم الفكرى بخصوص أصول حضارتهم ورقيها وعظمتها فكتاب مارتين بيرنال هذا يقدم دلائل مستفيضة لإثبات آرائه.

«أثينا السوداء» لا يقل فى أهميته بالنسبة لنا عن كتاب «الاستشراق» لإدوارد سعيد الذى ذكرناه فى بداية كلامنا هنا لأن مؤلفه بيرنال يقدم هو الآخر منظورا جديدا لأفكار غربية قديمة بلغة

يفهمها الغربيون، وفى هذه المرة يقرأ الغربيون أن أصل الحضارة العظيمة التى يتفاخرون بها يرجع إلى مصر وليس إلى اليونان.

ولهذا ليس من الغريب أن نسمع عن الهجوم والنقد الذى قوبل به هذا الكتاب عند صدوره وأن نعرف أنه لم ينتشر الانتشار الذى يليق بأهميته فى البلاد الغربية، والسبب يرجع إلى أن صراع الحضارات أصبح اليوم أمرا واقعا وهاما وحيًّا، ومثل هذا الكتاب يضعف موقف الحضارة الغربية .

وقد نتساءل هنا لماذا أقدم مارتين بيرنال على تأليف كتاب يضعف موقف الحضارة التى ينتمى إليها ؟

والإجابة هى: أنه عالم عثر على حقيقة لم يرد أن يغفلها بل أراد أن يعرف قراءه بها فأمضى سنوات طويلة فى البحث والعمل لإثبات نظريته. ثم إن المؤلف بالذات قد منحه اسما وشهرة عالمية، وفتح لنا الشرقيين بابا جديدا لكى نحدد موقفنا من حضارة الغرب مثلما فعل إدوارد سعيد بكتاب «الاستشراق» فى أواخر السبعينيات .

وبمناسبة كتاب «أثينا السوداء» أسعدنى أن أقرأ فى إحدى صحفنا اليومية أنه ظهرت للجزء الأول منه ترجمة باللغة العربية الآن – أى فى ١٩٩٧ – فى القاهرة وقام بهذه الترجمة خمسة من الأساتذة المصريين المعروفين بإجادتهم للترجمة وصدرت عن المجلس الأعلى للثقافة .

حتى أنت يا نيوبى !

كلنا نعلم أنه فى وقت من الأوقات لم يكن لدينا فى مصر إلا جامعة واحدة وهى جامعة القاهرة التى كان اسمها - كما نعلم جميعا - جامعة فؤاد الأول . وكان فيها فى ذلك الحين قسم إنجليزى واحد يدرسون فيه الأدب الإنجليزى واللغة الإنجليزية . ولم يقم على التدريس فى ذلك القسم فى بداية الأمر إلا مدرسون إنجليز وبمرور الزمن سمحوا للمصريين المتفوقين أن يعاونوهم فى التدريس . ثم تحول القسم بمرور الزمن إلى قسم يديره مصريون فقط ، وحدث ذلك بعد قيام الثورة والتحولات السياسية والاجتماعية التى حدثت فى الخمسينيات من هذا القرن .

المهم - وهو ما أنوى الكتابة عنه هنا - هو أن بعض هؤلاء الإنجليز الذين كانوا يقومون بالتدريس فى جامعة فؤاد الأول كانوا يشعرون بأن لديهم موهبة الكتابة الفنية فألفوا روايات . من ضمن هؤلاء أسماء مثل نيوبى وإنرايت وليدل وآخرين .

إننى فى الحقيقة لست مبهورة بمؤلفاتهم الفنية فكتاباتهم الروائية ضعيفة جدا من الناحية التقنية وحتى من ناحية مضمون رواياتهم فينقصها العمق فى القيم والأفكار التى تتناولها . ولكننى توقعت أن يكون هؤلاء فى نهاية الأمر على صلة مباشرة بالطالب

المصرى، ومـن هنـا قـد تختلـف رؤيتـهم لنـا ولحياتنـا لأن المعاملـة الشخصية لابد أن تولد علاقة إنسانية تجعل حكم كل مـن الطرفـين على الآخر حكما تلقائيا لا تتدخل فيه أفكار مسبقة ومدونة . ثم إن هؤلاء الكتاب أساسا مدرسون ومعلمون ، والمدرس بطبيعة عمله لابـد أن يكون فيه نوع من الإنسانية التى تتجنب السياسـة وأحكامـها ، ولابد أيضا أن مهنتهم جعلتهم يتغلبـون علـى أفكـار موروثـة تحـدد حكمهم علينا ومواقفهم منا مثل التى وجدناهـا عنـد داريـل وليفلـى ومانينج وآخرين ، ويرجع ذلك إلى أنهم تعاملوا مع الطالب المصـرى مباشرة .

وقد وقع اختيارى على أحد هؤلاء هو ب.هـ . نيوبـى وهـو مـن المدرسين الإنجليز الذين عملوا بجامعة فؤاد الأول ثـم ألفـوا روايـات أشاروا فيها إلى حياتهم فى مصر أو حتى جعلوا أحداثها كلـها تقـع فى بلدنا . ويرجع اختيارى له لأننى اعتبرته أحسنهم فى فن القص إلا انه أقل جودة بكثير من الفنانين الذيـن عرضـت أعمـالهم هنـا . والعمل الذى أتناوله هنا بالتحديد اسمـه «رحلـة إلى سـقارة» الـذى نشر فى عام ١٩٥٥ . وبين يدى طبعته الأولى ولا أظن أنه صدرت له طبعات بعد ذلك . كما أعرف أنه لم يترجم إلى العربية. أما صاحب الرواية نيوبى فهو عـين فـور نشـرها رئيـس للقنـاة الثالثـة بالإذاعـة الإنجليزية .

من هو ب. هـ. نيوبى؟

عاش نيوبى فى مصر ما بين ١٩٤١ و١٩٤٧ وقام بتدريس اللغة الإنجليزية وآدابها بجامعة القاهرة وبالمركز الثقافى البريطانى خلال هذه المدة كلها.

إننى تحدثت عن نيوبى مع بعض المصريين الذين كانوا من طلبته فى الأربعينيات وعرفت منهم أنه كان طيب المعاملة وأنه لم تكن فيه صفة التعالى على المصريين التى عرف بها زملاؤه من المدرسين الإنجليز . وقالوا أيضا إنه كان ممن يصرحون بحبهم لمصر ولأهلها، وأنه جاء مرارا لزيارة مصر سياحيًا بعد مغادرته لها عام ١٩٤٧ . ثم أنه ألف أكثر من رواية تقع أحداثها فى مصر.

هذا ما قالوا لى عنه . وأحب أن أضيف هنا إننى لاحظت أن معظم من درس على يد الإنجليز فى مصر يحترمون الإنجليز وحضارتهم وفكرهم جدا ونادرًا ما يصرحون بالسلبيات الإنجليزية، وأنا أفسر هذا الموقف بأنه نوع من الشهامة المصرية المعروفة لدينا غير أن الإنجليز لا يقدرون لنا هذه الصفة بل يعتبرونها نوعا من الجبن أو الاعتراف بأنهم أقوى منا حضاريًا .

وأحب أن أضيف أيضا أننى رغم الانتقادات الكثيرة التى أسردها هنا عن مواقف الإنجليز السلبية منا كشعب وكحضارة وكدين فيجب أن أعترف أن من أكثر البلاد التى أحب زيارتها هى إنجلترا بصفة

خاصة . وأننى لو رجعت فى الزمن إلى الوراء لاخترت دراسة الأدب الإنجليزى مرة أخرى . وأحب أن أوضح أن كتابتى هنا تهدف إلى تفسير موقف الغرب السلبى منا وهو موقف مبنى على أفكار خاطئة توارثوها فى الغرب جيلا بعد جيل بدون أن يعيدوا النظر فيها ، وهو موقف شديد الخطورة إذ إنه أصبح يؤثر على قرارات الغرب السياسية كما أوضح ذلك الأستاذ رجب البنا فى كتابه المهم «الغرب والإسلام» (١٩٩٧) والذى أشرت إليه مرارا لأهميته .

ما هو محتوى رواية «رحلة إلى سقارة» ؟

إن معظم أحداث الرواية تقع فى القاهرة وتدور حول محورين . أولا ، هى تسرد قصة زواج إنجليزى اسمه «بيرى» – وهو الشخصية الرئيسية فى الرواية – ويوشك هذا الزواج على الفشل ، والطلاق على وشك أن يتم بين الطرفين بسبب تباعد «بيرى» هذا عن زوجته ولكنهما يواجهان معا فى مصر بعض الأحداث التى تعيد المياه إلى مجاريها. وثانيا ، تتناول الرواية محورا آخر وهو علاقة الإنجليز وبيرى بالتحديد-- وهو يعمل مدرسا فى الجامعة المصرية – بالمصريين .

ويصور لنا نيوبى «بيرى» هذا على أنه مدرس ذو نزعة إنسانية قوية يحب طلبته المصريين ، ويريد أن يساعدهم وذلك عن طريق اضطلاعه بمشروع لبناء سكن ملائم للطلبة المصريين المغتربين .

ولا يجد من يعاونه على تحقيق هذا المشروع فالمصريون أنفسهم - أى الإدارة بالجامعة ومن يعرفهم «بيرى» من أفراد العائلة المالكة - لا يبالون ولا يهتمون بظروف الطلبة المعيشية كما يبالى هو الإنجليزى «الشهم ، الذكى ، الإنسان» . وهو يتعاطف مع الطلبة المصريين الذين يعيشون فى ظروف سيئة وهم فى حاجة إلى من يفكر فى تحسين حالهم لأن المصرى يصور فى الرواية على أنه طفل فى جوهره أيا كان عمره وهو لذلك يرضى بأى شىء وليس لديه الذكاء الكافى الذى يساعده على التفكير والتخطيط وتحديد ما يريده أو ما قد يحتاج إليه . وتنتهى هذه العلاقة - أى العلاقة بين المصريين والإنجليز - بالفشل إذ تتدخل بين «بيرى» والمصريين أمور سياسية ومصالح وطنية تجعله يغادر مصر فى آخر الرواية وهو آسف لهذا أشد الأسف.

وما يهمنا هنا هو تصوير مصر والمصريين ثم الإسلام فى الرواية . ويجب ألا ننسى أنه يقال عن كاتب «رحلة إلى سقارة» إنه ممن أحبونا وفهمونا . ونعرض فيما يلى بعض أفكاره كما وردت فى الرواية :

- تصور الرواية مظاهرات الطلبة المصريين فى الأربعينيات من هذا القرن وتصورهم يقتحمون المدرجات لكى يوقفوا المحاضرات ويشجعون طلبة آخرين أن ينضموا إليهم وهم يطالبون بوحدة الوادى والانسحاب الفورى للقوات البريطانية من مصر . ولا يأخذ

«بيرى» - الأستاذ الإنجليزى بالجامعة - هذه المظاهرات مأخذ الجد فيفسرها على أنها مشاغبة أطفال لا يريدون حضور محاضراتهم . ثم يشير إليهم بسخرية جارحة إذ يراهم مرتدين «الطربوش» الأحمر ويذكره ذلك بأنه قرأ فى مرة من المرات فى رواية من روايات الخيال العلمى أن سكان المريخ عندما يغضبون تحمر رءوسهم .

وتكثر فى الرواية مثل هذه التشبيهات التى قد تظهر فكاهية للقارئ الإنجليزى ولكنها ساخرة وجارحة ومهينة إلى حد بعيد للقارئ المصرى، فكيف نضحك من أنفسنا ؟

- عندما حدق «بيرى» فى وجوه المتظاهرين رأى فيهم «جيل مصر الصاعد» وهو يتكون من «طرابيش» ، ووجوه بيضاء ، ووجوه سمراء ، ووجوه سودانية بها خطوط محفورة، وشوارب، وأنوف زنجية وشفاه تنتمى إلى جنس البحر المتوسط وهو يذكر أن مشهدهم كان يثير فيه الدهشة وربما الخوف.

- ثم يسمع «بيرى» أن هؤلاء الطلبة سيستعملون السلاح لمحاربة الإنجليز وطردهم من مصر . وبما أنه لا يثق فى ذكاء الطلاب المصريين ولا فى مهاراتهم فهو على ثقة تامة فى قرارة نفسه أن هؤلاء الطلبة لا يعرفون استعمال الأسلحة أو أنهم قد ينسون وضع

الرصاص بداخلها فهو لا يراهم أكفاء للقيام بأى شيء . ويشير إليهم مرارا بأنهم «شباب يتسم بالغباء والبلاهة».

- ثم يسرع «بيرى» بين جموع الطلبة لكى يغادر المكان ومن الواضح أنه لا يخشى قوتهم بل يخشى أن تصيبه منه «عدوى» الأمراض المصرية . ومن المعروف أن الإنجليز كانوا يتحاشون المصريين عموما لأن المصريين فى نظرهم مليئون بالأمراض المعدية المستعصية المزمنة . ويتذكر حينذاك نظافة الإنجليز ويشتاق إليها.

- ثم يشير «بيرى» مرارا إلى روائح المصريين الكريهة وهى عبارة عن مزيج من العرق والثوم وأشياء أخرى منفرة . ويهيأ للقارئ أن الكاتب يصف رائحة بهائم وليس رائحة طلبة مصريين محترمين يطالبون بتحرير بلدهم.

ونيوبى فى ذلك مثل باقى الروائيين الإنجليز الذين أشرنا إليهم هنا ، فالنزعة العنصرية موجودة بوضوح لدى هذا المربى والمعلم الإنجليزى الذى قال إنه أحب مصر والمصريين .

وبخصوص نظافة الإنجليز أذكر أن الطلبة المصريين يثيرون الدهشة عند الأسر الإنجليزية التى يقيمون لديها خلال وجودهم هناك عندما يصرون على الاستحمام مرة كل يوم . كانت الأسرة الإنجليزية تندهش لذلك ويقولون لهم إنه جرت العادة لديهم بأن يستحم المرء مرة واحدة على الأكثر فى الأسبوع .

وأذكر كذلك إن إحدى صديقاتي المصريات في إنجلترا كانت تحب أن تستعمل العطور ، وقالت لها إحدى صديقاتها الإنجليزيات : «لماذا تستعملين العطور فهي باهظة التكلفة ؟ ألم يكن من الأوفر أن تستحمي ؟ » وكانت الإنجليزية قد فهمت أن العطور التي تستعملها صديقتي تغنيها عن الاستحمام ولم تتصور أن صديقتي هذه تستحم ثم تستخدم العطر.

إنني لا أحاول بأمثلتي هذه أن أقارن بين نظافة الإنجليز ونظافتنا ، بل أريد أن أقول إن كل قوم لهم عاداتهم ويجب أن تحترم وألا تنتقد.

هل في رواية «رحلة إلى سقارة» طلاب أحبهم « بيرى» ؟

نعم هناك طالبان هادئان يشكران «بيرى» على مجهوداته من أجلهم مثل مشروعه ببناء سكن الطلبة ويريان أنه إنسان ذكي وشجاع . وتصور الرواية هذين الطالبين خاضعين لرأيه مبهورين به وبما يقوله ويفعله فهما يساعدانه ويؤيدانه ،ولكنهما لا يبادران بأي شيء جديد أو فكرة نيرة طوال الرواية ، واسمهما «منصور» و«بوجوس» (هكذا يسمي نيوبى الطالب المصرى ، فالكتاب الإنجليز عموما يبتكرون لنا الأسماء) .

ما هو نمط الطالب المصرى الذى يرفضه «بيرى» ؟

هذا الطالب يتجسد في الرواية في شخصية اسمها «معاوية» وهو طالب بقسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

وهو قليل الذكاء لا يفهم جوهر ومعانى النصوص الإنجليزيـة ، وهـو يتصرف بطريقة تبدو وكأنها غير آدمية ، وهو مسلم ومتطرف فـى إسلامه ويبدو أن دينه أثر على سلوكه وأفكاره وكلامه . وهو همجى قاس عدوانى وغير متزن ، ثـم إنـه يتعاطى الحشيش ويصبح من الصعب التنبؤ بما قد يفعله ، وهو يرتدى الزى الأوربى ولكـن غالبا ما ينقصه شيء مثل الجوارب داخل الحذاء .

ومعاوية هذا عضو فى جماعة الإخوان المسلمين . ومن خلال هذه الجماعـة وتعاملاتـها تظـهر صـورة الإسـلام فـى الروايـة . ويصـف «بيرى» الإخوان بأنهم عصابة «مافيـا» لا تعرف النظام ولا القانون ولا القيم الأخلاقية المقبولة ، ثم أنهم لا يعرفون الرحمـة فأساليب تعاملـهم هـو العنـف والقتـل والتعذيـب لكـل مـن يخـالف فكرهـم وأغراضهم . والطالب معاوية هذا لا تصله بإخوانه المصريين علاقات صداقة إنسانية ، إذ علاقاته كلها تقوم على مصالح ، ولا يساعده ويشفق عليه فى نهاية الأمر إلا الإنجليزى «بيرى» .

ومن خلال شخصية معاوية يصور لنا نيوبى الإسلام على أنه دين قسوة وعدوانية وجريمة ، وأنه عن طريق جماعة الإخـوان المسـلمين يسيطر على مصر وناسها ويقضى فيها على قوة القانون وعلـى القيـم الأخلاقية والمعروفة فى البلاد المتحضرة التـى لا تنتمـى إليـها مصـر بطبيعة الحال .

هل هناك أشياء أخرى في الرواية تسيء إلى مصر؟

نعم هناك الكثير وعلى سبيل المثال هناك مشهد يتكرر فى الرواية وهو يصور «بيرى» إذ نراه دائما خائفا من طائر الحدأة ، فإن كان واقفا فى الهواء الطلق وفى يده شيء من المأكولات لابد وأن يهاجمه هذا الطائر ويخطف ما يأكله (إننى شخصيا لم أر ولم أسمع أبدا عن هذه الخصوصية فى طائر الحدأة). وبما أن هذا المشهد يتكرر فى الرواية فإن هذا التكرار يوحى بمعنى استعارى إذ إنه يبدو وكأن الإنجليزى لا يجد الأمان فى مصر ، فمن الممكن أن تخطف منه فى أى وقت وبدون مبرر ممتلكاته أو ربما كرامته أو حياته نفسها ، فالشعور بعدم الأمان هو ما يشعر به جميع الإنجليز فى مصر ، وهم جميعهم لذلك يحبون وقت الظهيرة إذ يستريحون من حرارة الجو ثم ينسون بالنوم أنهم بيننا فى مصر.

ويدل كل ذلك على أنهم لا يحبون الحياة بيننا وحتى لو أظهروا تعاطفا معنا فيكون دائما تعاطف الثرى القوى المستعمِر للفقير الضعيف المستعمَر الذى لا أمل في ارتفاع مستواه الحضارى.

– وهناك مشهد آخر في الرواية يقول فيه أحد الإنجليز لزمليه : «لماذا يدرسون الأدب واللغة الإنجليزية للمصريين إذ أن المصريين لا يقدرون ذلك؟

فيجيب الآخر ويقول: «إن تعليم اللغة والأدب الإنجليزى فى مصر مهم جدا ، فالمصريون لو لم يتعلموا الإنجليزية لتعلموا الروسية» .

ويوضح مثل ذلك الحوار أن مسألة استعمار مصر وتعليم المصريين مسألة سياسية بحتة ، ليس للناحية الإنسانية مكان فيها حتى لو أظهر «بيرى» فى الرواية - وهو السائل فى الحوار- عكس ذلك.

- أما بخصوص المصريين وحياتهم فيصورهم نيوبى أنهم يحاولون تقليد الغربيين فى الملبس وفى بيوتهم ولكنهم فى الغالب لا يفلحون فى فهم الأفكار الغربية المتقدمة المتحضرة.

أما المنازل فإن المصريين لا يعرفون كيف يفرشونها فبيرى يتصور أن المصريين كأنهم يقيمون الخيام داخل «فيلاتهم» وشققهم. هكذا يصورنا نيوبى وكأننا بدو لا ننجح حتى فى تقليد الغربيين.

- ثم إن مغادرة الإنجليزى «بيرى» لمصر فى نهاية الرواية - وهو الرجل الذى حاول مساعدة الطلاب المصريين - يوحى بأن لا أمل فى إصلاح مصر ولا المصريين فمهما بذل من أجلهم من جهد فلا فائدة منه ؛ إذ أنه جهد غير مثمر.

أظن أن ما عرضته من رواية «رحلة إلى سقارة» حتى الآن يكفى لكى ندرك أن حتى نيوبى.. وهو الأستاذ الجامعى الإنجليزى الذى يقال عنه إنه أحب مصر والمصريين. هو أيضا متأثر بالأفكار الراسخة لدى باقى الغربيين : هكذا يروننا وهكذا يفرضون علينا أن نكون ولا يلتفتون إلى الواقع المصرى حتى يتبينوا إن كان يطابق تصويراتهم لنا أم لا.

الروايات إذن – كما قلت في بداية كلامي – أعمال فنية وهي في جوهرها سياسية بحتة. وفي حالة الروايات التي تناولناها بالعرض والدراسة هنا فهي سياسة غربية متوراثة تفرض علينا دائما أن نظهر في صورة الضعفاء والأقل ذكاء ونضجا ومعرفة منهم. ويتصل الموضوع بأكمله بما سميناه بالصراع بين الحضارات أو الثقافات.

....

ويحضرني الآن زيارة أحد الروائيين الأمريكيين إلى مصر منذ ما يقرب من سنة. وألقى هذا الروائي محاضرة في جامعة القاهرة. وكما جرت العادة فتح باب المناقشة والتحاور معه ، فسأله أحد الحاضرين المصريين عن رأيه في إسناد وزارة الخارجية الأمريكية لمادلين أولبرايت إذ كانت عُيِّنت منذ أيام قليلة حينذاك بعد تدخلها «الشرس» ضد انتخاب الدكتور بطرس غالي لمنصب أمين عام الأمم المتحدة . فحاول الروائي الأمريكي أن يتجنب الرد المباشر وقال: ببساطة إنه يرحب بفكرة إسناد منصب مهم لامرأة– فالمرأة عموما – جديرة أيضا بالمناصب المهمة. وتجنب الرد الحقيقي على السؤال الذي كان المقصود منه رأيه في أولبرايت كشخصية لها موقف واضح في السياسية الخارجية الأمريكية .

ثم حضرت لنفس هذا الروائي الأمريكي ندوة أقامتها له مكتبة مبارك بالجيزة. وسأله أحد الحاضرين المصريين: «ما هي رؤيتك

السياسية؟» . فأجاب عليه متجنبا الرد المباشر الواضح مرة أخرى وقال: «إننى روائى لا أفكر في السياسة أبدا، فالسياسة بعيدة كل البعد عن تفكيرى. إننى لا أهتم إلا بالإنسان وبالمواقف الإنسانية !» هكذا كان رد الروائى الأمريكى المعروف ، وكان ردًا ساذجًا يدل على استخفافه بالحاضرين ، وكانوا كلهم من المصريين المثقفين. ومن المعروف اليوم أن السياسة أصبحت تجرى فى عروق أى مصرى ، ويرجع ذلك إلى ظروف تاريخنا وحياتنا. وكان من المفروض أن يفهم الكاتب الأمريكي هذا وألا يتجنب الردود الواضحة الصريحة حتى يصبح الكلام بينه وبين الجمهور حوارًا مثمرًا.

وهو فى ذلك فاته أن يدرك أن كل عمل فنى يتضمن رؤية سياسية مهما كانت نوعية هذا العمل ، وهذه فكرة عرفناها وفهمناها في مصر منذ زمن طويل. ونحن ندرك أيضا أن هذه الرؤية تتداخل فى العمل الفنى سواء بإرادة الفنان أو بدون وعيه.

إنه لم يقدرنا بما نستحق رغم أنه كان إنسانا لطيفًا بشوشًا ، وكانت زوجته جالسة بين الجمهور لتشجيعه. ورغم أن المشهد كله خلال الندوة في مكتبة مبارك كان يبدو عاديًا وهادئًا ورغم أن الحوار استمر بين الروائى الأمريكي والحضور المصرى ساعة أو أكثر فإن صراع الحضارات كان يلعب دوره فى الخفاء وبدون أن يشار إليه.

وانتهت الندوة وقدم حفل شاى بسيط لطيف في قاعة من قاعات المكتبة ، وغادرنا المكان مبتسمين ومعظمنا على يقين بأن هذا الروائى

لم يفصح عن كل ما فى صدره من آراء. ترى لماذا لم يتوسع فى ردوده ؟

وبمناسبة هذا الروائى الأمريكى فإن فى شهر ديسمبر من كل سنة تكثر جميع دور النشر الغربية من الإعلان عن إصداراتها الجديدة ويرجع ذلك إلى أن شهر ديسمبر هناك هو شهر تبادل الهدايا فى بلاد الغرب بمناسبة عيد الميلاد المجيد. وربما أنهم يقرؤون الكثير فمن أحب هداياهم الكتب. ولاحظت أن اسم الروائى الأمريكى الذى زارنا فى مصر منتشر فى هذه الإعلانات . ومعنى أنهم يحاولون نشر اسمه وأعماله هو أن هذه الأعمال تعبر عن رؤية غربية يؤيدونها. ومعنى أنه له رؤية يساوى أن له موقفًا سياسيًا واضحًا.

ترى لماذا أنكر أنه يفهم فى السياسة ولم يتوسع فى ردوده عندما كان بيننا؟ ولماذا تمسك برأى أنه لا يكتب إلا من أجل الفن ومن منطلق إنسانى بحت؟

لو كان تكلم لأدت ندوته إلى حوار حقيقى مثمر. ربما خشى رد فعلنا ، وقد تكون ترسخت لديه هو الآخر فكرة أننا عدوانيون وأننا لا نحتمل من لا يجارينا فى أفكارنا؟ ربما ، فأنا لا أدرى؟

إن كل ما تكلمت عنه هنا حول إبراز تصوير الأدباء الغربيين لنا فى أعمالهم فى صور سلبية للغاية نظهر فيها نحن المصريين وكأننا بشر من الدرجة الثانية لا أمل فى إصلاحنا. وقد يقول لى أحد القراء المصريين إن الكثيرين من كتابنا فى مصر وفى العالم الغربى يبرزون

فى أعمالهم أيضا صورا ومشاهد للقصور التى لدينـا فـى مجتمعاتنـا. وردى على ذلك هو إن الكاتب المصرى الوطنى ـ أو العربى الوطنى ـ عندما يشير إلى سلبيات فى مصر أو فـى أى بلـد عربـى آخـر فإنـه يستهدف منها الإصلاح ، وهو لذلك غالبا مـا يقـدم حلـولا للـداء أو يوحى بطريقة اسـتعارية أن هنـاك أمـلا فـى أن يصلـح الحـال فـى المستقبل ثم إن الكاتب المصرى الوطنى لا يظهر المصريين علـى أنـهم أقل قيمة على المستوى البشرى أو الخلقى أو الحضارى من غيره من الشعوب ، فالمصرى يكتب بهدف أن يرفع من مستوانا ، أما الكاتب الغربى فيصورنا كما لو لم يكن هناك أمل فـى إصـلاح حالنـا وكـأن تكويننا «البيولوجى» ناقص وأننا لذلك سنبقى دائما أقل منـهم فـى كل شىء.

إننى تناولت حتى الآن صـورة مصـر وصـورة الإسلام فـى بعـض الأعمال الروائية الإنجليزية ، ويرجع ذلك إلى تخصصى فـى الأدب الإنجليزى. ولكن نفس هذه الصورة عنـا موجـودة فـى سـائر الآداب الأوربية. فأذكر أننى قرأت – على سـبيل المثـال – خـلال الصيـف الماضى رواية الكاتب الفرنسى المعروف إميـل زولا «تـيريز راكـين» (١٨٨٦) وهـى أول روايـة لـه اتبـع فيـها زولا المذهـب الطبيعـى ، ووصف فيـها تصرفـات عـدد مـن الأنفـار تصرفـوا حسـب غرائزهـم الطبيعية مجردين تماما من أى قيم أخلاقية معـترف بـها. والروايـة تصعب قراءتها بسبب الوصف الدقيق لانحدار هذه الشخصيات فـى

تصرفاتها وسلوكها مما يجعلهم يبدون وكأنهم حيوانات. وسبب المشاكل التى تتطور فى رواية زولا وأحداثها لا تعنينا هنا هى الشخصية الرئيسية فيها وهى «تيريز راكين» التى سميت الرواية باسمها. ويقول زولال - الكاتب الفرنسى - عن هذه الشخصية «إن أباها فرنسى ، أما أمها فكانت عربية جزائرية ويجرى فى عروقها دفء المشاعر القوية العربية التى غالبا ما تقودها إلى الشر».

وتتسبب «تيريز راكين» هذه فى انحرافات دنيئة وجرائم أخلاقية بشعة والسبب - حسب كلام زولا - هو «الشر العربى» الكامن فيها.

إن كل ما أريد أن أوضحه فى كلامى أن الغربيين يحكمون علينا فى أعمالهم الفنية ويتعاملون معنا منذ قديم الزمن حتى يومنا هذا حسب أفكار موروثة لم يحاولوا أن يراجعوها ويصححوها أبدا لأن رأيهم دائما هو الصحيح ، ولا يضعون فى الاعتبار أبدا أننا نحن بثقافتنا وحضارتنا وتاريخنا وديننا المختلف عنهم قد نقدم صورة أخرى متكاملة وجديرة بالاحترام أيضا. وهم لا يضعون فى الاعتبار أيضا أن تعدد الثقافات الذى فى عالمنا اليوم يجب أن يعطى لكل ثقافة وحضارة حقها فى البقاء والاحترام وأن ينشأ حوار مثمر بين الأطراف المختلفة. كل هذا لا يحدث أبدا للأسف الشديد ، فالنزعة العنصرية موجودة فى السياسة والاقتصاد والفنون ووسائل الإعلام المختلفة.

وأذكر بالمناسبة حلقات مسلسلة عرضت على شاشة «التليفزيون» المصرى منذ بضع سنوات اسمها «لاف بوت». وترجمتها «سفينة الحب» . وتذكرون معى أنها كانت من النوع الترفيهى «الكوميدى». وصورت إحدى حلقات هذا المسلسل فى مصر ، وظهرت فيها بالفعل بعض الشخصيات المصرية التى تمثلنا نحن. وأذكر أن المصريين الذى ظهورا فى هذه الحلقة بالذات كانوا كلهم مستخدمين ، منهم سفرجية ومنهم حمالون ومنهم شخصيات موجودة لإثارة الضحك ، ولم يظهر مصرى واحد جدير بالاحترام.

والسؤال هنا هو: كيف صرحت لهم السلطات المصرية بأن يصورونا على هذا الشكل داخل مصر؟ ولماذا عرض علينا التليفزيون المصرى هذه الحلقة بدون أن يطلب من المسئولين عن المسلسل أن يعتذروا لنا؟ إن سكوتنا وعدم احتجاجنا يجعلهم - هم الغربيين - يعتقدون أنهم على صواب فى تصويرهم لنا. ثم سكوتنا يجعل بعضنا يصدق ما يقولونه عنا. وبهذا الأسلوب تنتشر تلك الصورة التى قدموها لنا وهى صورة سيئة وغير مطابقة للواقع سواء فى خارج بلادنا أو حتى داخلها.

الشرقى عندما ينحاز للرؤية الغربية

هذه الصورة السلبية أساءت لنا ولدين الإسلام فى آن واحد. إذ أنه من الصعب الفصل بين شعب وعقيدته وهذا ما رأيناه فيما عرضناه من أمثلة هنا إذ انتشرت هذه الفكرة غير المرضية ليس فقط فى الأعمال الأدبية بل عبر وسائل الإعلام أيضا،فلست أتصور أن أحدًا منا - على سبيل المثال - رأى فى أى مسلسل تلفزيونى غربى أو فيلم عرض على الشاشة الكبيرة الشخصية المصرية - أو العربية عامة- فى صورة محترمة ، فهى دائما تظهر فى أدوار ثانوية بل هامشية لا تكاد تذكر . وتظهر حينذاك فى صورة المجرم أو المختلس أو الغدار أو صاحب المؤامرات أو الإرهابى وكلها أدوار شخصيات غير جديرة بالاحترام .

هل رأينا مرة واحدة مصريًا أو عربيًا أو مسلمًا يظهر فى شخصية مؤلف عظيم أو طبيب ماهر أو مهندس خلاق أو حتى رب أسرة محترم؟ لا أظن أن هذا حدث أبدًا لأنهم هناك يصوروننا حسب أفكار مسبقة أو ربما يقصدون تصويرنا على هذا الشكل الدنىء فذلك يخدم مصلحتهم فيما سميناه بالصراع بين الحضارات أو الثقافات وما وراء ذلك كله فى نهاية الأمر مصالح مادية بحتة.

أليس هناك من استخدمه الغرب بغرض الإساءة إلينا ؟

نعم، وأشهر مثال لذلك هو سلمان رشدى وروايته (انظر مقال د. حسين مؤنس عن هذه الرواية فى مجلة أكتوبر عدد ٦٤٨ فى

٢٦مارس ١٩٨٩، وكتاب «الغرب والإسلام» ص ١٩٥– ٢٠٥ حيث عرضت الرواية بالتفصيل) .

ماذا حدث بعد نشر رواية رشدى المذكورة فى الثمانينيات من هذا القرن ؟

حدث أن الخومينى بإيران أصدر إعلانا رسميا طالب فيه بإعدام مؤلف الرواية لأنها تسيء للدين الإسلامى وذلك مقابل مليون دولار. ثم رأينا جميع وسائل الإعلام الغربية تصور الإعلان الإيرانى على أنه حكم أصدره المسلمون وهم– حسب كلامهم– معرفون بالقسوة والجريمة والرأى المحدود الأفق ولا يعرفون حرية الفكر ولا يحترمون حقوق الإنسان.

وبعد ذلك صور الإعلام الغربي المؤلف الهندى الأصل وهو يختبئ فى مكان ما فى إنجلترا خوفا على حياته وكأنه ضحية غلبان . وفى نفس الوقت نشرت دار «بينجوين» المعروفة أكثر من ١٠٠,٠٠٠ نسخة من الرواية فى طبعة شعبية. ثم ساءت سمعتنا إذ ارتبط اسمنا بالعنف والرجعية ومعهما ساءت صورة الإسلام لأن الغربيين قرءوا عنه فى هذه الرواية التى تقدم ديننا فى صورة مشوهه لا تطابق الواقع الذى نعرفه.

وهكذا تنتشر عنا صور وأفكار خاطئة سواء بدون قصد – أى عندما يعتمد الكتاب الغربيون والمسئولون عن وسائل الإعلام هناك

على أفكار مسبقة وموروثة - أو عن قصد - كما حدث في واقعة الروائي الهندى. ثم هناك وقائع أخرى لا حصر لها. فما هو تفسير الأعمال الإجرامية التي تقوم بها بعض العناصر الإرهابية لدينا؟ نتيجة ذلك أنهم في الغرب اليوم يعتبرون كلا من مصر والجزائر أكثر البلاد التي بها مذابح جماعية ويرجعون السبب إلى ما يسمونه «بعنف مبادئ الدين الإسلامي» .

ثم ماذا نقول عن صورة نشرت مؤخرا في مجلة غربية يظهر فيها أطفال فلسطينيون في أيديهم سكاكين ويشار إليهم على أنهم يمثلون تطور «الانتفاضة» الفلسطينية؟ كلها أشياء تسيء إلينا كثيرا بدون شك.

ولننظر للموضوع من ناحية أخرى. هل نتذكر زيارة روجيه جارودى إلى مصر مما يقرب عن سنتين؟ إن جارودى-كما نذكر- كاتب وفيلسوف فرنسي ألف كثيرا في موضوع اليهود وما يقدمون به إعلاميا حتى يظهروا في صورة أبطال عالمنا. لقد أظهر جارودى أن كثيرا مما يستندون إليه أكاذيب مفبركة ومن أهم كتبه «الأساطير المؤسسة لدولة إسرائيل» الذى نُشر في التسعينيات .

ومما لا شك فيه أن الكثيرين في مصر يشاركونني الرأى في أن دولة إسرائيل هي ممثلة الغرب بيننا . ولذلك هي دولة مهمة وثرية وقوية إذ أنها ترمز لكل ما هو غربي. ولذلك يجب أن تظهر دائما قوية وجديرة بالاحترام عبر الإعلام الدولي. وبما أن جارودى خدش

صورة اليهود وإسرائيل فكان يجب أن يعاقب حتى يتراجع عما كتبه وحتى لا تنتشر أفكاره . ولذلك لم تنشر مؤلفاته ، واضطهد ، وحاليا يحاكم بتهمة معاداة السامية والتشكيك في جرائم النازى ضد اليهود في الحرب العالمية الثانية .

ماذا نفهم من كل هذا ؟ نفهم أن الصورة التي يظهر بها كل شعب تخضع لضغوط سياسية واقتصادية غير متصلة بالحقيقة البحتة في أغلب الأحيان.

والشيء المؤسف في موضوع صراع الحضارات أن بعضنا تأثر بأفكار الغربيين عنا. فنرى على سبيل المثال أشياء مثل الآتية :

– بعضنا – في مصر بالتحديد– يدخل في كلامه باللغة العربية كلمات إنجليزية أو فرنسية معتقدا أنه بذلك يضفي لنفسه قيمة أكبر.

– بعضنا يفضل قضاء العطلات في بلاد أوربية حتى يثبت أن انتماءه للغرب وما يقدمه أقرب إلى تكوينه الشخصي. ألا نسمع عن مصريين يقضون إجازاتهم في أوربا أو جزر الكاريبي أو حتى في هاواي ؟

– البعض يتباهي بأن كل تعليمه كان تعليمًا أجنبيًا، وكأنه يعترف بذلك أن ثقافتنا وتراثنا ليس فيها ما تقدمه لإثراء الشخصية وتكوينها .

– بعض السيدات يتباهين بأن كل ملابسهن مشتراة من بلاد غربية ولا يدركن أن الكثير مما يحصلن عليه في الخارج من ملابس

مصنوعة أصلا فى مصر أو فى بلاد مجاورة لنا وأن كل ما تفعله شركات الملابس المعروفة هناك أنها تستورد بضاعتنا وتضع عليها بطاقات تابعة لها .

- نجد بيننا من يحب أن يتفاخر بأصوله الأجنبية مثل أصله التركي أو أصله الإيراني وكأنه يتحاشى تمسكه بأصوله المصرية.

- الكثير من محلاتنا التجارية تتخذ لها أسماء أجنبية لأن أصحابها يعلمون أن ذلك غالبا ما يشد الزبون المصرى .

- عندما يشترى بعضنا شيئا مصنوعا فى مصر ويجده متقنا فى صناعته يصفه بأنه جميل وممتاز «وكأنه صنع بالخارج».

- إنى أعرف بعض الناس المصريين لا يكفون عن الشكوى من كل ما هو مصرى وكأنهم يرددون بذلك كلام الغربيين عنا ولا يدركون- على ما أظن-- أنهم بهذه الطريقة يحبطون الحالة المعنوية لدى كل من حولهم . وإن قلت لهم : لماذا لا تغادرون مصر إن كان الحال لا يعجبكم إلى هذه الدرجة فإنهم لا يجدون إجابة مقنعة. حبذا لو أن هؤلاء راجعوا مواقفهم حتى يعرفوا ويعرفوننا إلى أى ناحية ينتمون .

كل هذه الأمثلة المنتشرة بيننا لا نجدها في بلاد الغرب . فهناك يتباهون بلغتهم الأم وبتراثهم وبصناعاتهم ويمجدون كل ما ينتمى إليهم.

هل نذكر محاولات الرئيس الفرنسي السابق «ميتران» عندما منع جميع وسائل الإعلام الفرنسية من استعمال أى كلمات أجنبية- الإنجليزية بالتحديد؟ كان رجلاً فرنسيًا وطنيًا يخشى على كرامة فرنسا- وهو بلد غربى- من الغزو الثقافى الأمريكى . فقام ميتران برسالته وحققها بالفعل وهو الحفاظ على حضارة بلده فرنسا وثقافتها ولم يلجأ إلى أى نوع من التطرف حتى يحقق هدفه كما يفعل البعض عندنا عندما يلجئون للأصولية الدينية أو العلمانية فيدمرون ويشتتون الوحدة الوطنية بدلا من الحفاظ عليها . والسبب فى اهتمام الغربيين بالحفاظ على حضاراتهم وثقافتهم لا يرجع إلى أنهم أحسن أو أذكى منا ولكن لأنهم تنبئوا منذ زمن طويل إلى أهمية الانتماء الحقيقى إلى وطن وتراث وحضارة، وعملوا من أجل ذلك الهدف وكأنها سياسة اتبعوها: تعلموا كل ذلك فى مدارسهم وفى جامعاتهم وفى بيوتهم وبناء على ذلك أصبح موقفهم الحضارى اليوم أقوى من موقفنا ثم بدءوا التأثير علينا. أليس هذا هو المقصود من وراء «العولمة» أو «الكوكبية» التى أصبحت اليوم على لسان كل واحد منا؟

وعودة إلى مجال الأدب نتساءل: **هل كل من اعتنق الرؤية الغربية فى مؤلفاته غربى الأصل والنشأة ؟**

إن تأثير الفكر الغربى أصبح قويًا لدرجة أن هناك من بيننا من اقتنع به وتبناه وهو- على ما أظن- مدرك لذلك. هذا ليس بغريب.

إننى وجدت ذلك فى أعمال أهداف سويف وذلك فى روايتها «فى عين الشمس» (١٩٩٢) بالتحديد . وأهداف سويف مصرية تقيم وتعمل في إنجلترا منذ زمن طويل. أما رواية فى «عين الشمس» فهو مؤلف جميل جدا كتبته المؤلفة باللغة الإنجليزية و- حسب كلامها- لا تؤلف باللغة العربية أبدا .

والرواية رواية مصرية ولكن المؤلفة تقدم أحداثها من هناك أى من منظور غربى بحت وهى بذلك تخاطب القارئ الغربى. ترجم من هذه الرواية إلى العربية الفصل الأخير فقط ونشر فى جريدة «أخبار الأدب» (انظر عدد ١٠- ١٥ لعام ١٩٩٣) .

ما هو محتوى «فى عين الشمس» ؟

تروى الرواية - باختصار شديد- قصة حياة فتاة مصرية ولدت وتربت فى مصر من أبوين مصريين ، ثم سافرت لتكملة دراساتها العليا بالخارج -فى إنجلترا بالتحديد . ونقرأ فى هذه الرواية أحداث حياة هذه الفتاة المصرية المسلمة ثم نتتبع أيضا نموها الشخصى حتى تصبح امرأة ناضجة تعرف ما تريده من الحياة .

تقع معظم أحداث الرواية - بطبيعة الحال - ما بين مصر وإنجلترا، أما صفحاتها فتقرب من الألف صفحة من القطع الكبير ، وبناؤها الفنى مضبوط لأبعد الحدود .

ومعظم ما يوصف عن مصر فيها هى العلاقات الإنسانية التى تجمع ما بين بطلة الرواية وأفراد عائلتها وصديقاتها فى مصر .

وأسلوب الرواية جذاب ويلفت النظر إذ أنها كتبت بالإنجليزية ولكن تركيبات الجمل فيها تكاد تكون تركيبات عربية من الناحية اللغوية.

ومن يقرأ الرواية لابد أن يدرك أن مؤلفها لا يمكن أن يكون إلا مصريا وذلك من كثرة الوصف الدقيق لكل تفاصيل الحياة المصرية- وبالذات حياة المرأة المصرية- فالرواية عموما لا تبرز السلبيات العامة التى وجدناها لدى الكتاب الإنجليز الذين تناولنا أعمالهم هنا بل إنها تصف الحياة المصرية كما تراها هذه الفتاة واسمها-بالمناسبة- «آسيا» وهى بطلة الرواية. ولكن الرواية فى جملتها تقدم الأحداث من منظور غربى إذ يجد القارئ الغربى فيها ما يشبع لذته فى القراءة وما يرضى كبرياءه الحضارى ومن هنا نجحت الرواية هناك. وتتبين الرؤية الغربية فيها فيما يلى :

- تتزوج الفتاة المصرية من شاب مصرى كانت على علاقة به منذ سنوات طويلة. وبعد الزواج منه تكتشف أنه لا يستطيع إتمام الزواج لأنه عاجز جنسيًا وبذلك لا يلبي ما كانت تتمناه من حياتها معه.

- تتعرف على شاب أمريكى وتدخل فى علاقة حميمة معه ويحقق لها ما لم تجده في زوجها المصرى. تتم العلاقة وهى مازالت فى عصمة زوجها وفى بيته. لا تشعر هى بالذنب إلا قليلا بل تشعر أنها نجحت مع الأمريكى فيما فشلت فيه مع زوجها المصرى وتتفاخر بذلك.

- لا تذكر اسم الله ولا مرة واحدة فى حياتها أثناء أحداث الرواية رغم أن هذه الكلمة كثيرة التردد فى كلامنا العادى اليومى. أما الصلاة فكأنها لا تعرفها .

- تفرط فى وصف مشاهد جنسية عديدة بالتفصيل الممل مما لا يتناسب مع نشأتها ولا الوسط الاجتماعى الذى نشأت فيه . ثم إن هذه طريقة يتبعها الكتاب الغربيون ليحركوا مشاعر القارئ لديهم إذ أصبحت حياة هذا القارئ الغربى عموما عقلانية إلى درجة كبيرة ومحكومة بقيم مادية إلى حد كبير .

- ثم إن الكاتبة تؤيد الرؤية الغربية التى ترى أنهم أحسن منا وأقوى وأذكى والوحيدون الذين يعرفون معنى التقدم وقيمته إذ تنبهر البطلة فى الرواية بما تراه هناك وتشعر بالملل والضيق وخيبة الأمل بما تراه لدينا فى مصر.

- كلما عادت فى زيارة من إنجلترا إلى مصر سعدت بلقاء أفراد عائلتها وصديقاتها ولكنها تلاحظ أن حياتهم راكدة لا تتقدم وكأنهم يدورون فى حلقة مفرغة وكأن ليس هناك أمل فى أن تحرز مصر أى تقدم فليس بالرواية ما يوحى بذلك .

- تترك وظيفتها بالجامعة فى مصر وتستريح لذلك لأنها ترى أن هذه الوظيفة لا تقدم لها أى جديد وأن الجامعة المصرية لا مستقبل لها، ثم أنها تغادر مصر كلها حيث ترى أنها لن تعيش حياة ذات قيمة إلا فى الغرب ، وهى بذلك تنقطع عن جذورها .

هذا – باختصار شديد – ما تقدمه رواية «فى عين الشمس» لأهداف سويف التى أحرزت نجاحا كبيرا فى البلاد الغربية، ويرجع نجاحها أساسًا إلى أن مؤلفتها مصرية الأصل والنشأة ولكنها مصرية اقتنعت بهم وبآرائهم وأفكارهم وحياتهم وهى صريحة فى موقفها منا وفى الرؤية التى تقدمها فى جميع أعمالها وهى الرؤية الغربية .

وما نفهمه من هذا أن الرؤية التى يتخذها المرء ويحكم بها على الأمور ليست مرتبطة بالنشأة ولا بالتربية فكثيرًا ما تغير الناس مواقفها تماما عندما تقتنع بوجهة نظر جديدة ويكون هذا التغيير صريحا وواضحا وجذريا . يجب علينا إذن أن نتساءل دائما عما يعجبنا فى رواية نقرؤها وأن نبين رأينا قبل أن نحكم عليها لأن الروايات – كما قلنا – ليست مجرد قصص نقرؤها بغرض التسلية بل الروايات فى جوهرها أعمال سياسية من الدرجة الأولى سواء فى شكلها الفنى أو فى مضمونها ومن هنا فهى تقدم رؤية «حضارية» أو «ثقافية» .

صورة مقبولة لمصر وللإسلام

إن كل ما عرضته حتى الآن هو نماذج من الأدب الغربي – الإنجليزي بالتحديد – تظهر كيف أن موقف الغربيين منا هو موقف استعلاء واستكبار اكتسبوه من قراءاتهم الكثيرة التي علمتهم ذلك ووجهتهم إليه. وأصبحت فكرة أنهم الأعظم والأذكى والأقوى جزءًا من تكوينهم الشخصي وأصبحوا يؤلفون ويتصرفون حسبها ثم يحاولون إقناعنا بذلك متجنبين تماما وجود تعدد ثقافات وأن كلا منها جديرة بالاحترام . وبما أن الغربيين كثيرو القراءة انتشرت هذه الفكرة أو هذا الموقف وأصبح يحكم الرأى العام لديهم إذ أصبح أمرًا واقعًا لا يرون أن يعيدوا فيه النظر، ويرجع ذلك إلى أن هذا الموقف يوطد موقفهم الحضارى ويجعل منهم السادة الذين يتصرفون فى أمور العالم ويسيطرون على مراكز القوة فيه. ومن هنا انتشرت هناك كتب مثل مؤلفات هانتنجتون وفوكوياما (انظر كتاب «الغرب والإسلام» ص ٢١١ – ٢١٨) التى فى الحقيقة عنصرية لأبعد الحدود ولا تعرض إلا أفكارًا سطحية للغاية ، والدليل على ذلك المراجع التى تستند عليها هذه المؤلفات فليس فى مراجعهم كتاب واحد قيّم ، واعتمادهم عموما فى أقوالهم عنا وعن حضارتنا وعن الإسلام على مقالات فى صحف وأقوال فى أحاديث إذاعية. أما تعميماتهم وتصريحاتهم واستنتاجاتهم فتضرنا ضررًا بالغًا إذ أن كلها تعبر عن

صراع بين الحضارات ولا تأخذ فكرة الحوار والتفاهم فى الاعتبار أبدًا . والمؤلفات المذكورة بين يدى واحكم عليها من الواقع الذى أمامى .

والسؤال الذى يفرض نفسه علينا الآن هو: **ألا نجد كاتبًا واحدًا في الغرب صورنا بطريقة مرضية ؟**

والإجابة هى أننى عثرت عن طريق المصادفة على مثل هذا الكاتب ولكنه ليس بكاتب روائى ولا شاعر ولا كاتب مسرحى بل إنه رجل إنجليزى عادى اسمه جوزيف ماك فيرسون (١٨٦٦ - ١٩٤٦) عاش بيننا فى مصر ما بين ١٩٠١ و ١٩٤٦). وخلال إقامته بمصر كتب العديد من الرسائل إلى أفراد أسرته فى إنجلترا يعرفهم فيها على مصر والمصريين، ثم نشرت مختارات من هذه الكتابات فى عام ١٩٨٣ تحت عنوان «حياة فى مصر» وهو كتاب جميل جدًا يتكون من ٣٠٠ صفحة، ونقرأ في المقدمة أنه لو نشرت الرسائل هذه بأكملها لكونت تقريبا ٢٦ مجلدا .

ورغم جمال هذا الكتاب وقيمته - فإنه يقدم مصر والمصريين بطريقة محايدة إلى حد بعيد ، وهذا في حد ذاته شيء جديد غير مألوف، والملاحظ أن الأنوار لم تسلط عليه بقدر كاف ويرجع ذلك إلى أن مؤلفه غير معروف . ثم أن مثل هذا الكتاب لا يخضع للرؤية الغربية العامة المألوفة ، وعلى هذا الأساس لا يخدم المصالح السياسية الغربية وهو لذلك - على ما أظن - غير مستحب .

وإلى جانب هذه الخطابات كتب ماك فيرسون كتابا وصف فيه موالد مصر ، نشره على نفقته الخاصة عام ١٩٣٧ ، وفرحت عندما وجدته ترجم إلى العربية عام ١٩٩٧ وصدرت الترجمة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب .

إن جوزيف ماك فيرسون من هؤلاء الإنجليز الذين بعثوا إلى مصر من قبل الحكومة الإنجليزية أثناء احتلالها لنا بهدف التدريس في مدارسنا . وكانت حكومة إنجلترا - كما هو معروف - ترسل هؤلاء الشبان الإنجليز لكى يعملوا إما في مجال التدريس وإما في إدارات الوزارات الحكومية المختلفة . كانت هذه من ضمن الطرق التى كانت تسيطر بريطانيا بها على بلادنا سيطرة ثقافية .

الكثيرون من الأجيال السابقة ومنهم جيل أبى الدكتور حسين مؤنس والجيل الذى تبعه لم يدرس لهم اللغة الإنجليزية إلا إنجليز جاءوا رأسًا من إنجلترا للقيام بهذه المهمة. وسمعت أن هؤلاء المدرسين الإنجليز كانوا يعملون في شتى أنحاء بلادنا . وأعرف مصريين لا يزالون يتذكرون مدرسيهم الإنجليز الذين كانوا يدرسون لهم فى أماكن بعيدة عن العاصمة مثل قنا وإدفو ثم الأقصر وأسوان . ويحكون أن هؤلاء الإنجليز كانوا يندمجون فى حياة المصريين وأنه نشأت صداقات حميمة بينهم تركت ذكريات لا ينسوها . ويحكون أنه مهما تعمقت هذه الصداقات فكان نفس هذا الرجل الإنجليزى يقوم بواجبه خلال التدريس بجدية «إنجليزية» حتى يحقق الغرض

الذى أتى لمصر من أجله . فكان يعتبر أن تدريس اللغة الإنجليزية – أو التدريس بالإنجليزية عمومًا – عملاً وطنيًا ينشر من خلاله حضارة وثقافة بلده .

ونشأت بين هؤلاء الرجال الإنجليز وبين أفراد من الشعب المصرى علاقات إنسانية ولدت صداقات حقيقية مازال بيننا من يتذكر أمثالها. وما أريد أن أقوله هنا أنه من الممكن أن تنشأ علاقات سوية بين مصريين وغربيين إذا تعاملوا على المستوى الإنسانى تاركين جانبًا السياسات العليا والمصالح المادية والعقائد الدينية التى كثيرًا ما تفصل بين أبناء الشعوب المختلفة .

كان جوزيف ماك فيرسون من ضمن هؤلاء الإنجليز الذين أتوا إلى مصر للعمل فى الإدارة الإنجليزية هنا. وعمل فى المدرسة الخديوية الثانوية بالقاهرة، ثم جند فى الجيش الإنجليزى ، ثم عمل فى المخابرات الإنجليزية ، وبعد عمر طويل فضل أن يكمل حياته فى مصر بعد أن أحيل على المعاش فى ١٩٢٥ حيث مات ودفن فى مصر فى ١٩٤٦.

كان ماك فيرسون طيلة إقامته بيننا يقوم بإرسال خطابات عديدة لأفراد أسرته فى إنجلترا يصف لهم فيها حياته فى مصر التى اعتبرها دائما بلدا مختلفا عن إنجلترا وهو فى رأيه بلد يقدم ما هو جميل ومثير للاهتمام وجدير بالاحترام رغم اختلافه كل الاختلاف عن بلده إنجلترا .

وقبل أن نبدأ بعرض بعض هذه الخطابات أحب أن أضيف أن ماك فيرسون لم يغير من عاداته الإنجليزية التي كان قد نشأ عليها، ثم إنه لم يعتنق الدين الإسلامي إذ مكث مسيحيا كاثوليكيا خلال الفترة الطويلة التي أمضاها بيننا أي بين ١٩٠١ و ١٩٤٦.

وبخصوص خطاباته فهي صريحة إلى أبعد حد إذ لم يكن يفكر أبدًا في نشرها. أما عن أسلوب هذه الرسائل فالكثير منها كتبت بأسلوب يجعل منها قطعًا فنية في حد ذاتها.

ونعرض هنا، باختصار شديد، بعض الأفكار التي يتناولها كتاب «حياة في مصر» (١٩٨٣):

– من ناحية وصف المناظر الطبيعية في مصر فهو وصف دقيق يوضح جمال الطبيعة المصرية في حد ذاتها، وليس هناك أي محاولة لمقارنتها بالطبيعة الإنجليزية ولا المفاضلة بينهما. فهناك وصف للمناظر الطبيعية وللأماكن التاريخية ولحياة المصريين في المدينة وفي الريف، ونشعر في كل هذا احترامًا شديدًا ثم حبًا حقيقيًا لما يصفه من عادات شعبية وسلوك وتصرف مختلف عما عرفه هو ولكنه جدير بالاحترام في رأيه.

– إنه يعامل المصريين معاملة الند للند ويصاحبهم داخل بيوتهم وأماكن عملهم وفي عاداتهم العائلية والدينية. ونفهم أنه أحبهم حقيقة وأنهم كانوا يثقون فيه .

– أما عن الشخصيات المصرية التى كان يقابلها بيننا فكان يحترم الكبير منا والصغير فلم يفرق بين الناس بحسب طبقاتهم الاجتماعية ، بل كانت تهمه العلاقة الإنسانية فى حد ذاتها، وفى هذا كان يختلف كثيرا عن باقي الغربيين الذين عرضنا كتاباتهم هنا. فقد كان – على سبيل المثال – يصاحب زملاءه المدرسين المصريين ، ويتبادل معهم الزيارات، وكانت له علاقات إنسانية بمن خدموه من المصريين ويصفهم فى خطاباته على المستوى الإنسانى وينسى أنهم مستخدمون لديه فيراعى طباعهم وأفكارهم وظروفهم ولا يسخر منهم كما يفعل باقي الكتاب الغربيين .

– ثم أن التلاميذ المصريين الذين درس لهم كانوا يفتقدونه عند غيابه عنهم وكان على عكس مدرسين إنجليز آخرين درسوا فى مصر، لا يقلل من قيمة التلميذ المصرى عند مقارنته بالتلميذ الإنجليزى .

– وكان ماك فيرسون يحترم المصريين حتى فى آرائه السياسية. فكان على سبيل المثال يعتبر أنه لم يأن الأوان لكى يحكم المصريون بلدهم لأن خبرتهم فى السياسة لم تكن كافية. ولكن لو كان هذا رأيه وهو رأى عنصرى، فالواضح فى كتاباته فى هذا الموضوع أنه كان يتكلم من منطلق الخوف عليهم من تجربة الحكم الذاتى لا من موقف استعلاء . ثم إنه لم يكن يحب السياسة، ويدلى بذلك صراحة ويفضل أن يتجنب الكلام فيها .

– ثم إنه كان يحترم الزعيم القومى سعد زغلول وفى كثير من خطاباته كان ينتقد الإنجليز وسياستهم ورجالاتهم ومعاملتهم للمصريين .

أما بالنسبة للدين الإسلامى فكان يرى أنه غريب عنه، ولكنه لم يقلل من شأنه لهذا السبب فاعتبره جديرا بالاحترام لا يقل عن الدين المسيحى من ناحية قيمته العقائدية ومبادئه . وفى كثير من خطاباته يحاول أن يشرح لأفراد عائلته الإنجليزية ما فهمه من مبادئ الدين الإسلامى ويقدمه لهم على أنه يختلف عن دينهم المسيحى ولكنه لم يقلل فى قيمته العقائدية. ثم إنه لم يربط بينه وبين أفكار العدوانية والقسوة والهمجية والجريمة كما فعل غيره من الإنجليز .

هكذا استطاع ماك فيرسون أن يقدم صورة محايدة إلى حد كبير لمصر وناسها وتقاليدها ودينهم. وهى صورة مقبولة تصورنا على أننا ننتمى لثقافة وحضارة مختلفة عن حضارة الغرب وثقافته ولكنها حضارة لها خصائصها التى تلائم الطباع العامة لتابعيها. ونجح هذا الإنجليزى فى أن يحقق نوعا من الحوار بين الحضارتين وهو شىء لم نجده فى معظم الأعمال الفنية التى عرضناها هنا. والسبب فى ذلك يرجع أساسا إلى أن ماك فيرسون حكم على الحضارتين، أى الغربية والشرقية، من منظور إنسانى إلى حد كبير .

....

ويحضرنى كتاب صدر مؤخرا عن الهيئة المصرية العامة للكتاب يعالج موضوعات فى مجال الأدب المقارن وهو مجال يثرى موضوع الحوار بين الحضارات وهو كتاب للمرحوم فخرى أبو السعود، ونشر تحت عنوان «**الأدب المقارن ومقالات أخرى**» (١٩٩٧).

وقد يكون فخرى أبو السعود أول مصرى قارن بين الأدبين الإنجليزى والعربى على أساس الجماليات بدون أن ينحاز لأدب كل منهما ضد الآخر.

والكتاب عبارة عن مجموعة مقالات نشرت فى أواخر الثلاثينات من هذا القرن فى مجلتى «الثقافة» و «الهلال» تظهر كيف أنه ليس هناك فارق حقيقى بين الشعوب المختلفة فيما يخص إنتاجهما الأدبى أى أن الشعبين الإنجليزى والعربى يتساويان على الصعيد الإنسانى. نفهم إذن أن المواقف العنصرية مواقف مصطنعة وليس لها أساس ثابت.

قدم هذا الكتاب النادر فى مقدمة مطولة قيمة فى حد ذاتها الدكتور محمود على مكى أستاذ الأدب الأندلسى بكلية الآداب جامعة القاهرة وقامت الباحثة المجتهدة جيهان عرفة بإعداد المقالات للنشر.

قبل أن أختم

إن معظم ما قدمته هنا من صور لمصر والمصريين ودين الإسلام لابد أن يثير فينا الحزن وربما الغضب فنظهر فى معظمــها شعبا وثقافـة ودينا بطريقة غير مشرفة وغير مطابقة للواقع . والاستثناء الوحيد هى رسائل ماك فيرسون وهى رسائل شخصية لم تكتب بغرض النشر ثم إنها رغم أهميتها لم تحظ بدعاية كافية حتى يتعرف عليها الجميع الذين يهمهم مثل هذا الموضوع. إلى جانب هذا فنحن صورنا ومازلنــا نصور بنفس الطريقة السلبية غير المرضية منذ قديـم الزمـن إلى يومنـا هذا. ولا تظهر صورتنا السيئة هذه فى الآداب الغربيـة فحسب بـل تظهر أيضا فى المراجع التاريخيـة والفلسفية والاجتماعيـة، وتنتشـر أيضا عبر وسائل الإعلام المختلفة. وسوف تظل هذه الصورة موجـودة ومنتشرة حتى نقوم نحن بتصحيحها عن طريق كافة الطـرق المتاحـة لنـا مثـل الإكثـار مـن الدراسـات المقارنـة والتحقيـق العلمـى لكتــب الـتراث، والترجمـة الوافيـة للكتـب المهمـة علـى المستوى الــدولى، والمشاركة الفعلية فى المؤتمرات، وإقامة مؤتمرات تفيد وتقوى موقفنا الحضارى حتى نوضح أننا – على الرغم من اختلافنا عــن الغربيـين وغيرهم – فهذا الاختلاف لا ينفى قيمتنا تاريخيا وحضاريا وثقافيا.

إن هذا يحدث حاليا فى مصر بالفعل ويكفى أن ننظر إلى ما يقدمه المعرض الدولى للكتاب من ندوات ولقاءات سنوية، وكذلــك المجلس

الأعلى للثقافة، وجامعاتنا كلها، والجمعيات الثقافية مثل اتحاد الكتاب ونادى القصة وجمعيات أخرى، وكذلك مشروع مكتبة الأسرة العظيم للسيدة الفاضلة سوزان مبارك الذى يشجع على القراءة ويحبب الناس فيها. لابد أن يستمر ذلك كله لأنها مجهودات تجد قبولاً شديدًا من المثقفين وتؤخذ عمومًا مأخذ الجد مما يدل على أن الاهتمام والانتماء الوطني موجود رغم ما يقال عن أنه عكس ذلك.

المهم أن يسلط على هذه المجهودات مزيد من الأضواء وأن تجد صدى أقوى في وسائل الإعلام.

والسؤال هنا. هو: كيف ننتظر أن يغير الغرب رأيه عنا مادمنا نحن لا نبالى بالقدر الكافي لما يقال ويكتب عنا هناك؟

إن «صراع» الحضارات لن يتحول أبدا إلى «حوار» إلا لو تحركنا بخطوات إيجابية حتى نلتقى مع الغربيين أو غيرهم لقاء الأنداد لأن الاختلافات بيننا وبينهم كثيرة جدا ومرتبطة بجذورنا وتاريخنا وديننا وتقاليدنا، وأذكر بعض الأمثلة لكي يفهم ما أقصده:

- إننى عندما أتلقى دعوة على غداء أو عشاء عند ناس غربيين لابد أن آكل شيئا قبل ذهابى لأننى أعرف مقدمًا أن ما سيقدمونه لى لا يكفينى لكى أشبع. أما لو تلقيت دعوة لنفس الغرض من ناس مصريين فعلى أن أذهب صائمة تقريبا لأننى أعرف أن ما سيقدمونه سيكون كثيرا وأنه يجب أن أتناول منه الكثير حتى أرضى كرمهم وتقديرهم لى.

والسؤال هنا هو: هل يدل المثال الأول على بخل والثانى على إسراف؟ لا أظن فكلاهما يدل على طباع معينة وتقاليد موروثة ومفاهيم حضارية مختلفة لا أكثر ولا أقل .

- إننا كلنا تتبعنا على شاشة «التليفزيون» مراسم تشييع الأميرة ديانا. هل نتذكر دقة التوقيت التى تتبعتها هذه المراسم؟ إن كل شىء تم فيها حسب توقيت محدد رتب من قبل. ولابد أن المنظر المنتظم ووضوح ونظافة المشهد أثار فينا جميعا الإعجاب والاحترام لأن الإنجليز ظهروا أمامنا فى أحسن صورة. ثم كمية الورود التى وضعها أفراد الشعب الإنجليزى على الأرصفة هناك كان شيئا مذهلاً ومدهشًا فعبروا بذلك عن شيئين: أولهما عن حزنهم على موت الأميرة، وثانيهما على احتجاجهم على موقف الأسرة المالكة الإنجليزية من الأميرة وحياتها وموتها. ثم فهمت الأسرة المالكة «الاحتجاج الصامت» هذا واستجابت إليه. إذن هم يعبرون عن مشاعرهم فى صمت وبأفعال هادئة .

ماذا يحدث عندنا عندما تشيّع جنازة شخص معروف؟ إننا فى الغالب لا نسيطر على عواطفنا بل نعبر عنها بالكلام وبالبكاء وغالبا ما ينسينا هذا النظام المتفق عليه مسبقا. وهنا نقول أيضا أن الاختلاف السلوكى يدل على اختلاف حضارى ولكن البديلين مقبولان رغم اختلافهما .

هل نذكر ما يصاحب مناسبات عقد الزواج فى الغرب ونفس الاحتفال عندنا؟ ومناسبات الولادة ؟

إنهم هناك فى البلاد الغربية، كما شاهدنا ذلك مرارًا فى الأفلام أو على الطبيعة، يحتفلون بهدوء، أما نحن فغالبًا ما تكون احتفالاتنا مصاحبة بضجيج تفقد احتفالاتنا قيمتها بدونه. وكل هذه المظاهر لا تدل إلا على اختلاف حضارى.

هل يعنى هذا أننا أقل من غيرنا؟ لا أظن فهنا أيضا نجد أن اختلاف السلوكيات مرتبط بالخلفية الحضارية والثقافية وأشياء أخرى كثيرة. لابد أن يقتنع إذن الغرباء عنا أننا مختلفون ولكن ما نقدمه ليس إلا بديلا له قيمة حضارية لا تقل عن غيرها.

هل آن الأوان أن نبدأ ذلك الحوار بين الحضارات ؟ أو علينا أن ننتظر حتى يقتنع الغربيون بأن فى هذا مصلحة لنا جميعا ثم يستجيبون ؟ كل ما نرجوه أن يحدث ذلك قبل فوات الأوان .

والله ولى التوفيق ..

المراجع

روايات قدمت دراستها وعرضها وبعض المؤلفات الأخرى التى أشير إليها لأهميتها.

مراجع إنجليزية:

- Ahmed, Laila: Edward Lane. London: Longman, 1978.
- Bernal, Martin: Black Athena . London: Free Association Books, 1991.
- Durrell, Lawrence: The Alexandria Quartet. London: Faber, 1962.
- Huntington, Samuel: The Clash of Civilizations. New York: Simon and Schuster, 1996.
- Lane, Edward: The Manners and Customs of the Modern Egyptians (1836). London: Dent, 1923.
- Lively, Penelope: Moontiger (1987). London: Penguin Books, 1988.
- Mac Pherson, Joseph: A Life in Egypt. London: B.B.C., 1983.

- Manning, Olivia: The Levant Trilogy. London: Penguin Books, 1982.
- Newby, P.H.: The Picnic at Sakkara . New York: Knopf, 1955.
- Saad el-Din, M. and John Cromer: Under Spell. London: Bellew, 1991.
- Said, Edward: Orintalism (1978). New York: Vintage Books, 1979.
- ----------------: Covering Islam (1981). London: Routledge, 1983.
- Souif, Ahdaf: In the Eye of the Sun. London: Bloomsbury, 1992.

مراجع عربية :

- أبو السعود، فخرى: **في الأدب المقارن ومقالات أخرى** . إعداد جيهان عرفة. تقديم : د. محمود علي مكي. سلسلة الألف كتاب الثاني رقم ٢٧٨. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧.

- البنا، رجب: **الغرب والإسلام** . القاهرة :دار المعارف ١٩٩٧.

- برنال، مارتين : **أثينا السوداء** . ترجمة : لطفى عبد الوهاب، فاروق القاضى ، حسين الشيخ، منير كروان، عبد الوهاب علوب . إشراف أحمد عتمان . القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٧.

- داريل، لورينس: **رباعية الإسكندرية** (١٩٦٢) وتشمل:

- جوستين . ترجمة : فخرى لبيب. القاهرة: دار المعارف ١٩٦٩ ودار سعاد الصباح ١٩٩٤. **بالتازار، ماوتتوليف، كليا** . ترجمة : فخرى لبيب. دار سعاد الصباح ١٩٩٤ .

- زقزوق ، محمود حمدى: **الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى** . القاهرة دار المعارف ١٩٩٧ .

- سعيد، إدوارد : **الاستشراق**. ترجمة كمال أبو ديب . بيروت مؤسسة الأبحاث العربية ، ١٩٨١.

- لين، إدوارد : **المصريون يتحدثون تقاليدهم وعاداتهم فى القرن التاسع عشر** ترجمة : عدلى طاهر نور. القاهرة : مطبعة الرسالة ١٩٥٠.

- مؤنس ، حسين: دراسات فى ثورة ١٩١٩ . سلسلة اقرأ رقم ٤١٨. القاهرة: دار المعارف ، ١٩٧٦ .
- مؤنس ، حسين: مصر ورسالتها (١٩٥٥) القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩ .
- ماك فيرسون، جوزيف: الموالد فى مصر (١٩٣٧) ترجمة وتحقيق : د. عبد الوهاب بكر سلسلة الألف كتاب الثانى . القاهرة:الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨ .
- هنتنجتون ، صامويل: صدام الحضارات - إعادة صنع النظام العالمى (١٩٩٦) ترجمة : طلعت الشايب . تقديم: د. صلاح قنصوة . القاهرة : سطور ، ١٩٩٨.

المحتويات

العدد القادم

العرب وأسرار الحرب الخفية

د . محمد زكى عويس

رقم الإيداع	١٩٩٨/١١٤٦١
الترقيم الدولى 977-02-5616-1	ISBN

١/٩٨/٣٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

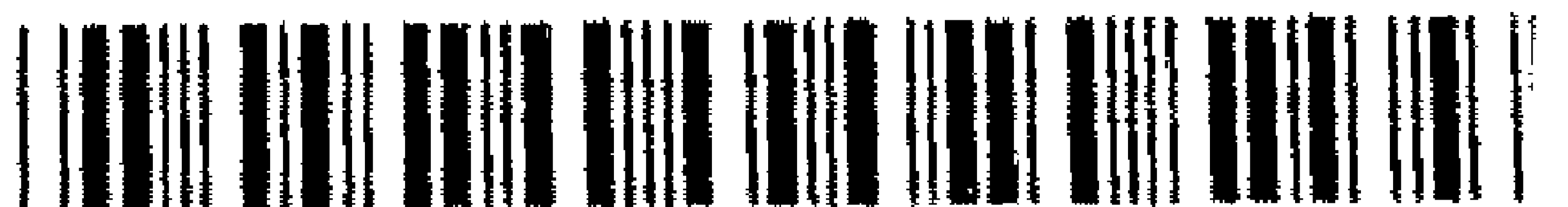
يتنـاول هـذا الكتـاب صـورة مصـر والمصريين والإسلام فـى الأدب الغربـى ولدى الـرأى العام ، حيث يتخذون منا هناك موقفًا عاما سلبيًّا ليس فى الأدب فقط ، وإنما فى جميع الميادين السياسية والاقتصادية والفلسفية والتاريخية بـل والإعلامية أيضا . إنهم يصوروننا على أننا الأضعف والأقل قيمة حضاريًا وفكريًـا وسلوكيًّا . وهذا موقف عنصرى بعيـد كـل البعد عن الواقع الذى نعيشه .

قضية خطيرة ، تُحرك بـها (اقـرأ) المياه الراكدة .



دار المعارف

٤٠٦٩٢٥/٠١

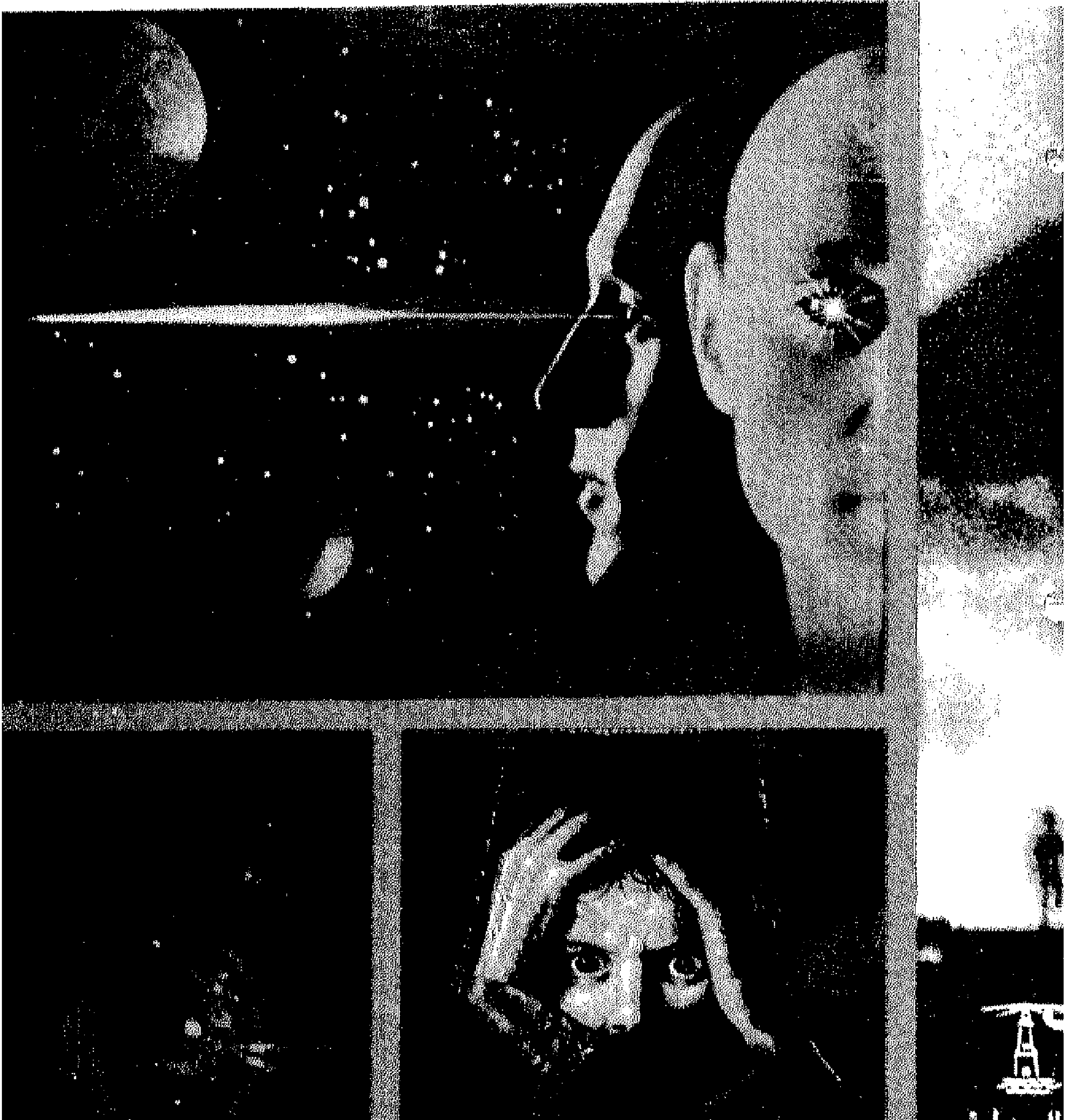


اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

دكتور محمد زكي عويس

العرب.. وأسرار الحرب الخفية



اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

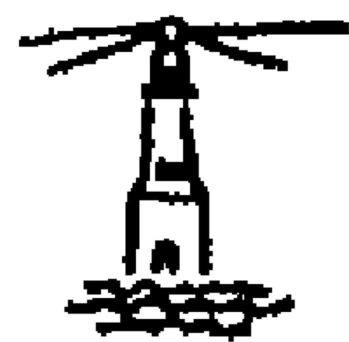
[٦٣٥]

رئيس التحرير: رجب البنا

تصميم الغلاف : شريفة أبو سيف

دكتور محمد زكى عويس

العرب.. وأسرار الحرب الخفية



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شيء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هي ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التي نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

مقدمــة

من الملاحظ أن الحياة العلمية المعاصرة ومنجزاتها وأحلامها تفوق حد الخيال، ولاشك أن مستقبل الثورة العلميـة سوف يكشـف عـن سلسلة متوالية لا تنتهى من الأحداث العجيبـة والاكتشـافات المثيرة التى ستختزل كثيراً من عامل الزمن، وتضـع البشـرية علـى أعتـاب مرحلة لا مكان فيها لمن لا يتمتع بقدر غير محدود من العلم والمعرفة.

ولكن يبدو أن أهم وأبرز العقبات التى تحول دون تحقيـق الثـورة العلمية العربية «المرتقبة»، هـو الطـابع الاحتكـارى لعمليـة الإنتـاج العلمى والتكنولوجى على مسـتوى العـالم، فمـن يملـك زمـام الـثروة العلمية يتحكم فى مسار الثورة العلميـة ويوجهـها إلى حيـث يريـد، وبينمـا يطمـح التقـدم العلمـى والتكنولوجـى إلى مزيـد مـن الاعتمـاد المتبادل بين دول العالم، تسعى الدول المهيمنة علـى النظـام العـالمى الجديد إلى إفراغه من محتواه لدفعه إلى مزيد من تبعية دول الجنوب النامى لدول الشمال المتقدم، حتى غدت كل محاولات التقارب لرأب الصدع التكنولوجى مجرد الوعود، وفى أقصاها بلغت حد المعونة من مخلفات التكنولوجيا التى عفا عليها الزمن، وهذا يساهم فـى زيـادة هامشية الدول النامية بصفة عامة وكـرس دورهـا «كتوابـع» لخدمـة أغراض السوق العالمية.

إن خيارات التقدم العلمى والتكنولوجى أمام الدول العربيـة مـهما كانت محدودة، فإنها ممكنة وفق المعايير الموضوعية، شـرط القناعـة

التامة والأخذ بزمام المبادرة نحـو صياغـة أهدافنـا القوميـة وتحديـد اختياراتنا المستقبلية التى يكون محورها رقى وتقدم المواطن العربـى، بحيث تجتهد استراتيجية تنموية موضوعية تضع فى اعتبارها تعظيم الاستفادة من مختلف العناصر الإيجابية المتاحة فى الواقـع المصرى والعربـى ومـن أبـرز هـذه العنـاصر توافـر أعـداد كبـيرة مـن العلمـاء المتخصصين وعدد غير قليل من المؤسسات العلمية والتكنولوجية التى تسعى جاهدة من جانبها إلى الفكاك من هامشـية دورهـا فـى تنميـة المجتمع، ويجب أن تحتـل هـذه الأولويـات مكانتـها اللائقـة بـين أولويات السياسة والاقتصاد. وفى مقدمة ذلك كلـه يشـترط الانفتـاح التام على الثورة العلميـة والتكنولوجيـة المعـاصرة لانتخـاب واختيـار ما يناسب احتياجات بلادنا وأولوياتها.

فى فصول هذا الكتاب نستعرض بعضا من أسرار الحرب الخفيـة العلمية والتكنولوجية التى تواجه أمتنا العربيـة وهـى بـالطبع تمـس قضايا الأمن العلمى العربى خاصة ونحن على أعتاب القرن الحـادى والعشرين وما ينتظرنا من تحديات مستقبلية جسيمة.

فرغم أن الحديث عن أسلحة الدمار الشامل النوويـة والكيميائيـة والجرثومية مرتبط دائماً بعبـارات مرعبـة تتلخـص بالإبـادة الشـاملة والمذابح الهائلة، خاصة ونحـن نواجـه فـى منطقتنـا القريبـة إنفـراد «إسرائيل» بإمتلاك الأسلحة النووية، إلا أننا نواجه الآن نوعاً آخـر من الأسلحة تسـمى «الأسـلحة الجيوفيزيقيـة» التـى تسـتطيع بـها

الدول العظمى تحقيق أهدافها بالقوة عن طريق التحكم في الظواهر الطبيعية للأرض، وإعلان الحرب الخفية على بعض الشعوب. هذا الموضوع، وقضية قدرتنا العربية النووية، وكيفية تنميتها سوف نتناوله بالتفصيل في الباب الأول.

وفى الباب الثانى نستعرض أهم قضايا التنمية التكنولوجية فى مصر والعالم العربى، ومن أهم هذه القضايا، تكنولوجيا الإلكترونيات الدقيقة، وأزمة التصنيع العربى، والليزر ومفهوم التكنولوجيا الملائمة فى مصر. ونتناول فى الباب الثالث بعضًا من قضايا العلم والتعليم فى العالم العربى ومن أهم هذه القضايا مايلى:

- الثقافة العلمية فى العالم العربى.. لماذا؟
- جامعاتنا وقضايا العلم والتعليم والبحث العلمى.
- معايير القبول في الجامعات العربية فى ظل عالم متغير.

أما الباب الرابع والأخير، فيتضمن بعض الاجتهادات ونطرح به موضوعين للمناقشة والحوار، الموضوع الأول هو النظرية الفيزيائية الموحدة، ونشأة الكون، والموضوع الثانى هو المجلس العربى للمستقبل.. والتحدى الحضارى.

وخلاصة القول هو أننا بإذن الله تعالى سنعبر جميعاً العتبة الزمنية للقرن الحادى والعشرين، لكن الأهم هو أن نعبر العتبة التكنولوجية. فملامح القرن القادم سبق ظهورها منذ عقود ومنها مفهوم القرية

العالمية والعولمة «الكوكبية»، ومشروعات الفضاء وتكنولوجيا الليزر وتطبيقاتها وتكنولوجيا الهندسة الوراثية والفيزياء الحيوية، وتطبيقات الطرق السريعة للمعلومات، وعصر الأنترنت، وهذه الملامح تبدو جميلة ومخيفة فى آن، فهى تبرز قوة من يملك التكنولوجيا العصرية وضعف من لا يحوزها.

من هنا كانت دعوتنا دائما لمجابهة الواقع العربى عن طريق تنمية قدراتنا الذاتية بموضوعية وبسلاح العارف المتخصص الطموح بمستقبل مشرق، هذا هو الأمل المراد للحاق بالثورة العلمية والتكنولوجية.

وأخيراً، أنوه أن بعضًا من الموضوعات التى تناولها الكتاب قد طرحت للمناقشة والنشر فى الصحف القومية والمجلات العلمية العربية المتخصصة مثل جريدة الأهرام المصرية، ومجلة أكتوبر التى تصدر عن دار المعارف، ومجلة العلوم والتكنولوجيا التى تصدر عن معهد الكويت للأبحاث العلمية، وكذلك مجلة سطور العربية الثقافية وإننى أتقدم بالشكر والتقدير لكل من ساهم فى نشر هذه الموضوعات وطرحها فى دائرة الحوار والمناقشة. وأخص بالذكر الأستاذ رجب البنا رئيس مجلس إدارة مؤسسة دار المعارف لفتح أبواب سلسلة «اقرأ» للمساهمات الجادة فى مجال الثقافة العلمية.

د. محمد زكى عويس

الباب الأول

القدرات العربية النووية
وأسرار الحرب الخفية

١ - أسرار الحرب الخفية وأمن الأرض .

٢ - «فينتو» القدرات النووية العربية.. وكيفية تنميتها .

٣ - اليورانيوم للبيع .. يا ناس يا هوه !

- ١ -

أسرار الحرب الخفية وأمن الأرض

من بين الوسائل العسكرية لتحقيق بعض الأهداف القومية بـالقوة هي وسيلة استغلال قدرة الإنسان على التحكم بـالظواهر الطبيعيـة للأرض لمعالجتها والتلاعب فيها. فإذا تجسدت هذه القـدرة فسـوف تتيح قوة جديدة يمارسها الإنسان على البيئة المحيطة به. هذه القوة تكون قادرة على إحداث تدميرات هائلة وعمياء، بالرغم أن الحديث عن أسلحة الدمار الشـامل النوويـة والكيميائيـة والبيولوجيـة مرتبـط دائما بعبارات مرعبة تتلخص بالإبادة الشاملة والمذابح الهائلة خاصة ونحن نواجه الآن تنوعا مذهلا فـي تقنيـات التدمـير فعالـة كفعاليـة الأسلحة النووية أو ربما كانت أكثر فعاليـة منـها. إلا أن العـالم الآن يواجـه نوعـاً أخـر مـن الأسـلحة تسـمى «الأسـلحة الجيوفيزيقيـة» تستطيع بها القوى العظمى تحقيق أهدافها القومية بالقوة عن طريـق التحكم في الظواهر الطبيعية للأرض وإعـلان الحـرب الخفيـة علـى بعـض الشـعوب. فمـن الممكـن فـي هـذا العـالم أن يحـرم اسـتخدام الأسـلحة النوويـة بحكـم القـانون، عندئـذٍ، تصبـح أسـلحة التدمـير الكثيف هـي أسـلحة تقويـض الطبيعـة. فبعـد تفكيـك دول الاتحـاد السوفيتي في السنوات الماضية ونجـاح اتفاقيـات الحـد مـن انتشـار الأسلحة النووية نرى عالمنا مستقراً بحكم التكافؤ النووى بين الدول. إلا أن التسـارع يـدور الآن فـي الخفـاء بـين الـدول المتقدمـة لتطويـر

تكنولوجيا حديثة قادرة على تعديـل الأرض ذاتـها. مـن هنـا يمكـن القول أن تطوير الأسلحة الجيوفيزيقية أصبح موضع اهتمام لقطاعات التسليح فى جميع الدول خاصة الدول المتقدمة.

فطرق خوض الحرب الجيوفيزيقية متعددة وأساليبها متنوعة مـن أهمها القدرة على تغيير الطقس والبيئة والتيـارات المحيطيـة وأيضـا التفكـير فـى نقـل الـرءوس القطبيـة لـلأرض بغـرض توزيـع المنـاطق المناخية أو تغيير ميلان محور الأرض مع مستوى الشمس - الأرض. ويتم الآن وضع الدراسات الاستراتيجية عـن إمكانيـة تغيـير الحـزام الاستوائى للأرض بواسطة انفجار قنبلة هيدروجينية فى الفضاء ومـا يترتب عنه من تغيير فى سريان الأنـهار، ووضـع القـارات ومسـاقط الأمطار وتغيير موقع الثروات الطبيعية مثل آبار البترول.

إن مفتاح الحرب الجيوفيزيقية هو اكتشاف أوضـاع طبيعيـة غـير مستقرة، والمقصود بكلمة أوضاع أن تكون فيها الطبيعة خزنت على الأرض أو فى جوارها طاقة أعلى من المتوسط.

ويمكن تأمين دور الصاعق بطريقتين هما:

(أ) بعنف بوساطة الانفجارات.

(ب) بلين، عن طريق إدخال كميات صغيرة من العتاد الذى يثير تبدلات سريعة بوسيط أو بتفاعل نووى.

وقد يتم تخزين الطاقة المذكورة بالتوتر المـتراكم فـى كتلـة الأرض خلال مئات الملايين من السنين، أو مـن المكـن أن تولـد فـى بضـع

دقائق بواسطة التبريد الفائق لبخار الماء الموجود فى الجو عن طريق التيارات التصاعدية. ويمكن أن يكون لتحرير هذه الطاقة آثار كوكبية (مثل تعديلات فى المناخ) أو محلية (مثل زلازل أرضية مثارة أو أمطار غزيرة). والآن، دعنا نتساءل ماذا يحدث للأرض إذا ما قررت قوة عظمى ممارسة الحرب الجيوفيزيقية؟

فيمكن استخدام الأسلحة الجيوفيزيقية لتعديل الطقس، فمن المعروف لدينا أن الغلاف الجوى المحيط بالأرض هو غلاف من الهواء يدور فى أكبر جزء منه بنفس سرعة القارات والمحيطات التى تغطيها. وتنجم الحركات النسبية التى تحدث بين الأرض والغلاف الجوى من إضافات أو امتصاصات للطاقة يمكن أن يتغير موقعها وقوتها. ولكنها تصدر أساسا عن الإشعاعات الشمسية، وتتجاوز كميات الطاقة المتورطة فى الظواهر الميتريولوجية بكثير كميات الطاقة التى يتحكم بها الإنسان مباشرة.

على سبيل المثال، فإن كمية الطاقة المصرفة فى منفذ إحدى الزوابع يعادل فى المتوسط خمسين كيلو طن من المتفجرات، وأن مدخرة للصاعقة ترسل تقريبا عشرة أمثال هذه الطاقة خلال مدتها. ويستطيع إعصار معتدل على المحيط الأطلنطى استخلاص اكثر من ١٠٠٠ (ألف) ميجا طن طاقة من البحر. وتجعل مثل هذه الكميات إمكانية التوصل إلى تعديلات حساسة فى الأنواء الجوية بتقنيات معتمدة على القوة الخام.

والآن، دعنا نميز بين عدة أنواع من حالات عـدم الاستقرار فـى الجو. فالقطرات الصغيرة من الماء التى وصلت إلى البرودة الفائقة فى السحب الباردة تكون غير مستقرة. ولكنها تبقى فى الحالـة السائلة لفترات طويلة، إلا إذا زودت بنويات تستطيع أن تتجمد حولها وأن تحول قطرات الماء الصغير إلى ثلج بإدخال نويات صناعيـة يستطيع أن يتيح مصدر طاقة محلية. وتثير الحرارة تيارات تصاعديـة تـؤدى بدورها إلى تشكيل قطرات ماء جديدة مبردة.

ويمكن أن يؤدى هذا السياق إلى هطول أمطـار أقـوى من الأمطـار التى يمكن أن تهطل دون دخول النويات. وقد يحدث شكل آخر من أشكال الخلل، حيث يكثف بخار الماء بالمـاء فيعـدل توزيـع الطاقـة التى يمكن إدراكها حسيا وعلى مقياس واسع، وهناك أيضا حالة من عدم الاستقرار أو الخلل المسمى «باروكلينيك» الذى يصيب الموجات الجوية المحيطة بـالكواكب. فعـن طريـق الاختـلال الحـرارى الـذى يسود بين خط الاستواء والقطبين تتخزن طاقة تخلق إذا مـا تحـررت «سيكلونات» فى المناطق المعتدلة. هذه الحالات قادرة علـى تعديـل المناخات.

إن السحب المؤلفة من قطرات من الماء المبرد إلى حد فائق (Super cooled) يمكن أن تتحول إلى سحب من بلورات الثلج إذا ما عولجت بمـادة بـايودور الفضـة أو بثلـج الكـاربونيك أو بـالعوامل الكيميائيـة الأخرى الملائمة. والجديـر بـالذكر أن هـذا النظـام تم تطبيقـه عمليـا

لإزالة الضباب البارد من المطارات. أما فى حالة الضباب الحار الذى ينجم عن عدم الاستقرار لبخار الماء الموزع على قطرات صغيرة تحتوى على الطاقة السطحية أكثر من نفس كمية الماء الموزعة على قطرات ضخمة، تتم عملية تبديد الضباب الحار بإعداد التنظيم للقطرات الصغيرة إلى قطرات أضخم تهطل على الأرض.

وهناك أنواع أخرى من الأسلحة الجيوفيزيقية يمكنها التحكم فى الضباب أو فى سقوط الأمطار عن طريق ما يسمى «التعشير الصناعى»، تستطيع أن تزيد من سقوط الأمطار. وتشير بعض النتائج إلى إمكانية زيادة تعجل تشكل السحب المؤلفة من أكداس مدورة ذات قاعدة مسطحة (Cumulus) فى المناطق المدارية، باستخدام تقنية المناطق المعتدلة ذاتها. وتهدف التجارب التى تمت حول الأعاصير تبديد السحب المحيطة «بعين» السيكلون لتوسيع ساحة تطبيق طاقته وإمكانية تقليل قوته.

ومن الملاحظ أن التعشير الصناعى يؤدى إلى تضخيم محسوس فى السحابة المعالجة. وتستعمل هذه الطريقة فى التلاعب فى تعديل وتوجيه العواصف. وكذلك يمكن التلاعب بالصواعق عن طريق تواتر الضربات فى الأرض بإدخال القش (Chapp) وهى صفائح من المعدن من نوع الصفائح التى تستخدم لإحداث أصداء كاذبة ضد الرادارات المعادية.

ويعتبر تبديد الضباب تطبيق عسكرى لمعالجة مقصودة لظاهرة الطبيعة. والجدير بالذكر أن الولايات المتحدة الأمريكية شرعت

بتنفيذ برامج واسعة لزيادة الترسبات للتحكم فى ثلج العواصف ويؤدى ذلك لفهم طبيعة الغيوم.ويؤدى الاهتمام الكبير البادى بهذا الشكل للتعديل الميتيريولوجى إلى دراسة أعمق لطبيعة الغيوم. وفيما يتعلق بالتطبيقات العسكرية، هناك اعتقاد بأن ازدياد الترسبات يكون له قيمة الأوضاع التكتيكية التقليدية، عندما يتم السيطرة على مسألة التحكم. فإن التحكم فى نسبة الترسبات والغيوم ذو قيمة كبرى فى الأوضاع التى تتطلب مزيداً من الأمطار لإخفاء أو منع بعض عمليات المشاة.

ومن الممكن استخدام نوع آخر من تعشير الغيوم بطريقة إستراتيجية، حيث يمكن لتعشير الغيوم المتواصل فوق مساحة كبيرة من الأرض الجافة أن يمتص ما يكفى من الرطوبة لمنع المطر من الهطول على مسافة ١٥٠٠ كيلومتر. ويؤدى ذلك بالطبع إلى تخريب الجو. فإن أى دولة ترتبط ببخار الماء القادم إليها من دولة أخرى مجاورة قد يحكم عليها بالجفاف لعدة سنوات إذا تم القضاء على رطوبة السحب فيها بطريقة خفية. ومن المكن أن لا تستشعر هذه الدولة بذلك نظراً لعدم الانتظام الإحصائى للجو. فالدول التى تملك تكنولوجيا متفوقة فى مجال معالجة البيئة تستطيع توجيه ضربات لخصومها دون أن تكشف عن نواياها.

وهناك أسلحة جيوفيزيقية متطورة تستعمل للتحكم فى ديناميكية الأعاصير والميكانيكية التى تنتقل بواسطتها من المحيط إلى الجو الذى يحمل الإعصار. ويمكن أن يكون لتعديل العواصف آثار

إستراتيجية هامة. وبالتالى يمكن العمل على تبديد أو توجيه الإعصار. والأعاصير المتحكم بها تستخدم عادة فى إرهاب الخصوم فى جزء لا بأس به من العالم المأهول. وعموماً، يستمد الإعصار الجزء الأكبر من طاقته من البحر الذى يمر فوقه، ويرتبط نقل الحرارة الضرورى بعمل الأمواج التى تضع الهواء بتماس مع حجم معين من الماء. هذا التداخل بين الهواء والماء يحرك أيضاً الطبقات المرتفعة من الجو، ويسمح للإعصار أن ينزح من خزان حرارة أوسع من مياه السطح وحدها.

وهناك وسائل أخرى لتقليل الترابط المحلى بين الهواء والبحر وذلك باستخدام أغشية رقيقة أحادية مماثلة للأغشية التى توضع على سطح الخزانات لتقليل التبخر. وهكذا يمنع المحيط من تزويد الإعصار بالطاقة بإيقاع متسارع.

والسؤال الذى يطرح نفسه هل ممكن تعديل المناخ أم لا؟

والإجابة نعم خاصة بعد التقدم العلمى والتكنولوجى فى المجالات الآتية:

١ - معرفة التطورات الميتريولوجية الأساسية عن طريق النماذج الرياضية والفيزيائية التى تؤثر فى الغيوم وتبادل التيارات الدوامية Turbulence. وكذلك معرفة نقل الإشعاعات عبر الجو.

٢ - تطوير نظم دراسة النماذج الجوية بدقة. لهذه النظم أهمية خاصة فى مسألة التعديل الميتريولوجى.

٣ – التطور السريع فى مجال الأقمار الصناعية التى تستخدم للأرصاد الجوية. هذه الأقمار الجوية تقدم مسطحاً يمكن منه رصد الجو ليس فقط فى المناطق التى يتعذر الوصول إليها جغرافياً بل أيضاً بتدابير فيزيائية جديدة تماماً. ويتم تحديد الرطوبة والحرارة والضغط المتوسط لأحجام كبيرة جداً.

والواقع أن المناخ الأرضى يتحدد فى المقام الأول بالتوازن بين وصول الموجات القصيرة الناجمة عن الشمس (بشكل ضوء) وخسارة الإشعاعات ذات الموجات الطويلة الكبرى (بشكل حرارة) التى تصعد من الأرض. وتتحكم بهذا التوازن ثلاثة عوامل هى: طاقة الشمس والخصائص المميزة لسطح المنطقة (ماء، جليد، نبات، صحراء إلى أخره..) وشفافية الأرض المتعلقة بالأشكال المختلفة لطاقة الإشعاع. وفيما يتعلق بالنقطة الأخيرة، فإن أثر الغيوم على رطوبة النهار والحرارة النسبية فى الليل ظاهرة شائعة. ولكن الغيوم ذاتها هى تعبير عن الطقس والمناخ أكثر ما تكون سببا فى حد ذاته. وأن أثر الغازات فى الجو التى تمتص جزءاً كبيراً من الإشعاعات العابرة بين الشمس والأرض، وبين الأرض والفضاء ذو أهمية أساسية أكثر. وتتوقف أشعة أكس والإشعاعات ما فوق البنفسجية الناجمة عن الشمس كما تتوقف الجسيمات الذرية ذات الطاقة العالية فى الجو العالى. وتستطيع الحزمة الضيقة من الضوء المرئى وحدها من اختراق الجو دون انقطاع. ولعلنا نتذكر الجدل العنيف الدائر منذ سنوات حول الآثار المحتملة على المناخ العالمى لانتشار أكسيد الكربون الذى تنشره فى الجو الأفران والمحركات التى تستخدم المحروقات ذات

الأصل المتحجر. وقد درس العلماء تأثير بخار الماء الذى أدخلته الصواريخ والطائرات الأسرع من الصوت على حدوث ارتفاع درجة حرارة الجو فى طبقة الأستراتوسفير. فمن الممكن نشر مادة ما فى الجزء العلوى من الجو تمتص الضوء الساقط الذى سيبرد سطح الأرض أو الحرارة المشعة التى ستزيد من حرارتها. ومما لاشك فيه أن الاستخدام العسكرى لمثل هذه التقنية له أهمية إستراتيجية كبرى، فقد نرى دولة ما تستخدم قدراتها الفائقة بالتنبؤات الجوية بأن رفع حرارة الأرض عموما أو تبريدها يكون من مصلحتها وأنه سيحسن من مناخها بالإضرار بمناخ الدول الأخرى. فقد يدفعها الإغراء لقذف بعض المواد بالصواريخ فى طبقات الجو العالى وهناك نتائج فورية لذلك ولكنها مأساوية.

فهناك من الأسلحة الجيوفيزيقية التى يمكنها عن طريق بعض الوسائل الفيزيائية والكيميائية لمهاجمة طبيعة الجو مثل طبقة الأوزون: فكثافة ٠,٠٣ شكل جزيئى نادر من الأوكسجين – O_3 فى طبقة يتراوح ارتفاعها ١٥ -- ٥٠ كيلومترا هى التى تشكل الأهمية الكبرى بالنسبة للحياة على الأرض. إن الأوزون الموجود فى هذه الطبقة يمتص الجزء الأكبر من الأشعة ما فوق البنفسجية للشمس. وتسبب هذه الأشعة الإصابة بضربة الشمس وتقضى على الحياة فى هذا الجزء من الأرض بما فيها من المحاصيل والثروة الحيوانية بكاملها التى لا تستطيع أن تجد ملجأ لها.

ومع أن الأوزون يتجدد يوميا، إلا أنه من الممكن خلق ثغرة فوق الهدف وذلك بعمل فيزيائى أوكيميائى. على سبيل المثال، فإن

شعاعاً مـا فـوق البنفسـجي طولــه الموجــي ٢٥٠ ميلـي ميكـرون (٢٥٠×١٠ ^-٩^ من المتر) يفتت ذرات الأوزون التى تتفاعل بسهولة مع جميع أنواع المواد.

والجدير بالذكر، أن بعض المشروعات التقليدية لتعديل المناخ قد استعانت بمعالجة حقول واسعة من الجليـد، ويعـزى اسـتمرار هـذه الحقول وبقاؤها للآثار المبردة للجليد الذى يعكــس الإشـعاعات ذات الموجات القصيرة بدلاً من امتصاصها، ويشع الحرارة بنسبة أعلى من الأرض العادية. وتتضمن تقنية تعديل المناخ فـي الغـالب نشـر مـادة ملونة على مساحة من الجليد مؤلفة من طبقات رقيقة، وهكذا تعـوق سياقات الانعكاس والإشعاع ويذوب الجليـد ويتبـدل المنـاخ. وهنـاك وسائل أخرى تستهدف إعادة توزيع الجليد نذكر منها مايلى:

١ – بما أن القطب الجنوبى مغطى بغطاء من الجليد سمكه عـدة كيلومترات، وأن الضغط في قاعدة الجليد قوى إلى حد ما للمحافظـة عليه في نقطة ذوبانه، أوقريبا منها (الماء مادة استثنائية لأن زيـادة الضغط يخفض نقطة ذوبانه بدلا من رفعها)، إذن زيادة سمك الغطاء الثلجى قد تثير ذوباناً فى القاعدة. وقد يسمح مزيج من الجليد والماء المتشكل على طول القاعدة بتحريك الكتلة الجليدية، بسياق متواصل من التجمد والذوبان – سياق انزلاق فعال.

٢ – إذا وقع مثل هذا الخلـل، ينـزلق غطـاء الجليـد فـى البحـر المجاور ويتشكل طوف جليدى واسع بين القطب الجنوبى والمحيط.

وهكذا فإن الأشعة الشمسية ستنعكس ويزداد انتشار الحرارة بواسطة الإشعاع بموجات كبيرة. وتكون النتيجة تبريد وبدء سياق التبريد العالمي.

٣ - ما أن تصبح كتلة الجليد في المحيط حتى يبدأ غطاء الجليد في الذوبان ويختفي نهائيا، ويصبح الجليد المتبقي رقيقا أكثر من السابق، في حين تنقص قوة انعكاس نصف الكرة الجنوبي كلما بدأت الكتلة الجليدية في الذوبان، وبذلك يعود مناخ الأرض ليصبح أكثر حرارة.

ومما سبق يتضح لنا حجم المأساة الناتجة عن تقدم كتلة جليدية صاخبة. ولعلنا نتذكر ما شاهدناه في مناسبات عديدة بالنسبة للانهيارات الجليدية الصغيرة. ومن الناحية الإستراتيجية هناك آلية جاهزة تماماً لتعديل مأساوي في الجو الأرضي تتمثل في تحرير الطاقة الحرارية بواسطة الانفجارات النووية في قاعدة غطاء جليدي. هذه الانفجارات تستطيع شن انزلاق الغطاء الذي تغذيه الطاقة الانجذابية فيما بعد. ويكفي على سبيل المثال واحد ميجا طن من الطاقة لإذابة ١٠٠ مليون طن من الجليد، و ١٠٠ ميجا طن من الطاقة تحول واحد ميليمتر من الجليد إلى غطاء رقيق من الماء يغطي الجبهة الثلجية للقطب الجنوبي. والآن دعنا نسأل، ماذا ستكون نتائج مثل هذه العمليات وآثارها؟

إن الأثر الفوري لهذه الكمية الضخمة من الجليد المغروزة في الماء، إذا كانت تتحرك بسرعة ١٠٠ متر/يوم ستؤدي إلى خلق تلاطم

جبار فى الأمواج يغرق المناطق الساحلية، حتى فى نصف الكرة الشمالى، ثم يلى ذلك تبدل عميق فى المناخ، يثيره التغيير المفاجئ فى انعكاسية الأرض. وبهذه السرعة يبلغ مركز غطاء الجليد حافة اليابسة خلال أربعين عاماً.

وما سبق يعكس لنا إمكانية تعديل الطقس والمناخ الذى يستند على التقدم العلمى والتكنولوجى خاصة فى المجالات الثلاثة الآتية:

(أ) تطورت الميتريولوجية الأساسية إلى نقطة توصلت معها النماذج الرياضية للجو إلى إدخال أهم العناصر فى مضمونها. فليست التطورات الفيزيائية التى تؤثر فى الغيوم وتبادل التدوم (Turbulence) فى السطح ونقل الإشعاعات عبر الجو لغزاً من الألغاز كما كانت فى السابق.

(ب) يسمح الظهور السريع للنظم الحاسبية بدراسة النماذج الجوية بكل تفاصيلها. ولهذه النظم أهمية خاصة فى مسألة التعديل الميتريواوجى.

(جـ) تطور الشبكة الجديدة من الأدوات المصنوعة لملاحظة التبدلات الجوية وكشفها. وأن أروع ما فيها وأهمه من دون شك هو التقدم فى تكنولوجيا الأقمار الصناعية للأرصاد الجوية. هذه الأقمار تقدم مسطحاً كبيراً يمكن فيه رصد الجو، لا فى مناطق يتعذر الوصول إليها جغرافياً فحسب، بل بتدابير فيزيائية جديدة تماماً. على سبيل المثال يسمح القمر الصناعى بتحديد الرطوبة والحرارة والضغط

لأحجام جوية كبيرة جداً. ولذلك يمكن دراسة الغيوم وتداخل الجو ومناطقه المجاورة.

والآن، دعنا نسأل عن مدى تحكم الأسلحة الجيوفيزيقية في الزلازل الأرضية؟

فمن المعروف لدينا، أن التوزيع غير النظامى للعناصر الإشعاعية المنتجة للحرارة الصحراوية ولدت فوارق في الحرارة تحت سطح القشرة الأرضية عبر العصور الجليدية. وفى القارات يحتوى الجرانيت وبعض الصخور المماثلة على عناصر إشعاعية مركزة قريبة من سطح الأرض. مثل هذا التركيز لم يحدث أبداً في المناطق تحت المحيطية التى تستطيع أن تقدم بالتالى فرقاً أكثر من ١٠٠ (مائة) درجة مع المناطق تحت القارية الموافقة لها. وتولدت التغيرات فى الحرارة الكبيرة جداً على طول الخط الأفقى، (والتى تعزى للفوارق فى التوزيع الشاقولى للعناصر المنتجة للحرارة)، قوى حرارية هائلة تسبب توتراً مماثلاً للتوتر الذى يحطم كأساً مملوءاً بالماء الساخن. والتوتر هو الأقوى فى المناطق التى نجد فيها تغيرات مباغتة فى الحرارة على طول خط أفقى عبر القشرة الأرضية. ويمكن تخفيف هذا التوتر بالمد البطيء للمادة، الناقلة للحرارة الموجودة فى الأعماق الكبرى والتى يعتقد بعض الجيوفيزيائيين بأنها تحرك القارات. وقد يجد هذا التوتر أيضاً متنفساً ومخرجاً فى شقوق حية، أو حركات تتبع انقصافاً جيولوجياً فى صخور قريبة من السطح. وتشع الحركة

على طول الانقصاف الجيولوجى طاقة إلى الخارج وتكون النتيجة زلزالا أرضيا. وهكذا يتحرر ٢٠٠ (مائتين) ميجا طن من طاقة التوتر تقريباً. وتعادل أقوى الزلازل الأرضية طاقة ١٠٠ (مائة) ميجا طن (لاحظ أن واحد ميجا طن = مليون طن).

وترتبط الطاقة المحررة بحجم المادة المؤثرة. وتحدث أكبر الزلازل الأرضية فى انقصافات جيولوجية طولها ١٠٠٠ كم فى تتبع أصغر الزلازل الأرضية انقصافات يعادل طولها كيلومترا واحداً أو أقل من ذلك. وعادة تحدث الزلازل الأرضية على طول حزامين رئيسيين: الأول - الذى تصرف فيه ٨٥٪ من الطاقة الشاملة - يقوم بدورة المحيط الهادى ويؤثر على البلدان الواقعة على سواحله كاليابان والساحل الغربى لأمريكا الشمالية. ويجتاز الأخر البحر الأبيض المتوسط. ويتصل الحزام الأول فى إندونيسيا بعد أن يمر فى آسيا. والجدير بالذكر أنه وقعت على طول هذين الحزامين زلازل أرضية عديدة بتوترات مختلفة.

والآن، وبعد التقدم السريع فى مجال الجيوفيزياء أصبح من الممكن معرفة الميكانيكا الأساسية للزلازل الأرضية وكذلك طرق التأثير على عدم الاستقرار التى تجعل العلماء يتنبئون بالزلازل الأرضية بدقة متناهية. وتعتمد هذه التقنية على كشف تبدلات التوتر فى مادة الصخور المجاورة لمناطق الشقوق المعروفة وقد لوحظ أن تراكم التوتر يتجه إلى التسارع قبل الزلزال.

والتحكم بالزلازل الأرضية يتم بطريقتين هما:

١ - بواسطة إجراء تفجيرات نووية تحت الأرض. هذه التفجيرات تحرر ظاهرياً توتراً محلياً فى الأرض. وهناك تفكير بأن التراكم السريع للتوتر الذى يعزى للتحرر المفاجئ للطاقة بالانفجار قد يفرغ طاقة التوتر عبر حجم هائل من المادة

٢ - تحرير طاقة التوتر بواسطة ضخ المياه الجوفية. هذا الماء الجوفى يتيح تزيتاً محلياً يسمح لكل كتلة مجاورة من باطن الأرض بالانزلاق على الأخرى.

إن استخدام طاقة التوتر فى داخل الأرض كسلاح حربى يتطلب بالطبع آلية فعالة. إلا أن التطور فى صناعة الأقمار الصناعية يمكنها تحديد شبكة التوترات فى القشرة الأرضية بدقة. وبوسع بعض الدول التحكم فى تحرير طاقة التوتر مراراً عديدة كجزء من الطاقة الناجمة عن الشقوق الصغيرة بغرض «إسقاء» شق كبير واقع على مسافة معينة. ومن الممكن إثارة هذا التفريغ المحسوب بانفجارات صغيرة، عندئذٍ يمكن استخدام تحرير الطاقة لشن السياق ذاته فى الشق الكبير.

وتسمح المعرفة الجيدة لبعض العمليات الميتريولوجية باحتمال كبير فى شن هجوم بصورة خفية على شكل زلزال أرضى طبيعى.

وهناك تقنية عالية فى مجال استخدام الأسلحة الجيوفيزيقية للاستفادة من الخلل الشمسى وتوجيه طاقة هائلة من الحقول

المغناطيسية المشوهة. ويمكن استعمال هذه الأسلحة للتحكم فى تعديل الزلازل الأرضية بواسطة التحكم بطاقة التوتر داخل الأرض.

وكذلك يتنبأ الخبراء العسكريون بإمكانية استخدام الأسلحة الجيوفيزيقية لتعديل المحيطات عن طريق تحديد نقاط عدم الاستقرار داخل الحركة المحيطية. وهناك سلاح آخر أكثر فاعلية هو سلاح تلاطم الأمواج الذى يكون مصدرها عكرَ مائى متماسك من رواسب طينية غير متصلبة تشكل بنية القاع فى البحار والمحيطات. وبفعل التيارات المائية أو تكوين أخاديد تركيبية بشكل غامض مع صخور ذات توازن غير مستقر على السطح القارى إلى أعماق كبرى تتحرك تلك الكتل المائية حاملة معها هذا الراسب العملاق. وبوسع هذا العكرَ أن يحرر كميات كبرى من الطاقة الانجذابية يتحول جزء منها فى حركة تلاطم الأمواج، فإذا سقطت هذه الأمواج على حافة سطح قارى طوله ١٠٠٠ كم وعرضه ١٠ كم على ارتفاع ١٠٠ متر تكون الطاقة المحررة ١٠٠ ميجا طن (مائة مليون طن) وبالتالى ستشكل كارثة لكل الدول الساحلية.

كما يمكن لبعض الأسلحة الجيوفيزيقية المطورة تغيير المجال الكهربى للجو للتأثير على الكائنات البشرية المعرضة للساحات التذبذبية الكهربية خلال زمن قدره ١٥ (خمس عشرة) دقيقة. هؤلاء الناس يصابون بنوع من الانحطاط فى النشاط العقلى ينتج عنه تشويش النشاط العقلى للسكان كلهم فى منطقة معينة ولفترة زمنية معينة.

والجدير بالذكر أن العلماء وجدوا على ارتفاع ٤٠ إلى ٥٠ كيلومترا فوق سطح الأرض عدداً أساسياً من الذرات المشحونة تجعل من هذا الجزء من الجو المؤين (الأيونوسفين) ناقلا جيداً للكهرباء. وأن صخور المحيط هى أيضاً ناقلات للكهرباء من الجو المنخفض ، وهكذا فإننا نعيش فى جو عازل بين حاجزين كرويين ناقلين للكهرباء. وتتكون بذلك فجوة بين الأرض والأيونوسفير تسمى «قناة الموجات». فموجات اللاسلكى التى تضرب أحد الحاجزين الناقلين تميل إلى الانعكاس داخل الفجوة. هذه الظاهرة هى التى تجعل الاتصالات اللاسلكية البعيدة ممكنة. وحالياً يهتم العلماء بالأصداء الكهربية الطبيعية فى داخل الفجوة. والجدير بالذكر أن لكل قناة للموجات تؤازر الفجوة بعض توترات الذبذبات اللاسلكية. وتتحدد هذه التوترات ذات الصدى بحجم الأرض وسرعة الضوء، ولكن خصائص الأيونوسفير تعدلها إلى حدٍ ما.

وتبدأ أقل الأصداء انخفاضاً بحوالى ثمانى دورات فى الثانية وتحت التوترات المستخدمة عموماً للمواصلات اللاسلكية. وطول موجاتها الكبيرة وضعف ساحتها يجعلان كشفها صعباً للغاية. فضلاً عن ذلك فأنها تنطفئ بسرعة خلال ١/١٦ من الثانية، أى أن لفجواتنا مدة زمنية قصيرة.

وتثار ذبذبات الصدى الطبيعية بواسطة البروق. ومن المعروف أن البروق غيمة – أرض هى مصدر أشد وأقوى من التفريغ غيمه –

غيمه. وتتبدل قوى الذبذبات جغرافياً. ومن الممكن أن نتصور عدة طرق لزيادة شدة مثل هذه الذبذبات الكهربية. وكذلك من الممكن زيادة عدد البروق فى الثانية الواحدة بالتدخل الصناعى عن طريق التقدم الكبير للمعرفة الفيزيائية للصاعقة وطريقة التحكم بها. ويتم ذلك بواسطة الحقن بالطاقة للذبذبات المثارة مما يضاعف النقل الكهربى للأيونوسفير ويخفض ذلك من خسارة الطاقة ويطيل من المدة الزمنية، الأمر الذى يسمح بعدد أكبر من البروق المكررة والمعادة قبل أن تموت الذبذبة.

ويرجعنا هذا التعزيز فى الذبذبات الكهربية ذات التوتر المنخفض فى الفجوة أرض – أيونوسفير إلى مسألة الأسلحة الحربية بطابع مجهول لفيزيولوجيا الدماغ. فالنشاط الكهربى للدماغ يتركز فى بعض التوترات، بعضها بطىء جداً (خمس نوبات فى الثانية) فى حين تقع أكثر النشاطات المرئية ما يقرب من عشرة نوبات (إيقاع آلفا).

والجدير بالذكر، أن معهد أبحاث المخ والأعصاب فى كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية يقوم بأبحاث مكثفة عن آثار هذه الساحات المتذبذبة الضعيفة على السلوك الإنسانى. ومن نتائج هذه الأبحاث أن الكائنات البشرية المعرضة للساحات المتذبذبة خلال زمن قدره ١٥ دقيقة تحس بنوع من الانحطاط فى النشاط العقلى يمكن قياسه.

ومما سبق، يمكننا القول أن إقامة جهاز يعمل بعناية على خلق شبكة من الذبذبات قادرة على بلوغ مستوى مرتفع نسبياً فوق بعض

مناطق العالم تكون نتيجته هى تشويش النشاط العقلى للسكان كلهم فى منطقة معينة ولفترة زمنية معينة.

وبالرغم أن الإنسان يملك حاليا أدوات تدمير فعالة إلى أقصى الحدود، إلا أن بعض الدول قد تستخدم وسائل أخرى غير وسائل الحرب المكشوفة لكى تؤمن سيطرتها. وكلما أزداد التنافس الاقتصادى بين الدول المتقدمة، فإن مصلحة بعضها أن تملك ميزة الاحتفاظ ببيئة مجاورة طبيعية هادئة وتشويش بيئة منافسيها. ومن الممكن أن تتم العمليات الناجمة عن مثل هذه النتائج خفية نظرًا لأن غياب قواعد فى الطبيعة يسمح باعتبار العواصف والفيضانات والجفاف والزلازل الأرضية وتلاطم الأمواج غير اعتيادية عند الضرورة ولكنها غير منتظرة أبداً. ولن تحتاج هذه الحرب السرية إلى الإعلان وليس من الضرورى أن تكون بالتالى معروفة للسكان الذين يتعرضون لها، ويمكن أن تستمر هذه الحرب عدة سنوات وتطلع عليها قوات الأمن فقط التى تتهم الطبيعة القاسية بسنوات الجفاف أو العواصف. ولا تتم محاولة الهجوم العسكرى إلا بعد الاستنزاف الكامل للأمة الرازخة تحت طائل هذه المصائب.

وبالإضافة إلى الطابع الخفى لتغيير البيئة المحيطة هناك ميزة مشتركة لعدد من أساليب تغيير الطبيعة هو قدرتها على الإضرار بالأرض بمجموعها. ولا يعرف المحيط المجاور حدوداً سياسية. فهو مستقل عن المؤسسات المعتمدة على الجغرافيا. ومن الممكن أن تنتقل

نتائج التغيير من نقطة في الأرض إلى أى نقطة أخرى تؤثر على وجود الأرض ذاتها. وما يخشى منه أن تدخل الأسلحة الجيوفيزيقية والتكنولوجيا المتطورة في صراع شامل مع معظم المفاهيم التقليدية فى الجغرافيا كما فى السياسة. وستكون بالتالى الآثار السياسية والشرعية والاقتصادية والسوسيولوجية لتغيير متعمد فى البيئة معقد جداً..

والآن فقد آن الأوان للدعوة لعقد مؤتمر عالمى يحضره جميع قادة العالم والعلماء والمفكرين والمؤيدين للسلام من أجل وضع دستور أخلاقى عالمى لمنع استعمال وتطوير الأسلحة الجيوفيزيقية وحماية الأرض لتظل بيتا سعيدا لنا وللأجيال القادمة من بعدنا.

- ٢ -

«ڤيـــتو» !

القدرات النووية العربية.. وكيفية تنميتها

بالرغم من موافقة الدول المتقدمة التى تمتلك الأسلحة النووية على اتفاقية التمديد اللانـهائى لحظـر انتشـار تلـك الأسـلحة والحـدّ مـن تطويرها، نرى الآن أن هذه الدول هى أول من لا يلتزم بهذه المواثيق والقوانين. فقد أصبح الحظر ينطبـق فقـط علـى الـدول الناميـة التـى تسعى إلى حماية أمنها القومى من أخطار الدول التى تمتلك الأسلحة النووية وتعمل على تهديدها بشكل مباشر أو غير مباشر.

وتسعى الدول الكبرى إلى تنمية قدراتها النووية على فترات زمنية مختلفة، حتى لا تتخلف عن النادى النووى الدولى وفرض الهيمنـة. من قبل اتجهت روسيا إلى إجـراء بعـض التجـارب النوويـة بغـرض تطوير بعض الرءوس النوويـة «التكتيكيـة»، كمـا طـورت الولايـات المتحدة الأمريكية وبريطانيا نظم محاكاة الكمبيوتر فى عمليات إطلاق الصواريخ حاملة الرءوس النووية، بينما لم تسـتطع كـل مـن الصـين وفرنسا من استكمال برامج تحديث ترسانتهم النووية ولفترة طويلـة. كان هذا وراء قرار فرنسا مؤخراً باستئناف التجارب النووية الفرنسية فى جنوب المحيط الهادى فى جزيرة «موروروا» ليس فقط لاختبـار قدرة الرءوس النووية التكتيكية «الجديدة» التى أنتجتها حديثاً، بل لاختبار عمليات إطلاق الصاروخ الجديد من نوع «كروز» الذى يطلق

من الطائرات والغواصات ويتم التحكم به بنظم محاكاة الكمبيوتر وأشعة الليزر وعلى ذلك فإن الغرض من التجارب هو اللحاق بالتطور النووى الهائل الذى وصلت إليه الولايات المتحدة الأمريكية ومحاولة فرض المظلة النووية الفرنسية فى أوربا والدول المجاورة. وتتواصل ردود الفعل العالمية المتباينة على هذا القرار، وهى تتراوح بين التأييد والمهادنة والمعارضة. وتختلط فيها قضايا العلم والبيئة والسياسة والأمن القومى. وهناك مخاوف شديدة من الدول المطلة على المحيط الهادى مثل أستراليا ونيوزيلندا واليابان وأندونيسيا وتشيلى وغيرها من الدول التى يتهددها خطر تلوث البيئة وانتشار الأمراض الخبيثة بين شعوبها وتهديد ثرواتها البحرية. إلا أن الاحتجاجات الحكومية وغير الحكومية (التى تتزعمها منظمة «جرين بيس») لم تستطع وقف هذه التجارب التى بدأت فى السادس من يوليو عام ١٩٩٥ وانتهت فى شهر مايو عام ١٩٩٦. وفى الفترة الأخيرة، وبعد أن دخلت كل من الهند وباكستان منتدى الدول النووية تصدرت قضية القدرات النووية العربية اهتمام الشعوب العربية، وخاصة بعد تمديد معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية فى أبريل عام ١٩٩٥. وعندما نطالع الاتفاقية الدولية بشأن تحديد القدرات النووية للدول، نجد أنها تمثل نوعاً من عقود الإذعان التى تضمن بها الدول التى تملك هذه القدرة استمرار سيطرتها على العالم، بينما يبقى الضعفاء فى هذا العالم ضعفاء إلى الأبد. وقد أصبح من الصعب قبول هذا المنطق فى عالم اليوم الذى تحركت فيه الشعوب لتنال حريتها ولتحافظ على كرامتها.

وحالياً يزداد الموقف تعقيداً بعد أن قامت الدول المالكة لهذه التكنولوجيا بتسريبها لدول حليفة لها تستخدمها في إيقاع الظلم على الدول الأخرى غير الحليفة. وبالتالى أصبحت القدرة النووية أداة إرهاب وظلم وتعد. وعلى الرغم من أن معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية تنص على ضرورة معاونة الدول النامية من أجل تطوير الاستخدامات السلمية للطاقة النووية، إلا أن الواقع يؤكد أن عالم الشمال المتقدم يتعامل مع هذه المعاهدة من واقع مصلحته فقط. فنرى على سبيل المثال، أنه يتغاضى عن دولة «إسرائيل» وهى تطور أسلحتها النووية ويمنع بحسم وصول هذه التقنيات المتطورة للعالم العربي والإسلامى. ويعتبر الاستفادة من الطاقة النووية موضوعاً حتمياً ومصيرياً.

ميثاق الإذعان:

أصبحت المفاعلات النووية السلمية ضرورة مُلحّة للشعوب العربية، ليس فقط لحاجتنا المتزايدة للطاقة الكهربية وتحلية مياه البحر، ولكنها تعتبر حالياً الوسيلة المؤكدة للارتقاء بمستوى التطبيق التكنولوجى فى مجالات الصناعة والزراعة والصحة إلى غير ذلك..!

وبداية، فإن معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية التى تم تمديدها إلى أجل غير مسمى فى شهر أبريل عام ١٩٩٥، كانت وليدة ظروف تاريخية خاصة، فبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، أرادت الدول المنتصرة أن ترسخ هذا النصر لمصلحتها الذاتية، وترتب على ذلك، أن أنشئت هيئة الأمم المتحدة تدعيماً لهذا الانتصار

وخرج «ميثاق» الأمم المتحدة متأثراً بهذه الظروف، بحيث أصبح يمثل نوعاً مما نسميه عقود الإذعان فيه طرف غالب وطرف آخر مغلوب، هذه حقيقة واضحة في كثير من بنود معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية والتى جاءت لكى تحتفظ القوى الدولية (التى تملك القدرات التكنولوجية على إنتاج الأسلحة النووية) لنفسها بهذه القدرات النووية وهى تحظر على غيرها أن يعمل فى هذا المجال!!.
ثم تعاهدت هذه الدول فيما بينها لفرض نوع من الحظر الدولى العام، بحيث لا تنتقل التكنولوجيا النووية إلى دول أخرى، وإن كان قد جاء فى بعض النصوص أنه يسمح بتداول التكنولوجيا فى الموضوعات التى تسمى «الاستخدامات السلمية للتكنولوجيا النووية»، وبالطبع هناك دول كثيرة محرومة حتى الآن من استخدام الطاقة النووية فى المجالات السلمية. والواقع الحالى يقول إن الظروف الدولية قد تغيرت، فعلى الرغم من الحظر، هناك دول استطاعت أن تمتلك القدرة على إنتاج الأسلحة النووية وطوّرت قدرتها التكنولوجية فى مجال استخدام الطاقة النووية وإنتاج القنابل الذرية مثل: الهند وإسرائيل وجنوب إفريقيا وباكستان، ليس هذا فقط بل إن دولاً عديدة من دول الاتحاد السوفييتى «المفكك» تمتلك القدرة النووية. وبذلك فإن الظروف التاريخية تغيرت، مما يستوجب إعادة بناء هذه المعاهدة مرة ثانية، بحيث يراعى فيها مصالح جميع الدول.

والجدير بالذكر أن أحد بنود اتفاقية الحظر تنص على أنه على الدول التى تمتلك السلاح النووى تقديم حماية للدول التى لا تملك.

وفى الواقع هـذه الحمايـة لا يمكـن أن تحـدث فـى ظـل التكتـلات العالمية المتصارعة. وبالطبع هناك شـكوك حـول حمايتنـا مـن العـدو الذى يمتلك قدرة نووية. ومـا لم تكـن عندنـا القـدرة علـى أن نـردع أو نرد، فإن الواقع الجارى فى العالم يبين أنه لم ولـن تحمينـا قـوة أخرى.

ومن الناحيـة العمليـة، فـإن القـدرات النوويـة العربيـة وتنميتـها يحتاج إلى تغيير شامل، أستراتيجياً وعلميًا وفنياً. هذا التغييـر ليـس بالعمل السهل فى ظل الموقف العالمى الحالى تحت مظلـة مـا يسـمى النظام العالمى الجديد وموقف الدول الكبرى من امتلاك الدول النامية للطاقة النووية أو تطوير قدراتـها. ولعـل مـا حـدث مؤخـراً مـع دول كوريا الشـمالية وإيـران ومـن قبلـهما العـراق يوضـح لنـا ذلـك. هـذا بالإضافة إلى المشاكل والعقبات الفنية والعلمية والإدارية التى تعترض سبيل التنمية الذاتية النووية، كذلك لابد أن يكون هناك منظور عـام للفلسفة الاستراتيجية التى تنتهجها الدول العربية فى حالـة وجـود قوى تنفرد بامتلاك القوى النووية في منطقتنـا العربيـة التـى نعيـش فيـها. بـالطبع هـذا المنظـور الاسـتراتيجى يحـدده العسـكريون والسياسيون.

الأمان النووى:

ما المقصود بالقدرات النووية العربية؟ هل المقصود هو إنتاج القنبلة الذرية أم المقصود هـو امتـلاك التكنولوجيـا النوويـة بصـورة تجعلنـا

قادرين على إنتاج القنبلة الذرية؟ لم يعد سراً الآن أن نقول إن العالم العربى يمتلك حالياً قاعدة علمية كبيرة تستطيع أن تحدد وتدخل بوضوح فى مجال التكنولوجيا النووية. ولاشك أن قدرتنا العربية تتزايد فى هذا المجال، بينما يتزايد تكتم وتعتيم القوى الدولية على مدى تطورنا، وهم ليسوا غافلين عنا. ولذلك يجب علينا أن نحدد جيداً العقبات التى تواجهنا.

وفى الحقيقة ومنذ البداية، لم تكن لدى الدول العربية أية استراتيجية فى هذا الموضوع، حتى عندما أقدمت مصر على إنشاء هيئة الطاقة النووية وكان هناك هدف واستراتيجية سرعان ما ضاع الهدف وضاعت الاستراتيجية بسبب الخلافات والانقسامات وتعدد الآراء.

وعند تحديد القدرات النووية العربية علينا أن نتذكر أن دورة الوقود النووى هى الأساس الرئيسى فى القدرة النووية، ودورة الوقود النووى تشمل البحث عن الخامات الذرية واكتشافها ومعالجتها للحصول على عنصر اليورانيوم، ثم إعداده لتصنيع وقود نووى يستخدم فى المحطات النووية والمفاعلات الذرية، ثم الحصول على الوقود المستنفد والتحفظ عليه ومعالجته أو فصل مكوناته. وإلى الآن لا توجد لدى جميع الدول العربية أى استراتيجية فردية أو جماعية لتطوير وتصنيع الوقود النووى، فيما عدا بعض المحاولات على المستوى المعملى والتعليمى.

وبالطبع هناك مخاوف لـدى الجميـع وخاصـة المتعلقـة بموضـوع الأمان النـووى والدخـول فـى عصـر بنـاء المفـاعلات النوويـة. إلا أن القدرات النووية تتطلب تطوير الصناعات المحلية لإنتـاج المحطـات النووية المستخدمة فى الأغـراض السـلمية مـن أجـل السيطرة علـى مستلزمات التشغيل من وقود نووى وماء ثقيل وقطع غيار وهناك دول نامية عديدة استطاعت أن تعتمد على نفسها فى هذا المجال.

وقـد اهتمـت مصـر بعـد انتـهاء الحـروب وبدايـة رحلـة السـلام باسـتخدام الطاقـة الذريـة فـى الأغـراض السـلمية وأقـامت بعـض المشروعات، وتكونت هيئات تشرف عليها هيئة الطاقة الذرية. ولكل هيئة عمل خاص تقـوم بـه، فـاختصت هيئـة المـواد النوويـة بـدورة الوقود، واختصت هيئة المفاعلات النووية بالمفاعلات، بينما اختصت هيئة المحطات النووية بإنتاج الطاقة الكهربائية عن طريق المفاعلات النووية. وهناك جهود مضنية تبذل حاليا من أجل تدريـب الكـوادر الفنية فى هذه المجالات. كما تهتم سوريا بموضوع المفاعلات النووية وتقوم بالتفاوض مع الصين من أجل إنشاء مفاعل صغير بقـدرة ٢٥٠ كيلو وات، أما معظم الدول العربية فيغلب علـى أنشـطتها تطبيقـات النظائر المشعة، لكنها غير مهتمة بدورة الوقود أو المفاعلات ومازالت تتعامل معها بصورة سطحية.

إن مصادر الطاقة الموجودة فى الوطن العربى – باستثناء البترول – محدودة للغاية. وقـد أشـارت التقـارير الصـادرة عـن جامعـة الـدول

العربية إلى أن معدلات الاستهلاك العالمي الذى يعتمد على البترول العربى يزداد، بينما معدل الاكتشافات الجديدة للحقول البترولية يتقلص، وبالتالى فإن المخزون الاستراتيجى من النفط العربى سوف ينخفض خلال الخمسين عاما القادمة، ويختلف ذلك من دولة عربية إلى أخرى، حيث إن بعض الدول العربية تستورد البترول لسد حاجاتها من الطاقة، أما مصادر الطاقة غير البترولية مثل الفحم فإن استخدامه كمصدر للطاقة يتعرض لقيود عالمية هائلة فيما يتعلق بتلوث البيئة. أما مصادر الطاقة غير النووية مثل الطاقة الشمسية وطاقة الرياح وطاقة جوف الأرض، فهى على كل حال ليست منافسة لبدائل الطاقة التقليدية (البترول – الغاز الطبيعى – الفحم).
وأمام هذا الواقع، فلا بديل أمامنا لكى نفى باحتياجاتنا من الطاقة خلال القرن القادم سوى التخطيط لاستخدام الطاقة النووية بغرض توليد الطاقة الكهربية، حيث أن هذه التكنولوجيا بديل متطور بشكل اقتصادى ومنافس للبدائل الأخرى.

وعلى ذلك، فإن الطاقة النووية هى أحد المصادر التى تطرح نفسها بإلحاح على مخططى السياسة العربية، وإنه لن نستطيع إكمال مشوار التنمية والتطور والتقدم بدن استخدام الطاقة النووية. وبالطبع هناك محاذير هامة يجب مراعاتها عند الدخول فى عصر التكنولوجيا النووية هى:

١ – مشكلة أمان المفاعلات النووية، بالرغم من أنه يوجد حالياً مفاعلات جديدة وأمانها أكثر لكنها لم تُطرح بعد فى الأسواق.

٢ – مشكلة الانتشار النووى والأسلحة، وتتعلق بالحظر المفـروض من الدول الكبرى على الدول النامية واعتراضها على استخدام الدول النامية للطاقة النووية السلمية.

٣ – مشكلة دفن النفايات النووية، خاصة عاليـة الإشعاع. فـإذا كانت النفايات منخفضة ومتوسطة الإشعاع فيمكن دفنـها فـى مقـابر خاصة ويمكن تأكيد أمانها النووى، إلا أن النفايـات عاليـة الإشـعاع مازال يدور حولهـا جـدل عـالمى كبـير. ولا توجـد دولـة فـى العـالم تستطيع دفن النفايات عالية الإشعاع بشكل نهائى.

الخبرات الأجنبية

وفى ظل العجز العربى على الدخول فى عصر التكنولوجيا النووية نرى بعض المفكرين الذين يطـالبون بالاسـتعانة بالخـبرات الأجنبيـة وتسخيرها لصالحنا. فلا مانع من الاستفادة بكل الطاقات والخبرات الأجنبية مادام القرار فى أيدينـا. ونحـن فـى النهايـة نديـر شـئوننا العربية وليس غيرنا. مع العلم، بأن أعداء التقدم العربى لن يتركونـا نصـل إلى التكنولوجيـا النوويـة ببسـاطة، وبالتـالى فـإن لم نسـتطع الوصول إليها فى الفرص القليلة المتاحة لنـا الآن، فلـن نصـل إليـها أبـداً. الهنـد وباكسـتان والأرجنتـين والـبرازيل يمكـن أن تصـل للتكنولوجيا النووية ببساطة. أما العرب فلا ! ! وهذا الأمر لـن يُـترك بسهولة فمن الممكن أن نحصـل علـى مفـاعل نـووى أو اكـثر بغـرض الاستخدامات السلمية ونوفر له كل الاحتياجات اللازمة للتشـغيل، ولكن هذا المفاعل قد يدمر بسهولة كما حدث مـع المفـاعل العراقـى.

ومن هنا لابد من الحديث عن الوسائل الفعّالة للدفاع العربى لحماية منشأتنا ضد أعمال التخريب. ويجب أن نوضح للجميع – الأصدقاء قبل الأعداء – أن بناء برنامج عربى لتطوير القدرة النووية يختلف تماما عن بناء برنامج لإنتاج السلاح النووى.

والبرنامج الأخير يحتاج إلى امتلاك المواد اللازمة لإنتاج هذا السلاح بالإضافة إلى قدرة تطوير وسائل التوصيل والحمل والاتصال. فالقضية ليست إنتاج رأس نووى فقط، بل وسائل التوصيل وقواعد الإطلاق، الأمر الذى يؤكد أن القوى النووية مسألة مختلفة عن القدرة النووية. والجدير بالذكر، أن بعض الدول العربية قد رصدت أموالاً طائلة من أجل تطوير التكنولوجيا النووية بها. فطبقاً لتقديرات الأمم المتحدة فى الفترة الأخيرة، نجد أن العراق أنفق ١٠ (عشرة) مليارات دولار على برنامجه النووى الذى استطاع إخفاءه لفترة طويلة حتى نهاية حرب الخليج. وحتى بعد الحرب لم يكن معروفا أن لدى العراق برنامجا نووياً حقيقياً، إلا بعد أن كشف أحد العلماء الذين لجئوا إلى الولايات المتحدة الأمريكية اسمه حسين شرستانى، وتحدث عن تفاصيل البرنامج العراقى الذى اعتمد على اليورانيوم، ومنذ ذلك الوقت نرى الاتجاه العالمى إلى تضخيم وتهويل القدرات النووية العراقية. مع العلم بأن الجميع يعرف تماماً أن حماقات القيادة السياسية فى العراق أدت فى النهاية إلى تدمير قدراته العلمية ومنشأته وبنيته الأساسية التى تحتاج إلى سنوات عديدة لاستعادتها مرة أخرى.

وفى الوقت الحالى، لا توجد استراتيجية عربية لتنمية القدرات النووية العربية، بالرغم من أن هناك اتصالات بين باحثين وعلماء من الدول العربية، إلا أننا لم ننجح حتى الآن فى وضع استراتيجية مشتركة. وإذا كانت هناك اليوم الهيئة العربية للطاقة الذرية إلا أنها تعمل فقط على التقريب بين العلماء فى الدول العربية على هيئة لقاءات ودورات فى نواحى الأمان النووى والرقابة، ولم نصل بعد إلى دورة الوقود النووى ويسبب ذلك عدم وجود أية أنشطة نووية لدى الدول العربية.

ومن أجل تنمية القدرات النووية العربية، لابد من تضافر جهود كل المهتمين بهذه القضية من علماء ومفكرين وسياسيين. فالعالم اليوم يتجه إلى التكتل والاتحاد، فنرى أوربا تعمل مع روسيا وأمريكا واليابان من أجل إنشاء مفاعل أساسه الاندماج النووى، هذا البرنامج يحتاج إلى تكاليف باهظة، وهذا مثل ينبغى أن نحتذيه ونعلم مغزاه جيداً. وفى هذا الشأن نقترح تأسيس المجمع العربى لإنتاج الطاقة الذرية على غرار المجمع الأوربى لإنتاج الطاقة الذرية (Euroatom)، يكون من أهدافه بالإضافة إلى وضع استراتيجية عربية لتطوير القدرات النووية العربية مايلى:

١ - إعداد الكوادر العلمية والفنية من أجل بناء برنامج عربى لاستخدام الطاقة النووية الفورية فى الأغراض السلمية.

٢ - إجراء البحوث المشتركة وتبادل الخبرات العلمية.

٣ - تكثيف الجهود والإمكانات للسيطرة على دورة الوقود النووى.

٤ - إنشاء وحدات لإنتاج الماء الثقيل والإشراف عليها.

٥ - الدخول فى تصنيع المعدات الخاصة بالمحطات النووية.

٦ - إنشاء شبكة موحّدة من المحطات النووية الكهربائية فى الدول العربية وتعظيم الاستفادة منها خاصة فى مجال تحلية المياه.

٧ - إرساء سبل التعاون مع الدول الصديقة من أجل اكتساب التكنولوجيا النووية.

ونحن على يقين من أن الوعى العربى بمكوناته الحضارية والثقافية وبما يضم من العلماء ومخططى نقل التكنولوجيا العرب قادر على العبور بنا إلى آفاق القرن الحادى والعشرين.

- ٣ -

اليورانيوم للبيع.. يا ناس يا هوه!

بداية أستسمح القارئ فى استعارتى للشعار التحذيرى «يا ناس يا هوه».. الذى كان يستعمله الكاتب المصرى الكبير الراحل الدكتور/ يوسف إدريس فى تحذير الوطن والمواطنين من المخاطر التى تحيط بهم ومن سلوكياتهم. إلا أننى اتخذت نفس الشعار لتحذير المسئولين والقائمين على سلامة وأمن المواطن العربى أينما كان فى وطننا الحبيب من الخطر النووى والرعب النووى الذى يحيط بنا والإرهاب الموجه إلينا من الدول القريبة والبعيدة إلى حدٍ سواء. خاصة بعد أن اقتحمت المواد المشعة عالم المافيا واللصوص ووجدت لها سوقاً دولية تنافس فى ذلك المواد النفيسة مثل الماس والذهب وتنافس أيضاً تجارة المخدرات.

وتقوم الآن عصابات الجريمة المدربة والمنظمة على تهريب تلك المواد المشعة. ولعلنا نتذكر ما طالعتنا به وكالات الأنباء العالمية بأخبار وتقارير صحفية خاصة بعد اكتشاف البوليس الألمانى شبكة من المافيا العالمية فى محاولة تهريب كمية كبيرة من عنصر اليورانيوم المخصب من دولة روسيا إلى العالم الخارجى. بالطبع لم ينشر اى تفاصيل عن الجهات الداخلية أو الاتصالات الدولية واسم الدول التى ترغب فى شراء وتتبادل هذه السلع المشعة المميتة. إلا أن من المحتم أن الدول الغربية برئاسة الولايات المتحدة الأمريكية تسعى بكل

الطرق والوسائل المشروعة وغير المشروعة إلى تحجيم انتشار الأسلحة النووية فى العالم، ليس حفاظاً على الأمن والسلم العالمى فحسب، بل للحفاظ على مصالحها ودرء الخطر عنها. وبالتالى فقد وضعت الخطط لتعقب تلك العصابات والكشف عنها بكل همة ونشاط.

ومن أبرز التحليلات السياسية خلال هذه الأيام هو التركيز على أهمية التعاون العلمى بين علماء وخبراء التكنولوجيا النووية فى دول الاتحاد السوفيتى «المفكك» والعديد من دول العالم خاصة الدول المطلعة إلى حماية أمنها القومى والحصول على أسرار التكنولوجيا النووية. وقد أبرزت هذه التحليلات الظروف الاجتماعية والنفسية الصعبة لهؤلاء العلماء والخبراء بعد التحولات السياسية التى تعرضت لها بلادهم وفى ظل سياسة الإصلاح الاقتصادى والسياسى المتبعة حالياً. ومن البديهى أن يستغل هذه الظروف بعض من جنرالات الجيش فى العديد من هذه الدول من أجل الحصول على الثروة وبالتالى المجازفة بعرض بعض من المنتجات النووية من اليورانيوم المخصب إلى الزئبق الأحمر المشع والبلوتونيوم وخلافه.

ولم يعد الآن سراً عن كيفية صنع القنبلة الذرية والتى ظلت الدول الكبرى تحتكرها ولعقود طويلة. فقد دخل النادى النووى الآن دول أخرى عديدة، فنرى الترسانة النووية الرهيبة لدى إسرائيل، ومازالت الشكوك عن كيفية حصولها على اليورانيوم المخصب بطريقة غير مشروعة عن طريق القرصنة والتهريب عالقة فى الأذهان، حيث تم ذلك عبر مافيا المواد المشعة وتسربها من الولايات المتحدة

الأمريكية وفرنسا، دون أدنى اهتمام من هذه الدول عن مخاطر انتشار الأسلحة النووية فى منطقتنا العربية. والجدير بالذكر أن دولاً أخرى مثل الهند وباكستان والبرازيل والأرجنتين طورت تكنولوجيتها النووية وقد يلحق بها دول أخرى مثل تركيا وإيران وكوريا الشمالية. والسؤال الذى يطرح نفسه بإلحاح هو: ماذا! فعلنا نحن لحماية وطننا وشعبنا العربى من هذا الخطر الداهم من حولنا من الدول القريبة لنا والبعيدة. فالعالم أجمعه يتحرك ويتقدم، ونحن مازلنا نرفع الشكاوى إلى الدول فى العالم المتقدم ونهيب بالنظام العالمى الجديد أن يدحر لنا هذا! الخطر والرعب النووى. فتارة نطالب بإخلاء منطقتنا العربية من خطر أسلحة التدمير الشامل النووية والبيولوجية والكيميائية، وتارة أخرى نطالب بمعاملاتنا بالمثل كباقى الدول وحقنا فى الحصول على التكنولوجيا النووية، وبالطبع لا يسمعنا أحد «كأننا نؤذن فى مالطة».

الجميع يتحرك والدول صغيرها وكبيرها تتقدم. الجميع يجاهد من أجل البقاء حتى ولو تطلّب ذلك التعاون مع المافيا الجديدة بغرض الحفاظ على أمنه أولاً وأخيراً ثم بعد ذلك يتحدثون عن الطرق المختلفة لإحلال السلام النظيف.

نحن فى عصر لا يحترم فيه غير الأقوياء، ولذلك فأنا أحذر من مغبة الشعارات السياسية الجوفاء بغرض امتصاص الغضب الشعبى فى العالم العربى مطالباً بحقه فى الحماية من الرعب والإرهاب النووى. ولهذا أكرر وأقترح تأسيس المجمع العربى

الذرى (Arab-Atom) يكون من أهم أهدافه تجميع الخبرات العربية العالمية فى مجال الطاقة النووية وتدريب الكوادر العلمية والفنية بغرض تنمية القدرات العربية النووية والوقاية من مخاطر الإشعاع النووى. وأناشد كافة المسئولين وصناع القرار فى العالم العربى من أجل التضامن ووضع استراتيجية عربية لتدعيم وتقوية قدرتنا العربية النووية نواجه بها مصيرنا المشترك ولكى نستطيع أن نخاطب بها العالم الحر المؤيد للسلام.

الباب الثانى

قضايا التنمية التكنولوجية
فى مصر والعالم العربى

١ – التكنولوجيا والأمن القومى العربى.

٢ – تكنولوجيا الإلكترونيات الدقيقة وأزمة التصنيع العربى.

٣ – الليزر ومفهوم التكنولوجيا الملائمة فى مصر.

- ١ -

التكنولوجيا والأمن القومى العربى

التنمية فى أى مجتمع تتطلب بالضرورة وضع سياسيات علمية وتكنولوجية واقعية بغرض اللحاق بالحضارة المعاصرة، وفى مضمار الصراع الدولى من أجل اللحاق بالثورة العلمية والتكنولوجية العالمية، تحاول العديد من الدول العربية بذل الجهود المضنية من أجل التغلب على مشاكل نقل التكنولوجيا، إلا أنه في ظل غياب سياسة اقتصادية عربية شاملة تخدم أهداف الأمن القومى العربى يكون من الصعب على أى دولة عربية منفردة اللحاق ببرامج التنمية العلمية والتكنولوجية المعاصرة وفيمايلى سوف نستعرض أهم القضايا المتعلقة بنقل التكنولوجيا إلى الدول النامية وكيفية التغلب عليها.

بداية اشتقت التكنولوجيا من كلمة (Techni) تقنى، وتعنى أسلوب أداء المهنة أو الصنعة، أما كلمة تكنولوجيا (Technology) فتعنى العلم الذى يدرس تلك الصنعة. وقديما قبل ظهور الأديان، عبدت البشرية ما جهلت درءاً لما قد يجلب من شر واستدرارا لما قد يعطى من خير، وليس غريباً تماماً أن عامة الناس فى الدول النامية تنظر للتكنولوجيا كما لو كانت جعبة ساحر فى ثناياها حلول حتمية وخارقة يمكن أن تخلصها من بعض شقائها. والساحر وهو هنا الغرب (أو الدول المتقدمة) مبدع التكنولوجيا يملك قوى وأسراراً ترفعه عن مصاف البشرية ولقد ظلت التكنولوجيا موضع جدل كثير

من دول الغرب نفسها، وبذلت محاولات متعددة لوضع تعريف شامل للكنولوجيا وتركز الجهد على ما هو محل بيع وشراء من عناصرها نذكر منها على سبيل المثال مايلى:

١ - براءات الاختراع والعلامات التجارية.

٢ - المعرفة غير المسجلة أو (غير القابلة للتسجيل).

٣ - مهارات الأشخاص العاملين.

٤ - المعرفة التكنولوجية للمعدات.

غير أنه من الأفضل الركون إلى استخدام كلمة تكنولوجيا للإشارة إلى المجموع الكلى للمعرفة المكتسبة والخبرة المستخدمة فى إنتاج السلع والخدمات فى نطاق اجتماعى واقتصادى معين من أجل إشباع حاجة المجتمع.

ونحن هنا نتحدث عن المجموع الكلى للمعرفة والخبرة أكثر من حديثنا عن تطبيق هذه المعرفة، وعموماً الطلب هو الذى يحدد نوعية السلعة النهائية أو الناتج الأخير بطريقة غير مباشرة عن اختيار التكنولوجيا.

هذه السلعة النهائية قد تكون مخصبات زراعية أو سيارات الركوب أو المدرعات والأسلحة العسكرية والآن دعنا نتساءل: التكنولوجيا من أجل ماذا؟ وللإجابة على هذا السؤال، فإن التطور التكنولوجى يحدث فى إطار اقتصادى اجتماعى يحدد ويكرس

الموارد المادية والبشرية المتاحة لتطبيق التكنولوجيا اللازمة لإنتاج السلع والخدمات بناء على الطلب الاجتماعى. وبالطبع هذا الإطار قد يكون عائقاً لمثل هذه العمليات أكثر من الموارد المحددة، فالقيم والنظم الاجتماعية والأنماط السائدة للسلوك والنظام التعليمى كلها نموذج للطرق التى تؤثر على تطبيق التكنولوجيا فى مجتمع ما. وعلى هذا الأساس، فإن النشاط التكنولوجى يعتبر عملية اجتماعية تحتوى على عدة عوامل متشابكة يمكن أن نطلق عليها اسم «نظام تكنولوجيا» يعمل داخل نظام اجتماعى أكبر يفرض عليه عدة ضغوط.

وتقوم أجهزة صنع القرار فى الدول المختلفة بوضع السياسات والاستراتيجيات الخاصة بالتنمية فى المجتمع، وهذه السياسات هى إجابة للتساؤلات المطروحة مثل «التنمية لمن؟». بواسطة هذه التساؤلات تنعكس بوضوح التوجيهات الأساسية للمجتمع، اتجاه بنيانه الاجتماعى الداخلى وطبقاته والعلاقات بينها، كذلك علاقات هذا المجتمع الخارجية على المستويين الاقليمى والدولى.

ومن المعروف أن أى خطة قومية للتنمية تحتوى ضمنا على خطة تكنولوجية كجزء مكمل وهام، ويعاب على الدول النامية أن خطتها تكون ضمنية (Implicit) وليست معلنة (Explicit).

إن قواعد الإنتاج التى تطبق المعرفة التكنولوجية تضع الموارد البشرية والمادية خلال إطار تنظيمى وإدارى معين (مصنع أو مجمع

صناعى) لإنتاج السلع والخدمات. هذه المكونات يفترض أن تكون لصيقة الترابط فى أى نظام تكنولوجى، وفى هذا الشأن هناك عدة نقاط يجب توضيحها وهى:

(أ) المكونات الثلاث، العلم والتكنولوجيا والوحدات الإنتاجية تتأثر مباشرة بسياسات التنمية التى تحدد مسبقاً دور كل مكون ونطاق مشاركته فى جهود التنمية الشاملة.

(ب) التأكيد على أهمية الدور الذى يلعبه الطلب على أنواع محددة من السلع والخدمات فى تحديد الناتج النهائى للنظام التكنولوجى فى البلد المعين.

(جـ) يلاحظ أن الروابط بين هذه المكونات الثلاث فى معظم المجتمعات النامية بصفة عامة والبلدان العربية بصفة خاصة ضعيفة وفى أحيان أخرى غير قائمة على الإطلاق.

(د) مكون رئيسى، وهو مصادر الاستثمار الخاصة والعامة (الحكومية) والتى تحتاجها الأنشطة الاجتماعية من الادخار القومى، التى تمثل الفرق بين الناتج الكلى والاستهلاك.

(هـ) مكون ثانوى لقطاع الخدمات، وهو مراكز التعليم والتدريب المسئولة عن إمداد المجتمع بحاجته من القوة البشرية المدربة.

والنظام كله يعمل من خلال إطار من المناخ الثقافى والقيم الاجتماعية وأنماط السلوك وحدوده بالإضافة إلى التشريع القانونى

السائد. كل هذه العوامل ذات تأثير مباشر على السياسات والاستراتيجيات والخطط وفى تكوين الطلب بناء على اختيار المجتمع.

وبالطبع هناك مؤثرات غير مباشرة على مكونات العلم والتعليم والتكنولوجيا في النظام مثل قوانين الضرائب والاستيراد والتصدير والجمارك (سواء مرتفعة أو منخفضة والقيود أو التسهيلات).

وفى ضوء هذا التعريف الشامل نتبين وجود تناقض فى مواقف الدول النامية فى المجال التكنولوجى فنرى هناك قناعة عامة بأن التكنولوجيا هى محرك التنمية، وأن التنمية الصناعية هى العامل الرئيسى فى أية تنمية شاملة، إلا أن مثل هذه العبارات البليغة أصبحت محل بحث وتمحيص نتيجة للنتائج المحيطة لعملية التنمية في هذه الدول، وكذلك عدم الرضا المتنامى بحصيلتها فى الدول المتقدمة ذاتها. لقد كان التركيز فى الماضى على زيادة الناتج القومى من خلال إنشاء قاعدة صناعية قومية ذات مراكز بحثية وأيدى عاملة مدربة تكنولوجيًا، غير أن هذه التجربة فشلت بالرغم من نجاح بعض القطاعات فى عدد من الدول النامية.

وقد أدركت كثير من البلدان النامية خاصة الدول العربية منها أن جهودها لخلق «قاعدة وطنية للتكنولوجيا» لم تصب إلى النجاح بشكل عام، حيث مازالت الخبرة الأجنبية هى التى تتخذ القرارات المتعلقة بالخيارات التكنولوجية. وملامح التناقض فى مواقف الدول النامية من التكنولوجيا تتضح فى الآتى:

١ - تصور أن «التكنولوجيا المتطورة» تحل قضايا التخلف، وهذا قلب للمنطق العلمي، وتجاهل للمسار التاريخي للتجربة الغربية ذاتها، وحقيقة الأمر أن ثمة علاقة جدلية متصاعدة ما بين وضع سياسة علمية وتكنولوجية تعتمد على القدرات الذاتية، وبين الحصول على التكنولوجيا الجاهزة عن طريق التسول من الدول المتقدمة.

٢ - الأجهزة التخطيطية التي ترسم خططاً تفصيلية لتحديد الأهداف القومية كما حددتها سياسات التنمية - وهي ليست بالضرورة خططاً حكومية بل تتضمن الخطط الموضوعة خارج الأجهزة الرسمية، فكل مستثمر مهما صغر حجم استثماره، وكل صانع هو مخطط بطريقة أو بأخرى لنشاطه وهو يتفاعل سلباً أو إيجاباً وتحمساً أو على مضض مع سياسة التنمية في المجتمع وتوجهاته العامة، كما أنه يشترك في إشباع حاجات هذا المجتمع للسلع والخدمات التي تستطيع أن توفرها التكنولوجيا، وفي دفع نظام التكنولوجيا لخلق تكنولوجيا جديدة لإشباع حاجات جديدة أو خلق طلب جديد.

والحاصل الكلي لهذا هو مجموعة من الخطط «حكومية» أو «خاصة» لمجموع النشاطات في المجتمع.

ويهمنا هنا ثلاثة أجزاء رئيسية من النظام التكنولوجي نوردها فيما يلي :

١ - المراكز العلمية، وتشمل الأبحاث في الجامعات ومراكز البحوث العلمية أو الجمعيات، وهي تنتج كماً متجدداً من العلم

والمعلومات والمعرفة، وبالتعريف العالمى هذه الأبحاث عالمية ومباحة «مجاناً». فهى التراث العام للإنسانية وتنتقل بحرية وبدون تكلفة. ويتضمن ذلك مراكز البحوث والتنمية والخدمات الاستشارية ومراكز التصميم ومراكز المعلومات.. إلى آخره، ونرى على سبيل المثال، الرأسمالية التجارية المتربعة على قمة إمبراطورية استعمارية واسعة تملك الحافز على زيادة الإنتاج ورأس المال اللازم لتمويل التوسع فى مجال الاختراعات وتطوير الإنتاج تطويراً جذرياً.

ومن هنا وجدت أفكار المخترعين سبيلها إلى التطبيق الصناعى وساعد مناخ المنافسة التى نشطت بين مشروعات صغيرة ومتناثرة والتى كان سلاحها الأساسى تخفيض تكاليف الإنتاج على التسابق وراء كل مبتكر أو مستحدث من فنون الإنتاج مادام يوفر الجهد أو يزيد الإنتاج وبذلك ظهرت فكرة براءة الاختراع وتأمين حق المخترع وتسويقه، بل لم يعد من المقبول الاعتماد تماماً على المصادفة والعشوائية فى هذا المجال. ومن ثم برز الاهتمام بنشر التعليم وتغيير محتواه وتشجيع البحوث وأحدثت سلسلة التطور فى الإنتاج بدورها تطوراً عميقاً فى البنية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. وكان فى مقدمة هذا التطور، نمو الشركات الكبيرة وتركزها، مما مكنها من أن تمارس البحث التطبيقى بنفسها أو لحسابها وتكرار الحروب بين الدول الصناعية، وما أدى إليه من إنفاق ضخم لتطوير الأسلحة، والتى جنت ثماره الصناعات المدنية وهكذا دخل البحث العلمى والتكنولوجى منذ حقبة ليست قصيرة مرحلة التنظيم

(Institutionalization) وأصبح يستند إلى فرق متكاملة ومعامل ومختبرات معقدة تعتمد بشكل أساسي على القاعدة الصناعية التي توفر له الطلب على البحث ومادته وما يلزم له من عناصر مادية ومنتجات وتفتح أمامه إمكانات تطبيق ما يستحدث وغدت اعتمادات «البحث والتطوير» (Research and Development) (R&D) باباً أساسياً للإنفاق يستوعب نسبة لا يستهان بها من الناتج القومى الإجمالى ويجرى فى شبكة كثيفة الحلقات من مراكز تلتقى فيه الإدارة الحكومية ورجال الصناعة وأهل العلم الأكاديمى وتغذيتها بالباحثين بالجامعات القوية وما تجريه من بحوث أساسية فى العلوم، وتشجيعها بيئة حضارية اعترفت بالباحث المتفرغ كعضو فى المجتمع له دوره الهام وجزاؤه المحترم، بيئة حضارية جعلت من التكنولوجيا المتجددة رمز تقدمها ومناط قوتها.

فمنجزات التكنولوجيا فى الغرب هى ثمرة عملية التطوير الحضارى طويل الأمد، كما أن استيراد بعض تلك المنجزات لا يمكن أن يولد فى المجتمع عملية التطور ذاتها. فمثلاً، استيراد محطة أرضية للأقمار الصناعية لا يُدخِل البلد المستورد «عصر الفضاء» وأيضاً بناء محطة نووية لتوليد الكهرباء لن يفضى فى أفضل الأحوال إلا إلى تدريب بعض الأفراد على معدات تم تصنيعها بالكامل فى الخارج، ولابد من تشغيلها وصيانتها من الاعتماد على الخبرة الأجنبية. ومن الأرجح أن يلحق أحسن أولئك الأفراد بجيش الأدمغة النازحة، وتبقى المحطة بعد ذلك جسماً غريباً فى المجتمع كله،

يمكن أن تتوقف لو تلف فيها مسمار صغير، حتى يتم استيراده، وهي بعد ما تكاد تبدأ العمل حتى يكتشف من دفعوا فيها باهظ الثمن إنها أصبحت متخلفة تكنولوجياً. وبالطبع هناك أمثلة عديدة على ذلك في المعدات الخاصة بتكنولوجيا الليزر والهندسة الوراثية وأجهزة الكمبيوتر وخلافه.

وأخيراً فلا يمكن تعليم «التكنولوجيا المتطورة» في المعاهد والجامعات نظراً لأساليبها المتعددة وارتفاع تكلفة الدراسة التي تتجاوز قدرات الاقتصاد النامي. بالإضافة إلى أن خريجي مثل هذه الدراسات لن يجدوا مجال العمل الذي يستوعب جهودهم ويستثمر ما تعلموا.

إن الفكر السائد الآن يخلط بين منجزات التكنولوجيا والتكنولوجيا ذاتها. فالثمرة يمكن أن تُستورد وإن غلا ثمنها، ولكنها لا تتجدد ولاتتكاثر. أما الشجرة التي تعطي الثمار فلابد أن تنبت وتنمو وتترعرع في أرض صالحة وبيئة مواتية وبرعاية مستمرة. والتنمية الشاملة كعملية مطردة هي التي توفر ذلك كله.

إن التنمية الشاملة وبذل الجهد الدءوب هو الذي يساعد على اكتساب «الثورة التكنولوجيا» اللازمة لاطراده وتعظيم عائده وليست التكنولوجيا هي التي تصنع التنمية.

٢ - يؤدي الخلط بين التكنولوجيا وبين منجزاتها أو منتجاتها إلى أخطاء ومخاطر متعددة ترتبط كلها بالسعي وراء منجزات

التكنولوجيا، وأول ما يفتن القادرين من أبناء العالم النامى هو المنتجات ذات الطابع الاستهلاكى، ليس فقط فى مستوى الطائرة والسيارة والتلفزيون والسلع المعمرة الأخرى ولكن أيضا فى مستوى ذلك العدد الضخم الذى لا يدركه حصر من الأشياء الجديدة والبراقة ذات النفع المحدود، أو حتى التى لا نفع فيها أصلاً، بل هى من قبيل التسلية أو العبث (Gadgets) وقد فتح فى هذا الاتجاه ما أدت إليه الآليات الداخلية للاقتصاد الغربى خاصة فى العقود الأخيرة من السعى الخبيث إلى مضاعفة الاستهلاك عن طريق زرع احتياجات جديدة ومتزايدة لدى المستهلك. وقد أثر هذا الاندفاع نحو تقليد نمط الاستهلاك الغربى على حجم الاستهلاك فى البلاد العربية وعلى اختيار مشروعات التصنيع فى إطار ما يسمى باستراتيجية تصنيع بدائل الواردات.

أما فى مجال التكنولوجيا فكان الاتجاه المتبع هو الحصول على أحدث تكنولوجيا، ليس فقط تطلعاً هندسياً إلى ما هو أكثر تقدماً، ولكن تأسيساً على ارتفاع إنتاجيتها، ويكفى هنا أن نشير إلى نسبة الطاقة المعطلة المرتفعة فى كل المصانع الحديثة للغاية التى أقيمت فى الدول النامية بصفة عامة والدول العربية بصفة خاصة.

والتجربة تثبت أن ما يمكن أن يتاح للبلدان النامية مهما يكن متقدماً لا يضعها فى مصاف البلدان المتقدمة، لأن سرعة التطور التكنولوجى بالمعنى الواسع رفعت معدلات «البلى المعنوى» (Moral

obscelence) والأخطر من ذلك كله هو أن منتجات التكنولوجيا ليست سلعاً يتميز بعضها عن بعض وتتجانس وحدات كل نوع بحيث تكون لها سوق مثل أسواق المواد الأولية. فبعضها ليس له وجود مادى ملموس منفصل عن الأشخاص الذين يحملونه وهو ما يطلق عليه المعرفة الفنية (Know- how)، وبعضها مندمج فى معدات يتعذر تحديد تكلفة إنتاجه منفصلة عن تكلفة إنتاج العدة ذاتها.

وكل صناعة حديثة تقتضى أنواعاً متعددة فى آن واحد: براءة اختراع، وعلامات تجارية، ومعرفة فنية، ومعدات وخبرة تنظيمية وإدارية.. إلى آخره.

وقد اتبعت الشركات الكبرى فى الدول المتقدمة، أسلوب بيع الصفقه التكنولوجية (Technological Package) وأكمل صورة لهذا الأسلوب هو بناء مصانع متكاملة على طريقة «تسليم مفتاح» (Turn key) وهذا بالطبع يشكل سوقاً احتكارية يكون مركز البائع فيها بالغ القوة لا ينال منه حتى عامل الاستبدال (Substitution effect) مادام الناس يجرون وراء أحدث تكنولوجيا. وبعد دفع التكاليف الباهظة لإقامة مصانع حديثة تبقى تلك المصانع جزراً منعزلة (Enclaucs) داخل مجتمع لا تنتشر فيه موجات التقدم التكنولوجى.

وينسى الناس أن ملكية التكنولوجيا بين الشركات متعددة الجنسيات يكون هدفها تنظيم الربح، وهى تبيع فى أحوال كثيرة مجرد اسم أو علامة تجارية دون أى سر صناعى (كما هو الحالى بالنسبة لصناعة الصابون والمنظفات وبعض مستحضرات التجميل).

٣ – يسود الاعتقاد لدى البعض بأن للتقدم التكنولوجي طريقاً واحداً وهو طريق الغرب، الذى يؤدى دائماً إلى ما هو خير. وهذا قول خاطيء في شقين، فابتداء من الحقيقة العلمية الواحدة يمكن اكتشاف أكثر من أسلوب لتطبيقها في الإنتاج. وهذا الأمر معروف لكل المشتغلين بالصناعات الحديثة. ومعيار التفضيل بين الأساليب المختلفة هو معيار اجتماعي وإن كان يقاس في المجتمعات الغربية بالعائد الاقتصادى على مستوى المشروع، ذلك أن الاقتصاد الرأسمالى يقوم على مبدأ أن ما يحقق الربح للأفراد هو بالضرورة مطلوب اجتماعياً. وبالطبع يمكن أن تختلف النظرة في اقتصاد مخطط تخطيطاً شاملاً لمواجهة قصور الموارد، لأنه من المألوف في هذه الحالة أن يتعارض معيار تعظيم عائد الاستثمار الإجمالى على الاقتصاد القومى في مجموعه.

وهذا ما يطرح قضية التكنولوجيا الملائمة. وليس صحيحاً من ناحية أخرى أن كل ما هو جديد تكنولوجياً يكون مفيداً للناس، بل أنه منذ أن انتشر الاهتمام بقضية التلوث في العالم، لا يكاد ينقضى يوم إلا ويثبت العلماء والباحثون الأخطار المتولدة عما يسمى بالآثار الجانبية لأساليب إنتاج أو أداء خدمات تعد حديثة للغاية. وهنا نشير إلى مثال بالغ الدلالة وهو الطاقة. فالطاقة النووية أحدث صيحة، في هذا المجال يمكن القول بأنه لو أصبحت الطاقة النووية المصدر الصناعى الوحيد للطاقة، لأدى تلوث البيئة إلى هلاك الأرض. أما الطاقة المتولدة من البترول والغاز الطبيعى قد أدت إلى تلوث

البيئة بدرجة أكثر من التلوث الناتج عن استخدام الفحم فـى الآلات والمراجل البخارية. ويقـول علمـاء البيئـة إن كـل طاقـة متولـدة عـن احتراق تضر بالبيئة بسبب ما تولده من غاز ثـانى أكسيد الكربـون. هؤلاء العلماء من أشد المتحمسين الداعين إلى توجيه التكنولوجيا نحو زيادة استخدام مصادر الطاقة الطبيعية مثل الطاقة الشمسية وطاقـة الرياح إلى الحـرارة المخزونـة فـى بـاطن الأرض وطاقـة المـد والجـزر ومساقط المياه.. إلى آخره.

ومثال آخر يتصل بحياة كل فرد منا وهو أثـر الكيمياويـات التـى تدخل جسم الإنسان يومياً مع ما يأكله من فاكهـة وخضـر عولجـت بالمبيدات الحشرية، وما يشـرب مـن مـاء، ومـا يتعـاطى مـن أغذيـة محفوظة أضيفت إليها زاهى الألوان وأطيب المذاق المصنع كيميائيـاً، أما فى مجال العقاقير الدوائية، نرى أدوية قد تفلح فى عـلاج بعـض الأمراض ويسبب آثارها الجانبية أمراضاً فى مقدمتها السرطان.

ومن المعروف أن الحكومات تصدت بإجراءات هامة ومكلفة للحد من تلوث البيئة بسبب النشاط الصناعى ولحظر استخدام قائمة طويلة ولا نهائية من المواد الكيميائية المستخدمة فـى الصناعـات الغذائيـة والدوائية.

وينظر الناس والخبراء أنفسـهم إلى التكنولوجيـا ومنتجاتـها علـى أنها أمور فنية محايدة لا أثر لها على البيئة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والحضارية للدولة التى تستوردها. وهذا ظن شـائع يكـاد

يعد من المسلمات ومع ذلك فهو خاطئ جذرياً، على سبيل المثال، ففى مجال الإنتاج تتميز التكنولوجيا العصرية للدول المتقدمة بأنها كثيفة رأس المال، بمعنى أن نصف نفقات البحث والتطوير تكون فى تكلفة الإنتاج. وعلى ذلك فهى لا تستقر إلا فى شكل وحدات إنتاجية ضخمة وتتركز فى مناطق محدودة وتتكون حولها التجمعات الحضرية الكبرى، والدول النامية حتى تحاول نقل هذا الأسلوب التكنولوجى لابد أن تقبل على إقامة وحدات من هذا النوع، وهى بالطبع لم تبلغ نهاية المطاف وتصل إلى نفس الأحجام فى بلد المنشأ. ومع ذلك فإن تبنى هذه التكنولوجيا يضاعف حاجة البلاد إلى رأس المال عدة أضعاف، ويكون منطقيا فى سبيل ذلك تشجيع تكوين ثروات فردية ضخمة والسعى بكل السبل لاجتذاب رأس المال الأجنبى والتحول إلى النظام الرأسمالى. وهذا المسلك أدى فى معظم الأحيان خاصة فى الدول العربية إلى تركيز الجهد كله على قطاع صناعى حديث وإهمال الزراعة والريف وبالتالى تنشأ الازدواجية الاقتصادية ولو بدرجات متفاوتة. ومما سبق نستخلص مايلى:

أولاً: أن التكنولوجيا هى تطبيق المعرفة العلمية والخبرات المكتسبة فى تطوير أساليب عمليات الإنتاج والخدمات.

ثانياً: أن التنمية الشاملة تقتضى التطوير التكنولوجى المستمر الذى يعجل بمعدلاتها ويتدعم بمنجزاتها.

ثالثاً: أن العلاقة الجدلية بين التنمية والتطور التكنولوجى تطرح قضية التكنولوجيا الملائمة من حيث المكان (البلد النامى المعين بظروفه المحددة) والزمان (طور التنمية الذى يعيشه ذلك البلد).

رابعاً: أن التطور التكنولوجى المطرد كالتنمية الشاملة المطردة لا يمكن أن يتحقق إلا بالاعتماد على النفس ولابد من بناء القدرة التكنولوجية الذاتية.

ومن أجل الحفاظ على مقدرات الأمن القومى العربى لابد أن تتكاتف جهود النخبة السياسية العربية الحاكمة واقتناعها بالأهمية الفائقة لسياسات العلم والتكنولوجيا فى التنمية الشاملة للوطن العربى ويمكن أن يتم ذلك بوسائل جديدة لعل من أهمها كما قال الأستاذ / السيد ياسين فى هذا الموضوع هو إجراء دراسة تقيمية شاملة لتحديد أوضاع العلم والتكنولوجيا فى الوطن العربى لتقدير الإنجازات وإبراز جوانب الفشل والقصور وذلك فى إطار مقارن يشمل الدول المتقدمة ودول العالم الثالث خاصة ما تحقق فى الدول الأسيوية. مع التركيز الشديد على الفجوة العلمية والتكنولوجية بيننا وبين «إسرائيل» التى تهدد دائماً الأمن القومى العربى مهما وقعت من اتفاقيات سلام مع الدول العربية. ومن ناحية أخرى لابد للمجتمع العلمى العربى من تحمل المسئولية القومية وأن ينطلق وينشط لممارسة دوره فى التطور الحضارى المعاصر وتقديم رؤى مستقبلية مدروسة وواقعية فى حدود إمكانياتنا وقدرتنا الذاتية تتحدد بها الاستراتيجية العربية للثورة الثقافية والتكنولوجية.

- ٢ -

تكنولوجيا الإلكترونيات الدقيقة وأزمة التصنيع العربى

شهد العالم، منذ منتصف هذا القرن ثلاث ثورات علمية هائلة فى مجال علم الفيزياء، أدت إلى تطوير العديد من التكنولوجيات فى شتى المجالات. هذه الثورات هى: ثورة تفجير الطاقة النووية والذرية، وما تبع ذلك من تطوير تكنولوجيا المفاعلات النووية لتوليد الطاقة، والتى تستخدم الآن فى جميع الأغراض السلمية والعسكرية. يلى ذلك، الثورة الإلكترونية، التى أدت إلى الفهم الدقيق لخصائص مواد أشباه الموصلات وتسخيرها فى الصناعات الإلكترونية الدقيقة. بعد ذلك جاءت ثورة الليزر وربط المادة بالطاقة الضوئية، وما ترتب عليه من تطوير هائل فى العديد من التطبيقات وفى شتى مجالات الحياة.

وتخضع الأبحاث فى هذه المجالات لمراجعة ورقابة دقيقتين من الدول المتقدمة، حتى تحتفظ بالتفوق خاصة فى مجال ما يسمى «بالتكنولوجيا العالية»، لذلك نرى عالم اليوم، عالم التكتلات الكبيرة، حيث تتكامل الدول فيما بينها من أجل الوصول لأعلى درجات التنسيق العلمى والتكنولوجى والاقتصادى للسيطرة على الأسواق العالمية.

ولم يقتصر هذا التنسيق على الدول المتقدمة مثل ما نرى بين الدول الأوروبية وبين دول الولايات المتحدة الأمريكية وكندا والمكسيك

وأيضا السوق الأمريكية اليابانية. بل نجد الآن على خريطة العالم دولاً من العالم النامي، وقد حققت وجودًا فعالاً في هذا المجال الحيوى، بعد أن أخذت بمبدأ اقتناء وتعميق هذه «التكنولوجيا العالية» والتى حققت لها عائدًا استثماريًا عاليا يخدم اقتصادها القومى.

وفى مقدمة هذه التكنولوجيا والتى تهم العالم العربى مجال الصناعات الإلكترونية وبرمجة الحاسبات، وذلك للانتشار السريع لهذه التكنولوجيا والتى تخدم العديد من المجالات الطبية والزراعية ونظم الاتصالات والصناعات البتروكيميائية وفى العلوم العسكرية وعلوم الفضاء إلى آخره.

فنجد على سبيل المثال دولا مثل الصين والهند ودول آسيا التى تعرف بدول النمور الأربعة: كوريا الجنوبية وسنغافورة وماليزيا وأندونيسيا، قد اعتمدت فى تطوير برنامجها العلمى والتقنى خاصة فى هذا المجال الهام على الاستثمارات المتاحة لديها من العقول البشرية التى أحسنت تدريبها، وهذا بالإضافة إلى أن تكنولوجيا الإلكترونيات الدقيقة لا تحتاج إلى استثمارات مادية مكلفة، كبناء المصانع الضخمة. فى المقابل، نرى الدول العربية لاتزال خارج دائرة التكنولوجيا العالية، وعلى أقل تقدير فإنها تساهم بقدر ضئيل فى هذا المضمار، لا يتفق وحجمها البشرى الذى يتعدى ١٧٠ مليون نسمة ولا القدرات العلمية الفائقة لديها.

من هذا المنطلق، لابد من وضع أسس علمية صادقة لمناقشة برنامج التنمية التكنولوجية فى العالم العربى، للعبور من مستوى التخلف

التقنى الذى يعيش فيه جزء كبير من وطننا، إلى آفاق القرن الحادى والعشرين.

وترجع أهمية تطوير الصناعات الإلكترونية الدقيقة، إلى كونها العقل المنظم لمعظم الصناعات الأخرى والجسد الذى عبرت عليه العديد من الدول فوق أزمتها الراهنة كالمديونية والبطالة، إلى آفاق التقدم والثروة والنجاح. على سبيل المثال، ومن واقع الإحصائيات المنشورة فى هذا الشأن، نجد أن حجم الاستثمارات فى الصناعات الإلكترونية فى كوريا الجنوبية قد قفز من ٧ مليارات دولار عام ١٩٨٤ إلى ٣١ مليار دولار عام ١٩٩٠. وفى سنغافورة بلغت مساهمة الصناعات الإلكترونية ما يقرب من ٣٥٪ من دخلها القومى وبمعدل نمو ١٠٪.

والجدير بالذكر، أن دولة صغيرة مثل إسرائيل فى منطقتنا العربية تنمو وتتفوق فى هذا المجال الحيوى، إذ تصدر ما قيمته ٣ مليارات دولار من الصناعات الإلكترونية سنويا، وبالمقارنة مع أكبر دولة عربية مثل «مصر» نرى أن الإنتاج السنوى فى هذا المجال لا يتعدى سوى ٢٠٠ مليون دولار سنويا فقط.

وعلى الرغم من قناعة مخططى «نقل التكنولوجيا وتطويرها» فى العالم العربى ووعى الكثيرين من المسؤولين على المستوى الرسمى فى الدول العربية بأهمية بناء قاعدة للصناعات الإلكترونية. وبالرغم من توافر بعض المميزات النسبية لنجاح هذه الصناعات مثل توافر

الاستثمارات العربية الهائلة والحضور البشرى المشرف، إلا أن هناك العديد من المعوقات نوجزها فيما يلى:

– عدم وجود رؤية مستقبلية محددة لدى الحكومات العربية فى هذا المجال.

– عدم وجود التنسيق الكافي والتخطيط وتبادل المعلومات بين الدول العربية، خاصة فى مجال الصناعات الإضافية

– اتخاذ القرارات السياسية، ووضع الاستراتيجيات، دون الاستعانة بالخبراء المتخصصين والمشتغلين فى هذا المجال، للاستفادة من تجاربهم.

– عدم وجود حصر شامل لاحتياجات السوق العربية من هذه التكنولوجيا وتحديد الملائم منها.

– عدم وجود حصر شامل لإمكانيات السوق العربية فى هذا المجال. كما لا يوجد حصر للصناعات القائمة الأساسية منها والمغذية لها.

– عدم توافر قاعدة معلومات، خاصة بالنسبة للتصدير ومتابعة الأسواق العالمية وتحديد حجم الطلب وأسعار السلع المنافسة.

– عدم وجود دراسة دقيقة عن الأسواق المجاورة للمنطقة العربية واستطلاع كيفية التكامل والتبادل السلعى التكنولوجى معها.

– فرض ضرائب مرتفعة فى بعض الدول العربية وزيادة رسوم الواردات من مستلزمات الإنتاج، مما يقلل من فرص الاستثمار.

- شروط البنوك المجحفة بالنسبة للاستثمار فى هذا المجال واللجوء إلى رفع أسعار الفوائد عند الاقتراض لهذا الغرض.

- عدم التعاون بين مراكز البحوث الأكاديمية والجامعات والمراكز الصناعية المتواجدة حاليا، خاصة فى معالجة القضايا الفنية المعقدة.

- الاعتماد المعرفى على الوكلاء التجاريين المحليين لدى الشركات العالمية الكبرى.

ومن أجل انطلاق عربى للحاق بعصر تكنولوجيا الإلكترونيات الدقيقة، أصبح من الضرورى، إنشاء مركز عربى للصناعات الإلكترونية، يكون من أهم أهدافه، إعادة ترتيب القدرات والإمكانيات العربية المتاحة ومعالجة أوجه القصور التى تم استعراضها سابقا.

ويتم ذلك من خلال مايلى:

- إنشاء مجمعات للصناعات التكنولوجية الصغيرة والمتوسطة فى الدول العربية.

- إنشاء مراكز تدريب متخصصة فى جميع الدول العربية، لرفع كفاءة العاملين فى هذا المجال، وتبادل الخبرات الفنية فيما بينها.

- إرساء سبل التعاون بين الجهات الأكاديمية والمصانع المنتجة.

- إدخال مقررات تكنولوجية جديدة فى الكليات العملية بالجامعات مع الاستعانة بخبراء الصناعة لتدريس هذه المقررات، بغرض خلق أجيال قادرة على الإبداع التقنى ومعالجة مشاكل الصناعة.
- فتح قنوات اتصال علمى وتكنولوجى مع دول العالم.
- إجراء حصر شامل لإمكانيات السوق العربية الحالية، صناعية وفنية وبحثية وبشرية.
- اختيار الصناعات الإلكترونية الملائمة وتحديد قدرات التسويق.
- إنشاء قاعدة معلومات لمعاونة الشركات المنتجة على فتح أسواق تصديرية ومتابعة الأسواق العالمية.
- تشجيع التبادل المعرفي بين الشركات العربية المنتجة لمعالجة القضايا الفنية.
- الإشراف الإيجابى من الحكومات العربية والابتعاد عن المزايدات السياسية وبحث تأثير أى قرارات جديدة على هذه الصناعات.

والأمل معقود على مخططى «نقل التكنولوجيا» فى العالم العربى لمناقشة الخطوات التنفيذية لتأسيس هذا المركز العربى للصناعات الإلكترونية الدقيقة والخروج من أزمة التصنيع العربى خاصة ونحن ندخل إلى القرن الحادى والعشرين بكل إنجازاته وتحدياته.

- ٣ -

الليزر ومفهوم التكنولوجيا الملائمة فى مصر

شهد النصف الثانى من القرن العشرين تطور البحوث فى مجال إلكترونيات الكم (Quantum Electronics) بشكل هادف ذى أبعاد تكنولوجية. أصبحت فيما بعد أساسا لكثير من المبتكرات الإلكتروتية والضوئية. وأحدثت هذه المبتكرات ثورات علمية هائلة لكثير من نواحى الحياة. على سبيل المثال، أنتجت تقنية أشباه الموصلات وتصميم الترنزستورات، التى أصبحت عماد الصناعات الإلكترونية والدوائر الرقمية للحاسبات الآلية. تبع ذلك ظهور ما يسمى بالدوائر التكاملية بأنواعها المختلفة التى أدت إلى صناعة أجهزة إلكترونية غاية فى الدقة والأداء وتكاد تكون متناهية الصغر.

أما فى مجال البصريات، فقد كان لإلكترونيات الكم شأن عظيم آخر وهو خاص بتوليد الإشعاع التحريضى المحتث (المحفز). وتمكن العلماء من تحقيق نظريات العالم ألبرت أينشتين الخاصة بإمكانية تضخيم الأشعة الكهرومغناطيسية (الفوتونية) عن طريق التحريض (أو التحفين) التى وضع فروضها عام ١٩١٧ م. وكان من نتائج هذه الجهود تصميم جهاز لتوليد أشعة الميزر، وكلمة ميزر (MASER) مشتقة من المصطلح الإنجليزى:

(Microwave Ampilitification by Stimulated Emission of Radiation)

وتعنى تضخيم الموجات الميكرومترية (الدقيقة) بواسطة الانبعاث المحتث (التحريضى) للإشعاع. وخلال حقبة الستينات من القرن العشرين، نجح العلماء فى تطوير إلكترونيات الكم وتطبيقاتها الفيزيائية خاصة فى مجال الفيزياء الراديوية والضوء والفيزياء الذرية والجزيئية. وفى مرحلة لاحقة، اتجهت الأبحاث العلمية نحو المدى المرئى من الطيف الكهرومغناطيسى والربط بين المادة والطاقة واستطاعوا صناعة الضوء المميز الذى سمى «الليزر» وذلك بالاستفادة من ظاهرة التضخيم الضوئى عن طريق التحريض.

وبختلف الليزر عن الضوء الشمسى أو ضوء المصباح الكهربائى فى خصائص فريدة لم يعرفها الإنسان من قبل، على وجه الخصوص: شدة الكثافة الضوئية - القدرة على التوجيه الضوئى بدقة - أحادية الطول الموجى - التوافق الضوئى. والأن يستخدم الليزر فى العديد من التطبيقات وفى شتى المجالات: الطبية والزراعية والصناعية والعلوم العسكرية والاتصالات وفى مجال بحوث الطاقة والعلوم الأساسية.

وترتكز صناعة أجهزة الليزر المختلفة على مكونات تكنولوجية متشابهة من أهمها مايلى:

١ - المركبات البصرية: مثل المرايا الخاصة - عناصر الاستقطاب - عناصر تحريف الأشعة - والمضمنات - والخلايا الإلكترونية الغير خطية.

٢ – أنابيب التفريغ الكهربائى

٣ – أجهزة التحكم والتبريد.

٤ – المواد الفعالة المشعة للضوء فـى حالاتـها البلازميـة والغازيـة والسائلية والصلبة.

٥ – مولدات الطاقة بأنواعها المختلفة.

وما زالت الدول المتقدمة حتى الآن تعتبر تكنولوجيـا الليزر مثـل التكنولوجيا النووية من الأسرار العسكرية بها.

والآن أصبـح مـن الضرورى اللحـاق بعجلـة التطـور التكنولوجـى لخدمة برامج التنمية فى مصر والعالم العربى. ويتم ذلـك عـن طريـق تأسيس البنيـان العلمـى المتكـامل لاستيعاب وتطويـر التكنولوجيـا الحديثـة مـن واقـع القـدرة الذاتيـة وطبقـا للاحتياجـات الفعليـة للمجتمع، مما يؤدى إلى إفراز كوادر علميـة وفنيـة تستطيع تحديـد استيعاب هذا التطور ليس فى مجال الليزر فحسب بل فى مجـالات أخرى مثـل صناعـة الكمبيوتـر والمـواد المتجـددة والهندسة الوراثيـة والألياف البصرية والمواد فائقة التوصيل والخلايـا الشمسـية والطاقـة والبلورات السائلة.

ومـن خـلال دراسـة عـن تطبيقـات الليزر فـى مصر مـع تقييـم اقتصاديات التشغيل والصيانة التى قامت به أمانة المجلس الأعلـى للجامعات المصرية عام ١٩٨٨ م، اتضح أن حجـم الاسـتثمارات فـى

استيراد معدات الليزر والأجهزة الأخرى المرتبطة بها قد أصبح هائلا، وكان من نتائج هذه الدراسة الدعوة إلى إنشاء مركز قومى لتكنولوجيا الليزر فى مصر يكون من أهم أهدافه وضع استراتيجية تنطلق بثقة للتغلب على الأخطاء العلمية فى نقل التكنولوجيا أو على الأصح اجتيازها لتحقيق أهداف التنمية العلمية فى مصر الذى يكفل الاكتفاء والرخاء.

وبالطبع هناك تساؤلات عديدة متعلقة بكيفية أن تقوم الدولة بوضع الضوابط الفنية والعلمية من أجل تكوين استراتيجية واقعية للتعامل مع التكنولوجيات المستقبلية من منظور أهدافنا القومية. وهذا يحتاج بالطبع للتخصص العميق والإلمام الواعى بالأبعاد الحاضرة والمستقبلية للتكنولوجيا محل المناقشة.

وفيما يلى سوف نناقش بعضًا من المفاهيم والمحاذير المتعلقة بأسس نقل التكنولوجيا إلى الدول النامية التى تتطلع إلى اللحاق بعجلة التطور التكنولوجى قبل فوات الأوان.

بداية، يمكننا القول أن التكنولوجيا هى المعرفة. معرفة كيفية القيام بالأشياء المفيدة. وفى أية شكل من أشكال النشاط الاقتصادى لابد أن توجد التكنولوجيا، ومن ثم فإنه قبل البدء فى القيام بالنشاط الاقتصادى أيا كان حجمه أو نوعيته يتحتم وجود هذه المعرفة الأولية. لكن التكنولوجيا ليست موزعة على خريطة العالم عشوائيًا كما يبدو من بعض النماذج التى يقدمها الاقتصاديون بل أنها

خضعت فى توزيعها لاعتبارات التطور التاريخى وتركزت فى مناطق معينة من العالم وعلى وجه التحديد فى دول الشمال المتقدم.

ويعتبر الإختلاف فى سرعة حركة التاريخ بالنسبة للتطور التكنولوجى أحد الفروق المميزة بين الظروف التى تواجهها الدول النامية اليوم، وتلك التى كانت تواجهها الدول المتقدمة وقت بداية التصنيع بها. فلقد كان أمام هذه الدول عدة قرون، حدث فيها التغيير تدريجيًا، وسمح بذلك بعملية تكيف واستيعاب هادئين. ولكن معامل التغيير (Coefficient of Changeability) الذى بدأ من نقطة منخفضة جدا فى القرون الوسطى، أخذ يرتفع ولازال بمعدل متزايد. وهكذا أصبحت الدول النامية بصفة عامة فى الوقت الحاضر تواجه سلسلة من التغيرات التكنولوجية التى لا تقوى على إستيعاب الكثير منها إلا بجهد خارق، حتى تتمكن من الحيلولة دون اتساع الفجوة بينها وبين الدول المتقدمة بما يترتب على ذلك من فوارق ضخمة فى كل المؤشرات المعبرة عن التقدم.

وحاليا، نقل التكنولوجيا وليس خلقها أو ابتكارها هو الأسلوب الأكثر انتشارا فى العديد من الدول التى ليست لها القدرة على أن تكون (رائدة) فى التقدم التكنولوجى والتطبيقات الصناعية والإنتاجية الحديثة.

لقد أصبح نقل التكنولوجيا من سمات هذا العصر ويتم بين الدول الصناعية الكبرى والشركات والمؤسسات العلمية والإنتاجية على

مقياس واسع. ويتعذر على أى دولة أو مؤسسة كبرى أن تعيش دون أن تنقل تكنولوجيا ما فى فرع أو آخر، أو بالنسبة لمنتج أو سلعة أو خدمة. وبالتالى يجرى بيع وشراء التكنولوجيا، وواقع السوق التكنولوجي يشير إلى دخول العنصر التجارى قد غير من مضمون عملية نقل التكنولوجيا، ومن ثم أصبح يحتوى على مايطلق عليه «حقوق التسويق» أى حق الحصول على علامة تجارية معينة وتسويقها.

ونقل التكنولوجيا فى أبسط تعريف له هو انتقال المعرفة من البلد الأم حيث تم التوصل إليها أو اكتسابها إلى شعب آخر فى بلد ثان للاستفادة منها. وهذه العملية الاتصالية قد تحدث خارج السوق أو تأخذ شكل التعامل التجارى ومن الصعوبة التفرقة بين مصطلح نقل التكنولوجيا وغيره من المصطلحات المقاربة له فى المعنى مثل انتشار الابتكار (Diffusion of Innovation). فالأخير يعتبر عملية تبن Adaption مكونة من خمس مراحل هى: إدراك وجود الابتكار والاهتمام به ثم تقييمه وتجربته وتبنيه. وحين يكون الابتكار هو التكنولوجيا، فإن النقل يحدث حين يتم تبنى الابتكار. أما بيع التكنولوجيا، فيقع حين تكون التكنولوجيا جزءا أساسيا من الصفقة فى حوزة طرف لا يتخلى عنها إلا بمقابل مادى. وهذا الاستحواذ أو «الملكية» قد تأخذ شكل احتكار للمعرفة المطلوبة وهذا كثيرا ما يحدث مع ظهور أو تطوير لها أو نتيجة للقيود القانونية التى تحمى مالكى التكنولوجيا. ومن ثم تتاح لهم الفرصة لبيعها كما

تحدث من التقليد من خلال العلامات التجارية. وفى الحالتين، فإن العنصر الاحتكارى الذى دخل السوق يتيح لمالكى التكنولوجيا أن يربحوا أرباحا ضخمة تفوق التكلفة الحقيقية للنقل.

ويتسم نظام سوق التكنولوجيا فى الظروف الحالية، بسمات خاصة تختلف عن نظام الأسواق التقليدية بشكل جوهرى، فالعلاقات بين الدول البائعة للتكنولوجيا والدول المشترية تحمل طابعا ذا جوانب متعددة يتجاوز الإطار التقليدى لعلاقات الشراء والبيع طالما أنها تمتد لفترات زمنية تؤتى نتائج تؤثر على مستقبل التنمية الاقتصادية للدول المشترية. وكقاعدة عامة يمكن القول أن الدول البائعة تتحكم بشكل ما فى مصير التكنولوجيا التى تبيعها عن طريق فرض مختلف الشروط والتحفظات المتعلقة باستخدامها. أما فيما يتعلق بالتبادل «الحر» للمنجزات العلمية والفنية وإمكان نقلها إلى أى دولة فى العالم طالما توافرت لديها الإمكانيات اللازمة لاقتناء هذه المنجزات فالأمر ليس بهذه البساطة، حيث أن السوق الرأسمالى للتكنولوجيا لا تتيح فى الواقع فرصا متكافئة للدول المشترية وخاصة إذا كانت من الدول النامية.

والجدير بالذكر أنه وعلى امتداد فترة تاريخية طويلة ترجع بدايتها إلى الثورة الصناعية كان التعبير الصريح عن الاستغلال والعلاقات غير المتكافئة ينعكس على مبادلة المواد الأولية بالسلع كاملة الصنع بين الدول النامية والمتقدمة. ولا شك أن الثورة العلمية

التكنولوجية قد أحدثت ولاتزال الكثير من التعديلات الجوهرية على الهيكل المادى للتبادل بين طرفى التعامل فى سوق التكنولوجيا.

وعلى الرغم أن الدول النامية التى تدخل فى نظام تقسيم العمل الدولى الرأسمالى تبذل جهدا كبيرا من أجل الإسراع بعملية التصنيع، إلا أن الوضع غير متكافئ وتبعيتها الاقتصادية بدرجات متفاوتة للدول المتقدمة (فى ظل النظام العالمى الجديد) لاتزال قائمة، ومع ازدياد التفوق العلمي والفني للدول المتقدمة تزيد درجة عدم التكافؤ في علاقة الدول النامية بها. وتؤثر التكنولوجيا بشكل فعال على الهيكل الاقتصادى للدول النامية وكذلك على عملية التطور الاجتماعى والاقتصادى بصفة عامة. فالدول الرأسمالية لا تصدر التكنولوجيا فقط وإنما تصدر أيضا العلاقة بين الإنتاج والرأسمالية، فنفقات نقل التكنولوجيا لا تشكل الشروط العاملة فحسب، مثل شكل الملكية وطريقة توزيع الأرباح وفترة الضمان.. إلى آخره بل تتعلق بشروط خاصة بتوريد مستلزمات الإنتاج والمعدات وقطع الغيار واستخدام خبراء أجانب.. إلى آخره. وهكذا يتضح تناقض مصالح الطرفين المتعاملين فى سوق التكنولوجيا.

ويمكن القول أن خصائص العلاقات المتبادلة فى السوق الرأسمالية للتكنولوجيا لم يتم تحديدها على نحو كاف من الدقة بحيث تصل إلى قواعد عامة فى هذا الصدد، ومع ذلك فإنه يمكن اكتشاف بعض «قواعد اللعبة» التى تحافظ عليها الدول المتقدمة والاحتكارات العاملة بها فى الدول النامية المشترية للتكنولوجيا.

ففى الحالات التى تملك فيها الشركات الأجنبية مشروعات فى الدول النامية، نجد أن الشركات الأم تخول فروعها سلطات واسعة بشأن استخدام براءات الاختراع وحقوق التصنيع والانفاق على البحوث وما شابه ذلك. وكلما تزايدت درجة الرقابة على نشاط تلك الفروع لجأت الشركات الأم إلى تقليص سلطاتها فيما يتعلق باستخدام تكنولوجيا الشركة الأم. وفيما يتعلق بالمشروعات الوطنية فإن ما يقدّم لها من تكنولوجيا عادة يكون مقترنا بشروط تجارية مجحفة تحد من إمكانيات انطلاق الاقتصاد الوطنى.

وقد تنجح خطط نقل التكنولوجيا إذا ما توفرت الشروط التالية :

١ – حسن الاختيار.

٢ – شروط النقل – فنيا واقتصاديا وماليا.

٣ – توافر القدرة المحلية للتطويع الإنتاجى.

٤ – حساب تكلفة العائد بحيث يزيد على النفقات.

٥ – تفادى الإضرار بالأجهزة التكنولوجية والإنتاجية المحلية.

ولكى نوضح كيفية تنفيذ هذه الشروط لابد من التعرف على الوسائل المتبعة لنقل التكنولوجيا وهى:

أولا : اكتساب المعرفة العلمية والتكنولوجية للأفراد والمؤسسات العلمية والتكنولوجية.

(أ) داخل المؤسسات التعليمية والجامعية.

(ب) في معاهد البحوث والدراسات.

(جـ) فى خارج القطر بإيفاد البعثات للتدريب.

(د) تطوير مراكز الوثائق والمكتبات بغرض نشر المعرفة التكنولوجية.

ثانيا: شراء وتشغيل معدات إنتاج وتطبيق تكنولوجي وتشمل مايلي:

(أ) بناء المصانع وشراء المعدات الصناعية.

(ب) تطوير صناعة الخامات الوسيطة.

(جـ) تكوين وتشغيل مكاتب ومؤسسات تصميم المشروعات الإنتاجية ومراقبة تنفيذها.

(د) شراء المعرفة التكنولوجية وحقوق الإنتاج والعلامات التجارية واستقدام الخبراء وعقود الإدارة.

وبالطبع، هذا ليس بالتحليل الكافى لوسائل نقل التكنولوجيا ولكنه مجرد ذكر مختصر للوسائل التى تلجأ إليها الدول النامية للحاق بركب التقدم. وقد أصبح من الأمور الرئيسية لدى أية دولة أن تستخدم وتستفيد من أحدث التطورات التكنولوجية، أيا كان مصدرها وهى غالبا من إنتاج الدول المتقدمة، ومن ثم يعتمد نموها الاقتصادى عليها.

وعلى الرغم من أن معظم الابتكارات تحدث فـي الـدول المتقدمـة إلا أن هناك مصادر محلية عديدة للتكنولوجيا تـتزايد باسـتمرار فـى الدول النامية مثل الصين والهند والبرازيل وجنوب أفريقيا. وينـادى البعض في دول الجنوب النامى بطرح أسلوب جديـد للحيلولـة دون احتكار دول الشمال المتقدم المستمر لسوق التكنولوجيا المتطورة، وذلك بتصنيع ما يسمى «التكنولوجيا الملائمة» بدلا من اتباع أسلوب نقـل التكنولوجيا القائم.

وقد يكون من المناسب في مصر الآن، البحـث عـن كيفيـة تبنـى مفهوم تصنيع التكنولوجيا الملائمة خاصة فى مجال تكنولوجيا الليزر (غير المستحيلة)، ليس بغرض السيطرة على عناصر هذه التكنولوجيا الحيويـة لتصنيعـها فحسـب، بـل للاسـتفادة مـن تطبيقاتـها فـى المجالات التى تخدم الأهداف القومية للمجتمع.

الباب الثالث

فى الثقافة والتعليم

١ - الثقافة العلمية فى العالم العربى.. لماذا ؟

٢ - جامعاتنا وقضايا العلم والتعليم والبحث العلمى.

٣ - معايير القبول فى الجامعات العربية فى ظل عالم متغير.

- ١ -

الثقافة العلمية فى العالم العربى.. لماذا؟

يجرى فى وسائل الإعلام فى مصر الآن حوار حول استخدام القناة التعليمية الفضائية المصرية من أجل نشر الثقافة العلمية فى مصر والعالم العربى(*)، ويتضمن هذا الحوار تساؤلا عن مفهوم الثقافة العلمية. وبما أننى من أشد المهتمين بهذا الموضوع من حيث المضمون ليس فقط من اجل نشر هذه الثقافة بين الجماهير الراغبة فى إشباع الفضول العلمى لديها بل من أجل قبول التحدى الحضارى الذى نواجهه فى وطننا العربى. لذلك سوف أحاول عرض وجهة نظرى الخاصة وتجربتى الشخصية فى هذا الموضوع.

ولنبدأ أولا بتعريف الثقافة العلمية: الثقافة العلمية هى معرفة الحقائق العلمية والظواهر المصاحبة لها فى شتى فروع العلم فى العلوم الإنسانية والأساسية والتكنولوجية والفنية ونشرها على نطاق جماهيرى واسع، ومن أهم أهداف الثقافة العلمية تبسيط العلوم وتقريبها من ذهن المواطن العادى غير المتخصص ويشمل ذلك كافة الوسائل التعليمية الحديثة بما فيها الصور الجذابة والبرامج التلفزيونية والمطبوعات مثل الكتب والمجلات والصحف إلى آخره.

(*) خاصة بعد إطلاق القمر الصناعى المصرى «نايل سات».

وطبقا لهذا التصور عن الثقافة العلمية كان لى عدة محاولات لتبسيط بعض فروع العلم بحكم التخصص وهى فى مجال الليزر والفيزياء الذرية والنووية والفلكية وصدر لى فى نفس هذه السلسلة كتاب عن أشعة الليزر وآخر عن أسلحة الدمار الشامل بالإضافة إلى عدة مقالات نشرت فى أكثر من مجلة فى مصر والوطن العربى ومازلت أمارس هذا النشاط حتى الآن وهو ما أعتبره – ولعلى لا اكون مخطئا – إسهاماً متواضعاً من جانبي في نشر الثقافة العلمية.

كما أنه يدخل فى إطار تجربتى الشخصية ما لمسته بنفسى خلال إقامتى فى بعض الدول الأوروبية سواء أثناء دراستى فى بعض جامعاتها أو العمل فى بعض مراكزها العلمية. على سبيل المثال فى دولة صغيرة مثل هولندا الذى لا يتعدى عدد سكانها أربعة عشر مليونا، أن علماءها المتخصصين فى المجالات الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية والطبية وفى العلوم الهندسية ينشئون مقالات تتولى التعريف بكل ما هو جديد فى مجالات تخصصهم وتنشر هذه المقالات فى مجلات الهدف من إصدارها هو تمكين القارئ من متابعة ما يستجد فى مجال العلوم بلغة وأسلوب يستطيع فهمه. وهذا بالطبع مختلف عن الأسلوب الذى يكتب به هؤلاء نتائج بحوثهم العلمية ودراستهم الأكاديمية للمتخصصين من أمثالهم، ونموذج واضح لهذا هو صدور كتاب علمى مبسط بعنوان «تاريخ مختصر عن

الزمان» تأليف العالم الإنجليزى «ستيفن هوكنج». هذا العـالم كـان مرشحا للحصول على جائزة نوبل خلال حقبـة الثمانيـات، إلا أنـه أراد أن يعرف المواطن العادى بأهمية التطور فى هـذه البحـوث عـن نشأة الكون وبداية الزمان. ولسهولة قراءته تصدر هـذا الكتـاب عـام ١٩٨٧ م قائمة مبيعات الكتب على مستوى العالم لمدة ثلاث سنوات متتالية، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغـة العربيـة الدكتـور مصطفـى فهمى الذى نال عنه وعن مجمل ترجماته الأخـرى جـائزة الترجمـه عام ١٩٩٦ م التى تمنحها لجنة الثقافة بالمجلس الأعلى للثقافة.

ومما يذكر أن هذا العـالم الإنجلـيزى أصيـب فـى شـبابه بمـرض ضمـور فـى العضـلات أدى إلى شـلل كـامل ولم يبـق منـه متحركـا إلا العقل الذى يفكر به وأصبع واحدة يملى بها مـا يـدور فـى عقلـه على جهاز كمبيوتر مصمم خصيصا له ليعبر به عـن أفكـاره ويتلقـى المساعدون بعد ذلك نتائج قريحته من على شاشة الكمبيوتر ليحولوها إلى مادة مقروءة على النطاق السابق وصفه.

ويدخل فى هذا الباب كتب أخرى فى مجالات الهندسة الوراثية وعلـم الكمبيوتـر والطاقـة والمـواد المتجـددة وهندسـة الفضـاء والـلـيزر وتطبيقاته إلى أخره.

والخلاصة أن عملية تبسيط العلوم ونشرها على أوسع نطاق ممكن لم يتوقف لحظة واحدة فى تلك البلدان المتقدمة ومن غير المتصور أن

يدور حوار عندهم حول ما إذا كان ذلك يدخل فى مجال الثقافة العلمية أم لا، بل من المسلم به أن هذا التبسيط هو أساس الثقافة العلمية المنتشرة بين جماهير شعوبهم. وبالطبع هذا مغاير لبعض ما يدور عندنا بما في ذلك نشر الخرافات والأساطير بدعوى أنها حقائق علمية دون أن يكون هناك جهاز متخصص يتولى غربلة مثل هذه الأعمال واستبعاد الفاسد منها مما يدخل فى باب التضليل العلمي وليس نشر الثقافة العلمية.

إن للخيال العلمى مجاله وهذا يبدو إنتاجه فى بعض الأفلام السينمائية وأفلام الكرتون وأعمال والت ديزنى وما أشبه، ولكن حدود هذا النشاط واضحة معلومة. وليس هناك خلط بينها وبين عملية تبسيط العلوم التى تعنى بتقديم معرفة عملية موثوقة وتقريبها لذهن المتلقى غير المتخصص. أما الآثار الاجتماعية والعقائدية لبعض مكتشفات العلوم الحديثة فهذا لا يدخل فى باب الثقافة العلمية بل هو يدور فى دائرة العلوم الإنسانية سواء كانت قانونية أو دينية أو اجتماعية أو حتى سياسية. فمعرفة أن نواة الذرة حين تنشطر أو تنقسم يمكن أن يحدث انفجارا هائلا مدمرا هو ثقافة علمية ولكن استخدام هذه الطاقة التدميرية الهائلة هى قضية إنسانية سياسية وأخلاقية. وكذلك مسألة الاستنساخ للكائنات الحية، فمعرفة ما هو الاستنساخ يدخل فى مجال الثقافة العلمية ولكن الموافقة على استنساخ كائنات بشرية يدخل فى دائرة العلوم الإنسانية

والاجتماعية وإن كان من غير المعقول أن يصدر جهاز سياسى قرارا باستخدام القنبلة الذرية أو عدم استخدامها دون معرفة ماذا يعنى الانفجار النووى. أى أن الثقافة العلمية هى معرفة الحقائق الأساسية حول نتائج العلوم ضرورة لا غنى عنها لصاحب القرار السياسى والدينى والأخلاقى و القانونى إلى آخره. وبالطبع فإن المجتمع المثقف علميا تزداد قدرة جماهيره على المشاركة فى صنع مثل هذا القرار مما يجعله أقرب لروح الديمقراطية ولكن يبقى كما قال القدماء أن الحكم على الشيء جزء من تصوره! فلم يكن من المعقول مثلا أن يتكلم بعض علماء الدين عن فائدة البنوك ويبادروا إلى تجريمها وتحريمها باعتبارها من الربا دون أن يدخلوا فى اعتبارهم الفرق الشديد بين أموال الناس حينما كانت ذهبا وفضة ثابتة القيمة وبين الأموال الحالية التى هى صكوك ورقية تصدرها المصارف أو ما أشبه قابلة لتناقص قيمتها إلى حد الزوال أو انعدام القيمة كما حدث لبعض عملات الدول التى هزمت فى الحرب العالمية الأولى أو الليرة اللبنانية بعد الحرب الأهلية فيها، حيث ذكر أحد المواطنين اللبنانيين أنه قارن بين سعر طلاء غرفته بورق الحائط وبين طلائها بأوراق الليرة اللبنانية واكتشف أن طلائها بالليرة أرخص، ومع ذلك وليست هناك عملة فى العالم الآن تبلغ قيمتها بعد أن صارت ورقاً أكثر من ٥٠٪ (خمسين فى المائة) من قيمة العملة ذاتها عندما كانت ذهباً. ففائدة البنوك إذًا هى تعويض جزئى عن التدهور المستمر فى أسعار صرف

العملات الورقية بحكم التضخم العالمى. وفى النهاية، فإن فائدة البنوك هى جزء لا يتجزأ من النظام المصرفى الذى يسود العالم الآن ويقوم اقتصاده كله عليه ولابد من التعامل مع النظام المصرفى طبقاً لقواعده التى تعتبر الفائدة جزءًا لا يتجزأ من أركانه وهى العامل المخفف الوحيد تقريبًا لآثاره المدمرة لثروات الأمم. وقياسًا على هذا، فإذا كنا نطالب علماء الدين بأن يعلموا شيئًا فى الاقتصاد وتاريخه ونشأة المصارف وحلول العملات الورقية محل الذهب والفضة إلى آخره فعلينا أن نقدم ثقافة علمية مشابهة عن كل اكتشاف علمى قد يكون له تاثير على حياة الإنسان بما فى ذلك أسلحة الدمار الشامل وآثارها لتقرير مدى مشروعية حيازتها أو استخدامها للدفاع أو للهجوم. وكذلك لابد أن نقدم معرفة وثيقة لجماهير شعوبنا عن نتائج الهندسة الوراثية وما قد يترتب عليها من آثار تتعلق بطعام الإنسان وشرابه. وأهم من ذلك آثارها بالنسبة لمستقبل أفراده إذا ما طبقت على الحياة البيولوجية للإنسان مثل مسألة الاستنساخ التى دارت حولها أحاديث كثيرة ومازالت تدور فى جميع أنحاء العالم.

إن الثقافة العلمية ونشرها على أوسع نطاق قد أصبح ضرورة بالغة الحيوية وخاصة فى مجتمع مثل مجتمعنا العربى الذى يواجه تحديًا هائلاً يتمثل فى الغزو الصهيونى والكيان الذى قام عليه ومن المعروف أن هذا الكيان وإن كان لا يضم إلا قلة من البشر بالقياس إلى تعداد شعبنا العربى إلا أنه يملك وسائل العلم والتكنولوجيا فى

مختلف المجالات بما فى ذلك مجال الأسلحة واحتكاره المعروف للسلاح النووى، كل ذلك يملى علينا أن نتخذ من الثقافة العلمية أداة لجعل جماهير شعوبنا على مستوى التحدى الذى تواجهه فضلاً عن التحديات الأخرى التى تتمثل فى تخلفنا الطويل بالقياس إلى مجتمعات أخرى سبقتنا كثيراً فى مجال العلم والمعرفة.

وأحلامنا عن تحقيق نهوض اقتصادى على مستوى العالم العربى عن طريق السوق العربية المشتركة لا تنفصل البته عن مساعينا لتوحيد الجهد العلمى للوطن العربى. ولكى يتم هذا التوحيد ويحس مواطنونا العرب بالضرورة القصوى لهذا التوحيد كخطوة نحو الارتقاء العلمى ومحاولة اللحاق بركب ثورة المعلومات والتكنولوجيا المعاصرة فإن تثقيف شعبنا العربى علميًا بكافة الوسائل سواء فى ذلك المطبوعات أو البرامج التلفزيونية أو الأحاديث الإذاعية قد أصبح قضية ملحة ينبغى على القائمين بالأمور وذوى الرأى تدارسها بكل جدية وإخلاص وتجرد باعتبارها مسئولية وطنية وقومية بالدرجة الأولى من الأهمية.

- ٢ -

جامعاتنا وقضايا العلم والتعليم والبحث العلمى

احتل الحديث عن واقع مؤسسات البحث العلمى فى مصر وغياب استراتيجية متكاملة لتطوير برامج البحوث والنهوض بها، من أجل خدمة برامج التنمية فى مصر والعالم العربى اهتمام كافة المسئولين السياسيين والمفكرين والأكاديميين. وينادى البعض الآن بعودة الجامعات للإشراف على برامج البحوث العلمية، فهى دائماً معاقل العلم الأساسية وهى الأصل لجميع المؤسسات العلمية ومعاهد البحوث المتخصصة.

وقديماً وقبل أن تتسع الجامعات هذا الاتساع الكبير فى العلم والتعليم، كانت الجامعات تسع العلم والتعليم والبحث العلمى. لكن التطور الطبيعى لتفرع ميادين العلم المختلفة، أدى إلى نمو مؤسسات علمية مختلفة واستقلالها عن الجامعات، مما أدى بالتالى إلى تشتت الجهود وتعدد جهات الإشراف وضياع الأموال وتخبط الخطط العلمية، نتيجة عدم التنسيق الكافى بين هذه المؤسسات وأجهزة الرقابة على تنمية برامج البحوث والتكنولوجيا فى مصر.

فمن المعروف أن الجامعات تضطلع أساساً برسالتين هما:

الرسالة الأولى: هى التدريس للطلاب الجامعيين وتدريبهم فى المكتبات والمعامل خلال سنوات الدراسة المختلفة، حتى يتم الحصول

على درجة البكالوريوس والليسانس ومـن ثـم يتـأهلون إلى الدراسـات العليـا للدبلومـات والشـهادات العاليـة. هـذه هـى الرسـالة الرسميـة والحقيقية للجامعة، فالجامعة هى المرحلة التـى تلىمرحلـة الدراسـة الثانوية، تتولى الطلاب بعد المدارس الثانوية وتدخلهم مرحلة الصقل الرفيع بما فيها من تفتق فى الذهن وتوسيع فى الأفـق والـتردد علـى المكتبات والتدريب على التنقيب فيها عن نواحى العلم المختلفة.

كانت هذه الرسالة سهلة علـى الجامعـات عندمـا كـانت الأعـداد الطلابيـة معقولـة ومحتملـة. أمـا الآن والأعـداد تـتزايد تزايـدًا هـائلا بالإضافة إلى اتساع العلم والمعرفة اتساعًا هائلاً أيضًا ، فـالمطلوب مـن الجامعات أن تمنح هؤلاء الطلاب ثقافة جامعية عالية لإيقافهم علـى عتبات البحث فى فروع العلم وتجعلهم يدركون ويفـهمون مـا يجـرى من حولهم فى مجال علـوم المستقبل مـن أبحـاث الليـزر وتطبيقاتـه والهندسـة الوراثيـة وتكنولوجيـا الفضـاء والتوصيـل الفـائق والمـواد الجديدة وتعدد تكنولوجيا التشخيص الطبى ووسائل العلاج الحديثـة وأبحاث الميكنة الزراعية وأبجاث الطاقة المتجددة إلى أخره.

والآن فى هذا التشعب العـام وفـى منـاص العلـم المختلفـة صـارت المهمة شاقة وعسيرة على الجامعات للقيام بها.

الرسالة الثانية: هى رسالة الإشعاع علـى المجتمـع والعـالم عـن طريق إجراء البحوث العلميـة المتعمقـة والمتخصصـة التـى تـهدف إلى

إماطة اللثام عن أسرار العلم بما يعود بالفائدة على خدمة برامج التنمية فى المجتمع.

ومع تطور الزمن، اتسع كل شيء، اتسع نطاق التعليم الجامعى اتساعًا كبيرًا وتشعبت الأمور، ابتداء من تكدس الطلاب إلى كيفية اختيار الأساتذة الجامعيين من أعضاء هيئة التدريس المؤهلين لتعليم هؤلاء الطلاب. والجامعات بحكم مركزها، هى مراكز الاتزان فى المجتمع، عليها أن تضاعف من حركتها لتلم فى برامجها النظريات الحديثة فى العلم وتوجيه الشباب إلى اعتناق الفكر الأكاديمى فى معالجة قضايا المجتمع.

إلا أن تعقيد الحياة بهذا الشكل أصاب الشباب بصفة عامة وطلاب الجامعات بصفة خاصة بلوثة انحرافات بدت فى كثير من البلاد، انتشرت فى جامعاتنا على شكل مذاهب سياسية وعقائدية وغيرها وصار الشباب ملتوياً فكراً. بالإضافة إلى ذلك انتشار المخدرات والجنس بين الشباب. وللأسف الشديد، نرى استغلال بعض الأساتذة لهذه الظروف وانتشار ظاهرة الدروس الخصوصية بالجامعات بعيداً عن التقاليد الجامعية والقدوة الحسنة. وبذلك أصبح التعليم سلعة تباع وتشترى وعلى من يدفع أكثر يحصل على التفوق وتبوؤ المراكز المرموقة.

وبالطبع، ليس غير الجامعات ملاذًا لفك هذا الالتواء الذهنى وإعادة التقويم ليعود الجميع طلاباً وأساتذة إلى رشدهم ويسلكوا الصراط السوى والنهج السليم.

هكـذا صـار التعليـم والتثقيـف شـديدًا علـى الجامعـات وصـارت محتاجة إلى تكريس الوقـت كـل الوقـت لمواصلـة الإشـعاع للتثقيـف والتقويم.

مقترحات من أجل النهوض بقضايا العلم والتعليـم فـى الجامعـات المصرية:

١ - إرساء قواعد جديدة لاختبار الطلاب عند التحاقهم بالكليات التخصصية بالجامعة، لا تعتمد فقط على المعدل فى درجات الطلاب بل تبرز قدراتهم وميولهم الحقيقية للتعليم. ويمكن أن يتم ذلـك مـن خلال الكليات فى ظل قواعد صارمة محكومة.

٢ - إعادة تأهيل أعضاء هيئة التدريس بما يخدم أهداف الجامعة العلمية والتعليمية من خلال برامج حقيقية فى مناهج التربيـة وعلـم النفس وتبسيط العلوم وطرق التدريس.. إلى أخره.

٣ - استحداث درجة «مدرس جـامعى تحـت الاختبـار» لفترة زمنية لا تقل عن عامين، لأعضاء هيئة التدريس الجدد من الحاصلين على درجة الدكتوراه. خلال هذه الفترة يتم قياس المهارات الأساسية للمدرس وإلمامه بالعملية التعليميـة مـن إلقـاء المحـاضرات وتحضـير المحاضرات والمواد العلمية بكفاءة ودرجة استيعاب الطلاب. ويجب أن يكون ذلك تحت إشراف لجنة دائمة تشكل من الأساتذة الأكفـاء العاملين فى هذا المجال.

٤ – تشديد الرقابة وتنفيذ العقوبة المنصوص عليها فى اللوائح المنظمة لشئون الجامعات على أعضاء هيئة التدريس المخالفين للنظم والقوانين الجامعية بما فيها إعطاء الدروس الخصوصية.

٥ – وضع قواعد جديدة لترقى الأساتذة بالجامعات تأخذ فى الاعتبار المشاركة الفعلية لخدمة أهداف الجامعة وتنمية المجتمع.

٦ – منح قدر من الحرية الأكاديمية لأعضاء هيئة التدريس من أجل السيطرة على الانحرافات الفكرية لدى الشباب.

البعثات ونظام القنوات العلمية:

وأمام مشكلة التكدس الطلابى، نرى على سبيل المثال اتخاذ قرار فى الجامعات المصرية بإنشاء ما يسمى بالجامعات الإقليمية، بحيث أصبح عدد الجامعات فى مصر الآن ثلاث عشرة جامعة هى: جامعات القاهرة وعين شمس والإسكندرية والأزهر وهى الجامعات الأم، تبعتهم جامعة أسيوط ثم تبعها ومنذ عام ١٩٧٣ م وحتى الآن جامعات حلوان والمنصورة والمنوفية والمنيا وقناة السويس وطنطا والزقازيق وجامعة جنوب الوادى. وسوف يلحق بها عما قريب ست جامعات أخرى هى جامعات بنها ودمنهور وبنى سويف والعاشر من رمضان و ٦ أكتوبر بالإضافة إلى إنشاء عدد من الجامعات الأهلية.

وكان للقرار السياسى للتوسع الأفقى فى زيادة عدد الجامعات بالغ الأثر فى الطاقة الاستيعابية المقابلة للزيادة فى أعداد الطلاب

إلا أن هذه الجامعات الوليدة تم إنشاؤها دون التخطيط العلمي السليم وعمل البنية الأساسية لها وإعداد الكوادر من أعضاء هيئة التدريس التي تتحمل أعباء العلم والتعليم والبحث العلمي.

وتحت الضرورة الملحة لاستكمال مسيرة تطوير التعليم الجامعي في مصر، اتجهت الدولة إلى اتباع سياسة جديدة عند إيفاد البعثات المصرية للدارسين خارج القطر بغرض الحصول على درجة الدكتوراه فلسفة خاصة في التخصصات النادرة، اعتمدت بدلاً عن ذلك سياسة ما يسمى «القنوات العلمية». وفي ظل هذا النظام منحت الجامعات المصرية أعداداً كبيرة من الباحثين درجة الدكتوراه فلسفة، بحجة استكمال أعضاء هيئة التدريس بالجامعات، دون الإلمام بالأهداف الحقيقية لدور الجامعات في خدمة برامج التنمية في المجتمع.

وبناء على ذلك، فقد أفرزت الجامعات في العقدين الماضيين كوادر جامعية غير مكتملة، تتبوأ المراكز الحساسة بها وبالتالي تشرف على أمور هامة للعلم والتعليم والبحث العلمي. مما يتطلب إعادة النظر في خطط البعثات ومراعاة المقترحات سالفة الذكر.

الجامعات وقضايا البحث العلمي:

أما من ناحية البحث العلمي فلقد اتسع هو الآخر بدوره اتساعاً كبيراً، حتى صار لا يكفي الوقت كله لتتبع ما استحدث فيه ومسايرة

ركبه. لهذا صار عسيراً على الجامعات أن تتحمل كما كانت سابقاً مركز العلم والتعليم والبحث العلمي، كانت كذلك والعلم سهل بسيط. أما الآن مع اطراد التوسع فى كل شيء والتعقيد فى كل شيء فلم تعد الجامعات متسعاً لكل شيء.

وقد أدركت مصر ذلك وقامت بتأسيس مؤسسات علمية مستقلة عن الجامعات للنهوض بقضايا البحث العلمي. على سبيل المثال، اهتمت الدولة بإنشاء أول هيئة لتنظيم البحث العلمي على المستوى القطرى عام ١٩٣٩ م. وفى عام ١٩٥٦ م تم إنشاء المركز القومى للبحوث، وفى عام ١٩٧١ تم إنشاء أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا، وهى حتى الآن تعتبر الجهاز المركزى الرئيسى للتخطيط العلمي والتقني. هذا بالإضافة إلى أن الدولة اهتمت بإنشاء عدد من المعاهد العليا التى تتبع الأكاديمية مباشرة نذكر منها معهد الأرصاد الفلكية والجيوفيزيقية ومعهد علوم البحار والمصايد ومعهد بحوث البترول والمعهد القومى للمعايرة ومعهد تيودوربلهارس للأبحاث ومركز تطوير الفلزات وكذلك مركز الاستشعار عن بعد وجهاز تنمية وتعمير سيناء وجنوب الوادى. وهناك أيضاً عدد من الأجهزة العلمية المعاونة وهى المركز القومى للإعلام والتوثيق والمكتبة العلمية القومية والإدارة العامة للإحصاء العلمى والمكتب التنفيذى لمعلومات البيئة وجهاز نقل وتطوير التكنولوجيا ومكتب براءة الاختراع ومركز الأجهزة العلمية ومتحف العلوم. هذا وتجد مراكز

بحوث عديدة تابعة لوزارات مختلفة وتشير الإحصاءات إلى أن القوى البشرية العلمية العامة فى مجال البحوث العلمية فى مصر تصل إلى ٥٠ ألف من المؤهلين بدرجة الماجستير والدكتوراه.

وبالطبع فإن مسئولية استمرار البحث العلمى وتطويره يقع فى جملته على عاتق هذه المراكز التى تعتبر وليدة الجامعة وامتداداً لها منبثقة منها ومكملة لها.

ونظراً لكون تكاليف البحث العلمى أصبحت الآن باهظة لا تستطيع أى من هذه المراكز منفردة ولا أى جامعة أن تتحمل نفقاته، بالإضافة إلى تعدد التخصصات بها واختلاف وجهات النظر البحثية وتكرار الأجهزة العلمية المستخدمة فى البحوث بالإضافة لتكرار نوعية الأبحاث الجارية وبالتالى انخفاض مستواها الأكاديمى، هذا مع العلم بأن استمرار البحث العلمى وتطويره يحتاج إلى قاعدة سليمة من البنية التحتية الأساسية وورش صيانة وكوادر فنية مدربة لخدمة الأجهزة العلمية المستخدمة، وبالطبع هذه الإمكانيات غير متوفرة ليس فقط لضعف الميزانية المحدودة بل لتهالك معظم الأجهزة العلمية وبيروقراطية الإدارة التى تعيق من مسيرة البحث العلمى فى مصر والدول العربية الأخرى.

ومن أجل ذلك أصبح حتميًا ضرورة وضع استراتيجية شاملة لتحديد الأهداف العليا من قضايا العلم والتكنولوجيا وتركيز الجهود من أجل النهوض بها.

ويكون ذلك من خلال إنشاء مراكز عربيـة علميـة متخصصة فـى فـروع العلـم الحديثـة والتـى تخـدم الأمـن القومـى العلمـى العربـى (ARAB-ATOM) فـى مجـالات الليـزر والهندسـة الوراثيـة والإلكترونات الدقيقة والحاسب الآلى والمواد الجديدة وأبحاث الفضاء والطاقة المتجـددة.. إلى آخـره. وتشـرف هـذه المراكـز علـى تدريـب الكوادر الفنية العلمية بغرض تنمية مجالات البحـوث بـها للسـيطرة على مقدرات التكنولوجيا التى تؤهلنا جميعاً للحاق بركب الحضـارة نحو القرن الحادى والعشرين.

- ٣ -

معايير القبول في الجامعات العربية
في ظل عالم متغيير

مما لاشك فيه أن العامل البشرى يلعب دورا بارزا في خطط التنمية كأحد موارد الإنتاج البشرية لما يتميز به من إمكانيات النمو والقدرة على تسخير باقي الموارد الأخرى، ولذا اهتمت جميع الدول المتقدمة منها والنامية بالتعليم ومنحته الكثير من الإمكانات والاهتمامات إيمانا منها بأن العنصر البشرى ظل وسيظل أهم عناصر التنمية، وأن التنمية الشاملة التى تعطى الجانب البشرى ما يستحق من بناء هي الاتجاه الصحيح، فعلى إدراك الإنسان لدوره في الحياة، وكفاءته في الإنتاج، وعلى قدرته على العطاء يكون قياس التنمية صعوداً وهبوطاً، والحكم عليها نجاحًا وفشلاً

فالمجتمعات تعيش الآن عصرًا يزداد فيه اقتران العلم بالحياة، بل لعله ركنٌ من أركانها، ولكى يستطيع الإنسان أن يعيش وسط هذا الاستعمال الضخم لنتائج المعرفة سواء تمثلت فى كلمة مكتوبة أو آلة معقدة عليه أن يتعلم هذا الاستعمال، بل ويتعلمه بإتقان سواء أكان ذلك في مؤسسة تعليمية أو خارج النظام التعليمي.

وحاليا تتجه معظم الدول النامية ومن بينها الدول العربية في التركيز على تنمية ثرواتها البشرية والعمل على حسن استخدامها،

فتنمية البشر وبنائهم عن طريق التعليم أفضل وأبقى من المنجزات المادية والموارد الطبيعية، والمثل أمامنا قائم فى التجربة اليابانية والتى أثبتت أن التقدم الصناعى والتكنولوجى لم يعد يتحقق حيث تتوافر المصادر الأولية - كما كان معروفا فى الجغرافيا الاقتصادية - بل حيث توجد الخبرات والمهارات، فبالرغم من محدودية المواد والخامات الأولية فى اليابان، فقد استطاعت أن تحقق نجاحا باهرا فى كثير من القطاعات مثل صناعة السيارات والأجهزة الإلكترونية وبناء السفن والصناعات الكيماوية وأصبحت تنافس أكثر الدول تقدمًا فى الأسواق العالمية.

من هذا المنطلق فقد شهد النصف الثانى من القرن العشرين اهتمامًا كبيرًا بالتعليم وخاصة التعليم العالى والجامعى - فى معظم بلاد العالم، وقد صاحب هذا الاهتمام توسع هائل وزيادة كبيرة فى عدد المؤسسات التعليمية وإعداد الطلاب وأعضاء هيئة التدريس.. وقد أدى هذا التوسع والنمو الكمى للتعليم الجامعى فى الدول العربية وبعض الدول النامية إلى أشكال متعددة من الظواهر السلبية أو ما يشبه الأزمة فى مدخلات ممثلة فى عجز نظام التعليم الجامعى عن استيعاب الراغبين فى الالتحاق به وارتفاع الكثافة الطلابية للجامعات، وعجز مستوى التعليم عن ملاحقة التطور العلمى والتكنولوجى العالمى والسريع، وكذلك النقص الحاد فى المعامل والتجهيزات والمكتبات نتيجة للفجوة المتزايدة بين نفقات التعليم

المستمر فى الارتفاع وبين الاعتمادات المالية المخصصة له. أو فى مخرجات النظام ممثلة فى تلك الأعداد المتزايدة من الخريجين المعطلين عن العمل أو المنفصلين عن حاجات المجتمع الحقيقية للعمل.. ومن هنا بدأت المجتمعات بمختلف صورها تطالب بالخروج من هذه الأزمة.

ولعل هذه الدراسة التى تتناول معايير القبول فى التعليم الجامعى وأهدافه وما يتعلق بها من متغيرات تلقى بعض الضوء على العديد من المشكلات بالإضافة إلى بعض الاقتراحات فيما يتعلق بهذا الموضوع الحيوى.

وظيفة الجامعة وأهدافها فى عالم متغير:

تختص الجامعات بكل ما يتعلق بالتعليم فى المستوى الجامعى والبحث العلمى الذى تقوم به كلياتها ومعاهدها فى سبيل خدمة المجتمع والارتقاء به حضاريًا متوخية فى ذلك المساهمة فى رقى الفكر وتقدم العلم وتنمية القيم الإنسانية وتزويد البلاد بالمتخصصين والفنيين والخبراء فى مختلف المجالات، وإعداد الإنسان المزود بأصول المعرفة وطرائق البحث المتقدمة والقيم الرفيعة، وتعتبر الجامعات بذلك معقلاً للفكر الإنسانى فى أرفع مستوياته، ومصدراً لاستثمار وتنمية أهم ثروات المجتمع وأغلاها وهى الثروة البشرية،

وتهتم الجامعات كذلك ببعث الحضارة العربية والإسلامية والتراث التاريخى للشعب العربى وتقاليده الأصيلة، ومراعاة المستوى الرفيع للتربية الدينية والخلقية والوطنية، وتوثيق الروابط الثقافية والعلمية مع الجامعات الأخرى والهيئات العلمية العربية والأجنبية.

ويتضح من هذا التعريف أن وظيفة الجامعة الأساسية هى الإسهام فى إثراء المعرفة والفكر الإنسانى وكذلك الإسهام فى إحداث التغيير للارتقاء الحضارى، وأن وسيلة ذلك البحث العلمى والتطوير وتكوين الإنسان القادر على الابتكار والمبادأة.

ونظرًا لأن الجامعة لا تعيش بعيداً عما يجرى فى العالم من متغيرات تؤثر فى التعليم وتشكل مستقبله، وأن هذه المؤثرات والقوى لها جذور قومية كما أن بعضها لها طابع دولى عالمى، فإنه من المناسب أن نعرض نظرة عامة على تلك المتغيرات الرئيسية المتعددة والمعقدة والمتنوعة والتى تلعب دورًا أساسيًا فى تخطيط التعليم ورسم سياسته وأهمها ما يلى:

أولاً: التغيرات الاقتصادية:

ويتمثل أهمها فى النقاط التالية:

١ - الانتقال المفاجئ الذى تم فى أوائل السبعينات فى معظم بلاد العالم من العجز الكبير فى القوى البشرية المتعلمة إلى الفائض

فى هذه القوى، إذ حان الوقت الذى فاقت فيه المخرجات وبخاصة المستويات الثانوية والجامعية قدرة الاقتصاد على إنشاء وظائف جديدة. فانتشرت ظاهرة البطالة بين المتعلمين من دولة إلى أخرى.

٢ - تحول رئيسى فى نمط اتجاهات القوى البشرية الدولية وتناقص ظاهرة هجرة العقول من الدول النامية إلى الدول المتقدمة.

٣ - الركود الاقتصادى الشديد على مستوى العالم، وازدياد حدة التضخم أثرا فى الأنظمة التعليمية تأثيرًا واضحا زادت البطالة بين الخريجين. وأصبحت ميزانية الأنظمة التعليمية تشكل عبئا على الميزانية العامة.

٤ - والعامل الهام الذى تمتد عواقبه بعيدا بالنسبة للتعليم والعمالة، هو التكنولوجيا المتقدمة.

فالراصد لما يدور فى العالم يشعر أن هذه التكنولوجيا موجهة لرفع الإنتاجية وتحرير الإنسان من بذل الجهد العضلى والذهنى لرفاهيته، ومواجهة متطلباته المتزايدة من السلع والخدمات من خلال أجهزة ومنظومات عديدة تعتمد أساسًا على الإلكترونيات الدقيقة وكذلك الانتقال السريع إلى الأتومية سواء فى الإنتاج أو المكاتب

كل هذا قد أدى إلى تغير مستويات التعليم والتدريب والمهارة وأنواع العمالة، فهناك كثير من المهن والحرف تختص وتظهر أنواعاً

جديدة وما يؤدى ذلك إلى كثير من مشاكل البطالة وصعوبة إعداد النوعيات الجديدة بالسرعة الموائمة للتغير.

ثانياً: التغيرات السياسية:

إن التغيرات السياسية المضطربة والتى صاحبت التغيرات الاقتصادية العالمية فى السبعينات وأوائل الثمانينات قد تركت هى أيضا أثرها على التعليم، وبعض هذه التغيرات كانت سلبية وإيجابية وبعضها الآخر كان يتضمن الصراعات والصدمات ومن ثم كان لها الآثار السلبية على التعليم. إن الراصد لحركة التاريخ لا يخطئ وجود علاقة وثيقة بين الابتكارات الحضارية وبين الحريات التى تعمل على حفز عقول أبنائها وإطلاق طاقاتهم بالإضافة إلى ذلك فإن الانتشار والتطور الهائل فى نظم ووسائل الاتصال الحديثة والتى جعلت العالم يبدو وكأنه بقعة صغيرة عما قبل قد أثارت الأفراد نحو حياة أفضل، وبالتالى نحو حياة فيها قدر أكبر من التعليم، ومن ثم تعميق دور التعليم المستمر فى معظم الدول.

ثالثاً: التغيرات السكانية:

إن الأنظمة التعليمية فى البلاد النامية وجدت مشقة كبيرة فى الاحتفاظ بما تقدمه من خدمة للمجتمع فى مواجهة الزيادة الكبيرة فى إعداد الطلاب الذى تقع أعمارهم فى نطاق سن الدراسة، ومشقة

أكبر بكثير فـى تحقيق التقدم نحـو الأهـداف التـى تبنتـها نظمـها التعليمية.

هذا السباق بين التعليم والنمـو السـكانى استمر بسـرعة محمومـة طوال السبعينات بلا أمل فى أى توقف طوال العقدين التاليين.

هذه الحقائق أثبتت وأكدت أن غالبية من الأقطار الناميـة كـانت فى الواقع قد حققت تقدما ملموساً، قياسا على النمو الإحصائى لكل من جملة إنتاجها القومى، ولعدد المقيدين فى المدارس والجامعـات، ولكن الحقائق كشفت أيضا فى الوقـت ذاتـه عـن نمـط مـن التنميـة الاقتصادية والتعليمية مفرط فـى عـدم توازنـه، وفـى عـدم تكافئـه، فالفجوة بين الريف والحضر قد اتسعت بدلاً من أن تضيق، وانتشرت البطالة، والبطالـة المقنعـة، وتضـاءل الإنتـاج الغذائـى فـى مواجهـة الزيادة السكانية وغيرها من مظهر الخلل وعدم التوازن.

ومع ذلك، فإن هذه الصورة لنواحى الخلل فى مسيرة التنمية فى الدول النامية والتى اتضحت فى السبعينات يجب ألا تكـون موضـع مبالغـة، فقـد كـان بـها أيضا جوانـب مشـرقة توحـى بـالأمل فـى المستقبل، فلو أن البطالـة كـانت آخـذة فـى الزيـادة، فقـد أنشـئت وظائف أخرى كثيرة مجزية وعالية الأجر، كمـا أن ظـروف المعيشـة تحسنت بالنسبة لأقلية محدودة، إن لم يكن بالنسبة للأغلبية الأكثر فقرا، وفوق ذلك كله فإنه رغم ما صاحب هذه الصـورة مـن سـلبيات

فإن الأنظمة التعليمية التى زاد انتشارها والتوسع فيها فتحت آفاقا جديدة للملايين من المحرومين وبخاصة من الشباب ووفرت لهم حراكا اجتماعيا صعد بهم إلى مراتب اجتماعية أعلى وأرفع، كما أن هذه الأنظمة فى أقل من عقدين زادت بشكل واضح من حجم القوى البشرية المتعلمة تعليماً عاليا أو متوسطا، والتى كانت نادرة فيما قبل، أصبحت الآن لازمة لدفع هذه الأقطار النامية إلى الأمام أكثر من السنوات القادمة.

رابعاً: المتغيرات العلمية والتكنولوجية:

يتميز عالمنا المعاصر بالتغير السريع ومعدلات التغير المتسارعة على كل أنماط الحياة وذلك نتيجة لكثرة الاكتشافات العلمية والابتكارات التكنولوجية فى وسائل الإنتاج والخدمات والاتصالات والمعلومات وتسارعت معدلات الاكتشافات بصورة غير متوازية بين المجتمعات، مما خلق فجوة كبيرة من الدول المتقدمة والنامية، وتتسع هذه الفجوة باستمرار، بالإضافة إلى ذلك فإن الزمن الواقع بين كل اكتشاف علمى وبين تطبيقه العملى أصبح يضيق بصورة مثيرة.

وقد أدى التقدم العلمى والتكنولوجى الحديث إلى انفجار هائل فى المعلومات والبيانات العلمية، ويكفى أن نذكر أنه يصدر فى العالم الآن أكثر من مائة ألف دورية علمية فى مختلف المجالات الرئيسية يتراوح عدد البحوث فيها بين مليون ونصف إلى مليونين، هذا إلى جانب ما يصدر من كتب ومراجع وتقارب ونشرات مختلفة.

جميع هذه المتغيرات وغيرها كثير أصبحت تؤثر كثيراً على أنماط ومستويات المهن التى ألفناها مما ألقى على منظومة التعليم أعباء جديدة لم نألفها من قبل وهى صورة تيسير السبل للتدريب وإعادة التدريب بل وفتح قنوات التعليم بلا حدود، كما يجب أن تكون هى ذاتها مؤهلة بأجهزتها وهياكلها لتقديم أنماط جديدة من التعليم لمواجهة التخصصات المستحدثة وسرعة تغير هياكل العمالة، كما أن تطور وسائل الإنتاج وما صاحبه من تقليل الجهد العضلى للإنسان وزيادة وقت فراغه بعد انتشار الميكنة والأتومية والروبوت وتغير أنماط حياته وسلوكه سواء أنماط الاستهلاك وأنماط السكن والمواصلات واستهلاك الطاقة وغيرها، كل هذا يدعو إلى مزيد من تغير مستويات التعليم والتدريب والمهارة وأنواع العمالة ووضع الاستراتيجيات لهذه التطورات.

بالإضافة إلى هذا، فإن تزايد تداخل التخصصات وتناسى الاعتماد على فنون الإدارة أوجدت كثيراً من التخصصات التى تجمع بين تخصصين أو أكثر (الدراسات البينية). من هذا المنطلق يجب التأكد على أهمية مواءمة تطوير التعليم مع تطور حاجات الإنسان وظهور الاكتشافات العلمية والتكنولوجية والتى هى فى حد ذاتها من نواتج التعليم والبحث العلمى.

خامساً: التغيرات التعليمية:

إن النظرة الأوسع للتعليم والتى ظهرت فى أوائل السبعينات ولقيت قبولاً واسع النطاق قد ساوت التعليم عموما بالتعلم، بصرف

النظر عن المكان والكيفية والسن الذى يحدث فيه التعليم، كما أنـها أيضا تعتبر التعليم عملية تستغرق العمر كله، فتستوعب كـل الحيـاة من المهد إلى اللحد. هذا المفهوم الموسع للتعليم، لم يقلـل بأيـة حـال من أهمية الأنظمـة الرسميـة للتعليـم وصلاحيتـها لمواجهـة نوعيـات خاصة من الحاجـات التعليميـة الهامـة، ولكنـه لا يتوقـع منـها أن تواجه كل حاجات وكل أعمار السكان.

إن نظم التعليم القائمة (كما أكدتها الدراسات) فـى معظـم أنحـاء العالم أصبحت تتسم بالتقادم المتزايد، وبعدم التلاؤم مع مجتمعاتـها السريعة التغير. ومن هنا فإن كل هـذه الأنظمـة تحتـاج إلى تغـيرات وتجديدات ضخمة مستمرة ومتواصلة.

من هذا المنطلق، كان الاهتمام بالتعليم اللانظامى، الذى يعنى أى نشاط تعليمى منظم ومتدرج يتم خارج إطـار النظـام الرسمـى، ليوفـر نوعيات مختارة من التعليم لمجموعات خاصة من السكان الراشـدين منهم والأطفال، ومن هنا كان اهتمام المجتمعات بنشر مفهوم التعليم المستمر الذى يتيح فرصة التعليم لكل فرد فى المجتمـع بدرجـة مـن المرونة والتنوع فى الاختيارات التعليمية خلال حياته سواء أكان ذلك عن طريق التعليم النظامى أو اللانظامى أو العرضى.

سادسا: متغيرات الإنفاق على التعليم الجامعى:

يتسم الموقف فى الدول النامية ومـع تزايـد الإنفـاق علـى التعليـم الجامعى باختيار أحد أمرين هما:

١ – وضع قيود على أى توسع اضافى فى عدد المقيدين وذلك للحفاظ على قدر من التوازن فى نوعية التعليم ونقص معدل نمو البطالة بين المتعلمين فى ذات الوقت.

٢ – الاستسلام لضغوط الطلب الشعبى على التعليم وذلك من خلال توزيع موارد تعليمية محدودة على عدد أكبر من الطلاب، ويكون ذلك على حساب جودة التعليم وفاعليته.

ونتيجة أسباب سياسية وعملية واضحة لا يستطيع صانع القرار التعليمى أن يتجاهلها ساد الاختيار الثانى فى معظم الحالات، وترتب على التوسع الكمى المستمر زيادة كثافة الكليات والجامعات، والحد من الإنفاق الحقيقى على المكتبات والتجهيزات والمستلزمات الضرورية والبحوث العلمية وإرجاء الإصلاحات وعمليات الصيانة الضرورية، وأدى ذلك إلى استهلاك الإمكانات والتجهيزات الرأسمالية الموجودة بدلاً من الحفاظ عليها والإضافة إليها.

هناك على أية حال اختيار ثالث – ولو أنه ليس اختياراً سهلاً – هو ترشيد نصيب الطالب من الإنفاق مع الارتقاء بمستوى نوعية التعليم وجودته وإثرائه. ويتحقق ذلك من خلال الاستعانة بطرق تحسين الكفاءة الداخلية للجامعات، وفى السنوات القليلة القادمة لن يكون هذا الأسلوب مجرد بديل محتمل ممكن، وإنما يكون ضرورة ملحة لابد منها لكل النظم التعليمية، ذلك إذا ما رغبت فى أن تبقى قائمة وفعالة.

واقع التعليم الجامعي في البلاد العربية ومشكلاته:

من المسلم به الآن، وعلى مستوى العالم كله، أن الجامعات تمثل الطلائع الأولى لأى مجتمع يسعى نحو التقدم، فمن هذه الجامعات خرج قادة الشعوب وأصحاب الرأى والفكر. ومما لاشك فيه أن الجامعات العربية قد قامت منذ بدء إنشائها وحتى الآن بتزويد البلاد بالقوى البشرية المدربة فى كل مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية.. الخ.

وقد اعتنت الدول العربية منذ فترة ليست قصيرة بإيفاد الدارسين إلى الخارج من أجل الحصول على الدرجات العلمية العالية واستكمال القيادات الجامعية بها.

وبالرغم من هذا الدور العام الذى قامت به هذه الجامعات، فقد تعرض التعليم إلى الكثير من المتغيرات التى أثرت عليه وأدت إلى مجابهته لبعض التحديات الهامة نذكر أهمها فيما يلى:

١ – تدفق طلابى نتيجة النمو السكانى والرغبة فى مواصلة التعليم تعجز الجامعات عن استيعابه.

٢ – ضعف الإمكانات المادية للجامعات، مما أثر بالتالى على المبانى والمعامل والتجهيزات والمكتبات.. الخ.

٣ – الاعتماد أساساً على أسلوب التلقين والمحاضرات باعتبارها أبسط الوسائل، وقلة استخدام الأساليب الأخرى التى تعتمد

على المناقشة والحوار مثل الندوات وحلقات المناقشة ومجموعات البحث والتى تعمل على تنمية قدرات الطالب وبناء شخصيته وصقل مواهبه.

٤ - اتباع معظم الجامعات العربية لنظام الكليات، وهو نظام تقليدى يعوق حركة التزاوج العلمي.

٥ - قلة الفرص الجادة للتدريب العملى والميداني الجيد والتجهيز للدراسات النظرية حتى مجال العلوم الطبيعية والدراسات التطبيقية.

٦ - قلة استخدام الوسائل التعليمية الحديثة.

٧ - جمود الخطط الدراسية ومقرراتها ومناهجها وعدم ملاحقتها للتطور العلمى.

٨ - الاعتماد على طرق الامتحانات والتقويم التقليدية التى تقيس قدرة الطالب على إستظهار المعلومات واسترجاعها مما أدى إلى إضعاف قدرته على الفهم والاستخدام المعرفى وإعمال الفكر والتحليل وتكوين الرأى واستنتاجه.

٩ - عدم التوسع فى اتباع النظم الإدارية الحديثة واستخدام الأجهزة المتطورة فى مختلف نواحي الإدارة الجامعية.

١٠ – عدم توافق نظام القبول بالتعليم الجامعى مع رغبات الطلاب وقدراتهم.

١١ – توزيع الطلاب على الشعب والتخصصات لا يتواءم مع قبولهم كما لا يلبى أحيانًا حاجات سوق العمل أو متطلبات التنمية.

١٢ – ضعف الإنفاق على العملية التعليمية.

١٣ – غياب الضوابط والمعايير النوعية التى تضمن المستوى العالى من الآداء فى التعليم الجامعى.

ومن تحليل التحديات والصعاب السابقة يتضح أن النظام الجامعى كأى نظام دينامى يتحرك ضمن مستويات ثلاث هى:

أولاً: المدخلات: وهى القوى البشرية والإمكانات المادية والتى تعتبر الركيزة الأساسية للنظام.

ثانياً: العمليات والأنشطة: وهى مجموعة الإجراءات والأنشطة التى تحكم حركة ونمو المدخلات للوصول إلى الأهداف المنشودة، ويقوم بهذه الأنشطة مجموعة بشرية وقوى مادية ترتبط ببعضها البعض بصيغ عمل مختلفة، وتحكمها قوانين وأعراف للسيطرة فى أطر حركتها.

ثالثاً: المخرجات: وهى نتاج الأنشطة المختلفة التى تؤدى داخل النظام وفق سياق معين سواء كان ذلك فى صورة خريج أجود، أو بحوث أعمق، أو عائد متكيف من حيث النوعية والكفاية مع احتياجات المجتمع، وترتبط كفاءة هذه المخرجات وحسن آدائها بعنصرين أساسيين:

(أ) كفاءة العمليات والأنشطة التى تؤدى داخل النظام.

(ب) مدى التفاعل بين المدخلات ومجمل العمليات للحصول على أكبر وأكفأ قدر من المخرجات من مجموعة معينة من المدخلات.

ولما كان سبيل انتقاء المدخلات هى الأسس العامة لضمان سير العمليات، وبالتالى جودة المخرجات المتوقعة، فقد كشفت الدراسات العديدة عن وجود هدر فى التعليم الجامعى يتمثل فى إحدى صوره فى زيادة نسب الرسوب والتسرب فى معظم الكليات. إن هذه الظاهرة أكثر وضوحاً فى الكليات ذات الأعداد الكبيرة عنها فى الكليات ذات الأعداد الملائمة.. هذا بالنسبة للرسوب والتسرب الكمى، أما الظاهرة الأخرى والأكثر خطورة هى التسرب الكيفى، ويشمل الطلاب الذين لم يرسبوا، ومع ذلك فمستوى تحصيلهم وفهمهم للمعلومات، ودرجة إتقانهم للمهارات، دون المستوى المحدد كأهداف لهذه المرحلة التعليمية. من هنا نجد كثيراً من الطلاب ناجحين كميًا بحسب المقاييس المستخدمة في تقويمهم، فى حين أن

مستواهم الحقيقى وقدرتهم على الممارسة الفعليـة لا تؤهلـهم للنجـاح ولو قوموا تقويمًا أدق وأعمق لرسبوا بالفعل.

ويعنى ذلك أن الفـرص التعليميـة تفقـد جـزءًا كبـيرًا مـن قيمتـها الحقيقية إذا كانت بغير كيف مناسب ملائم لصاحبـها، وإذا كـانت غير موظفة لتلبية مطالب مجتمعها، وإذا كانت غير مهمة فى تغيير هذا المجتمع وتنميته.

من هذا المنطلق يمكن القول بـأن أحـد الأسباب الرئيسية للـهدر الكمى والنوعى فى التعليـم الجـامعى هـو عـدم توافـق نظـام القبـول بالتعليم الجامعى مع رغبـات الطـلاب وقدراتـهم وأن الأمـر يتطلـب وضـع معايـير جديـدة وصيـغ سـليمة لسياسـات وقواعـد القبـول بالجامعات.

فلسفة القبول:

تنص المادة (٢٦) من الإعلان العالمى لحقوق الإنسان على أن «كل إنسان له الحق فى التعليم ويكـون التعليـم مجانًـا علـى الأقـل فـى المراحل الأولى أو المرحلة الأساسية، أما التعليم العالى فيتـاح للجميـع على أساس من الجدارة والاستحقاق». يتضح من نص هذه المـادة أن التعليم حق أساسى لكل إنسـان بـلا أى قيـود حتـى نهايـة مرحلـة التعليم الأساسى على اعتبار أنه يمثل حاجـة إنسـانية، حيـث أنـه بدونه لا يستطيع الفرد أن يتعايش مع المجتمع ومع نفسه، كما أنه يحقق للمجتمع درجة معينة من التماسك الاجتمـاعى. أمـا بالنسبة

للتعليم العالى والجامعى فإنه مُتاح للطالب الذى يملك القدرة والاستعداد للنجاح فى هذا التعليم. وتتنوع فلسفة القبول بالتعليم العالى والجامعى فى دول العالم المختلفة، وأغلبها يستند إلى الأسس الاقتصادية والأيدلوجية للمجتمع ذاته إلا أن هناك أنماطا رئيسية لسياسات القبول بالجامعات، نذكر أهمها فيمايلى:

١ - تتكيف نظم القبول فى دولة ألمانيا وبعض الشىء فى إنجلترا مع احتياجات الجامعات نفسها، وهو ما يجعل التعليم العالى مقيدا إلى حد ما.

٢ - أما عن أنظمة التعليم العالى فى الولايات المتحدة الأمريكية فإنها مقسمة حسب الكيف أو الجودة، وسياسات القبول بها تعتمد على مبدأ الأبواب المفتوحة، بمعنى إفساح المجال أمام الضغوط الطلابية، والجامعات فى هذا النظام تقدم مثلاً واضحًا للجامعات المتكاملة.

٣ - وتتفق فرنسا مع النظام الأمريكى فى فلسفته فيما عدا القبول بكليات الطب بأنواعها، ويتشابه النظام مع دول أوربا الشرقية فى الفصل بين المؤسسات التعليمية التكنولوجية والجامعات.

٤ - تعتمد فلسفة القبول فى دولة روسيا والدول المحيطة بها على ما يسمى باحتياجات القوى البشرية الكمية والنوعية اللازمة لخطط التنمية القومية ووفقا لعدد الأماكن المتاحة بالجامعات

ومؤسسات التعليم العالى. كما تتأثر كذلك بكونها مهنية، حيث أن أغلب مؤسسات التعليم العالى تتجه إلى الجانب التقنى أو البوليتكنيكى ولا تحتل الجامعات سوى مكانة محدودة تمثل ١٠٪ من إجمالى المقيدين بالتعليم العالى.

أما بالنسبة لنظم وأساليب القبول فى جامعات العالم فتشير هذه النظم على أن المطلب الأساسى للقبول فى معظم جامعات العالم هو الحصول على شهادة إتمام الدراسة الثانوية أو ما يعادلها. وتمنح هذه الشهادة فى بعض البلاد على مستويين ومثال ذلك البكالوريا الفرنسية والشهادة الثانوية العامة الإنجليزية G.C.E، ويعتبر النجاح فى عدد من المواد فى المستوى الرفيع فى هاتين الشهادتين شرط للقبول بالتعليم العالى.

وبعد الحرب العالمية الثانية ولتوسيع قاعدة القبول فى التعليم العالى والجامعى، أتاحت بعض الجامعات الفرصة للحاصلين على شهادة ثانوية معادلة وأحيانا لبعض من لم يحصلوا على شهادة إتمام الدراسة الثانوية للالتحاق بها، على سبيل المثال، فى الولايات المتحدة الأمريكية يجوز السماح بقبول الطلاب فوق سن الثامنة عشرة الذين لم يحصلوا على شهادة إتمام الدراسة الثانوية بالجامعة ومعظم معاهد التعليم العالى بعد اجتياز امتحان دولة معادلة للثانوية العامة.

وتجرى امتحانات معادلة مماثلة فى ألمانيا للطلاب الذين لديهم خبرة عملية دون اجتياز امتحان إتمام الدراسة الثانوية، وكذلك فى فرنسا يعقد امتحان فى أول أكتوبر من كل عام لامثال هؤلاء الطلاب.

ويتبع نظام مماثل فى الجامعات النرويجية وغيرها من الدول الاسكندنافية للمتقدمين فى سن أكبر من ٢٤ عاما بشرط قضائهم مدة قد تصل إلى أربع أو خمس سنوات فى العمل.

وتسمح بعض الدول بقبول بعض الطلاب بالجامعات من بين الذين قضوا سنتين فى بعض المعاهد العليا، حتى ممن لم يحصلوا على شهادة إتمام الدراسة الثانوية. ويوجد نظام فى الهند يسمح بإلحاق الطلاب الذين لم يقضوا السنتين الأخيرتين من التعليم الثانوى (ومدته الكلية أربع سنوات) ببعض الجامعات بعد امتحان قبول لدراسة جامعية متوسطة يؤدى إلى الحصول على شهادة معادلة للثانوية العامة.

وفى فرنسا لا يوجد أى قيد على الالتحاق بالجامعات من حيث عدد الطلاب، ولكن فى بعض المعاهد مثل المدارس العليا Grandes Ecoles، يشترك النجاح فى امتحان مسابقة للطلاب الذين درسوا مقررات تمهيدية لمدد تتراوح بين عام وثلاثة أعوام بعد حصولهم على البكالوريا وذلك فى معاهد متخصصة تبعا لنوع الدراسة المطلوبة فى تلك المدارس العليا.

وفى أسبانيا، يشترط نجاح الطالب قبل قبوله بالجامعات فى المقرر التوجيهى الخاص الذى تنظمه الجامعة المعنية، وهناك العديد من هذه الصور فى بعض الجامعات الإنجليزية حيث تنظم سنة

تمهيدية لدراسات متنوعة على قاعدة عريضة من المجالات العلمية الأساسية للطلاب الحاصلين على شهادة إتمام الدراسة الثانوية من المستوى العادى، ويقبلون بعد اجتياز المقررات التى تحددها الجامعة للدراسة فى كل مجال من مجالات التخصص المطلوبة، ومن الجامعات ما ينظم مثل هذه الدراسات التمهيدية لمدة عام أو أكثر لاختيار قدرات الطالب وإمكاناته ويعتبر ذلك مكملاً للحصول على شهادة إتمام الدراسة الثانوية.

وقد أخذت بعض جامعات الدول العربية بنظام السنة التمهيدية مثل جامعة الخليج بالبحرين وجامعة الملك فهد للبترول والمعادن بالظهران وجامعة السلطان قابوس بعمان.

وفى مصر، أنشأ مكتب التنسيق لتنظيم سياسة القبول بالجامعات المصرية طبقا للمعايير الأساسية التالية:

١ – اعتبار المجموع الكلى للدرجات فى الثانوية العامة هو المعيار الأساسى للقبول مع بعض التعديلات فى بعض السنوات مثل:

(أ) مجموع المواد المؤهلة للقبول بالكليات المختلفة سواء كانت علمية أو إنسانية دون إضافة اللغات.

(ب) المجموع الكلى بالإضافة إلى مجموع المواد المؤهلة.

(جـ) مجموع المواد العلمية أو الأدبية حيث تمثل نحو ٧٠٪ من المجموع الكلى للدرجات.

٢ – تحقيق رغبات الطلاب وفقا للمجموع كمعيار للتوزيع مع مراعاة التوزيع الجغرافى والإقليمى.

٣ – تحديد أعداد الطلاب المقرر قبولهم فى كل كلية فى ضوء اقتراحات الجامعات والتى تضعها طبقًا لإمكاناتها البشرية والمادية.

وتخضع معظم الجامعات العربية إلى اتباع هذه القواعد كمعايير للقبول بها مما أدى إلى مايلى:

أولاً: قبول الطلاب فى تخصصات لا يرغبون فيها ولكن قادتهم مجاميع درجاتهم إليها مما يؤدى إلى الهدر فى التعليم وذلك لإخفاقهم فى هذه التخصصات.

ثانياً: احتكار التخصصات كالطب والهندسة للطلاب ذوى المجاميع العالية بينما يلتحق بكليات التربية والكليات المتوسطة والتى تعد مدرس المستقبل الطلاب ذوى المجاميع الأدنى مما يؤدى إلى انخفاض مستوى خريجى هذه الكليات، ويقع بذلك عبء الخلل فى مخرجات التعليم الثانوى الذى يعتبر مدخلاً للتعليم العالى والجامعى.

ثالثاً: اعتماد القبول على أساس مستوى الدرجات وإن كان يبدو فى ظاهره مقياسًا يحقق العدالة وتكافؤ الفرص إلا أنه فى باطنه يحمل كثيرًا من المحاذير وخصوصًا فيما يتعلق بالدروس الخصوصية من مدرسين ذوى خبرة ودراية بأساليب الامتحان.

رابعاً: الاختلاف الشاسع والبّين بين مدارس الريف والحضر في كوادرها التدريسية وإمكانتـها المختلفة مما يعطى فرصة أكبر لطلاب مدرس الحضر.

خامساً: قلة درجة مصداقية هذا المعيار (درجات الثانوية العامة) نفسه حتى بات كمقياس خطر على مستقبل الثقافة.

وتطويرًا للأنظمة التعليمية المستقرة التى لا تعطى وزنا لجوانب الإنسانية المتعددة والتى لا تساير التطوير العالمى السريع التغير، والتدفق المعرفى الذى يجرف أمامه كل بال وعتيق، فإن الأمر يدعونا إلى التفكير لمواكبة ركب التطور ومسايرة متغيرات العصر بنفس السرعة.

والقضية الآن، هل نقف جامدين أمام معيار واحد صارت مصداقيته محل تساؤل؟؟ أم ندقق ونحلل حتى نضع المعايير والمقاييس التى تعطى للإبداع الإنسانى قيمته دون الركون لعناصر التعويق والتخلف؟ ومن ثم فإن الوقت قد حان لأن نتساءل ما هى البدائل التى ممكن أن تقدم وتناقش؟

أهم الأسس لاختيار معايير القبول بالجامعات:

إنه لمن الأهمية بمكان توافق المعايير مع انسيابية المدخلات بشكل جيد بالنسبة لمختلف التخصصات الضرورية والهامة لتلبية احتياجات المجتمع ومؤسساته بصورة تكفل توزيع الكفاءات على

مختلف القطاعات بطريقة متوازنة وعدم احتكارها على قطاع معين وذلك لأسباب اجتماعية واقتصادية أكثر منها علمية وفنية.

ولكى يتقدم المجتمع فى جميع روافده ونواحيه لابد أن يكون القبول متوازنًا بالنسبة لجميع التخصصات مما يضمن حياة دراسية سليمة.

المعايير وأسس القبول:

١ - معدل مجموع الدرجات فى الثانوية العامة:

لا يفى كمعيار أحادى البعد للتعرف على الجوانب المعرفية والثقافية والقدرات الذهنية والإبداعية التى يتمتع بها الطلاب حتى يمكن اختيار أفضل عناصر القوى البشرية القادرة على الإبداع وصناعة التقدم.

٢ - رغبة الطالب:

تنبثق الرغبة لدى الطالب من تأثيرات خارجية كأن تكون رغبة عائلية أكثر منها رغبة الطالب، أو قد تكون رغبة وقتية وليست رغبة صادرة عن وعى وإدراك لقدرات الطالب الذاتية وميوله واتجاهاته أثناء سنى الدراسة، وبذلك تصبح رغبته وهمية لا جدوى منها ويدلل على ذلك نسب الرسوب العالية فى المرحلة الأولى من التعليم الجامعى، حيث وجهوا إلى تخصصات لا قبل لهم بها.

· وإذا كانت رغبة الطالب تلعب الدور الرئيسى فى إبداعه فإن توجيهها إلى التخصصات التى تتوافق مع قدراته وإمكاناته يجب أن تكون أمام نظره من فترة مبكرة من مراحل التعليم قبل الجامعى وأن تجرى حلقات إرشادية فى أن الوقت ليعى الطالب من خلالها قدراته وإمكاناته والقدرات المطلوبة للتخصص الذى يرغب فيه.

٣ - الحاجة الاجتماعية والاقتصادية:

تقع الجامعات فى موقع الصدارة بين المؤسسات المسئولة مسئولية تامة عن النسيج الاجتماعي وحل المشكلات الاقتصادية. لا يمكن قصر دور الجامعات على البحث الأكاديمى ما لم يرتبط البحث بما يقدم للطلاب من معرفة بواقعنا ومعاناتنا وكذلك الحاجة الأساسية للتنمية وطرد شبح التخلف، وليس من الصحيح أن تأخذ جامعاتنا سياقًا واحدًا فى هياكلها أو بناها كأن تمنح اختصاصًا واحدًا ، وليس أيضًا بصحيح محاكاة الجامعات الأجنبية التى مرت بحقب كثيرة من التطور. أن تسيير قبول الطلاب وفق معيار الحاجة الاقتصادية والحاجة الاجتماعية يعتبر أمرًا فى غاية الأهمية، حيث أن مستقبل الجامعة فى بناء أسلوبها الانتقائى للطلاب كما أو نوعا وفق الظروف الاقتصادية والاجتماعية لمن الأهمية بمكان.

٤ - اختبارات القبول:

وضع مجموعة من الاختبارات مقننة تتلاءم وطبيعة التخصص، وذلك لانتقاء الطالب بشكل دقيق، حيث أن هناك اختبارات

التحصيـــل التى تضم كثير من الاختبـــارات الموضوعيـــة المتعـددة مثـل الاختبـار المتعـدد، الصـواب والخطـأ، التكميـل، اختبـارات التوفيق.

٥ - علاقة القبول والتوزيع الجغرافى والإقليمى:

إن وجود الطـالب بـين أسـرته يـؤدى إلى توفـير الوقـت والجـهد الضائعين لإشباع حاجاته المعيشية والدراسـية بجـانب توفـير رقابـة الأسرة على أبنائها.

ويؤدى هذا النظام بالتالى إلى تخفيف العبء على المدن الجامعيـة مما يؤدى إلى خفض الإنفاق على الخدمات الطلابية.

٦ - السجل التعليمى للطالب:

يعتبر السجل التعليمى للطلاب خلال مراحل الدراسة فـــى غايـة الأهمية لإمكـان تشـخيص مـهارات الطـالب الفكريـة وقدراتـه علـى التحليـل والاسـتنتاج، بـل علـى حـل المشـكلات، فتحليـل نتـــائج امتحاناته خلال سنى دارسته سوف تشتمل علـــى مجمـل الخـبرات التعليمية التى اكتسبها. وبالرغم من الصعوبات التنظيميـــة والإداريـة التى تصاحب هذا السجل التراكمى، إلا أن قيمته التربوية تجعل من الضرورى مناقشته، وهذا الأمر يتطلب وجــود موجـه تربـوى لمتابعـة الطـالب فـى مراحلـه العمريـة المختلفـة يضيـف بعـدًا تربويـا هامًـــا للتسجيل، كالاتجاهات الثقافيــة والـمهارات التـى يكتنزهـا الطـالب

والتي لا تفرزها الامتحانات التي تجرى بالمدارس، وذلك من خلال ممارسة الطالب للأنشطة المختلفة التي يجب أن توليها المدرسة اهتمامها كالأنشطة المهنية والفنية والرياضية، حيث يؤدى هذا التوجيه التعليمي قدرًا كبيرًا في إصلاح المسار التعليمي وبالتالي في اختيارهم لرغباتهم..

٧ - تنويع مصادر التعليم العالى:

من أجل تحقيق موازنة معقولة بين الامتياز والمساواة لابد من إيجاد وسائل لتنويع التعليم العالى لتخفيف الضغط التنافسي على الجامعات ولتنويع مصادر الخبرة أمام الطلاب وذلك رغبة في تحقيق وفتح باب التعليم العالى للمجاميع الراغبة في هذا النوع من التعليم، وفي الوقت ذاته فعلينا أن نرتفع بالقيمة الاجتماعية لمثل هذه المؤسسات التعليمية وأن نتوسع في الفرص المتاحة لطلاب التعليم الفنى للالتحاق بالجامعة.

ويتجلى هذا التنويع في إنشاء مؤسسات وفروع وتخصصات جديدة في فتح باب التعليم على هذا المستوى لمن يرغبون في مواصلته والإفادة منه وبما يحقق متطلبات سوق العمل.

وهناك عدة اقتراحات للقبول بالجامعات هي:

١ - اعتبار شهادة الثانوية العامة مرحلة منتهية وليس بهدف القبول بالجامعة.

٢ - تنظم الجامعات امتحانات قبول خاصة بكل قطاع وذلك بصرف النظر عن نتائج الامتحانات العامة، وتحتسب نتائجها

بنسبة مئوية معينة تضاف إلى المجموع الكلي. وهذه الامتحانات سوف تقلل من أهمية الامتحانات العامة والتي ليس لها علاقة بأسس قبول الطلاب بالجامعات، كما تعمل على التخلص من عدم موضوعيتها. هذا بالإضافة إلى أنها ستتيح للجامعات اختيار طلابها وفق شروطها ومواصفاتها، إضافة إلى تحقيق مبدأ العدالة وتكافؤ الفرص.

٣ - إعادة النظر في:

(أ) سياسة التوظيف:

وفي هذا الشأن يجب الفصل بين مسئولية الدولة في تدعيم التعليم وإتاحته لأبناء الشعب وحتمية تدبير فرص عمل لهؤلاء الخريجين. من هنا لابد للقطاع الخاص والأفراد من خلال خطط مستقبلية تنموية تساعد الدولة في استيعاب هؤلاء الخريجين.

(ب) قصر القبول على الحاصلين على الثانوية العامة في نفس العام.

مما سبق يتضح أن كل هذه الأمور المتشابكة والمعقدة يجب أن تؤخذ في الاعتبار عند اقتراح الحفاظ على السياسات القائمة بالنسبة للقبول أو العمل على تطويرها لما فيه خير أبنائنا الطلاب.

الباب الرابع

اجتهادات

١ – النظرية الفيزيائية الموحدة .. ونشأة الكون .

٢ – المجلس العربي للمستقبل والتحدى الحضارى .

- ١ -

النظرية الفيزيائية الموحدة.. ونشأة الكون

على مر العصور والأيام يتطلع الإنسان حوله ليكتشف أنه أرقى الكائنات في هذه الحياة المليئة بالمعجزات التى لا يستطيع أن يصنعها بنفسه، بل لا يمكنه حتى التفكر بها. فتطلع إلى الشمس وضوئها الذى يولد به الطاقة اللازمة لحياته اليومية، واكتشف أن للأرض جاذبية تجعله ملتصق بها، وإلا كان قد انطلق يحوم حول نفسه فى الفضاء. هذا وقد اهتدى إلى معرفة المادة ومكوناتها، فاكتشف الذرة وحاول دراسة خصائصها الفيزيقية التى استطاع بواسطتها صناعة التكنولوجيا التى وفرت له الوسائل المختلفة للبحث عن الظواهر الكونية، فأطلق سفن الفضاء فى بعثات علمية متلاحقة ليفهم أين هو؟ ولماذا يعيش على الأرض فقط؟ وهل هناك حياة أخرى فى هذا الكون؟ ولماذا تشكل الكون بهذه الطريقة؟ وهل صحيح توجد فى الكون الثقوب السوداء التى تكون جاذبيتها لا نهائية؟ وماذا عن حركة النجوم وتطورها؟ ومتى يولد نجم جديد وكيف يموت؟ وكيف ترتبط النجوم بعضها لبعض؟ ومتى نشأ الكون؟ وهل الكون يتمدد فعلاً والسؤال الهام الذى يطرحه دائماً علماء الفيزياء هو ما هى طبيعة القوانين والقوى المؤثرة التى تتحكم فى كل هذا؟

ولمحاولة فهم كل ذلك، وضع الإنسان الفروض والنظريات الفلسفية لتفسير الظواهر الطبيعية ومشاهدتها، حتى استطاع العالم

الإنجليزى «إسحاق نيوتن» اكتشاف الجاذبية الأرضية التى غيرت من مفهوم الإنسان للقوى الكونية المختلفة والتى تحددت بعد ذلك بأربع قوى رئيسية هى:

قوى الجاذبية، والقوى الكهرومغناطيسية، والقوى النووية المرتبطة بقوة الإشعاع النووى، وأخيراً قوة ارتباط النواة فى الذرة.

وخلال القرن العشرين استطاع الإنسان أن يطوع هذه القوى لخدمته. فأمكنه صناعة المدافع التى كانت ثورة فى العلوم العسكرية، وذلك بفضل حساباته الخاصة بتأثير قوة الجاذبية فى الميكانيكا الكلاسيكية، ثم صنع محرك الطائرات والتى بواسطته أمكن تقليل المسافات وتسهيل المواصلات، ثم اكتشف بعد ذلك موجات الراديو الكهرومغناطيسية وما ترتب عليها من تطوير أجهزة الاتصال المرئية وغير المرئية، حتى استطاع فى منتصف هذا القرن إكتشاف ميكانيكا الكم (الخاصة بدراسة حركة الأجسام الدقيقة) فاستطاع دراسة حركة الذرات وتركيبها بدقة متناهية، وعرف أن الذرة ليست هى أصغر المواد الأولية، بل أن لها مكونات أولية أخرى، فتتركز البروتونات (جسيمات صغيرة تحمل شحنة موجبة) والنيوترونات (جسيمات مماثلة لا تحمل أى شحنة) فى مركز الذرة وتحوم من حولها عدد مماثل لعدد البروتونات من جسيمات صغيرة جداً تقدر كتلة كل منها ١/١٨٤٠ من كتلة البروتون وتسمى بالإلكترون وهى تحمل شحنة سالبة، بحيث تكون الذرة متعادلة كهربائيًا .

وتشترك الذرات فى تكوين العناصر المختلفة للمـواد الكونيـة فـى مراحلها الأربع وهى: البلازمية والغازية والسائلية والحالة الصلبة.

وقد أمكن بعد ذلك تطوير البحوث فى مجال الذرة التى أدت فى النهاية إلى صناعة القنبلة الذريـة التـى غـيرت مـن الاستراتيجيات العسكرية فى العالم. وفى نفس الوقـت تطـورت النظريـات الخاصـة بقوانين حركة الأجسام الدقيقة والربط بينهما وبـين الحركـة الموجيـة التى أثمرت عن فهم دقيق لمكونات الضوء عن طريق اكتشاف الفوتون (وهو جسيم كتلته تساوى صفـر) الـذى يحمـل الخصـائص الضوئيـة الموجية.

وفى هذه الاثناء، استطاع العالم ألبرت أينشتين أن يضع الفروض الأساسية الفلسفية فى محاولة إدراك أن الزمـن إحـداث متغـير مـع الأبعاد الفراغية التقليديـة وهـى الطـول والعـرض والارتفـاع، والتـى أصبحت بذلك أربعة إحداثيات. وهذا عكس فلسفة أرسطو عن ثبوت إحداثى الزمن. وقد نتج عن ذلك اكتشـاف النظريـة النسـبية العامـة الخاصـة والتـى بواسـطتها أمكـن تحديـد المسـافات بـين النجـوم والكواكب، وكان لها الفضـل الكبير فـى وصول الإنسان إلى القمـر بدقة، ومنذ ذلك الوقـت عـرف الإنسـان ثـلاث ثـورات تكنولوجيـة متعاقبة كما ذكرنا سلفاً، وكمـا أطلـق عليـها العلمـاء «الجيـل الأول للتكنولوجيا» وهو الذى تبع تفجير الطاقة الهائلة فى الذرة واكتشافه للطاقة النووية وبناء المفاعلات النووية، مما كان له الأثر الكبـير فـى

الاستخدامات المختلفة فى الأغراض السلمية والعسكرية على حدٍ سواء. ثم بدأ «الجيل الثانى للتكنولوجيا» باكتشاف خصائص مواد أشباه الموصلات التى أدت إلى الثورة فى عالم الإلكترونيات وابتكار الحاسبات الآلية (الكمبيوتر) بالقدرات المختلفة. وأخيراً أمكن صناعة الضوء واكتشاف أشعة الليزر المميزة والتى أطلق عليها «الجيل الثالث للتكنولوجيا»، وبواسطتها تم تطوير جميع المعدات المستخدمة فى شتى الأغراض التى تخدم الإنسان فى جميع المجالات: الطبية والزراعية والصناعية والعلوم الأساسية والاتصالات والعلوم العسكرية، وفى مجال أبحاث الطاقة.. إلى آخره. مما كان لكل هذا الفضل الكبير فى تطوير الإنسان لفهم الظواهر الكونية وأسس الهندسة الوراثية فى محاولة لفهم المخلوقات المختلفة وبشكل ما !!.

ومع تطور الإنسان العلمى والتكنولوجى، يبذل كثير من العلماء الجهد الدئوب فى محاولة فهم الميتافيزيقا الكونية لفهم نشأة الكون بغرض الإجابة على التساؤلات التى ذكرناها سلفاً.

والآن لابد من طرح مفهوم النظرية العلمية التى هى نموذج كونى محكوم بقوانين محدودة، لها جزء مقيد ومرتبط بالكميات الفيزيائية التى يمكن مشاهدتها فى الطبيعة، ولذلك فإن حكمنا على أن أى نظرية علمية تكون جيدة يكون من خلال قدرتها على تحقيق أمرين أولهما: الدقة الوصفية للمشاهدات الفعلية وبأقل قدر ممكن من الفروض. وثانيا: القدرة على التنبؤ حول النتائج فى المشاهدات

المستقبلية، على سبيل المثال: فكرة أرسطو فى محاولة فهمه للأشياء بأن حدد أربع مواد أساسية للكون هى التراب والهواء والنـار والمـاء. بالطبع كان هـذا الفرض كافيـاً للنظريـة ولكنـه لم يستطع تحديـد تنبؤات مستقبلية، على عكس نظرية نيوتن للجاذبيـة والتـى نصت ببساطة على أن قوة الجذب بين جسمين تتناسب طرديـاً مـع كتلـة هذين الجسمين، وعكسياً مع مربع المسافة التى تفصل بينهما، فهذه النظرية بالرغم من بسـاطتها أمكنـها التنبـؤ بحركـة الشـمس والقمـر والكواكب بدقة عالية.

وفى محاولة فهم نشأة الكون يلجـأ كثـير مـن العلمـاء إلى تقسـيم المشكلة الأساسية إلى جزئين هما:

أولا: وضع القوانين التى تقول لنا كيف يتغير الكون عند لحظـة ما، فإن هذه القوانين يمكن أن تفسـر لنـا كيـف يكـون هـذا الشـكل الكونى عند لحظة أخرى متأخرة.

ثانياً: هناك سؤال هـام عـن النشـأة الأولى للكـون. بعـض النـاس يشعرون أن العلم والعلماء يعتنون بالجزء الأول من المشكلة وينظـرون إلى الجزء الثانى عن نشأة الكـون كمـادة فـى الميتافيزيقـا، ويـتركون تفسيرها للأديـان السـماوية، هـذا الاعتقـاد جعـل اسـتنباط نظريـة فيزيائية موحدة نصف بها الكـون صعبـاً للغايـة، ولذلـك لجأنـا إلى تجزئة المشكلة الكونية ووضعنا النظريات المرحلية التى تصف وتتنبـأ بمشاهدات محددة مع إهمال الكميات الأخرى للأجزاء المختلفة. هذا الاعتقاد خاطئ، إذا كان كل شـيء فـى الكـون يعتمـد أساسـّا علـى

الشيء الآخر، فيصبح من المستحيل دراسة كل جزء منفصلاً عن الجزء الآخر. من هنا أصبح من الضرورى البحث عن نظرية فيزيائية موحدة يمكنها وصف نشأة الكون بدقة دون أى تناقض فى حالة تغيير المكان والزمان، وقد تنبأ بهذه النظرية كثير من العلماء فى مجال الفيزياء النظرية وعلى رأسهم العالم الباكستانى «عبده سلام» رئيس مركز الفيزياء النظرية بمدينة تربستا بإيطاليا والحائز على جائزة نوبل فى العلوم عام ١٩٧٩، وأيضا العالم «استيفان هوكنج» عالم الرياضيات بجامعة كمبريدج وهو مؤلف كتاب «تاريخ مختصر عن الزمن» كما أوضحنا سابقا والذى طرح خلاله مفهوم النظرية الفيزيائية الموحدة والذى أطلق عليها النظرية الكمية للجاذبية (The quantum Theory of gravity) فى هذه النظرية يتم الجمع بين أسس وقوانين ميكانيكا الكم مع أسس وقوانين نظرية النسبية العامة.

ويمكننا أن نستشهد بما حدث من ثورات تكنولوجية والتى سبق ذكرها، والتى كانت نتيجة لتطبيقات نظريات ميكانيكا الكم، والنسبية العامة كل على حدة، خاصة فى مجال الإلكترونيات والطاقة النووية، ونتساءل عما قد يحدث من ثورات تكنولوجية جديدة فى حالة اكتشاف النظرية الفيزيائية الموحدة والتى قد تؤدى إلى رؤيا جديدة لوصف الكون الذى نعيش فيه.

من هذا المنطلق ولكى نبسط فكرة النظرية الموحدة ونشأة الكون، دعنا نبحث عن العلاقة بين إحداثيات الفراغ التقليدية وإحداث

الزمن والتي أطلق عليها «الإحداثيات الديناميكية» التي تتغير مع المكان ويتغير تبعاً لها الزمن أيضاً، بحيث يتشكل الكون طبقاً لهذه المتغيرات.

على سبيل المثال، نعرف أن الضوء يغير من مساره وأنه ينحني كلما تعرض لمجال جاذبية قوى، ولذلك يستحيل مشاهدة النجوم التي تظهر بالقرب من الشمس. بينما يكون ذلك ممكناً عند كسوف الشمس (أي عندما يحجب القمر الضوء الشمسي)، ذلك لأن الضوء ينتشر من الشمس في منحنيات بفعل تأثير قوة الجاذبية الناتجة عن كتلة الشمس الكبيرة. هذه الحقيقة تم إثباتها عمليا عندما استطاع العلماء الإنجليز من مشاهدة الكسوف الشمسي في غرب أفريقيا عام ١٩١٩. ودليل آخر لتغيير الزمن مع المكان طبقاً لتنبآت النظرية النسبية، أن الزمن يمر ببطء كلما ازدادت قوة الجاذبية في مكان ما مثل الأرض. وذلك لأن هناك علاقة بين طاقة الضوء وتردد موجاته (التردد هو عدد الموجات الضوئية لكل ثانية). فكلما إزدادت الطاقة الضوئية إزداد التردد. فإذا انتقل الضوء إلى أعلى وعكس مجال الجاذبية الأرضية، فإنه يفقد طاقة وبالتالي ينخفض التردد، وهذا يعني أن الطول الزمني الذي تستغرقه الموجه الضوئية يزداد. وعلى ذلك، فإن الأحداث التي تقع في مستوى أسفل يراها أي شخص موجود في مستوى أعلى كما لو أنها تستغرق وقتا أطول. ويمكن إثبات هذه الحقيقة بسهولة إذا ما أخذنا ساعتين أحدهما توضع في مستوى أعلى من الأخرى سنرى الساعة الموجودة بالقرب من سطح

الأرض تعمل ببطء عن الأخرى. وأن الفرق الزمنى بين الساعتين يتحدد بمدى الارتفاع بينهما. هذه الحقيقة الهامة، أوضحت مدى الخطأ الحادث عند استقبال الإشارات من سفن الفضاء دون الأخذ فى الاعتبار تحديد المكان والزمن طبقاً لقوانين النسبية العامة.

نستخلص من ذلك أنه وكما تخلصت قوانين الحركة لنيوتن من فكرة تحديد الوضع المطلق للأجسام فإن النظرية النسبية قد تخلصت أيضا من فكرة تحديد الزمن المطلق. وأصبح الزمن يقاس تبعاً لتحديد المكان ونوع الحركة. وبناء على ذلك، فإننا قد نشهد فى المستقبل القريب انقلاباً فى فكرنا عن نشأة الكون.

فالفكرة القديمة التى تقول إن للكون شكل «استاتيكى» مستقر لا يتغير مع الزمن وأنه سوف يستمر بهذا الشكل إلى الأبد قد بدلت بالرأى القائل إن الشكل الكونى فى حالة ديناميكية تتغير دائماً. وأن الكون يتمدد مع تغيير الزمن ولهذا لابد أن يكون الكون قد بدأ عند لحظة ما سابقة وسوف ينتهى عند لحظة أخرى لاحقة.

ولكى نفسر تمدد الكون، دعنا نستعرض الاكتشافات التى توصل إليها علماء الفلك فى تحديد موقع النجوم للمجموعة الشمسية بصفة عامة بالنسبة للمشاهد على سطح الأرض بصفة خاصة. فالمجرة (Galaxy) الخاصة بنا، تتكون من آلاف الملايين من النجوم تتحرك بالنسبة لبعضها البعض فى مسار حلزونى تكون المجموعة الشمسية على أحد الأطراف الداخلية لهذا المسار، والكون يتكون من مجرات

أخرى عديدة تقدر بمئات الملايين، وأنها تتحـرك بالنسبة لبعضـها البعض طبقاً لقوانين النسـبية العامـة، ويمكـن قيـاس سرعة تحـرك المجـرات والمسـافات بينـها بطريقـة غـير مباشـرة. بـالطبع نحـن لا نستطيع أن نرى شكل وحجم النجـوم ولكـن عـن طريـق استقبال الأطياف الضوئية الناتجة منها وتحليلها بطريقة علمية يمكن معرفـة المواد المختلفة التى يتكون منها النجـوم وأيضـا المـواد الموجـودة فـى الغلاف الجوى الخـاص بـها، وبالتـالى يمكـن تحديـد كتلـة النجـم وحجمه. ويمكن تحديد السـرعات النسبية بـين النجـوم باستخدام ما يسمى طريقة حيود «دوبلر» المعروفـة. وعلـى ذلـك فإنـه يمكننـا القول بأن الاكتشاف الخاص بتمدد الكون هو أذكى الثورات العلميـة للقرن العشرين، ومما يثـير حقـاً الدهشـة أن العلمـاء السـابقين مثـل نيوتن والأخرين لم يفكروا فى ذلك مـن قبـل ولم يعتقـدوا أن الكـون الساكن سـرعان مـا يتقلـص وينكمـش علـى نفسـه بفعـل تأثـير قـوة الجاذبية.

واستمر الاختلاف بين فريقين من العلماء أحدهما يؤمن بأن الكون يتمدد ولابد أن يكون له بداية ونهاية والفريق الآخر يحـاول إثبـات أن الكون ساكن كما هو ولا يتمدد. حتى عـام ١٩٦٥ عندمـا استطاع العالمان الفيزيائيان «أرنوبنزياس» و «روبـرت ويلسـون» فـى معمـل «بل» بأمريكا رصـد أشعة كونيـة فـى المـدى الطيفـى الميكرومـترى (الموجـات الميكرومترية هى موجـات كهرومغناطيسـية مثـل الموجـات

الضوئية ولكن ترددها يصل لعدة آلاف موجة لكل ثانيــة)، استطاع هؤلاء العلماء تفسير ذلك بأن هذه الموجات لابــد جاءت من مصدر خلف مجموعتنا الشمسية وربمـا مـن وراء مجرتنا الكونيـة. واستمر البحث في هذا الموضوع بحسابات خاصة، حتى استطاعوا استنتاج أن هذه الأشعة صدرت مـن المـادة المكونـة لأصل الكون الذى بدأ سابقاً، ومازال ممتدًا بها حتى الآن. وأن هـذه الأشعة بحاسبات الزمن الخاص بنا على الأرض قد وصل إلينا الآن من هذه المسافات الشاسعة. وقد حصل هذان العالمان على جائزة نوبل فى العلـوم عام ١٩٧٨ لهذا الاكتشاف العظيم.

فى هذه الأثناء، كان للعالم الروسى «الكسندر فريدمان» دور بارز فى وضع النماذج الرياضية المختلفة فــى البحث عن كيفيـة تمــدد الكـون، والـذى لابد قـد بـدأ من لحظة الانفجـار الأعظم

(Big Bang) وتمدد بسرعة فائقة عن قـوة الجاذبيـة الكونيـة إلى أن تبدأ المسافات التى تفصل بين المجرات تقل فيما بينها ويعود بذلك الكون إلى اللحظة النهائية التى يكون فيها حجمه صفراً أى لحظة القضمه العظمى (Big Crunch).

وقد ارتكزت النماذج الرياضية أساساً على فروض النظرية النسبية التى فشلت تماماً فى شرح كيفيـة مـا حـدث عنـد لحظـة الانفجـار الأعظم عندما كانت كثافــة المـادة الكونيـة لا نهائيـة. مـن هنـا فـإن محاولات فريدمان، أدت فى النهاية إلى حتمية وجود نقطة مـا فـى

هذا الكون تتحطم عندها كافة النظريات الفيزيائية والتى أطلق عليها النقطة «الانفرادية» (Singularity Point) وفى عام ١٩٧٨ استطاع العالم الإنجليزى «استيفان هوكنج» من وضع نموذج رياضى يحدد وجود هذه النقطة الانفرادية التي لابد قد بدأ عندها هذا الانفجار أى بداية تكوين الكون. ولكن فروض النظرية النسبية بمفردها لا تستطيع أن تتعامل مع اللحظة التى كان الكون فيها متناهى الصغر والذى لابد وأن يكون لنظرية ميكانيكا الكم دور ما فى توضيحها وهذا يعضد بضرورة البحث عن فروض النظرية الفيزيائية الموحدة التى سبق ذكرها.

واستكمالاً لمفهوم مكونات المادة الكونية دعنا نستعرض التطور السريع للجسيمات الأولية، فحتى وقت قريب كان الاعتقاد السائد بين العلماء هو أن البروتونات والنيوترونات والإلكترونات هى أصغر الأجسام فى المادة والتى تتكون منها الذرة، بمعنى أن هذه الأجسام لا يمكن أن تنقسم إلى وحدات أخرى أصغر منها. وقد تم مؤخراً إجراء تجارب خاصة بدراسة مكونات البروتونات عن طريق التصادم فيما بينها بطاقة عالية. وكان من نتائج هذه الدراسة اكتشاف مكونات هذه الجسيمات والتى صنعت منها وأطلق عليها اسم «الكوارك». وقد أطلق العلماء الأسماء المختلفة للتمييز بين الكوارك وآخر وسميت بالكوارك الأعلى - الأسفل - القريب - المظلم القاع - والقمة. وأن كلا منها يأتى بالألوان الآتية:

الأحمر والأخضر والأزرق. بالطبع هذه الألوان غير حقيقية ولكنها من الخيال العلمى فقط للتمييز بين الكوارك وأخر، حيث أن الألوان من خصائص موجات الضوء المرئى فقط. وحديثًا اكتشف العلماء أن البروتون والنيوترون يتكون كل منهما من عدد ثلاث كواركات. فالبروتون يتكون من كواركين أعلى وكوارك أسفل، أما النيوترون فيتكون من كواركين أسفل وكوارك أعلى. وقد لجأ العلماء إلى استخدام العلاقة الإزدواجية لخصائص الأجسام الموجية التى تشرحها نظرية ميكانيكا الكم بدقة عالية لمحاولة الإجابة عن حقيقة الأجسام الأولية التى يتكون منها الكون، وقد تم تعريف جسيمات أولية جديدة تحمل خصائص القوة (Force Carrying Particles). وانقسمت هذه الجسيمات إلى أربعة أنواع هى:

١ – الجرافيتون (Graviton): وهو جسيم مسئول عن خصائص قوة الجذب بين الأجسام.

٢ – الفوتون (Photon): وهو جسيم مسئول عن خصائص القوة الكهرومغناطيسية.

٣ – البوزون (Boson): وهو جسيم مسئول عن قوة الإشعاع النووى.

٤ – الجلون (Gluon): وهو جسيم مسئول عن خصائص قوة إندماج الكوارك فى البروتونات والنيوترونات داخل الذرة.

وهذه الجسيمات تكون كتلتها صفراً. ومن خصائص الكوارك أنه لا يمكن أن يتواجد منفرداً، ولابد وأن يرتبط مع اثنين آخرين من

الكواركات، بحيث يكون مجموع ألوانهم الأحمر والأخضر والأزرق هو اللون الأبيض. ويتم ذلك عن طريق حبل من الجلونات ويتكون بذلك البروتون أو النيوترون.

وقد اكتشف أن الكوارك ضديد مساو له فى الخصائص ولكنه مضاد له فى الحركة (Antiquark). ويمكن أن يتحد الكوارك وضديده ويتكون جسيم جديد أطلق عليه «الميزون» (Meson) وهو جسيم غير مستقر فى الطبيعة.

وفى الغالب يتفاعل الكوارك وضديده ويتلاشيا معاً وينتج بدلاً عنهما الإلكترون وجسيمات أخرى. وبنفس الطريقة تتجمع الجلونات وتكون جسيما اسمه «جلوبول» (Gluehall) الغير مستقر.

وقد كللت مؤخراً جهود العلماء بالنجاح فى تفسير بعض من هذه الظواهر عن طريق وضع ما يسمى بالنظرية الموحدة الكبرى (The grand unified Theory) التى أمكن بواسطتها من اندماج القوى الكهرومغناطيسية والقوتين النوويتين الضعيفة والقوية لتحديد قوة واحدة. وسرعان ما اكتشفوا أن هذه النظرية ليست بالكبرى ولا بالموحدة لإهمال تأثير الجاذبية. ولكن الشىء المثير فى هذه الدراسات هو كيفية تحليل البروتون وتفاعله لتكوين جسيم ضديد للإلكترون (Antielectron) يسمى البوزيترون يكون مماثلا للإلكترون ولكنه يحمل شحنة موجبة.

ويتفاعل الإلكترون مع ضديده ليتلاشيا معاً وينتج بدلا عنهما الفوتون. ووجهة النظر فى إمكانية وجود الجسيم وضديده كانت

منطقية فى تفسير نشأة الكون.. ويكون ذلك على النحو التالى: لو فرض العملية العكسية لإنتاج البروتونات وهى مكونات المادة أو بالاصح الكوارك، فلابد أن يكون عدد الكوارك مساويًا لعدد ضديد الكوارك، وهذا هو الشيء الطبيعى الذى يمكن أن نتخيل به بداية الكون.

فالمادة على الأرض تتكون من نيوترونات وبروتونات فقط أى من الكوارك ولا يوجد ضديد للبروتون (Antiproton) أو ضديد للنيوترون (Antineutron). هذه الحقيقة موجودة أيضا فى مجرتنا الكونية التى تتكون من البروتونات والنيوترونات لأنه إذا فرض أن هناك مناطق فى حجرتنا تحتوى على ضديد المادة فإن المادة تتفاعل معها وتتلاشى المجرة وتتكون طاقة إشعاعية كبيرة بدلاً عنها ولا تكون لنا أى حياة.

والتفسير الذى أعطته النظرية الموحدة الكبرى لوجود عدد من الكوارك أكبر من عدد ضديد الكوارك هى أنها تتحول إلى إلكترونات. وقد ظهر أن قوة الجاذبية لها دور فى تحديد تطور الكون، حيث تتغلب فى أحد المراحل الكونية على سائر القوى الكونية الأخرى وتسبب انهيار النجوم. هذه الظاهرة وفكرة تكوين الثقوب السوداء توضح حتمية وجود النظرية الفيزيائية الموحدة أو النظرية الكمية للجاذبية.

لفهم كيف تتكون الثقوب السوداء فى الكون (Black Holes) لابد من استعراض دورة حياة النجم. فيقال إن النجم يولد، عندما تبدأ

كتلة كبيرة من الغــاز (عــادة غــاز الهيدروجــين) فــى الانــهيار علــى نفسها. ويعزو ذلك لشدة قــوة الجــذب فيمــا بينــها. وعنــد انجــذاب ذرات الغاز يحدث تصادم بعضها لبعض بسرعة فائقة وترتفع بذلــك درجة الحرارة التى تجعــل ذرات الهيدروجــين تندمــج مــع بعضــها وتتكون ذرات غاز الهيليوم، وينتج عن هــذا التفــاعل النــووى كميــة كبيرة من الحرارة تجعــل النجــم ســاطعاً، ويــزداد بــها ضغــط الغــاز ويتمدد النجم، حتى يــتزن تمــدد الغــاز مــع قــوة الجــذب للداخــل. ويستقر فى هذا الوضع أطــول فــترة ممكنــة. ولكــن ســرعان مــا ينفــذ بــالنجم غــاز الهيدروجــين أو أى وقــود نــووى آخــر وتبــدأ مرحلــة التبريد، فتتغلب قوة الجذب للداخل وينكمــش النجــم علــى نفســه، وبذلــك تقــترب المــادة مــن بعضــها وتــزداد ســرعتها نتيجــة لذلــك، فتتحرك متباعدة عن بعضها بقوة التنافر بينــها. ويتمــدد النجــم مــرة أخرى حتى تتزن قوة التنافر بــين مادتــة إلى الخــارج وقــوة الجــذب للداخل. وقد تحدد إن النجم البارد الذى كتلته تعادل مــرة ونصــف ضعف كتلة الشمس لا يستطيع أن يحتفظ بتوازنه وسرعان ما تتغلب قوة جاذبيته على نفسه مرة أخرى وينكمش النجم إلى أن يصبح قزماً أبيض (White dwarf) ويــتزن النجــم القــزم بتأثــير قــوة التنــافر بــين الإلكترونات بــه. وقــد أطلــق علــى هــذه الكتلــة «الكتلــة الحرجــة» والنجوم التى تــزداد كتلتــها عــن هــذه القيمــة، تتعــرض للمشــاكل، خاصة عندما ينتهى وقودها النــووى. ففــى حــالات كثــيرة يتخلــص النجم من الكتلة الزائدة عن طريق الطــرد، ويحتفــظ بكتلــة أقــل مــن

القيمة الحرجة، ويتجنب بذلك الانهيار تحت تأثير الجاذبية، لكن هذا الاعتقاد ليس بالضرورة صحيحاً في جميع الأحوال. ومازال السؤال هو كيف يتحاشى النجم الانهيار؟ وإذا حدث هذا الانهيار فهل تصبح كثافة النجم لا نهائية؟

نجد أن مسار الأشعة الضوئية يتغير نتيجة لمجال الجاذبية للنجم ويتجه إلى الداخل فى أحداثيات الفراغ الزمكانى (المكانى والزمنى) وفى نهاية الأمر، تظهر الأشعة الضوئية على هيئة مخروط ضوئى قاعدته فى اتجاه الداخل وكلما تقلص النجم ازدادت بالتالى قوة الجاذبية. وظهر المخروط الضوئى منحنيًا أكثر، بحيث يصبح من الصعب أن تهرب الأشعة الضوئية إلى الخارج. ولذا تظهر الرؤية معتمة وباهتة. ويستمر هذا الحال، حتى تصبح قوة جذب النجم لا نهائية، بحيث لا يستطيع الضوء الهروب نهائياً. وطبقاً للنظرية النسبية، أنه لا يوجد أى شىء ينتقل بسرعة أكبر من سرعة الضوء. فإذا كان الضوء لا يستطيع الهروب، فلا يستطيع أى شىء آخر أن يهرب. فكل شىء يعود للخلف بواسطة مجال الجاذبية. وتتكون حول النجم بالتالى مناطق فى إحداث الفراغ الزمنى لا يهرب منها أى شىء حتى تصل إلى المشاهد. هذه المناطق تسمى بالثقوب السوداء (Black Holes).

ومما سبق يمكن الربط بين النقطة الانفرادية التى قد يكون قد بدأ عندها الكون ولحظة انهيار النجم (أو لحظة نهاية الزمن) فطبقاً

لنموذج الانفجار الأعظم الذى كان سائداً بين العلماء حتى منتصف هذا القرن، كان الرأى بأن الكون كان حجمه صفرًا وأن سخونته لا نهائية. فبعد ثانية واحدة من هذا الانفجار وتمدد الكون، أصبحت درجة الحرارة عشر آلاف مليون درجة. أى ألف مرة ضعف درجة الحرارة في مركز الشمس. عند هذه اللحظة كان الكون يحتوى على فوتونات وإلكترونات ونيوترينوات (النيوتزينو جسيم خفيف يتأثر بالقوة النووية والجاذبية) وأيضا ضديدات هذه الأجسام مع البروتونات والنيوترينوات، وكلما استمر الكون في التمدد، انخفضت درجة الحرارة ويتم بالتالى إنتاج الإلكترونات والبوزيترونات التى تتفاعل مع بعضها وتتلاشى لينتج بدلاً عنهما مزيد من الفوتونات. وبعد حوالى مائة ثانية من لحظة الإنفجار الأعظم تصبح درجة الحرارة ألف مليون درجة فقط، حيث لايجد البروتونات والنيوترونات الطاقة الكافية للهروب من قوة التفاعل النووى ويبدأ فى الاندماج معاً لإنتاج نوى الديوتريم (الهيدروجين الثقيل) الذى يتكون من بروتون واحد ونيوترون واحد. ثم تندمج نواة الديوتريم مع بروتونات أخرى ونيوترونات أخرى لتكوين نواة ذرة الهيليوم ومواد أخرى مثل الليثيوم والبربليوم، ثم بعد مليون عام من لحظة الانفجار الأعظم يكون الكون مازال يتمدد دون أى أحداث تذكر. وعندما تنخفض درجة الحرارة إلى ألف درجة تبدأ الإلكترونات تتحد مع النوى المختلفة لتكوين الذرات. ومع استمرار تمدد الكون سرعان ما تتكون مناطق بها كثافة كبيرة وتزداد قوة الجاذبية التى تبطئ من

تمدد الكون وقد تسبب بعض الانهيارات فى مناطق أخرى والتى قد تنجذب بعضها لبعض وتبدأ فى الدوران حول نفسها، ولذلك ولدت المجرات الكونية، التى أصبحت المناطق الكتلية بها تدور حول بعضها البعض بفعل قوة الجاذبية والقوى المضادة، كما هو حادث اليوم، وطبقاً لهذا النموذج، استغرقت الأرض مئات الملايين من السنين للتخلص من الغازات الساخنة مثل كبريتات الهيدروجين وتكوين جزئيات بخار الماء وغاز الأوكسجين وبعض التحولات الكيميائية التى سمحت بتشكيل الحياة، والكائنات الحية مثل السمك والزواحف والثدييات حتى بدأ عصر الإنسان، وبالرغم أن نموذج «الانفجار الأعظم الملتهب» هو أوضح النماذج التى شرحت كيفية تكوين الكون طبقاً للشواهد الحقيقية لما يدور حولنا الآن، إلا أن هناك تساؤلات هامة وضعها العلماء وهى:

١ – لماذا كان الكون فى البداية ساخناً لدرجة حدوث الانفجار الأعظم؟

٢ – لماذا ينتظم شكل الكون الآن بالمقاييس الكبيرة؟ بمعنى لماذا ترى الكون متماثلا عند جميع النقاط الفراغية وفى كل الاتجاهات؟

٣ – لماذا تمدد الكون منذ البداية بمعدلات خاصة، تجعله يتمدد حتى الآن بنفس المعدلات.

٤ – بالرغم من حقيقة أن الكون منتظم ومتجانس بالمقاييس الكبيرة، إلا أنه يحتوى على مناطق غير منتظمة مثل النجوم

والمجرات التى ظن أنها تكونت نتيجة لاختلافات فى الكثافة الكونية من منطقة لأخرى. ماذا عن أصل تلك الاختلافات.

ومن أجل التنبؤ عن نشأة الكون، يحتاج المرء إلى مجموعة جديدة من القوانين الفيزيائية والرياضية يمكن تطبيقها عند بداية الزمن ويمكن تحقيقها عند النقطة الانفرادية التى تكون عندها الكثافة الكونية لا نهائية، ويكون أيضا لإحداثى الفراغ - الزمنى انحنائيات لا نهائية. وتشكل تلك القوانين بالمعادلات الرياضية صعب للغاية، حيث إننا لا نعرف بالضبط السلوكيات الفيزيائية لهذه النقط الانفرادية وبالرغم أننا ليس لدينا الآن نظرية متكاملة لدمج نظرية ميكانيكا الكم وقوانين النسبية العامة معاً إلا أنه يمكن تحديد بعض الملامح الوصفية لهذه النظرية الموحدة فى أصل ومصير الكون من خلال دقة نظريات ميكانيكا الكم فى وصف الحركة الموجية للأجسام.

وعودة إلى بداية الحديث دعنا نتساءل هل حقيقة هناك نظرية فيزيائية موحدة؟ أم أننا نعيش فى السراب؟ للإجابة على هذا السؤال هناك ثلاث احتمالات هى:

أولاً: قد توجد هناك حقيقة نظرية موحدة كاملة يمكننا اكتشافها يوماً ما، إذا كنا أذكياء بدرجة كافية.

ثانياً: قد توجد سلسلة لا نهائية من النظريات المتعاقبة تصف الكون بدقة ودقة أكثر.. وهكذا.

ثالثاً: لا توجد أى نظرية للكون.

وقد تشهد السنوات القادمة طفرة كبيرة لتحدى الإنسان واكتشافه لوسائل جديدة تكون النظرية الموحدة هى الخطوة الأولى لتحديد أهدافه فى محاولة استكمال فهم الأحداث من حولنا وفى تواجد حياتنا.

– ٢ –

المجلس العربى للمستقبل والتحدى الحضارى!

عادة حين يستخدم مفهوم الأمن القومى يطوف فى الأذهان الأبعاد الإستراتيجية والعسكرية التى تتعلق بمواجهة التهديد الخارجى والطرق الفعالة لمواجهته، غير أن هذا المفهوم الضيق للأمن القومى قد اتسع فى العقود الأخيرة لكى يشمل الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. من هنا أصبح مفهوم الأمن القومى هو التنمية. والتنمية فى أى مجتمع تتطلب بالضرورة وضع سياسات خدمية وإنتاجية واقعية بغرض اللحاق بالحضارة المعاصرة.

وفى هذا المجال ينبغى أن نشير إلى اهتمام القيادات السياسية فى العالم العربى بضرورة استمرار التعاون الاقتصادى العربى وتحديد الاختيار المستقبلى نحو تحقيق الحلم العربى وتأسيس السوق العربية المشتركة، التى بدأت ملامح تكوينه تظهر من خلال توظيف الإمكانيات العربية المتاحة فى الوقت الحاضر. ولعل تطبيق اتفاقية تيسير التبادل التجارى فى عام ١٩٩٨ م بين البلاد العربية يكون خطوة ناجحة فى هذا الاتجاه، والذى بموجبه يتم إنشاء منطقة التجارة الحرة بين ثمانى عشرة دولة عربية ونأمل أن تمتد الاتفاقية فى المستقبل لتشمل جميع الدول العربية خاصة فيما ينتظر من تحقيقه فى المستقبل بشأن الاتحاد الجمركى العربى.

من هنا برزت أسئلة عديدة متعلقة بذات الموضوع وهى: لماذا مجلس عربى للمستقبل؟ وما هو التحدى الحضارى الذى تواجهه

الأمة العربية؟ هل هو تحديها لأعدائها؟ أم تحدى أعدائها لها؟ هل هو التحدى الحضارى بين العرب وإسرائيل؟ بالطبع هذه الأبعاد واردة مجتمعة ومنفردة. فالتحدى الحضارى ظاهرة العصر الآن. وباختصار هو التحدى الحضارى للإنسان المعاصر أينما كان.

فخلال القرن العشرين، شهد العالم الثورة العلمية والتكنولوجية الكبرى التى غيرت من نمط الحياة العصرية للإنسان.. ومن أهم معالم هذه الثورة استخدام الطاقة النووية (الذرية) فى الأغراض السلمية والعسكرية وظهور الهيمنة من الدول الغربية التى تمتلك هذه التكنولوجيا وتحكمها فى الوسائل الخاصة بنقل التكنولوجيا إلى الدول النامية بغرض إحداث التوازن بين الإنتاج والاستهلاك لصالح هذه الدول المتقدمة.

والدراسات تقول إن عالم الشمال المتقدم قد استهلك من الطاقة فى القرن العشرين ما يعادل نصف الطاقة التى أستهلكها الإنسان فى تاريخه الطويل. ولذلك نرى أن هذه الدول تسيطر الآن على منابع النفط العربية بغرض ضمان استمرارية التدفق البترولى عليها خلال الطفرة التكنولوجية الكبرى المرتقبة فى القرن الحادى والعشرين. فنرى أن الاستعمار الحديث عمد إلى إعطاء استقلال سياسى مفرغ من المضمون الحقيقى لدول الجنوب النامى الغنى بثرواته الطبيعية. فلم يعد الاستعمار، ثكنات عسكرية تستفز الموتى فى القبور وتستخرج من الأحياء أحسن ما فيهم من صفات المقاومة والإصرار والتحدى والالتقاء على هدف قومى كبير وهو «التحرير من الاستعمار».

فالاستعمار فى العصر الحديث يتواصل بمخططات أخرى بعيدة المدى من أهمها المعونات التى تلغى الإرادة وتشل القرار والأبحاث العلمية المشتركة وهى أدهى ألوان التجسس على طموح الشعوب وكذلك نشر أجهزة التجسس العلمية وانتشار المخدرات بين الشباب وامتصاص العقول النابغة إما باستيعابها أو اقتلاعها باعتبارها من عوامل إيقاظ المجتمع. وبعد انتشار وسائل الإعلام الحديثة وظهور عصر الاتصالات عبر الأقمار الصناعية والأنترنت، تبث هذه الدول المعلومات المسمومة بيننا وتردد المقولات الخبيثة مؤداها أن التفوق العلمى بين دول الشمال المتقدم بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية ودول الجنوب النامى بصفة عامة والبلاد العربية بصفة خاصة قد تعدى خمسة آلاف عاماً. ويتم ذلك فى عملية تيئيس وتقزيم وإحباط.

إن التقدم الحضارى يقاس بما يملكه المجتمع من أفراد. فكل إنسان فى هذا المجتمع له شخصية متميزة ، له قيمة. إنسان عنده الرغبة أن يحقق أمل الحياة فيه، وبالطبع يعتمد ذلك على المقياس المادى مثل متوسط عمر الفرد ونسبة المتعلمين ومعدل الوفيات والتى تؤثر بلاشك فى اختيارات المستقبل للمجتمع. فالتخلف أن يقدم الإنسان مسئوليته ويسلم نفسه لإنسان آخر نظام أو دولة أخرى تطعمه وتسقيه ثم تنهى حياته بدفنه فى النهاية. فالتبعية الفكرية والصناعية والحضارية نوع من الأسر أشد ضرراً وضراوة من التبعية السياسية أو العسكرية. ونحن نرى اليوم، أن مخططات الاستعمار الحديث نحو الوطن العربى تهدف إلى ما يلى:

١ – تعميق التبعية التكنولوجية للدول المصنعة لها.

٢ – تعميق التبعية الثقافية وفقد الهوية القومية.

٣ – الإبقاء على الأمية الثقافية والعلمية على الساحة الكبيرة مما ينعكس على معدلات الإنتاج ومشاركة الفرد الفعلية.

٤ – الحصار الاقتصادى للوطن العربى.

٥ – تعميق الهوة الحضارية وهز الثقة بالنفس، مما يؤدى إلى تمزق الإنسان العربى بين حضارته وحضارة الآخرين.

٦ – الامتداد المسلح وتهديد الأمن العربى من خلال إسرائيل.

٧ – تعميق مشكلة الاختيار المستقبلى وتحديد الأولويات.

٨ – اعتماد سياسة تدعو لتحديد النسل وحصر الطاقات البشرية العربية، خاصة بعد استيعاب تجربة اليابان التى اعتمدت فى نهضتها على السكان مدركة أن أكبر ثروات الشعوب هى البشر.

ونلاحظ الآن وبعد حصول العديد من دول الجنوب النامى على استقلالها السياسى والعسكرى، وبعد «تفكيك» دول الاتحاد السوفيتى الذى هو فى حد ذاته كان من الاختيارات المستقبلية للولايات المتحدة الأمريكية فى ذلك الوقت، ظهور التكتلات الاقتصادية بين الدول بغرض التوسع فى المجالات الاقتصادية والتكنولوجية، ومن ثم ظهرت على سبيل المثال السوق الأوروبية المشتركة فى مواجهة الهيمنة الأمريكية على الأسواق العالمية،

كما برزت بعض الدول الآسيوية التى تسمى «النمور الآسيوية» فى مضمار الصراع الدولى من أجل اللحاق بالثورة العلمية والتكنولوجية العالمية وتحسين معدلات التنمية بها، بصرف النظر عما حاق بها فى الفترة الأخيرة من مشكلات الغرض منها وقف زحفها نحو المستقبل خاصة بعد أن توقع الخبراء أن يكون القرن الحادى والعشرون هو قرن آسيا.

ولعل من المفيد لنا أن ندرس هذه التجربة لمعرفة أخطائها قبل مميزاتها خاصة بالنسبة للاعتماد على الاستثمارات الخارجية من خلال القروض قصيرة الأجل وبذخ الإنفاق الاستهلاكى وانفتاح العمل فى بورصات الأوراق المالية بلا ضوابط كافية.

وفى ظل هذا الصراع المحتدم، تحاول العديد من الدول العربية «منفردة» بذل الجهود المضنية خلال العقود الماضية للتغلب على مشاكل نقل التكنولوجيا المتقدمة من أجل زيادة الإنتاج وتنمية المجتمع بها. إلا أنه فى ظل غياب سياسة عربية للمستقبل تتبنى سياسة الإختيار وليس الانبهار، تستطيع أن تخدم أهداف الأمن القومى العربى يصبح من الصعب بل من المستحيل على أى دولة عربية اللحاق ببرامج التنمية العلمية والتكنولوجية المعاصرة والمستقبلية.

ونحن نرى الآن، توفر العلماء والباحثين العاملين فى كافة فروع العلم والمعرفة فى العالم العربى وبأعداد كبيرة. ولا غرابة أن نرى بين أيدينا الآن مئات البحوث العلمية فى موضوعات مختلفة تغطى كافة

شئون حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والتكنولوجية ولكنها لا توظف الاستخدام الأمثل لخدمة الأهداف المستقبلية، وعادة نترك الأمور الفعلية لتيسير حياتنا المستقبلية والانتظار طبقاً لتنبؤات غير واقعية. هؤلاء العلماء ينتظر منهم العمل الكثير لخدمة الأبعاد المستقبلية للعبور بالبلاد إلى آفاق العلم والتكنولوجيا الحديثة وفى جميع المجالات، إذا ما أحسن التنسيق بين جهودهم فى إطار سياسة عربية للمستقبل لتحديد واختيار الأهداف الأمنية القومية بدقة من أجل اللحاق بعجلة التطور العلمى والتكنولوجى العالمى المتسارع.

ففى الشئون الإنسانية، من المنطقى بالنسبة للمستقبل أن تقرره ظروف الماضى والحاضر، ويكون فى هذه الحالة أقل درجة من المستقبل المسير بالإرادة والذى إلى حد كبير يحدث بواسطة الخيارات المقصودة والمتعمدة والمصنوعة من إرادة المجتمعات الحرة. والتساؤلات التى تطرح نفسها بإلحاح إلى أين يقودنا التطور من حولنا إذا ما سمحنا بأية درجة من التخلف المادى خاصة فى المجال العلمى والتكنولوجى؟ ماذا يمكن للمرء منا أن يقول حول المستقبل؟ على الأغلب أن أكثر الأشياء حكمة يمكن أن يقولها الفرد الآن هو أن المستقبل بشكل أساسى لا يمكن معرفته ولا يمكن اختياره (دون الارتكان إلى انتظاره أو التنبؤ به). فما هو البديل الأفضل؟

البديل هو أن نفكر بالمستقبل بشكل عقلانى ومنطقى ينطلق من الاقتناع بأن الأفعال الإنسانية يمكن أن تصنع مستقبلاً أفضل من

الآخر، إنها تلك القدرة على الفعل وصولاً إلى المستقبل الذى نبتغيه فى ضوء صورة المستقبل الذى نرشحه أن يقوم برسمها المجلس العربى للمستقبل المقترح. فإذا استطعنا أن ندرك بشكل دقيق بعض التوجهات الرئيسية والتيارات فى الماضى والحاضر، نستطيع أن نختار الاتجاه الذى نسير إليه. وفى ضوء استيعاب البشر للاتجاه الذى يتجه إليه العالم فيمكنهم أن يفحصوا تصرفاتهم الفردية والسياسات الحكومية، لكى يقرروا إذا كان عليهم أن يتغيروا، كى يساهموا فى بناء مستقبل مرغوب فيه. وأحد أهم الأفكار الرئيسية المركزية فى هذا الشأن هو أن السياسة هى الطريقة والأسلوب الذى يتخذه المجتمع ليحقق أهدافاً مرغوباً فيها بشكل جماعى وأنه يلعب دوراً مركزياً فى تقرير الشكل الذى يكون عليه المستقبل. على سبيل المثال لدينا نموذج ناجح للاختيارات المستقبلية وهو تفعيل آليات السوق العربية المشتركة وتكوين الاتحاد الجمركى العربى الذى تتبناه القيادات العربية السياسية فى الوقت الحالى. فى هذا النموذج نرى دقة الاختيار المستقبلى وأسلوبه وكيفية تنفيذه وتحديد الإمكانيات العربية المتاحة وتطويرها وحشد الجهود لبلوغ الهدف المنشود وهو توفير الحماية العربية للمنتجات والسلع التجارية المتبادلة فيما بينها.

إن من بين المستقبلات العديدة التى نواجهها ثلاثة أشياء تبدو الأكثر احتمالاً فى الوقت الحاضر وهى:

١ – الانتظار وقبول الأمر الواقع – مما يزيد التخلف والتبعية.

٢ – القيام بتحقيق التوازن فى معدل النمو السكانى واستعمال المصادر الطبيعية وإنتاج الغذاء، مما يجعل الأمل فى الوصول إلى حالة الثبات، فى زمن يعيد فيه الثبات تخلفاً .

٣ – النمو الاقتصادى المستمر نحو المستقبل.

ومن أهم الدروس المستفادة من تقدم الشعوب والأمم خاصة فى دول الشمال المتقدمة هو تشكيل مجالس علمية لدراسة المستقبل تحدد على ضوئه اختيارات الحاضر. على سبيل المثال اتجهت الدول الأوروبية إلى تأسيس المجمع الذرى الأوروبى (EURO-ATOM) يكون من أهم أهدافه الدفع بأساليب جديدة للتطور العلمى والتكنولوجى نحو المستقبل وفى شتى المجالات. وتتواجد هذه المراكز فى جميع الدول الأوروبية بتمويل مشترك ويعمل بها نخبة مميزة من العلماء والخبراء من الجنسيات الأوروبية المختلفة لتبادل الخبرات. وتهتم هذه المراكز فى الوقت الحالى بتطوير التكنولوجيا فائقة الدقة التى أطلق عليها اسم النانوتكنولوجيا (Nanotechnology) التى تعتمد أساسا على دقة المنتج وتقليل الحجم وتوفير الطاقة المستهلكة. ولعلنا نشاهد اليوم التطور المتسارع فى مجال تصنيع تكنولوجيا الفضاء ومعدات الليزر العملاقة والحاسبات الإلكترونية وأجهزة التشخيص الطبى ومعدات الميكنة الزراعية والمواد الرخوة والتكنولوجيا الحيوية والهندسة الوراثية إلى آخره.

وهذا يجعلنا نفكر فى إمكانية إنشاء مجمع عربى مماثل يستحق معالجة مستقلة.

من أجل ذلك كله نناشد المسئولين وصناع القرار بضرورة تأسيس المجلس العربى للمستقبل تحت رعاية القيادة السياسية الواعية، يكون من أهم أهدافه وضع خطة عربية شاملة لتوظيف إمكانياتنا الحاضرة وإجراء مسح شامل لمشاكلنا العلمية والتكنولوجية على المستوى العربى للتنسيق بينها والتشخيص والعلاج وعمل حساب كافة التوقعات والبدائل ومدى الالتزام وتحديد المسئوليات وعمل نظام دائم للإشراف والمتابعة والتقييم والتقويم لخدمة وحماية اختياراتنا المستقبلية.

وأننا على يقين أن لدينا الجانب المشرق للمستقبل بتوافر الإمكانيات العربية من خبراء وأخصائيين يمكنهم أن يقيموا تنمية اقتصادية وعلمية وتكنولوجية لا تقل أهمية عن أى تنمية فى الصين أو الهند إذا ما أحسن توجيهها بل وتوجد فى البلاد العربية إمكانيات وثروات وخامات لإقامة صرح صناعى، وأراضى خصبة صالحة للزراعة يستطيع بها الإنسان العربى - إذا امتلك الإرادة أن يخلق المستقبل المضيء لهذا الوطن العربى الكبير.

كتب للمؤلف

١ - تطبيقات تكنولوجيا الليزر في مصر: المجلس الأعلى للجامعات ١٩٨٩.

٢ - الليزر والحياة المعاصرة: سلسلة العلم والحياة ١٩٩٠ - الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٣ - الليزر الأشعة الساحرة: سلسلة اقرأ - دار المعارف ١٩٩٦.

٤ - أسلحة الدمار الشامل: سلسلة اقرأ دار المعارف ١٩٩٦.

٥ - فيزياء وتطبيقات البلورات السائلة - المكتبة الأكاديمية ١٩٩٨

الفهرس

صفحة

صفحة

العدد
القادم

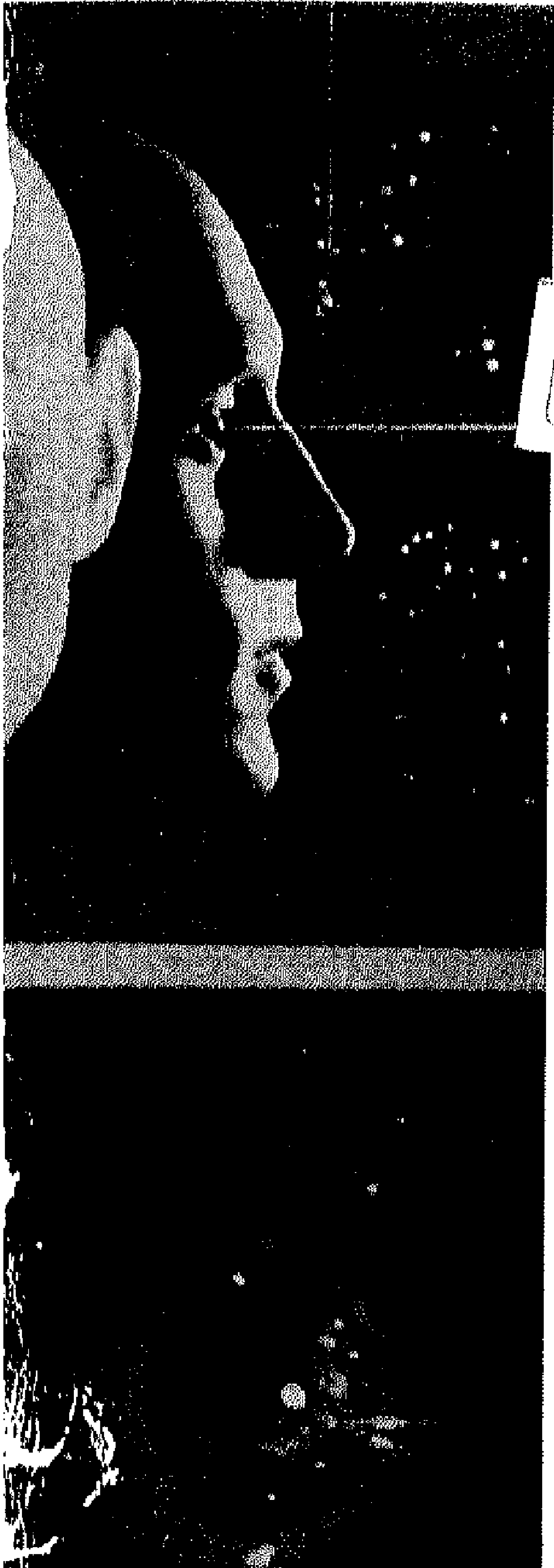
العولمـــــة

د . جلال أمين

رقم الإيداع	١٩٩٨/١١٩٧٩
الترقيم الدولى 977-02-5625-0	ISBN

١/٩٨/٢٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)



ماذا أعددنا لمواجهة مستقبل ليس فيه مكان إلا لمن يملك زمام الثروة العلمية ليوجهها حيث يريد؟ هل نحن نتجه لمزيد من تبعية الجنوب النامي لدول الشمال المتقدم؟

لقد أصبحت كل محاولات التقـ... لرأب الصدع التكنولوجي مجرد وعود بلغت مجرد المعونة من مخلفات التكنولوجيا التي عفا عليها الزمن لنبقى كتوابع لخدمة أغراض السوق العالمية.

في فصول هذا الكتاب نستعرض بعضًا من أسرار الحرب الخفية العلمية والتكنولوجية التي تتعرض لها أمتنا العربية، وهي بالطبع تمس قضايا الأمن العلمي العربي.. ومستقبل الوطن العربي بأكمله.

٤٠٦٩١٦/٠١

